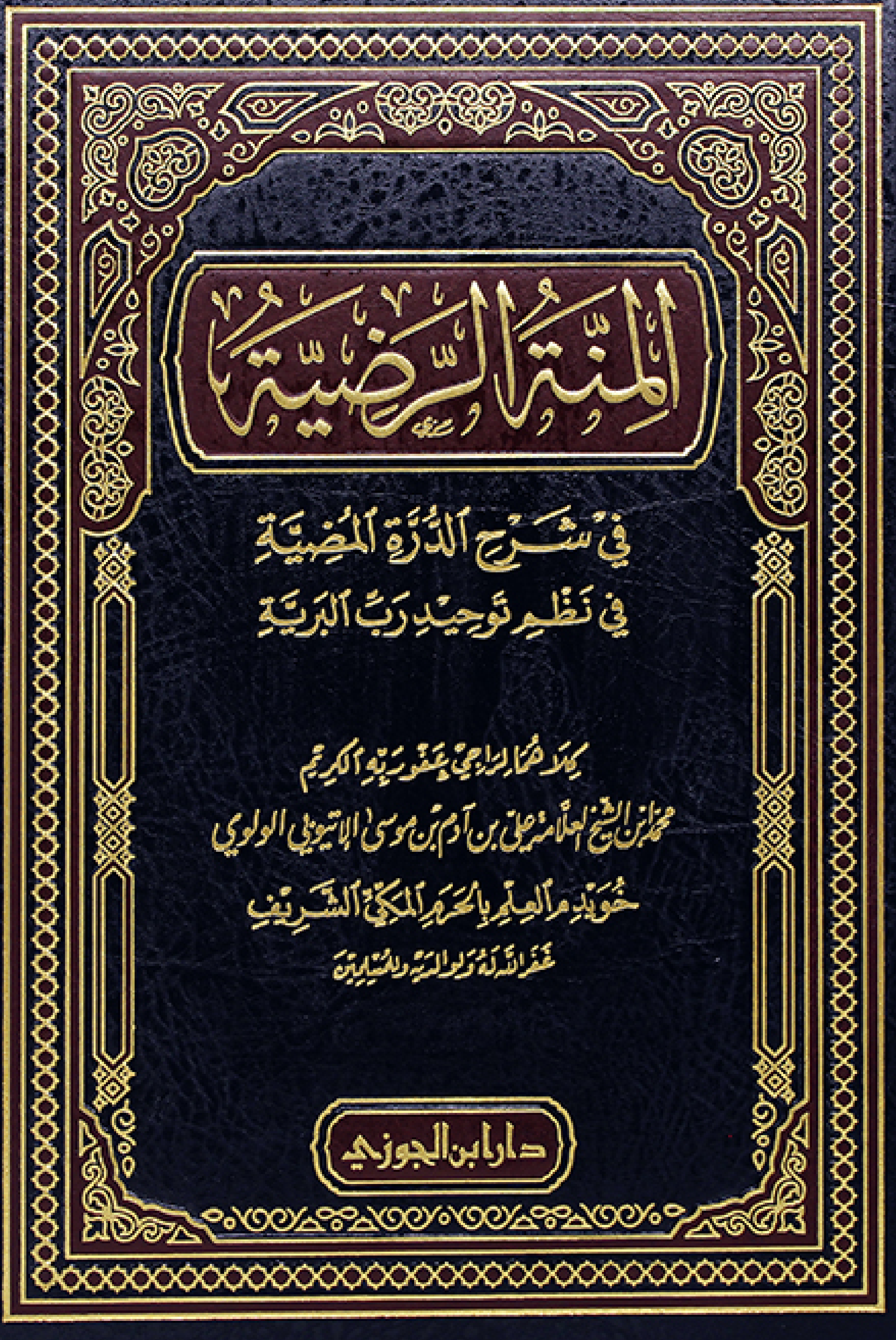


المنة الرضية
في شرح الدرة المضية
في نظم توحيد رب البرية
كتبها راجي عفو ربه الكريم
محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي
خويدم العلم بالحرم المكي الشريف
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
دار ابن الجوزي



كلاهما لراجي عفو ربه الكريم

محمد ابن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي

خُوَيْدِمِ ٱلعِلْمِ بِالحَرَمِ المَكِّيِّ ٱلشَّرِيفِ

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار ابن الجوزي

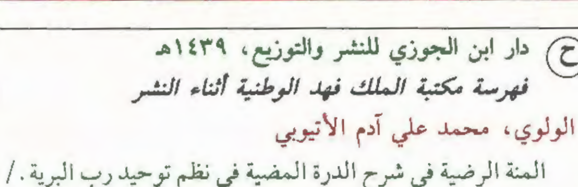
دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net



ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الولوي، محمد علي آدم الأتيوبي
المنة الرضية في شرح الدرة المضية في نظم توحيد رب البرية./
محمد علي آدم الأتيوبي الولوي - ط١..- الدمام، ١٤٣٩هـ
٥١١ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٩ - ٥٣ - ٨٢٢٢ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣٩/١٦٣٨

الطبعة الثانية
لدار ابن الجوزي
١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038222539


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

أما بعد: فهذا شرح مفيد ـ إن شاء الله تعالى ـ وضعته على «ألفيّة التوحيد»، يحلّ مبانيها، ويشرح معانيها، وسمّيته: «المنّة الرّضيّة في شرح الدرّة المضيّة في نظم توحيد ربّ البريّة».

أسأل الله تعالى الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز بجنات النعيم لي ولكلّ من تلقّاه بالقلب السليم، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.



بسم الله الرحمن الرحيم

١ - يَقُولُ رَاجِي رَبِّهِ سُبْحَانَهُ مُحَمَّدٌ مُبْتَغِياً غُفْرَانَهُ
٢ - حَمْداً لِمَنْ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَحَذَّرَ الْوَرَىٰ عَنِ التَّلْحِيدِ
٣ - ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى الَّذِي انجَلَىٰ بِهِ الظَّلَامُ
٤ - وَأَشْرَقَ الْكَوْنُ بِنُورِ بِعْثَتِهْ وَاتَّضَحَ الْحَقُّ لِأَهْلِ مِلَّتِهْ
٥ - مُحَمَّدٍ سَيِّدِ مَن قَدْ وَحَّدَا وَأَرْشَدَ النَّاسَ لِمَنْهَجِ الْهُدَىٰ
٦ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ غَدَا لِنَهْجِهِمْ وَهَدْيِهِمْ قَدِ اقْتَدَىٰ

(**يَقُولُ رَاجِي**) اسم فاعل من رَجَا يَرْجُو، واويّاً، أو من رَجَى يَرْجِي يائيّاً، قال الفيّوميّ: رَجَوْتُهُ أَرْجُوهُ رُجُوّاً على فُعُول: أَمَّلته، أو أردته. قال تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٦٠]؛ أي: لا يريدونه، والاسم: الرَّجَاءُ - بالمدّ -، ورَجَيْتُهُ أَرْجِيهِ، من باب رَمَى لغةٌ، ويُستعمل بمعنى الخوف؛ لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجّاه. انتهى[1].

قلت: والمعنيان يناسبان هنا، فتأمله، والله تعالى أعلم.

و«راجي» مضاف إلى (**رَبِّهِ سُبْحَانَهُ**) من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله.

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٢١.

وَقوله: (مُحَمَّدٌ) بدل من «راجي»، أو عطف بيان له.

وقوله: (مُبْتِغِياً) حال من الفاعل؛ أي: حال كونه طالِباً.

وقوله: (غُفْرَانَهُ) منصوب على المفعوليّة.

وقوله: (حَمْداً) مفعول مطلق لمحذوف؛ أي: أحمده حمداً، والجملة مقول «يقول».

(لِمَنْ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَحَذَّرَ الْوَرَى عَنِ التَّلْحِيدِ)؛ أي: عن الانحراف، والميل عن الحقّ، يقال: لحد؛ أي: مال، والتضعيف للمبالغة، وألحد مثله؛ يعني: أن الله ﷻ حذّر الناس عن الميل عن الحقّ، حيث هدّدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال العلامة السمين الحلبيّ في «تفسيره»: قرأ حمزة هنا، وفي «النحل»، و«حم السجدة»: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، مِنْ لَحَد ثلاثياً، والباقون بضم الياء وكسرِ الحاء، مِنْ أَلْحد. فقيل: هما بمعنى واحد، وهو المَيْل والانحراف، ومنه لَحْد القبر؛ لأنه يُمال، بحفره إلى جانبه، بخلاف الضريح فإنه يُحْفر في وسطه، ومن كلامهم: «ما فعل الواجد؟ قالوا: لَحَدَه اللاحد».

وإلى كونهما بمعنى واحد ذهب ابن السِّكِّيت، وقال: هما العدول عن الحق، وأَلْحد أكثر استعمالاً مِنْ لَحَدَ قال:

لَيْسَ الإِمَامُ بِالشَّحِيحِ الْمُلْحِدِ

وقال غيره: لَحَدَ بمعنى رَكَنَ وانضوى، وألحد: مال

وانحرف، قاله الكسائي. ونُقل عنه أيضاً: أَلْحَدَ: أعرض، ولحد: مال. قالوا: ولهذا وافق حمزة في النحل؛ إذ معناه: يميلون إليه.

وروى أبو عبيدة عن الأصمعي: ألحد: مارى وجادل، ولحد: حاد ومال. ورُجِّحت قراءةُ العامة بالإجماع على قوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال الواحديّ: ولا يكاد يُسْمع من العرب لَاحد.

قلت: فامتناعُهم من مجيء اسم فاعل الثلاثي يدل على قلّته، وقد قَدَّمْتُ من كلامهم: «لحده اللاحِد».

ومعنى الإلحاد فيها: أن اشتقوا منها أسماءً لآلهتهم، فيقولون: اللات من لفظ الله، والعزّى من لفظ العزيز، ومناة مِنْ لفظ المَنَّان، ويجوز أن يُراد: سَمَّوه بما لا يليق بجلاله. انتهى[1].

(ثُمَّ صَلَاةُ اللهِ وَالسَّلَامُ، عَلَى الَّذِي انجلَى)؛ أي: انكشف، وزال **(بِهِ الظَّلَامُ)**؛ أي: ظلام الشرك والضلال. **(وَأَشْرَقَ)**؛ أي: أضاء **(الْكَوْنُ)**؛ أي: العالم كلّه، **(بِنُورِ بِعْثَتِهْ)**؛ أي: رسالته ﷺ. **(وَاتَّضَحَ الْحَقُّ لأَهْلِ مِلَّتِهْ)**؛ أي: لأمته ﷺ. **(مُحَمّدٍ)** بالجرّ بدل من الموصول، أو عطف بيان، ويجوز قَطْعه إلى الرفع والنصب بتقدير، ومثله **قوله: (سَيِّدِ مَن قَدْ وَحَّدَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، **وقوله: (وَأَرْشَدَ النَّاسَ)** عطف على «انجلى»، **(لِلمَنْهَجِ)**؛ أي: إلى طريق **(الْهُدَى)** بضمّ ففتح مقصوراً. **(وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ غَدَا)**؛ أي: صار **(لِنَهْجِهِمْ وَهَدْيِهِمْ قَدِ اقْتَدَى)**؛ أي: اتّبع. والله تعالى أعلم.

---

(١) «الدر المصون في علم الكتاب المكنون» ص٢٠٤٠.

مُقَدَّمَةٌ

قال محمد ـ عفا الله عنه ـ: يجوز فيه الرفع، والنصب، والجرّ.

أما الرفع فعلى تقدير مبتدأ؛ أي: هذه مقدّمة.

وأما النصب فعلى تقدير فعل؛ أي: خذ مقدّمةً.

وأما الجر، وهو شاذّ، فعلى حدّ قول الشاعر [من الطويل]:

إِذَا قِيلَ أَيُّ النّاسِ شَرُّ قَبِيلَةٍ أَشَارَتْ كُلَيْبٍ بِالأَكُفِّ الأَصَابِعُ

أي: إلى كليبٍ، والتقدير هنا: انظر إلى مقدّمةٍ.

٧ ـ وَبَعْدَهُ: فَهَـٰذِهِ أُرْجُوزَةُ لِعِلْمِ تَوْحِيدِ الْإِلَـٰهِ عُرْوَةُ

٨ ـ سَمَّيْتُهَا بِـ«الدُّرَّةِ الْمُضِيَّهْ» حَاوِيَةِ الْعَقَائِدِ السَّنِيَّهْ

٩ ـ طَلَبَهَا مِنِّيَ مَن قَدْ أَحْسَنَا[1] ظَنَّهُ بِي فَلَمْ أُجِبْهُ زَمَنَا

١٠ ـ بَلِ اعْتَذَرْتُ حَيْثُ وَقْتِي لَا يَسَعْ لَـٰكِنْ أَلَحَّ رَاغِباً وَمَا انقَطَعْ

١١ ـ فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ الْإِجَابَةِ رَاجِيَ مَوْلَايَ قَبُولَ رَغْبَتِي

* * *

(وَبَعْدَهُ)؛ أي: بعد ما تقدّم من البسملة، والحمدلة، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، (فَهَـٰذِهِ) إشارة إلى ما سيأتي من الأبيات، (أُرْجُوزَةُ) بضم الهمزة؛ أي: منظومة من بحر الرجز المشهور، وأجزاؤه «مستفعلن» ستّ مرات. قال الفيّوميّ: الرجز ـ بفتحتين ـ: نوع من أوزان الشعر، يقال: رَجَزَ الرجُلُ يرجُزُ، من

---

(١) هو: الأخ الفاضل سالم بن صالح العماري ـ حفظه الله تعالى ـ.

باب قَتَلَ: قال شعر الرجز، وارتجز مثله. انتهى[1].

وقال المجد: الرَّجَز بالتحريك: ضَرْب من الشِّعر، وزنه «مستفعلن» ستّ مرّات، سُمّي به لتقارب أجزائه، وقلّة حروفه، وزعم الخليل أنه ليس بشعر، وإنما هو أنصاف أبيات، وأثلاث. انتهى[2].

وقوله: (لِعِلْمِ تَوْحِيدِ الإِلَـهِ) متعلّق بحال مقدّر من **قوله:** (عُرْوَةُ) بضمّ العين المهملة، وسكون الراء، قال الفيّوميّ: وعُروة الْكُوز: أُذُنه، والجمع عُرًى، مثلُ: مُدْية ومُدًى، وقوله ﷺ: «**ذَلِكَ أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ**» على التشبيه بالعروة التي يُستمسك بها ويُستوثق. انتهى[3].

وهنا شُبّهت الأرجوزة بعروة الكوز؛ لأنه يتوصّل بمعرفتها إلى علم توحيد الله. والله تعالى أعلم.

(سَمَّيْتُهَا)؛ أي: الأرجوزة، (بِالدُّرَّةِ) بضمّ الدال المهملة وتشديد الراء، وأصلها: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة، والجمع: دُرّ ـ بحذف الهاء ـ، ودُرَرٌ، مثلُ: غُرْفة وغُرَف[4].

شُبّهت الأرجوزة بالدّرّة بجامع النفاسة في كلّ.

وقوله: (الْمُضِيَّهْ) بالجرّ صفة لـ«الدرّة»، وأصلها: مضيئة ـ بالهمزة ـ، من الإضاءة، فقُلبت الهمزة ياء، وأدغمت في الياء.

وقوله: (حَاوِيَةِ) منصوب على الحال، ويَحْتَمل أن يكون

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢١٩.

(٢) «القاموس المحيط» ص٩٥٦.

(٣) «المصباح المنير» ٢/ ٤٠٦.

(٤) «المصباح المنير» ١/ ١٩١ ـ ١٩٢.

مجروراً على النعت؛ أي: حال كونها جامعةَ **(الْعَقَائِدِ)** بالفتح: جمع عقيدة، وهي ما يدين الإنسان، والمراد به هنا: ما يُعتقد من دين الإسلام الذي جاء من عند الله ﷿، وبلّغه رسول الله ﷺ أمته.

وقوله: (السَّنِيَّهْ) صفة لـ«العقائد»، وهي فعيلة بمعنى فاعلة، من السناء ـ بالمدّ ـ، وهي: الرفعة، أو من السنى ـ بالقصر ـ، وهو: الضوء.

(طَلَبَهَا)؛ أي: الأرجوزة **(مِنِّيَ)** بفتح الياء، لغة في سكونها. **وقوله: (مَنْ)** فاعل «طلب»، **(قَدْ أَحْسَنَا)** بألف الإطلاق، وهو الأخ الفاضل سالم بن صالح العماري ـ حفظه الله تعالى ـ. **وقوله: (ظَنَّهُ بِي)** مفعول «أحسن»، **(فَلَمْ أُجِبْهُ)** بضم الهمزة، من الإجابة؛ أي: لم أوافقه على ما طلبه.

قال الفيّوميّ: جواب الكتاب معروف، وجواب القول قد يتضمن تقريره، نحو: نعم، إذا كان جواباً لقوله: هل كان كذا؟ ونحوه، وقد يتضمن إبطاله، والجمع أجوبة، وجوابات، ولا يسمى جواباً إلا بعد طلب، وأجابه إجابةً، وأجاب قولَه، واستجاب له: إذا دعاه إلى شيء، فأطاع. انتهى[(١)].

وقوله: (زَمَنَا) ظرف لـ«أُجبه»؛ أي: وقتاً طويلاً، و«الزمن» بفتحتين: مقصور من الزمان، وهو: مدّة قابلة للقسمة، ولهذا يُطلق على الوقت القليل والكثير، وجمع الزمن: أزمان، مثلُ: سبب

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ١١٣.

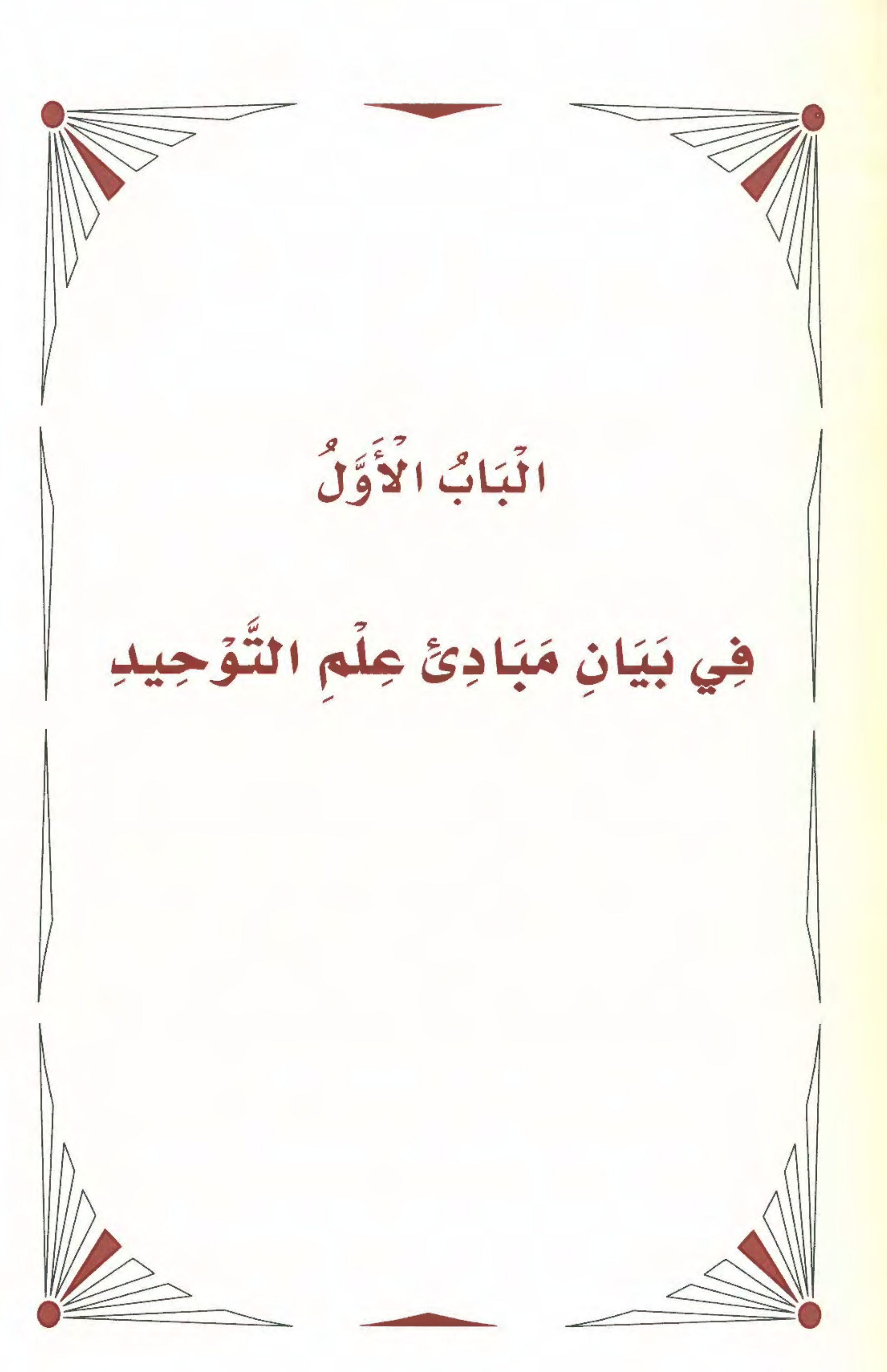
وأسباب، وقد يُجمع على أزمُنٍ، وجمع الزمان: أزمنة، قاله الفيّوميّ[١].

(بَلِ اعْتَذَرْتُ) إليه؛ أي: طلبت منه أن يقبل معذرتي، (حَيْثُ وَقْتِي لَا يَسَعْ)؛ أي: إنما اعتذرت إليه لأن وقتي ضيّق، لا يسع لإجابة رغبته، حيث إني مشغول بتآليف أخرى، (لَكِنْ أَلَحَّ)؛ أي: دام واستمرّ على طلبه، يقال: ألحّ السحاب إلحاحاً: دام مطره، وألحّ الرجل على شيء: إذا أقبل عليه مواظباً. **وقوله:** (رَاغِباً) منصوب على الحال. **وقوله:** (وَمَا انْقَطَعْ) مؤكّد لِمَا قبله، (فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً) بضم الموحّدة، وتشديد الدال المهملة؛ أي: غِنًى (مِنَ الإِجَابَةِ)؛ أي: إجابة طلبه، حال كوني (رَاجِيَ مَوْلَايَ قَبُولَ رَغْبَتِي) بنصب «قبولَ» مفعولاً لـ«راجي». والله تعالى أعلم.



---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٥٦.



الْبَابُ الْأَوَّلُ

فِي بَيَانِ مَبَادِئِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

فِي بَيَانِ مَبَادِئِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ، وَمُقَدَّمَاتِهِ

اعلم أنه جرت عادة المصنّفين من المتأخّرين أن يدوّنوا مقدمة عن أيّ فنّ من الفنون، وفضله، وثمراته، وما يتعلّق به في صدر مصنّفاتهم، وذلك ليحصل لطالب العلم بصيرة، وتصوّر إجماليّ للفنّ قبل أن يدخل في تفاصيله؛ ليأمَن من اشتباه مسائل العلوم بعضها ببعض، وأن يتحقّق من فائدة ذلك الفنّ ونفعه؛ لينشط في طلبه وتحصيله.

فمما ذكر العلماء في ابتداء أي فنّ من فنون العلم المبادئ العشرة، وهي التي جمعها بعضهم في قوله [من الرجز]:

إِنَّ مَبَادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ ... الْحَدُّ، وَالْمَوْضُوعُ، ثُمَّ الثَّمَرَهْ

وَنِسْبَةٌ، وَفَضْلُهُ، وَالْوَاضِعْ ... وَالِاسْمُ، الِاسْتِمْدَادُ، حُكْمُ الشَّارِعْ

مَسَائِلٌ، وَالْبَعْضُ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى ... وَمَن دَرَى الْجَمِيعَ نَالَ الشَّرَفَا

وجمعها بعضهم في قوله [من الرجز أيضاً]:

إِنَّ مَبَادِي أَيِّ عِلْمٍ كَانَا ... عَشْرٌ تَزِيدُ مَن دَرَى عِرْفَانَا

الْحَدُّ، وَالْوَاضِعُ، ثُمَّ الِاسْمُ ... وَالنِّسْبَةُ، الْمَوْضُوعُ، ثُمَّ الْحُكْمُ

وَغَايَةٌ، وَفَضْلُهُ، اسْتِمْدَادُ ... مَسَائِلٌ بِهَا الْهَنَا تُزَادُ

وهذه المبادئ العشرة عبارة عن الأمور التي يتوقف عليها

شروع الطالب في أيّ فنّ كان؛ حتى يكون على بصيرة من أمره.

فالحدّ يُقصد به: التعريف الجامع لمسائل العلم، المانع دخول غيره فيه.

والموضوع: هو الذي يُبحث فيه عن عوارضه الذاتيّة.

والغاية والثمرة: هي الفوائد التي تحصل للباحث من بحثه حالاً أو مآلاً.

والاستمداد: هو الأخذ من المصادر العلميّة التي يستفاد منها ذلك العلم.

والفضل: هو المنْزلة والرتبة التي تكون لذلك العلم بين سائر العلوم.

والواضع: هو أول من ابتدأ التدوين والتصنيف في ذلك العلم.

والاسم: هو اللقب الذي أطلقه أهل ذلك الفن عليه؛ ليتميّز عن غيره.

والحكم: المراد به: حُكم الشرع في تعلّم ذلك العلم من بين الأحكام التكليفيّة الخمسة.

والمسائل: هي المطالب التي يبحث فيها، ويُبرهن عليها، والتي تندرج تحت موضوعه.

والنسبة: عبارة عن علاقة العلم بغيره من العلوم. والله تعالى أعلم.

١٢ - أَوَّلُ وَاجِبٍ وَأَعْظَمُ الْمُهِمّ تَوْحِيدُ رَبِّنَا فَكُن مِمَّن نَهِمْ

١٣ - فَهُوَ شَرْطُ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ وَسَبَبُ الْقَبُولِ وَالزِّيَادَةِ

١٤ - أَصْلٌ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّينَ الْغُرَرْ غَايَةُ خَلْقِ الْخَلْقِ جِنٍّ وَبَشَرْ

***

(أَوَّلُ وَاجِبٍ) من واجبات الإسلام، (وَأَعْظَمُ الْمُهِمّ) من مهمات الدين، (تَوْحِيدُ رَبِّنَا)؛ يعني: أن أوجب الواجبات للإنسان، وأعظم المهمات التي يجب اهتمامه بها هو توحيد الله، (فَكُن)؛ أي: الإنسان، (مِمَّن نَهِمْ)؛ أي: ممن يهتمّ اهتماماً بالغاً في تفهّمه.

قال المجد: نَهِمَ كفرِح، وعُنِي، فهو نهمٌ، ونَهِيمٌ، ومنهومٌ، والنَّهْمَةُ: الحاجة، وبلوغ الْهِمّة، والشهوة في الشيء، وهو منهوم بكذا: مولَعٌ به. انتهى[1].

(فَهُوَ)؛ أي: التوحيد، (شَرْطُ صِحَّةِ الْعِبَادَةِ)؛ أي: فلا صحّة للعبادة إلا به، (وَسَبَبُ الْقَبُولِ)؛ أي: سبب قبول العبادة، (وَالزِّيَادَةِ)؛ أي: سبب لزيادة الدرجة والرفعة عند الله تعالى، وهذا إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

(أَصْلٌ لِدَعْوَةِ النَّبِيِّينَ)؛ يعني: أن التوحيد أصل دعوة الأنبياء عليهم السلام، فإنهم كانوا يقولون لقومهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]. **وقوله:** (الْغُرَرْ) صفة لِمَا قبله. **وقوله:** (غَايَةُ خَلْقِ الْخَلْقِ)؛ يعني: أن التوحيد هو الغاية القصوى

---

(١) «القاموس المحيط» ص١٣٢٢.

من خَلْق الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، **وقوله: (جِنٍّ وَبَشَرْ)** بدل من «الخلق». والله تعالى أعلم.

[تنبِيهٌ]

أي: هذا تنبيه في بيان أن أول واجب على المكلّف هو النطق بالشهادتين، لا غير.

١٥ - أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَى الْـمُـكَـلَّـفِـ	شَهَادَتَا الْـحَقِّ فَحَقِّقْ وَاعْرِفِـ
١٦ - لَا نَـظَـرٌ، وَقَـصْـدُهُ، وَالـشَّـكُّ	كَمَا يَرَىٰ أَهْلُ الْكَلَامِ الْأُفْكُ
١٧ - وَإِنَّـمَـا يُـؤْمَـرُ بَـعْـدَ ذَاكَ أَنْ	يَـعْـلَـمَ سَـائِرَ شَرَائِعِ الـسُّـنَـنْ
١٨ - فَـكُـلُّ مَـنْ آمَـنَ بِـالـتَّـقْـلِـيـدِ	إِيـمَـانُـهُ حَـقٌّ وَذُو تَـمْـجِـيـدِ
١٩ - كَـانَ عَـلَـىٰ هَـٰذَا خِـيَـارُ الْأُمَّـةِ	أُولُـو الْـهُـدَىٰ وَالْـعِلْـمِ وَالْفُتُوَّةِ
٢٠ - قَدْ فَتَحَ الصَّحْبُ الْبِلَادَ وَدَعَوْا	كُلّاً إِلَى الْإِيمَانِ فَالنَّاسُ سَعَوْا
٢١ - فَـقَـبِـلُـوا إِيـمَـانَـهُـمْ إِذ ظَـهَـرَا	لَمْ يَسْأَلُوا، أَوْ أَرْجَؤُوا أَن يُنظَرَا

قوله: (أَوَّلُ وَاجِبٍ) مبتدأ. **وقوله: (عَلَى الْمُكَلَّفِ)** متعلّق بصفة لـ«واجب». **وقوله: (شَهَادَتَا الْحَقِّ)** أعني: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله. **(فَحَقِّقْ)** إيمانك بهما، **(وَاعْرِفْ)** قدرهما، ومنْزلتهما عند الله.

وقوله: (لَا نَظَرٌ) عطف على «شهادتا الحقّ»؛ يعني: أن النظر في المخلوقات والتفكّر فيها ليس أول واجب على المكلّف، كما قال به قوم.

وقوله: (وَقَصْدُهُ)؛ أي: وليس قصد النظر أولَ واجب عليه، كما قال به قوم آخرون أيضاً.

وقوله: (وَالشَّكُّ)؛ أي: ولا الشك أول واجب عليه، كما قال آخرون.

وقوله: (كَمَا يَرَى أَهْلُ الْكَلَامِ) راجع إلى الثلاثة: النظر، وقَصْده، والشكّ؛ أي: كما يعتقد أهل الكلام كون أول واجب هذه الثلاثة. **وقوله:** (الأُفْكُ) صفة لـ«أهل الكلام»، وهو بضم فسكون، مخفف أُفُك ـ بضمّتين ـ: جمع أَفُوك؛ كصبور وصُبُر، وهو الكذّاب.

(وَإِنَّمَا يُؤْمَرُ) المكلّف (بَعْدَ ذَاكَ)؛ أي: بعد أن ينطق بالشهادتين، (أَن يَعْلَمَ سَائِرَ شَرَائِعِ السُّنَنْ)؛ أي: بقيّة الأحكام الشرعيّة، من الصلاة، والزكاة، والصوم، وغيرها.

(فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِالتَّقْلِيدِ)؛ أي: متّبعاً ومقتدياً بمن علّمه التوحيد، دون النظر والتفكّر، (إِيمَانُهُ حَقٌّ)؛ أي: ثابتٌ، (وَذُو تَمْجِيدِ)؛ أي: ممجّد ومشرّف.

(كَانَ عَلَى هَذَا) الطريق، من كون إيمان المقلّد صحيحاً، (خِيَارُ الأُمَّةِ) هم الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، (أُولُو الْهُدَى)؛ أي: أصحاب الهداية، (وَالْعِلْمِ) بالله تعالى، (وَالْفُتُوَّةِ) بضمّ الفاء والتاء وتشديد الواو، هي: الكرم، كما في «القاموس»؛ أي: أصحاب الكرم.

(قَدْ فَتَحَ الصَّحْبُ الْبِلَادَ) شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، (وَدَعَوْا كُلّاً)؛ أي: كل الناس في كل البلدان، (إِلَى الإِيمَانِ) بالله،

وبما أوجب الله تعالى الإيمانَ به، (فَالنَّاسُ) الذين دعوهم (سَعَوْا)؛ أي: أسرعوا في الاستجابة لهم، (فَقَبِلُوا)؛ أي: الصحابة الداعون، (إِيمَانَهُمْ؛ إِذْ) تعليليّة، (ظَهَرَا)؛ أي: لظهور إيمانهم، والألف إطلاقيّة.

(لَمْ يَسْأَلُوا)؛ أي: لم يناقشوهم، (أَوْ أَرْجَؤُوا)؛ أي: لم يؤخِّروا أحداً (أَن يَنظُرَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أنهم لم يعطوهم مدة ينظرون فيها، بل قبلوا كونهم مؤمنين بمجرّد أن يشهدوا الشهادتين. والله تعالى أعلم.

أَسْمَاءُ التَّوْحِيدِ

أي: هذا مبحث بيان أسماء علم التوحيد.

و«الأسماء» بالفتح: جمع اسم، وهو ما دلّ على المسمى؛ كزيد وعمرو، وهو مشتقّ من السِّمة، وهي: العلامة، فهو علامة على مسمّاه، أو مشتقّ من السموّ، وهو العلوّ؛ إذ به يعلو مسمّاه.

والمراد بأسماء العِلْم: ما يُطلق عليه من الأسماء المعتبَرة عند أهل هذا العلم، سواء أكانت مركّبة، أو مفردة، والمسمّى إذا كثرت أسماؤه دلّ على شرفه، وعلم التوحيد من أكثر العلوم اسماً لذلك، كما بيّن ذلك بقوله:

٢٢ ـ وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ لِمَا   لَهُ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ الْمُعْتَمَىٰ

٢٣ ـ سُمِّيَ بِالْإِيمَانِ، ثُمَّ السُّنَّةِ   كَذَاكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْعَقِيدَةِ

٢٤ ـ أُصُولِ شِرْعَةٍ، أُصُولِ الدِّينِ، ثُمّ   بِالْفِقْهِ الاَكْبَرِ كَذَاكَ قَدْ وُسِمْ

٢٥ ـ وَكُلُّهَا حَمِيدَةٌ شَرْعِيَّهْ   أَمَّا الْكَلَامُ سِمَةٌ بِدْعِيَّهْ

٢٦ ـ كَذَاكَ وَصْفُهُ بِعِلْمِ الْفَلْسَفَهْ فَإِنَّهُ وَصْفٌ لِأَرْبَابِ السَّفَهْ

(وَلَهُ)؛ أي: للتوحيد (أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ) وإنما كثرت أسماؤه (لِمَا لَهُ مِنَ الْفَضْلِ الْعَمِيمِ) صفة لـ«الفضل»؛ أي: الذي يعمّ جميع العباد، (الْمُعْتَمَى) صفة بعد صفة؛ أي: المختار، من اعتمى الشيءَ: إذا اختاره.

ثم بيّن تلك الأسماء، **فقال:** (سُمِّيَ بِالإِيمَانِ، ثُمَّ السُّنَّةِ) «ثم» بمعنى الواو؛ إذ لا ترتيب هنا؛ أي: وسمّي أيضاً بالإيمان.

والإيمان: مصدر آمن، وهو في اللغة: الثقة، وإظهار الخضوع، وقبول الشريعة، قاله في «القاموس»(١).

وقالَ الإمامُ الرَّاغبُ: الإيمانُ يُسْتَعْملُ تارة اسماً للشريعة التي جاء بها النبي ﷺ، وتارة يُستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعملٌ بالأركان، ويقال لكل واحد مِنَ الاعتقادِ والقول والصدق والعَمل الصالح: إيمانٌ. انتهى(٢).

وشرعاً: هو التصديق بالجَنان، والنطق باللسان، والعمل بالجوارح والأركان.

وهذا التعريف مأخوذ من تعريف النبيّ ﷺ له في حديث جبريل عليه السلام حيث قال: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَن تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». رواه مسلم مطوّلاً من حديث عمر.

---

(١) «القاموس المحيط» ص٦٢.

(٢) «تاج العروس» ٣٤/ ١٨٧.

وقال النبيّ ﷺ لوفد عبد القيس: «**آمُرُكُم بِأَرْبَع: الإِيمَانِ بِاللهِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **شَهَادَةُ أَن لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَن تُعْطُوا مِنَ الْغَنَائِمِ الْخُمُسَ**»، رواه الشيخان من حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما.

فقد عرّف الإيمان في الحديث الأول بالاعتقادات القلبيّة، وفي الثاني بالأعمال الظاهرة.

ثم صار الإيمان يُطلق ويراد به مسائل الاعتقاد كلها.

وقد صنّف السلف كتباً باسم الإيمان، بحثوا فيها قضايا التوحيد، ومسائل الاعتقاد كلها، ومن أولها: «كتاب الإيمان، ومعالمه، وسننه، واستكمال درجاته» للإمام أبي عبيد القاسم بن سلّام البغداديّ.

و«كتاب الإيمان» للحافظ أبي بكر ابن أبي شيبة.

و«كتاب الإيمان» للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده[1].

(كَذَاكَ) سُمّي أيضاً **(بِالتَّوْحِيدِ)** لأن مبحث وحدانيّة الله تعالى في ذاته وصفاته وأسمائه هو أهم مباحث هذا العلم، وما عداه من المباحث قائم عليه، ومتفرّع منه، فهو من تسمية الشيء بأشرف أجزائه، وقد كثرت الكتب المصنّفة باسم التوحيد، فمن ذلك «كتاب التوحيد» لأبي العبّاس أحمد بن عمر بن سُريج البغداديّ، و«كتاب التوحيد وإثبات صفات الربّ عز وجل» للإمام الحافظ أبي بكر بن

---

(١) راجع: «علم العقيدة عند أهل السُّنَّة والجماعة» ص١٣٠ ـ ١٣١.

خزيمة، و«كتاب التوحيد الذي هو حقّ الله تعالى على العبيد» للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي أحيا الله تعالى به ما اندرس من التوحيد، وأزال به الشرك والإلحاد في الأزمان المتأخّرة.

(وَ) سُمي أيضاً بـ(الْعَقِيدَةِ) فعيلة بمعنى مفعولة؛ أي: معقودة، فهي مأخوذة من الْعَقْد، وهو الجمع بين أطراف الشيء، قال في «المصباح»: **العقيدة**: ما يدين الإنسان به[١].

وفي «المعجم الأوسط»: العقيدة: هي الحُكم الذي لا يقبل الشكّ فيه لدى معتقده، ويرادفها: الاعتقاد، والمعتقد، وجمعها: عقائد[٢].

والعقيدة في الاصطلاح: هي الإيمان الذي لا يقبل النقيض[٣].

فالعقيدة والتوحيد مترادفان، وإنما سمّي علم التوحيد بالعقيدة للثمرة المرجوّة منه، وهي انعقاد القلب انعقاداً جازماً لا يقبل الانفكاك[٤].

ومن الكتب المصنّفة باسم العقيدة: «كتاب عقيدة السلف أصحاب الحديث» للإمام أبي عثمان الصابونيّ، و«شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» للإمام اللالكائيّ.

وسُمّي أيضاً بـ(أُصُولِ شِرْعَةٍ) بكسر الشين وسكون الراء، بمعنى: الشريعة؛ أي: سمّي أيضاً بأصول الشريعة.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٢١.
(٢) «المعجم الوسيط» ٢/ ٦٣٧.
(٣) راجع: «المدخل لدارسة العقيدة الإسلاميّة» للبريكان، ص٨.
(٤) راجع: «المدخل لدارسة العقيدة الإسلاميّة» للبريكان، ص١٠.

والشريعة في اللغة: من الشَّرْع، وهو: السّنّ، والبيان، والمورد، والطريق، قاله في «اللسان»[1]. وقال ابن فارس: الشريعة: مورد الشاربة من الماء[2].

وفي الاصطلاح: تُطلق الشريعة على ما شرعه الله تعالى لجميع رسله من أصول الاعتقاد، والبرّ، والطاعة مما لا يختلف من دعوة لأخرى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال التهانويّ: **الشَّرع** ـ بالفتح، وسكون الراء المهملة ـ **لغةً**: مشرعة الماء، وهو مورد الشاربة، والشريعة كذلك أيضاً.

وشرعاً: ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبيّ من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، سواء كانت متعلّقة بكيفية عمل، وتسمّى فرعية، وعملية، ودُوّن لها علم الفقه، أو بكيفية الاعتقاد، وتسمّى أصلية، واعتقادية، ودُوّن لها علم الكلام[3].

قال: ويسمّى الشرع أيضاً بالدين، والملّة، فإنّ تلك الأحكام من حيث إنّها تطاع لها: دين، ومن حيث إنّها تملى وتكتب: ملّة، ومن حيث إنّها مشروعة: شَرْع. فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار، لا بالذات، إلا أنّ الشريعة والملّة تضافان إلى النبيّ ﷺ، وإلى الأمة فقط استعمالاً، والدِّين يضاف إلى الله تعالى أيضاً. انتهى[4].

---

(١) «لسان العرب» ٧/ ٨٦ ـ ٨٩.
(٢) «معجم مقاييس اللغة» ٣/ ٢٦٢.
(٣) سيأتي أن تسمية علم التوحيد بعلم الكلام تسمية غير مقبولة، فتنبّه.
(٤) «كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم» للتهانويّ ١/ ١٠١٨.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة خلال كلام له: وكذلك اسم الشريعة، والشرع، والشرعة، فإنه ينتظم كل ما شرعه الله من العقائد، والأعمال، وقد صنّف الشيخ أبو بكر الآجريّ «كتاب الشريعة»، وصنّف الشيخ أبو عبد الله ابن بطة «كتاب الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية»، وغير ذلك، وإنما مقصود هؤلاء الأئمة في السُّنَّة باسم الشريعة: العقائدُ التي يعتقدها أهل السُّنَّة من الإيمان، مثل اعتقادهم أن الإيمان قول وعمل، وأن الله موصوف بما وَصَف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله خالق. انتهى[1].

وسُمي أيضاً بـ**(أُصُولِ الدِّينِ)** وهو جمع أصل، **وهو لغةً**: ما ينبني عليه غيره، أو ما يتفرّع عنه غيره[2].

واصطلاحاً: يُطلق على معان متعدّدة، والمعنى المناسب هنا: أن الأصل بمعنى: القواعد والأسس العامّة[3].

و«الدين» يُطلق في **اللغة**: على الذلّ والخضوع، كما يُطلق على الحساب والجزاء[4].

واصطلاحاً: هو جملة الأحكام الاعتقاديّة التي تحدّد ما ينبغي أن يتّصف الله تعالى به من الصفات، وجملة الأحكام العمليّة التي ترسم طريق عبوديّته.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيميّة ١٩/٣٠٦.

(٢) «معجم مقاييس اللغة» ١/١٠٩.

(٣) «شرح الكوكب المنير» لابن النجار ١/٣٨ ـ ٤٠.

(٤) راجع: «لسان العرب» ٤/٤٥٨.

فأصول الدين يشمل أركان الإسلام من الأعمال الظاهرة، وأركان الإيمان من الاعتقادات الباطنة، ثم غلب على المصنّفين في الاعتقادات استعمال هذا الاصطلاح في قضايا التوحيد والعقيدة؛ لكون علم الاعتقاد أصلاً لغيره من علوم الدين الأخرى؛ كالفقه، والحديث.

قال الشهرستانيّ: قال بعض المتكلمين: الأصول: معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته، ومعرفة الرسل بآياتهم وبيّناتهم، وبالجملة: كل مسألة يتعيّن الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول.

ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعياً، فالأصول هو موضوع علم الكلام، والفروع هو موضوع علم الفقه. انتهى[(١)].

وقد اعترض شيخ الإسلام ابن تيميّة على أن يكون مصطلح أصول الدين قاصراً على العقائد دون مسائل العمل الكبار؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحجّ، أو أن يدخل فيه مسائل العقائد المختلف فيها داخل دائرة أهل السُّنَّة، نحو: هل رأى النبيّ ﷺ ربه ليلة المعراج أم لا؟ وهل يسمع الميت كلام الحيّ أم لا؟ ونحو هذا[(٢)].

وممن صنّف في هذا الفنّ باسم أصول الدين: أبو عبد الله ابن

---

(١) «الملل والنحل» ١/ ٤١.

(٢) راجع: «مجموع الفتاوى» ٢٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ و٦/ ٥٠٢.

بطة العكبريّ الحنبليّ كتابه «الشرح والإبانة عن أصول السُّنَّة والديانة»، وأبو الحسن الأشعريّ كتاب «الإبانة عن أصول الديانة». والله تعالى أعلم.

(ثُمّ) بمعنى الواو، كما سبق آنفاً؛ أي: وسُمّي أيضاً (بِالْفِقْهِ الاكْبَرِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، ودَرْجها للوزن، والجارّ والمجرور متعلّق بـ«وُسِم». (كَذَاكَ)؛ أي: كما سمي بما سبق من الأسماء، (قَدْ وُسِمْ) بالبناء للمجهول؛ أي: جُعل الفقه الأكبر علامةً له.

وحاصل المعنى: أن التوحيد سُمّي بالفقه الأكبر، وأول من سمّاه هو الإمام أبو حنيفة.

فالفقه في اصطلاح المتقدّمين يُطلق على ما هو أعمّ من علم الفروع، بحيث يشمل الأصول والفروع، وعن هذا المعنى عبَّر الإمام أبو حنيفة حين قال: الفقه معرفة النفس ما لها، وما عليها. فعلى هذا فهو يشمل الاعتقادات، والأعمال، والأخلاق، ولمّا أراد أبو حنيفة تمييز الاعتقادات عن غيرها سمى التوحيد بالفقه الأكبر؛ لكونه أكبر بالنسبة للأحكام العمليّة الفرعيّة.

قال د. محمد يسري ـ بعد ذكره نحو ما سبق ـ: فلا ريب أن مصطلح الإيمان والفقه الأكبر قد ظهرا في القرن الثاني، وبرزا، واستمرّ مصطلح الإيمان في الذيوع خلال القرن الثالث حيث برز مصطلح السُّنَّة، وظهرت الكتب الاعتقاديّة التي حملت اسم السُّنَّة، وتوالى التصنيف في القرن الرابع بهذه الأسماء الاصطلاحيّة، ثم ظهر في القرن الرابع أربعة مصطلحات شاعت وذاعت، وهي:

التوحيد، والشريعة، وأصول الدين، والعقيدة، وإن كان مصطلح العقيدة قد ظهر أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريّ، كما يبدو هذا من كتاب الإمام اللالكائيّ «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة»، وكذلك فعل الإمام أبو عثمان الصابونيّ في كتابه «عقيدة السلف أصحاب الحديث»، وتتابع بعد ذلك المصنّفون على استعمال هذا المصطلح. انتهى[1].

(وَكُلُّهَا)؛ أي: كلّ هذه الأسماء **(حَمِيدَةٌ)**؛ أي: محمودة **(شَرْعِيَّهْ)**؛ أي: يُشرع التسمية بها، ولا يُمنع. **(أَمَّا الْكَلَامُ)**؛ أي: أما تسمية التوحيد بعلم الكلام فـ**(سِمَةٌ بِدْعِيَّهْ)**؛ أي: علامة منسوبة إلى أهل البدعة؛ لأن الذين سمّوه به هم أهل الاعتزال وغيرهم، فقد اشتهر تسميته به، فممن سماه به من المتقدّمين: الغزاليّ حيث يقول: إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصّلته، وعقلته، وطالعت كتب المحقّقين منهم، وصنّفت فيه ما أردت أن أصنّف، فصادفته علماً وافياً بمقصوده، غير صافٍ بمقصودي. انتهى[2].

وقال الشيخ محمد عبده من المتأخّرين: علم الكلام هو علم يُبحث فيه عن وجود الله، وما يجب أن تثبت له من صفات، وما يجوز أن يوصف به، وما يجب أن ينفى عنه، وعن الرسل لإثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن يُنسب إليهم، وما يمتنع أن يلحق بهم. انتهى[3].

---

(١) «علم العقيدة عند أهل السُّنَّة والجماعة» للدكتور محمد يسري، ص١٣٨ ـ ١٤١.

(٢) «المنقذ من الضلال» للغزالي، ص٨٧.

(٣) «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده، ص٥.

قيل: إنما سمّي بالكلام لأن أظهر مسألة تكلّموا فيها، وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام، فسمّي به. قاله الشهرستانيّ[(١)].

وقيل: سمّي به لأن أصحابه كانوا يترجمون لمسائله بقولهم: الكلام في القدرة، الكلام في العلم، الكلام في الوحدانيّة، ونحو ذلك.

وقيل: سمّي به لابتنائه على الأدلّة القطعيّة المؤيّدة في كثير من الأحيان بالأدلّة النقليّة، فكان أشد العلوم تأثيراً في القلب، وتغلغلاً فيه، فسمّي بالكلام المشتقّ من الكَلْم، وهو الْجَرح. قاله التفتازانيّ[(٢)].

وقيل: سمّي به لأن المشتغلين به تكلّموا فيما سكت عنه الصحابة والتابعون، مثل الكلام في ذاته تعالى، وصفاته، وأسمائه، وتأويل المتشابه، والبحث في القدر، ونحو ذلك مما وردت الآثار بالنهي عنه، والتحذير منه؛ لأجل هذا سُمّي البحث في المسائل التي سكت عنها المتقدّمون كلاماً، وسُمّي أهله بالمتكلّمين، حيث تكلّموا فيما كان ينبغي فيه السكوت اقتداء بالصحابة والتابعين رضي الله عنهم[(٣)].

وقال الشهرستانيّ الأشعريّ: إنه سُمّي بهذا الاسم؛ لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فنّاً من فنون علمهم بالمنطق، والمنطق والكلام مترادفان[(٤)].

---

(١) راجع: «الملل والنحل» ١/ ٣٠.
(٢) «شرح العقائد النسفيّة» للتفتازانيّ ١/ ١٩.
(٣) راجع: «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري.
(٤) «الملل والنحل» ١/ ٣٠.

وقال شارح «الطحاويّة»: إنما سُمّي هؤلاء أهلَ الكلام؛ لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد. انتهى[1].

ثم إن هذه التسمية لا تنطبق على علم التوحيد الذي جاءت به الرسل من عند الله تعالى؛ إذ هو ليس من الكلام في شيء، لا اسماً، ولا معنًى، ولا مقصداً، ولا غاية، ولا استمداداً.

بل أهل السُّنَّة المتّبعون لمنهج الصحابة رضي الله عنهم في الاعتقاد لا يعتبرون الكلام علماً، بل يعدّونه جهلاً، ويحذّرون الناس عنه، وسيأتي ما قالوه في التنبيه التالي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

تنبيه مهمّ: في ذكر ذمّ السلف لعلم الكلام، والخوض فيه:

قال السفارينيّ: قد ذمّ السلف الصالح الخوض في علم الكلام، والتقصي والتدقيق فيما زعموا أنه قضايا برهانية، وحجج قطعية يقينية، وقد شحنوا ذلك بالقضايا المنطقية، والمدارك الفلسفية، والتخيلات الكشفية، والمباحث القرمطية.

وكان أئمة الدين ـ مثل: مالك، وسفيان، وابن المبارك، وأبي يوسف، والشافعيّ، وأحمد، وإسحاق، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي ـ يبالغون في ذم الكلام، وفي ذم بشر المريسيّ، وتضليله، حتى إن هارون الرشيد خامس خلفاء بني العباس قال يوماً: بلغني أن بِشراً المريسي يقول: إن القرآن مخلوق، ولله علي إن أظفرني به الله لأقتلنه قتلة ما قتلتها أحداً، فأقام بِشر متوارياً أيام الرشيد نحواً من عشرين سنة.

---

(١) «شرح الطحاوية» ١/ ٢٤٢.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذه التأويلات التي ذكرها ابن فورك، ويذكرها الرازيّ في «تأسيس التقديس»، ويوجد منها في كلام غالب المتكلمة من الجبائيّ، وعبد الجبار، وأبي الحسين البصريّ، وغيرهم، هي بعينها التأويلات التي ذكرها بِشر المريسي، وردّ عليه الإمام الدارمي عثمان بن سعيد أحد مشاهير أئمة السُّنَّة من علماء السلف في زمن البخاريّ في المائة الثالثة في كتابه الذي سمّاه: «رد عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله من التوحيد»، فحكى هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسيّ بكلام يقتضي أن المريسي أقعد بها، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته، وقد أجمع أئمة الهدى على ذم المريسية، وأكثرهم كفّروهم وضللوهم، وذموا الكلام وأهله بعبارات رادعة، وكلمات جامعة.

قال أبو الفتح نصر المقدسيّ في كتابه «الحجة على تارك المحجة» بإسناده، عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الإمام الشافعي يقول: ما رأيت أحداً ارتدى بالكلام فأفلح.

ولمّا كلّمه حفص الفرد من أهل الكلام، قال: لأن يُبتلَى العبدُ بكل ما نهى الله عنه ـ خلا الشرك بالله تعالى ـ خيرٌ له من أن يُبتلَى بالكلام. وقال: حُكمي في أصحاب الكلام أن يصفعوا، وينادى بهم في العشائر والقبائل: هذا جزاء من ترك السُّنَّة، وأخذ في الكلام.

وقال الإمام أحمد: عليكم بالسُّنَّة والحديث وما ينفعكم، وإياكم والخوض والمراء، فإنه لا يفلح من أحب الكلام.

وقال في علماء أهل البدع من المتكلمة: لا أحب لأحد أن

يجالسهم، ولا يخالطهم، ولا يأنس بهم، فكل من أحب الكلام لم يكن آخر أمره إلا إلى البدعة، فإن الكلام لا يدعوهم إلى خير، فلا أحب الكلام ولا الخوض ولا الجدال، عليكم بالسنن والفقه الذي تنتفعون به، ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء، أدركنا الناس وما يعرفون هذا، ويجانبون أهل الكلام.

وقال: من أحب الكلام لم يفلح، عاقبة الكلام لا تؤول إلى خير.

أعاذنا الله وإياكم من الفتن، وسلّمنا وإياكم من كل هلكة، وقد نُقل عن هذين الإمامين من ذم الكلام وأهله كلام كثير مذكور في كتب علماء السلف.

وعن عبد الرحمٰن بن مهدي قال: دخلت على الإمام مالك بن أنس وعنده رجل يسأله عن القرآن والقَدَر، فقال الإمام مالك للرجل: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمراً، فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم به الصحابة والتابعون رضي الله عنهم كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل.

فهل يكون أشد من هذا الإنكار من هؤلاء الأئمة الكبار؟.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: سمعت أبا حنيفة يقول: لعن الله عمرو بن عبيد، فإنه مبتدع.

والنصوص عن أئمة الهدى في ذلك كثيرة جدّاً.

وروى الإمام الحافظ شمس الدين الذهبيّ في كتابه «العرش» بسنده إلى أبي الحسن القيرواني قال: سمعت الأستاذ أبا المعالي

الجوينيّ، يقول: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال الفقيه أبو عبد الله الدسيميّ: حكى لنا الإمام أبو الفتح محمد بن عليّ الفقيه، قال: دخلنا على الإمام أبي المعالي الجوينيّ نعوده في مرض موته، فأُقعد فقال لنا: اشهدوا عليّ أني قد رجعت عن كل مقالة قلتها أخالف فيها السلف الصالح، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور.

قال الإمام الحافظ الذهبي: قلت: هذا معنى قول بعض الأئمة: عليكم بدين العجائز؛ يعني: أنهن مؤمنات بالله على فطرة الإسلام، لم يدرين ما علم الكلام.

قال الحافظ الذهبي: وقد كان شيخنا أبو الفتح القشيريّ يقول [من الطويل]:

تَجَاوزَتُ حَدَّ الأَكْثَرِينَ إِلَى الْعُلَى ... وَسَافَرْتُ وَاسْتَبْقَيْتُهُمْ فِي الْمَفَاوِزِ

وَخُضْتُ بِحَاراً لَيْسَ يُدْرَكُ قَعْرُهَا ... وَسَيَّرْتُ نَفْسِي فِي فَسِيحِ الْمَفَاوِزِ

وَلَجَجْتُ فِي الأَفْكَارِ، ثُمَّ تَرَاجَعَ اخْـ ... ـتِيَارِي إِلَى اسْتِحْسَانِ دِينِ الْعَجَائِزِ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته «الحموية»: وقد أخبر الواقف على نهايات إقدام المتكلمة بما انتهى إليه من مرامهم [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلا وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

وقول بعض رؤسائهم [من الطويل]:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِن جُسُومِنَا ... وَغَايَةُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِن بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَن جَمَعْنَا فِيهِ: قِيلَ وَقَالُوا

قال شيخ الإسلام: ويقول الآخر منهم: لقد خُضت البحر الْخِضَمّ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخُضت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لفلان، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي.

ويقول الآخر منهم: أكثر الناس شكّاً عند الموت أصحاب الكلام.

قال شيخ الإسلام: ثم إذا حُقّق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله، وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر، وما ذكرناه من الأنباء قطرة من بحر لُجّيّ. وبالله التوفيق.

فإن قلت: إذا كان علم الكلام بالمثابة التي ذكرت، والمكانة التي عنها برهنت، فكيف ساغ للأئمة الخوض فيه، والتنقيب عما يحتويه؟ ثم إنك أتيت ما عنه نهيت، وحررت ما عنه نفّرت، وهل هذا في بادئ الرأي إلا مدافعة، وجمع للشيئين اللذين بينهما تمام الممانعة؟

قلت: إن ما ذهب إليه وَهْلُك من التمانع لممتنع، وما سنح في خلدك من التدافع لمندفع، بل العلم الذي نَهينا عنه غير الذي ألّفنا فيه، والكلام الذي حذّرنا منه غير الذي صنَّف فيه كل إمام، وحافظ، وفقيه، فعلم الكلام الذي نهى عنه أئمة الإسلام هو العلم

وقد اعترف أبو حامد بأن ما ذكره هو من الكلام والفلسفة ليس فيه كشف الحقائق ومعرفتها. انتهى[1].

(كَذَاكَ وَصْفُهُ بِعِلْمِ الْفَلْسَفَهْ)؛ أي: فهي تسمية بدعيّة أيضاً **(فَإِنَّهُ)** الفاء تعليليّة؛ أي: لأنه **(وَصْفٌ لأَرْبَابِ السَّفَهْ)**؛ أي: أصحاب الجهل، وهم المعتزلة وأهل الكلام.

و«الفَلْسَفَةُ»: معناها: الحِكْمَةُ، أَعجَمِيٌّ، وهو الفَيْلَسُوفُ، قاله المرتضى في «شرح القاموس»[2].

وقال في موضع آخر: والفَيْلَسُوفُ: كلمة يُونَانِيَّةٌ؛ أي: مُحِب الْحِكْمَةِ، أصله: فَيْلَا سُوفَا، فَيْلَا: هو المحب، وسُوفَا: هو الحكمة، والاسم منه: الْفَلْسَفَةُ، مركبة؛ كالْحَوْقَلَةِ، والحَمْدَلَةِ، والسَّبْحَلَةِ، كما في «العُبَاب». انتهى[3].

وجاء في المعجم الفلسفيّ ما نصّه: الفلسفة الأولى مصطلح قال به أرسطو، وأطلقه على دراسة الموجودات الأزليّة المفارقة، وهي ما يُسمى فيما بعدُ: بالميتافيزيقا، وتسمى أيضاً: الإِلٰهيّات... وأطلق أخيراً على دراسة ما يتّصل بمشكلة المعرفة والوجود والألوهيّة. انتهى[4].

فالفلسفة إعمال للعقل في أيّ مجال كان، بلا أيّ منطلقات سابقة، من دين، أو وحي للوصول إلى الحقائق الأزليّة بزعمهم، فهي محاولة إدراك الفاني القاصر للأول والآخر، وبالتالي فهي

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» ٧/ ١٨١.
(٢) «تاج العروس» ٢٤/ ٢٣٠.
(٣) «تاج العروس» ٢٣/ ٤٧٦.
(٤) «المعجم الفلسفيّ»، إصدار مجمع اللغة العربيّة، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

محاولة محكومة بالفشل، مقضيّ عليها بالخسار والبوار قبل أن تبدأ؛ إذ الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف كلما حاولت أن تتناول مسائل العقيدة، ولقد دخل من سُمّي بفلاسفة المسلمين في جحيم الفلسفة، فما خرجوا منها إلا إلى نار الجحيم ـ عياذاً بالله ـ فأنكروا البعث، والمعاد، وقالوا بقدم العالم، وجاءوا بالكفريّات[(١)].

قال الغزاليّ: وأما الإِلٰهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر، ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنّفنا «كتاب تهافت الفلاسفة»، فأما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم: إن الأجساد لا تُحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح، وإن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات، وأن العالم قديم.

ثم قال: وجب الحكم بكفر أرسطاليس ومن قبله من الفلاسفة؛ كأفلاطون، وسقراط، وغيرهم، وكُفر متبعيهم من متفلسفة الإسلاميين؛ كابن سينا، والفارابيّ، وأمثالهم. انتهى[(٢)].

تنبيه: **في الفرق بين الكلام والفلسفة:**

إن الكلام يتعلّق بدين بعينه، والفلسفة تبحث عن الحقائق والأصول بتجرّد من كلّ دين ومذهب.

ومن حيث المنهج: فإن علم الكلام يبدأ من مسلمات عقديّة يفترض صحّتها؛ أي: أن المتكلّم يبدأ من قاعدة يعترف بها، ثم يبدأ

---

(١) «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) «المنقذ من الضلال» للغزاليّ، ص١٧.

في التماس الطريق العقليّة المؤدّية لإثباتها، وهذا بخلاف الفيلسوف الذي يتشكّك في البديهيّات، ويماري في الأوليّات، حتى يثبتها عقله أوّلاً، ثم يتدرّج منها إلى النتائج، مستخدماً منهجاً عقليّاً صرفاً، فالمتكلّم يبدأ بذكر الأدلّة على وجود الله، والفيلسوف يبدأ بإنكار وجود الله، والعياذ بالله تعالى.

والحاصل: أن تسمية علم التوحيد بالفلسفة هو تسمية للإيمان بضدّه، وللنور والهدى واليقين بالظلمة والضلال والشكّ، والعلماء متّفقون على حرمة تعلّم الفلسفة، متّفقون على ذمها، وذمّ من دخل فيها من علماء الكلام، سواء في ذلك أهل السُّنَّة، أو الأشاعرة، أو الماتريديّة.

قال التفتازانيّ الماتريديّ: ولا يصدّنّك عن آيات الله، ودين الإسلام، ولا يصرفنّك عن اتباع هؤلاء الأنبياء خوض بعض المتفلسفين في زيّ الفقهاء في هذه الزندقة الهادمة لدين الإسلام، وملّة الأنبياء، فإنه انسلخ من الدين، فأتبعه الشيطان، فكان من الغاوين، وصار من أئمة الكفر في صورة علماء المسلمين. انتهى[(١)].

وقال السنوسيّ الأشعريّ: فليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حُشيت بكلام الفلاسفة، وأولع مؤلفوها بنقل ما هو كفر صريح من عقائدهم التي ستروا نجاستها باصطلاحاتهم، وعبارات مبهمة على كثير من الناس؛ ككتب الرازيّ

(١) «ردّ النصوص» للتفتازانيّ، نقلاً عن ترتيب العلوم للشيخ محمد المرعشي، ص٢٣١.

في فنّ الكلام، وطوالع البيضاويّ، ومن حذا حذوهما في ذلك، وقلّ أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة، أو يكون له نور إيمان في قلبه، أو لسانه[١].

وقال الإمام الذهبيّ في ترجمة ابن حزم: وكان قد مهر أولاً في الأدب، والأخبار، والشعر، وفي المنطق، وأجزاء الفلسفة، فأثّرت فيه تأثيراً، ليته سلم من ذلك. انتهى[٢].

وأخيراً فإن طائفة من علماء الكلام الفحول الذين دخلوا في علم الكلام المشحون بالفلسفة قد رجعوا عن الكلام، ومسالكه، وتابوا إلى الله من الفلسفة وأوضارها في لمحات العمر الأخيرة، كما فعل أبو الحسن الأشعريّ، حيث قال:

فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية، والرافعة، والمرجئة، فعرّفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون.

قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب الله ربنا ﷻ، وبسُنَّة نبينا محمد ﷺ، وما رُوي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولِمَا خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق،

---

(١) «شرح متن السنوسيّة» للسنوسيّ، نقلاً عن «ترتيب العلوم» للشيخ محمد المرعشيّ، ص١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ١٨/١٨٦.

ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين، وشكّ الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم، وكبير مفهم. انتهى[1].

وهذا الإمام الجوينيّ يقول في آخر عمره: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به[2].

وقال عند موته: لقد خضت البحر الْخِضَمّ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل للجوينيّ، وها أنا أموت على عقيدة أمي، أو قال: على عقيدة عجائز أهل نيسابور[3].

وقال الشهرستانيّ [من الطويل]:

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا ... وَسَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

فَلَمْ أَرَ إِلَّا وَاضِعاً كَفَّ حَائِرٍ ... عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

ولقد أجاد الأمير الصنعانيّ حيث ردّ عليه بقوله [من الطويل]:

لَعَلَّكَ أَهْمَلْتَ الطَّوَافَ بِمَعْهَدِ الر ... رَسُولِ وَمَن وَالَاهُ مِن كُلِّ عَالِمِ

فَمَا مَن يُهْدَى بِهَدْيِ مُحَمَّدٍ ... وَلَسْتَ تَرَاهُ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ[4]

قال محمد ـ عفا الله عنه ـ: ولو قال: «ووالله أهملت» إلخ

---

(١) «الإبانة عن أصول الديانة» ص٢٠ ـ ٢١.

(٢) «طبقات الشافعيّة الكبرى» للسبكي ٥/١٨٦؛ «تلبيس إبليس» لابن الجوزيّ، ص١٠٥.

(٣) «شرح الفقه الأكبر» لملا علي القاري، ص٦؛ «تلبيس إبليس» لابن الجوزيّ، ص١٤٠ـ١٠٥.

(٤) «ديوان الصنعاني» ص٣٤٥.

لكان أَولى من «لعلك»، كما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

وقال الرازيّ: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. انتهى[١].

ثم اعتذر عما دخل فيه بكلام طويل قال في آخره: وأقول: ديني مُتَابعَة الرسول محمد ﷺ، وكتابي القرآن العظيم، وتعويلي في طلب الدين عليهما... وأما الكتب التي صنفتها، واستكثرت فيها من إيراد السؤالات، فليذكُرْني من نظر فيها بصالح دعائه على سبيل التفضل والإنعام، وإلا فليحذف القول السيئ، فإني ما أردت إلا تكثير البحث وشحذ الخاطر، والاعتماد في الكل على الله. انتهى[٢].

وقال الغزاليّ: الدليل على أن مذهب السلف هو الحقّ أن نقيضه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة. انتهى[٣].

وقال أيضاً: إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا محتاجين لمحاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ١٦٠.
(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٨/ ٩١ - ٩٢.
(٣) «إلجام العوام عن علم الكلام» للغزاليّ، ص٩٦.

شيئاً، وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقليّة، وترتيب المقدّمات، كلّ ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يُقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسِّنان، فما بعد بيان الله ﷻ بيان. انتهى[(١)].

ولقد صدق.

وقال الآمديّ: أمعنت النظر في الكلام، وما استفدت منه شيئاً إلا ما عليه العوامّ[(٢)].

وهذا الشوكانيّ يذكر انكبابه في عنفوان شبابه على مؤلّفات طوائف المتكلّمين، ثم قال: ورُمت الرجوع بفائدة، والعودة بعائدة، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة[(٣)].

وقال المرعشي: وأقول: كما هجر الغزاليّ الكلام كذلك هجرته، وتبرّأت منه إلى الله تعالى الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيّئات، وأسأل الله ألا يحشرني يوم القيامة مع المتكلّمين، وهذا القول مني بعد اشتغالي بالكلام، وتأليفي فيه «نشر الطوالع»، والآن أتمنّى أن أجمع نُسخه المنتشرة، وأحرّقها بالنار؛ لئلا يبقى مني أثر في الكلام، لكني لا أقدر على ذلك. انتهى[(٤)].

ونقل المرعشي قول أحد المتكلّمين في حاشيته لشرح العقائد: الاشتغال بتفاصيل علم الكلام يقسي القلب، ولذا ترى

---

(١) المصدر السابق، ص٨٩ ـ ٩٠.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» ٣/ ٢٦٢.

(٣) «التحف في مذاهب السلف» للشوكانيّ، ص٧٤.

(٤) «ترتيب العلوم» ص٧٤.

أكثر طلبته تاركي الصلاة، ومرتكبي الكبائر، ومضيّعي العمر فيما لا يعنيهم، ثم علّق عليه، فقال: يقول الفقير: أما قسوة القلب فقد وجدناها بلا شكّ عند الاشتغال به، فنسأل الله أن يقيلنا عثراتنا. انتهى[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة بعد ذكره نحو ما تقدّم: ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء؛ كفلان وفلان لكان شيئاً كثيراً، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر، وذلك لأن الهدى هو فيما بعث الله به رسله، فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً، فكيف بمن عارضه بما يناقضه، وقدَّم مناقضه عليه؟!. انتهى[(٢)].

وقال الإمام الذهبيّ بعد أن ذكر الغلاة من الطوائف الإسلاميّة ما نصّه: قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياء وعباد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السُّنَّة وأهلها، ونحب العالِم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن. انتهى[(٣)].

وقال أيضاً في حقّ أبي حامد الغزالي ما نصّه: قلت: قد ألّف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب «التهافت»، وكَشَف عوارهم، ووافقهم في مواضع ظناً منه أن ذلك حقّ، أو موافق للملة، ولم يكن له علم

(١) المصدر السابق، ص٢١٥.
(٢) «درء تعارض العقل والنقل» ١/١٦٦.
(٣) «سير أعلام النبلاء» ط الرسالة ٢٠/ ٤٥ ـ ٤٦.

بالآثار، ولا خبرة بالسنن النبوية القاضية على العقل، وحُبّب إليه إدمان النظر في كتاب «رسائل إخوان الصفا»، وهو داء عُضال، وجَرَب مُرْدٍ، وسمّ قتّال، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء، وخيار المخلصين، لتلف.

فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شُبَه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز، فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام، وأن يُتَوَفَّى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله الموفق، فبحسن قصد العالم يُغفر له وينجو ـ إن شاء الله ـ. انتهى[1].

حَدُّ عِلْمِ التَّوْحِيدِ

أي: هذا مبحث حدّ علم التوحيد.

الحدّ لغةً: المنع، ومنه الحدود؛ لأنها تمنع من العودة إلى المعاصي، ومنه: إحداد المرأة في عدّتها؛ لأنها تُمنع من الطيب والزينة. وسُمّي التعريف حدّاً لمنعه الداخل من الخروج، والخارج من الدخول.

واصطلاحاً: هو الوصف المحيط بمعناه المميّز له عن غيره.

أو هو: اللفظ المفسّر لمعناه على وجه يجمع ويمنع.

ويسمى عند بعضهم بالقول الشارح، أو التعريف.

وقال الجرجانيّ: الحد: في اللغة: المنع. وفي الاصطلاح:

(١) المصدر السابق ١٩/٣٢٨ ـ ٣٢٩.

قولٌ يشتمل على ما به الاشتراك، وعلى ما به الامتياز. انتهى[1].

وقال في «التوقيف»: الحدّ: الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، وحدّ الدار ما تتميز به عن غيرها. يقال: حددت الدار: ميّزتها عن مجاوراتها بذكر نهاياتها. وحدّ الشيء: الوصف المحيط بمعناه. والحد أيضاً: المنع المسمى به العقابُ المقدر من الشارع؛ لكونه مانعاً لفاعله عن معاودة مثله، ولغيره عن سلوك منهجه. وعند أهل الميزان: قول دالّ على ماهية الشيء. وعند أهل الأصول: ما يميز الشيء عما عداه، وهو بمعنى قول الباقلانيّ وغيره: الحد: الجامع المانع. ويقال: المطرد المنعكس. انتهى[2].

والتوحيد: مصدر وحّد يوحّد، ومعناه ـ كما قال ابن فارس ـ: جعله واحداً، أو اعتقده واحداً[3].

وقال شيخ الإسلام: هو عبادة الله وحده، لا شريك له، مع ما يتضمّنه من أنه لا ربّ لشيء من الممكنات سواه[4].

واصطلاحاً: هو إفراد الله تعالى بالعبادة، مع الجزم بانفراده في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفي ذاته، فلا نظير له، ولا مثيل له في ذلك كلّه[5].

---

(١) «التعريفات» ص٨٣.

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» ص١٣٧.

(٣) «مقاييس اللغة» ص١٠٨٤.

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» ٨/ ٢٤٦.

(٥) راجع: «الحجة في بيان المحجة» للأصبهانيّ ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

أو هو: اعتقاد تفرّده في ربوبيّته، وألوهيّته، وأسمائه وصفاته، وتخصيصه بالعبادة.

أو هو: إفراده تعالى بالعبادة التي تتضمّن غاية الحبّ ومنتهاه، مع غاية الذلّ وأقصاه، والانقياد لأمره، والتسليم له(١).

٢٧ ـ عِلْمٌ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ إِذَا ... حَقَّقَهُ بِالاعْتِقَادِ حَبَّذَا

٢٨ ـ يُؤْخَذُ مِنْ أَدِلَّةٍ مَرْضِيَّهْ ... بِهِ تُرَدُّ الشُّبَهُ الرَّدِيَّهْ

(عِلْمٌ)؛ أي: هو علم **(بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ إِذَا حَقَّقَهُ)**؛ أي: أثبته **(بِالاعْتِقَادِ)**؛ يعني: أنَّ علم التوحيد هو العلم بالأحكام الشرعيّة العَقَديّة، فخرج العلم بالأحكام الشرعيّة العمليّة، فإنه يسمى علم الفقه.

وقولي: (حَبَّذَا) مَدْح لعلم التوحيد.

(يُؤْخَذُ)؛ أي: علم التوحيد، **(مِنْ أَدِلَّةٍ مَرْضِيَّهْ)** هي الكتاب والسُّنَّة، **(بِهِ)**؛ أي: بمعرفة علم التوحيد، **(تُرَدُّ الشُّبَهُ)** بضمّ فسكون: جمع شُبهة. قال الفيّوميّ: اشتبهت الأمور، وتشابهت: التبست فلم تتميّز ولم تظهر، قال: والشبهة في العقيدة: المأخذ الْمُلَبَّسُ، سُمّيت شبهةً لأنها تُشبه الحقّ. انتهى(٢).

وحاصل المعنى: أن التوحيد علم يُبحث فيه عما يجب لله تعالى من صفات الجلال والكمال، وما يستحيل عليه من كلّ ما لا

---

(١) راجع: «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٢٢ ـ ١٢٤.

(٢) «المصباح المنير» ١/ ٣٠٤.

يليق به، وما يجوز من الأفعال، وعما يجب للأنبياء والرسل ﷺ، وما يستحيل عليهم، وما يجوز في حقّهم، وما يتّصل بذلك، من الإيمان بالكتب المنزّلة، والملائكة الأبرار، ويوم البعث، والجزاء، والقدر والقضاء[١].

وقولي: (الرَّدِيَّهْ) أصله: الرديئة، بهمزة، فقلبت ياء، وأدغمت في الياء، فهو من الرداءة، أو هو فعيّل من ردا يردو، فهو رديّ. قال الفيّوميّ: رَدُؤ الشيءُ بالهمز رَدَاءةً، فهو رديء على فَعِيل؛ أي: وَضِيع خَسِيس، وَرَدَا يَرْدُو ـ من باب علا ـ لغةٌ، فهو رَدِيٌّ بالتثقيل. انتهى[٢].

والمراد أن تلك الشبهة فاسدة وباطلة.

نِسْبَتُهُ

أي: هذا مبحث نسبة علم التوحيد إلى سائر العلوم الشرعيّة.

اعلم أن نسبة العلم هي علاقته بغيره من العلوم، وَصِلَته بها، ونسبة أيّ علم إلى غيره من العلوم على أربعة أنواع:

أحدها: الترادف، فتُطلق الأسماء المختلفة على مسمّى واحد، فتختلف الأسماء وتتفق المسميات.

ثانيها: التخالف، فتتباين الأسماء والمسمّيات، بحيث لو نُسب أحد العِلمين إلى الآخر لم يَصْدق على شيء مما صَدَق عليه الآخر.

ثالثها: التداخل؛ كأن يكون أحد العِلمين أعمّ من الآخر،

---

(١) «مذكّرة في علم التوحيد» للشيخ عبد الرزاق عفيفي، ص٦٥.

(٢) «المصباح المنير» ١/ ٢٢٥.

فأحدهما داخل بتمامه في الآخر، وهو العموم والخصوص المطلق.

رابعها: التقاطع، وهو العموم والخصوص الوجهيّ، أو النسبيّ، بأن يكون كلّ من العلمين أعمّ من جهة، وأخصّ من جهة أخرى.

٢٩ ـ نِسْبَتُهُ أَصْلُ الْعُلُومِ كُلِّهَا ... وَغَيْرُهُ فَرْعٌ لَهُ فَانتَبِهَا

(**نِسْبَتُهُ**)؛ أي: نسبة علم التوحيد إلى علوم الشريعة (**أَصْلُ الْعُلُومِ كُلِّهَا**) لأنه مبدأ كلّ العلوم، (**وَغَيْرُهُ**) من العلوم (**فَرْعٌ لَهُ**)؛ أي: لعلم التوحيد، (**فَانتَبِهَا**) بالألف المنقلبة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: استيقظن أيها الراغب الطالب من رقدتك وغفلتك.

وحاصل المعنى: أن نسبة علم التوحيد إلى سائر العلوم الشرعيّة أنه أصلها، وأساسها، فهو بمنْزلة الرأس من الجسد.

فعلوم الإسلام تقوم على معرفة الله تعالى، وتوحيده، والتصديق برسالة نبيّنا محمد ﷺ، وبسائر أركان الإيمان، ولهذا سمّاه الإمام أبو حنيفة ـ فيما يروى عنه ـ بالفقه الأكبر.

وذلك أن نصوص الكتاب والسُّنَّة إما أن تكون في تقرير التوحيد في نوعه العلميّ الخبريّ، أو في نوعه الطلبيّ الإرادي، ودعوة الخلق لعبادته تعالى وحده، أو في مستلزمات التوحيد ومقتضياته، وحقوقه من الأحكام الفقهيّة العمليّة، أو في الجزاء على التوحيد، من إكرام الله تعالى لعباده الموحّدين، أو في بيان العقوبات والوعيد على مضادّة التوحيد بالشرك والإلحاد، فصار التوحيد أصلاً لغيره من العلوم حيث ارتبطت به، واعتمدت عليه. والله تعالى أعلم.

حُكْمُهُ

أي: هذا مبحث حكم علم التوحيد.

الحكم في اللغة: القضاء، وأصله المنع، يقال: حكمت عليه بكذا: إذا منعته من خلافه، فلم يقدر على الخروج من ذلك[١].

وفي اصطلاح الأصوليين: هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلّفين، بالاقتضاء، أو التخيير، أو الوضع[٢].

٣٠ ـ فَمِنْهُ فَرْضُ الْعَيْنِ، وَهْوَ مَا تَصِحّْ ... بِهِ الْعَقِيدَةُ بِحُجَّةٍ تَضِحْ

٣١ ـ فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا زَادَ عَلَىٰ ... ذَٰلِكَ تَفْصِيلاً لِمَا قَدْ أُجْمِلَا

٣٢ ـ وَذَا كَالِاسْتِدْلَالِ، وَالتَّعْلِيلِ ... تَكْمِيلِكَ الْبُحُوثَ بِالتَّفْصِيلِ

٣٣ ـ وَقُدْرَةِ الْإِلْزَامِ مَن قَدْ عَانَدَا ... إِفْحَامِكَ الْمُخَالِفِينَ الْبُعَدَا

***

(فَمِنْهُ)؛ أي: بعض علم التوحيد، **(فَرْضُ الْعَيْنِ)**؛ أعني: أن علم التوحيد على نوعين: نوعٌ منه فرضٌ متعيّن معرفته على كلّ مكلّف، **(وَهْوَ مَا تَصِحُّ بِهِ الْعَقِيدَةُ)**؛ أي: معرفة ما تصحُّ به العقيدة، **(بِحُجَّةٍ)** من الكتاب والسُّنَّة **(تَضِحْ)** مضارع وضح؛ أي: واضحة ظاهرة.

والثاني: **(فَرْضُ كِفَايَةٍ)** إذا قام به بعض الناس يسقط عن الباقين، وذلك **(إِذَا زَادَ)** العلم **(عَلَى ذَلِكَ)**؛ أي: على قَدْر فرض العين. **وقوله: (تَفْصِيلاً)** منصوب على التمييز. **وقولي: (لِمَا قَدْ أُجْمِلَا)**

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ١٤٥.

(٢) «التمهيد» للإسنويّ، ص٤٨.

بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، واللام في «لما» زائدة، و«ما» مفعول «تفصيلاً».

ثم بيّن معنى التفصيل **بقوله: (وَذَا)**؛ أي: تفصيل المجمل، **(كَالِاسْتِدْلَالِ)**؛ أي: إقامة الدليل على ما تقول، **(وَالتَّعْلِيلِ)**؛ أي: ذِكرك علّة المسألة، **وقوله: (تَكْمِيلِكَ)** بالجر عطفاً على ما قبله بعاطف مقدّر؛ أي: وكتكميلك **(الْبُحُوثَ)** بالنصب على المفعوليّة، **(بِالتَّفْصِيلِ)**؛ أي: بتفصيل ما أجملته في البحث، **(وَقُدْرَةِ الإِلْزَامِ)** بجرّ «قدرة» كسابقه، **وقوله: (مَن قَدْ عَانَدَا)** بألف الإطلاق، و«مَن» مفعول «الإلزام»؛ أي: من خالف الحقّ، وأعرض عن الصواب، يقال: عاند فلان عِناداً، من باب قاتل: إذا ركب الخلاف، والعصيان. وعانده معاندةً: عارضه، وفَعَل مثل فِعله، قال الأزهريّ: المعاند: المعارض بالخلاف، لا بالوفاق، وقد يكون مباراةً بغير خلاف، وعَنَدَ عن القصد عُنُوداً، من باب قعد: جارَ، قاله الفيّوميّ[1].

وقوله: (إِفْحَامِكَ) بالجرّ أيضاً كسابقه، والإفحام بالكسر، مصدر أفحم خصمه: إذا أسكته بالحجة. **وقولي: (الْمُخَالِفِينَ)** مفعول «إفحامك». **وقولي: (الْبُعَدَا)** بالضمّ جمع بعيد، صفة لـ«المخالفين»؛ أي: البعيدين عن الحقّ والصواب.

وحاصل ما أشار إليه في هذه الأبيات: أن علم التوحيد على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية.

فأما فرض العين: فهو ما تصحّ به عقيدة المسلم في ربه، من

---

(١) «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢.

حيث ما يجب، ويمتنع، ويجوز في حقّ الله تعالى، ذاتاً، وصفات، وأسماءً، وأفعالاً، على وجه الإجمال، وهذا ما يسمى بالإيمان المجمل، أو الإجماليّ، وهو ما يُسأل عنه جميع المكلّفين؛ لِمَا رُوي عن أنس بن مالك، وابن عمر، ومجاهد في قوله ﷻ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الحجر: ٩٢] قالوا: عن لا إله إلا الله(١).

وأما فرض الكفاية: فهو ما زاد على ذلك من التفصيل، والتعليل، وتحصيل القدرة على ردّ الشبهات، وقوادح الأدلّة، وإلزام المعاندين، وإفحام المخالفين، وهذا ما يسمّى بالإيمان التفصيليّ، وهو المقدور على إثباته بالأدلّة، وحلّ ودفع الشُّبَه الواردة عليه، وهو من أجلّ فروض الكفايات في علوم الإسلام؛ لأنه ينفي تأويل المبطلين، وانتحال الغالين، فلا يجوز أن يخلو الزمان ممن يقوم بهذا الفرض الكفائيّ المهمّ؛ إذ لا شكّ أن حِفظ عقائد الناس أكثر أهمّيّة من حفظ أبدانهم، وأموالهم، وأعراضهم.

وخلاصة القول: أن حكم الشارع في تعلّم علم التوحيد أنه فرض عين على كلّ مكلّف، من ذكر وأنثى، وذلك بالأدلّة الإجماليّة، وأما بالأدلّة التفصيليّة ففرضٌ على الكفاية. والله تعالى أعلم.

فَضْلُهُ

٣٤ ـ وَفَضْلُهُ عَلَى الْعُلُومِ قَدْ عَلَا ... كَمَا أَتَى الْإِيمَانُ فَاقَ الْعَمَلَا

٣٥ ـ فَهُوَ أَفْضَلُ الْعُلُومِ مُطْلَقَا ... مَوْضُوعاً، أَوْ مَعْلُوماً، أَوْ تَعَلُّقَا

٣٦ ـ كَذَاكَ الِاسْتِمْدَادُ قُلْ: تَعَلَّقَا ... بِرَبِّنَا الْحَيِّ الْعَلِيِّ مُطْلَقَا

(١) رواه الطبرانيّ في «الدعاء» بأسانيد فيها مقال، وعلّقه البخاريّ في «صحيحه».

مَوْضُوعُهُ

أي: هذا مبحث موضوع علم التوحيد.

وموضوع العلم: هو ما يُبحث فيه عن عوارضه الذاتيّة.

فإذا قيل مثلاً: إن موضوع علم الطبّ هو بَدَن الإنسان، فإنه يبحث عما يَعرض لهذا البدن من أحوال الصحّة والمرض، وإذا قيل: إن موضوع علم الفقه هو أفعال المكلّفين، فإنه يبحث عما يعرض لهذه الأفعال من الأحكام؛ كالوجوب، والحرمة، والندب، والكراهة، والإباحة، والصحّة، والفساد. والله تعالى أعلم.

٣٧ ـ مَوْضُوعُهُ: الرَّبُّ، وَصَفْوَةُ الْوَرَىٰ ‏ ‏ ‏ مِنْ حَيْثُ مَا يَجِبُ، أَوْ مَا حُظِرَا

٣٨ ـ أَوْ مَا يَجُوزُ، وَالرِّسَالَاتُ الَّتِي ‏ ‏ ‏ أَتَوْا بِهَا مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعِزَّةِ

٣٩ ـ كَذَاكَ مَا بَقِيَ مِنْ أَجْزَاءِ ‏ ‏ ‏ إِيمَانِنَا، فَافْهَم بِالِاعْتِنَاءِ

٤٠ ـ مِنْ حَيْثُ مَا يَجِبُ أَن يَعْتَقِدَهْ ‏ ‏ ‏ كُلُّ الْمُكَلَّفِينَ فَاتْبَعْ رَشَدَهْ

(مَوْضُوعُهُ)؛ أي: موضوع علم التوحيد، وهو مبتدأ، خبره **قوله**: (الرَّبُّ). (وَصَفْوَةُ الْوَرَى)؛ أي: خيار الخلق، وهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام. (مِنْ حَيْثُ مَا يَجِبُ)؛ أي: من حيث معرفة ما يجب لله تعالى، ولهم، (أَوْ مَا حُظِرَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: من حيث ما مُنع؛ أي: الأشياء التي تستحيل في جانب الله تعالى، وفي جانبهم، (أَوْ مَا يَجُوزُ) لهم، (وَ) في البحث عن (الرِّسَالَات الَّتِي أَتَوْا بِهَا مِنْ عِندِ رَبِّ الْعِزَّةِ)، (كَذَاكَ) في البحث عن (مَا بَقِيَ مِنْ أَجْزَاءِ إِيمَانِنَا) كالبحث في الملائكة، والكتب، واليوم الآخر، والقدر.

(فَافْهَمْ) موضوع علم التوحيد **(بِالِاعْتِنَاءِ)**؛ أي: بالاهتمام والقصد التامّ، **(مِنْ حَيْثُ مَا يَجِبُ أَنْ يَعْتَقِدَهْ، كُلُّ الْمُكَلَّفِينَ، فَاتْبَعْ رَشَدَهْ)** بفتحتين؛ أي: بيانه. وبالله تعالى التوفيق.

وحاصل ما أشار إليه في هذه الأبيات: أن موضوع علم التوحيد عند أهل السُّنَّة والجماعة هو ذات الله ﷻ من حيث ما يجب له تعالى من الاتصاف بصفات الكمال، من العلم، والحياة، والقدرة، وسائر صفاته، وكمالاته، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن حيث ما يستحيل عليه تعالى من الولد، والصاحبة، والشريك، والظلم، والنقص، والعجز، وكلّ ما لا يليق بجلاله، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومن حيث بيان ما يجب له تعالى على عباده، وهو أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، ويطيعوه، ولا يعصوه أبداً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقد أغفل كثير من المخالفين لأهل السُّنَّة في الاعتقاد هذه الحيثيّة الأخيرة عند البحث في موضوع علم التوحيد، حيث قَصَروه على ما يشمل إثبات وجوده تعالى، وربوبيّته، وأسمائه، وصفاته، وأغفلوا ما يشمل ألوهيّته وعبادته، وسبب ذلك أنهم قصروا الإيمان على التصديق فقط، وأخرجوا عنه العمل بالطاعات، واجتناب الشركيّات، وجعلوا الكفر مجرّد التكذيب والجحود بالقلب، ولا

دَخْل لعمل الجوارح في الكفر إلا إذا دلّ على انتقاض عمل القلب فحسب.

وبالجملة فتوحيد العبادة ـ وهو أن يُعبد الله وحده، ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك ـ هو عمدة التوحيد الذي كان أصل ما يدعو إليه كلّ رسول قومه بقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩][١]. والله تعالى أعلم.

مَسَائِلُهُ

أي: هذا مبحث مسائل التوحيد.

وهي جَمْع مسألة، من السؤال، وهو الطلب.

والمسائل: هي المطالب التي يُبَرْهَن عليها في العلم، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها، قاله الجرجانيّ[٢].

وقال بعضهم: المسائل: المطالب الخبرية التي يُبرهَن عليها في ذلك العلم، ويكون المطلوب من ذلك معرفتها. انتهى[٣].

وقد يقال: إن مسائل كلّ علم هي معرفة الأحوال العارضة لذات موضوع العلم[٤].

---

(١) راجع: «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٥٥ ـ ١٥٩.

(٢) «التعريفات» ص٢١١.

(٣) «التوقيف على مهمات التعاريف» ص٣٠٤.

(٤) «شرح الكوكب المنير» لابن النجار ١/ ٣٣.

٤١ ـ قُلْ هِيَ أَحْكَامٌ بِالِاعْتِقَادِ   تَعَلَّقَتْ فَاعْنِ بِهَا يَا صَادِي

(قُلْ) أيها الطالب للزيادة: (هِيَ)؛ أي: مسائل التوحيد، (أَحْكَامٌ)، **وقوله:** (بِالاعْتِقَادِ) متعلّق بـ(تَعَلَّقَتْ)؛ أي: هي الأحكام المتعلّقة بالاعتقاد (فَاعْنِ) بفتح النون، وكسرها، يقال: عَنَيْتُهُ عَنْياً، من باب رَمَى: إذا قصدته، واعتنيت بأمره: اهتممت به، واحتفلت، وعُنيت بأمر فلان بالبناء للمفعول، عِنايةً، وعُنِيّاً: شُغِلت. أفاده الفيّوميّ[(١)].

(بِهَا)؛ أي: بمعرفة تلك الأحكام، (يَا صَادِي) اسم فاعل من صَدِيَ صَداً، من باب تَعِبَ: إذا عَطِشَ؛ أي: يا من هو متعطّشٌ إلى العلم.

وحاصل ما أشار إليه: أنه لمّا كان تعريف علم التوحيد هو العلمَ بالأحكام الشرعيّة العقديّة المكتسب من أدلّتها المرضيّة، وردّ الشبهات، وقوادح الأدلّة الخلافيّة، وكان موضوعَ علم التوحيد هو الله تعالى، والملائكة، والرسل، واليوم الآخر، ونحو ذلك، كانت مسائله هي معرفةَ أحكام القضايا الاعتقاديّة المتعلّقة بذلك كلّه، من الوجوب، والجواز، والاستحالة، ونحوها على منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

فمسائل علم التوحيد تتضمّن معرفة الأحكام الشرعيّة العقديّة؛ كأحكام الألوهيّة، وعصمة الرسل، وقضايا اليوم الآخر، ونحو ذلك[(٢)]. والله تعالى أعلم.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٣٤.

(٢) «راجع: «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص٢٣٥.

اسْتِمْدَادُهُ

اعلم أن كل علم من العلوم يتوقّف في وضع قواعده، والحكم في مسائله، وفهم حقيقة تلك المسائل على ما يستمدّه من غيره من العلوم والفنون، فهي بمثابة طرق، ووسائل، وأسباب، ومصادر في تثبيت قواعد ذلك العلم، وتُعِين على طَلَبه ودَرْسه[1].

٤٢ ـ قُلْ يُسْتَمَدُّ مِن: صَحِيحِ السُّنَّةِ ... مَعَ الْكِتَابِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ

٤٣ ـ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ السَّوِيَّهْ ... وَمِن صَرِيحِ الْعَقْلِ وَالطَّوِيَّهْ

(قُلْ يُسْتَمَدُّ) بالبناء للمفعول؛ أي: يؤخذ علم التوحيد (مِن صَحِيحِ السُّنَّةِ) من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: يؤخذ من السُّنَّة الصحيحة، (مَعَ الْكِتَابِ)؛ أي: القرآن الكريم، (وَاتِّفَاقِ الأُمَّةِ)؛ أي: ويؤخذ أيضاً من إجماع الأمة، (وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ)؛ أي: ويؤخذ أيضاً من الفطرة التي فطر الله عباده عليها، وهي الاستقامة على الدين. وقوله: «السليمة»؛ أي: التي لم تتلوث بالأهواء والتقليد. **وقوله:** (السَّوِيَّهْ)؛ أي: المستقيمة، فهو مؤكّد لِمَا قبله، (وَمِن صَرِيحِ الْعَقْلِ) من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: ويؤخذ أيضاً من العقل الصريح الذي لم ينصبغ بأفكار أهل الكلام والفلسفة. **وقوله:** (وَالطَّوِيَّهْ) فعيلة بمعنى مفعولة، قال في «القاموس»: الطويّة بِهاء: الضمير، والنيّة. انتهى. والمراد به هنا: العقل، فهو من عطف المؤكّد على المؤكّد.

---

(١) «راجع: «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٨٩.

وحاصل معنى البيتين بإيضاح: أن علم التوحيد يُستمدّ ويؤخذ من الكتاب العزيز، والسُّنَّة الصحيحة، وذلك بمعرفة مناهج الاستنباط، وطرائق الاستدلال، واستخراج الأحكام عند أهل السُّنَّة، وهذا يلزم منه المعرفة بالعربيّة التي هي لسان الوحي، قرآناً وسُنَّةً، وبها نطق أهل العلم في الأمة من السلف الصالح، مستعيناً بالنظر في كتب الشروح، والتفسير بالمأثور للقرآن والحديث، مع معرفة علم الأصول، حيث إنه سبيل للوصول إلى معرفة الأحكام الشرعيّة العقديّة والعمليّة، التي هي مناط السعادة الأبديّة.

ثم إن علم التوحيد يستمدّ من أربعة أشياء، وهي: صحيح المنقول، وصريح المعقول، والإجماع، والفطرة السليمة:

فأما صحيح المنقول: فيراد به الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، والعقيدة أهمّ ما بيّن الله تعالى في كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وأهمّ ذلك العقيدة في الله تعالى، وفي أنبيائه، ورسالاته، والغيب، وما يحتويه.

وقال الله ﷻ عن السُّنَّة: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣]، وفي الحديث عنه ﷺ قال: «**قد تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلا هَالِكٌ**»[1].

---

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذيّ، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم، والألبانيّ.

وبيان مسائل الاعتقاد من أول وأولى ما علّمه النبيّ ﷺ لأمته في نصوص السُّنَّة، وهو ﷺ أنصح الأمة وأحرصها على أداء أمانة الرسالة، ولهذا كانت نصوص السُّنَّة مع الكتاب هي مُعَوّل السلف، ومعتمدهم في الاستدلال على مسائل الاعتقاد(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أهل السُّنَّة ما نصّه: ثم من طريقة أهل السُّنَّة والجماعة: اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «**عَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِن بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويُؤْثِرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سُمُّوا أهل الكتاب والسُّنَّة. انتهى.

وسُمُّوا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسماً لنفس القوم المجتمعين، «والإجماع» هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين.

وهم يَزِنُون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلّق بالدين.

---

(١) «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٩٠ ـ ١٩١.

والإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة[١].

وقال الإمام البربهاريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم ـ رحمك الله ـ أن العلم ليس بكثرة الرواية والكتب، إنما العالم من اتبع الكتاب والسنن، وإن كان قليل العلم والكتب، ومن خالف الكتاب والسُّنَّة فهو صاحب بدعة، وإن كان كثير العلم والكتب.

قال: واعلم ـ رحمك الله ـ أن من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأويله من غير حجة من السُّنَّة والجماعة، فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم، فهو من المتكلفين، والحقّ ما جاء من عند الله، والسُّنَّةُ سُنَّة رسول الله ﷺ، والجماعة ما اجتمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ومن اقتصر على سُنَّة رسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه والجماعة فَلَجَ على أهل البدع كلّها، واستراح بدنه، وسَلِم له دينه ـ إن شاء الله ـ؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «**سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي**»، وبيَّن لنا رسول الله ﷺ الناجي منها فقال: «**مَا كُنتُ أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**».

فهذا هو الشفاء والبيان، والأمر الواضح، والمنار المستنير. انتهى[٢].

وأهل السُّنَّة لا يستدلّون بالقرآن دون السُّنَّة، بل بالسُّنَّة والقرآن معاً، ولا يكمل دين العبد إلا بالإيمان بما فيهما؛ لأنهما ما أوتيه

(١) «مجموع الفتاوى» ٣/ ١٥٧.
(٢) «شرح السُّنَّة» للبربهاري، ص٩٩ ـ ١٠٠.

الرسول ﷺ، قال ﷺ: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(١). فهما في الاحتجاج والاستدلال سواء، لا يُعزل أحدهما من أجل التحاكم إلى الآخر، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وقال البربهاريّ رحمه الله: وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده، ويريد القرآن، فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة، فقم من عنده، ودَعْه(٢).

ولا يعارض صحيح النقل من أدلّة علم العقيدة بوَهم الرأي، وخَطَل القياس(٣).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه، ولا ذوقه، ولا معقوله، ولا قياسه، ولا وَجْده، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات، والآيات البينات، أن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحقّ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فيه نبأ من قبلهم، وخبر ما بعدهم، وحُكم ما بينهم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، من حديث المقدام بن معديكرب.

(٢) «شرح السُّنَّة» للبربهاري، ص١١٩.

(٣) «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٩٢.

في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، فلا يستطيع أن يُزيغه إلى هواه، ولا يحرف به لسانه، ولا يَخْلُق عن كثرة الترداد، فإذا رُدِّد مرة بعد مرة لم يَخلُق، ولم يُمَلّ كغيره من الكلام، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم.

فكان القرآن هو الإمام الذي يُقتدى به، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل، ورأي، وقياس، ولا بذوق ووَجْد ومكاشفة، ولا قال قط: قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلاً عن أن يقول: فيجب تقديم العقل، والنقلُ ـ يعني: القرآن، والحديث، وأقوال الصحابة والتابعين ـ إما أن يُفَوَّض، وإما أن يؤول...

ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها، أو تنسخها؛ أو بسُنَّة الرسول ﷺ تفسره، فإن سُنَّة رسول الله ﷺ تبيِّن القرآن، وتدل عليه، وتعبِّر عنه. انتهى كلام شيخ الإسلام باختصار[1].

وأما الإجماع: فهو من مصادر الأدلّة الاعتقاديّة؛ لأنه يستند في حقيقته إلى الوحي المعصوم من كتاب وسُنَّة، وأكثر مسائل الاعتقاد محلّ إجماع بين الصحابة والسلف الصلح، ولا تجتمع الأمة في أمور العقيدة، ولا في غيرها على ضلالة وباطل.

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٣/ ٢٧ ـ ٢٨.

فالإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمدون عليه في العلم والدين، والإجماع الذي ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح؛ إذ بعدهم كثر الخلاف، وانتشرت الأمة[1].

وعلى هذا فإجماع السلف الصالح في أمور الاعتقاد حجة شرعيّة مُلزِمة لمن جاء بعدهم، وهو إجماع معصوم، فلا تجوز مخالفته[2].

فدين الإسلام مبنيّ على اتباع كتاب الله ﷻ، وسُنَّة نبيّه ﷺ، وما اتّفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة أصول معصومة.

وأما العقل: فهو أيضاً من المصادر الدينيّة، إلا أنه ليس مصدراً مستقلّاً، بل يحتاج إلى تنبيه الشرع، وإرشاده إلى الأدلّة؛ لأن الاعتماد على محض العقل سبيل للتفرّق والتنازع[3].

فالعقل لن يهتدي إلا بالوحي، والوحي لا يُلغي العقل.

وقد رفع الوحي من قيمة العقل، وحثّ على التعقّل، وأثنى على العقلاء، قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

والنصوص الشرعيّة قد جاءت متضمّنةً الأدلّة العقليّة صافية من كلّ كدر، فما على العقل إلا فهمها، وإدراكها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيميّة ١٣/١٥٧.

(٢) «علم العقيدة» للدكتور محمد يسري، ص١٩٣.

(٣) «إيثار الحقّ على الخلق» لابن الوزير، ص١٣.

وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وخوض العقل في أمور الإلٰهيّات باستقلال عن الوحي مهلكة، وسبيل الضلال. يقول ابن رشد الفيلسوف ـ وهو ممن خاض بالعقل في مسائل الاعتقاد، وطالت تجربته ـ: لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلٰهيّة قولاً يُعتدّ به، وليس يُعصم أحد من الخطأ إلا من عصمه الله تعالى بأمر إلٰهيّ، خارج عن طبيعة الإنسان، وَهُم الأنبياء. انتهى[١].

والمقارنة بين طريقة الوحي، وطرق الفلاسفة والمتكلّمين في بحث أمور العقيدة هي مقارنة بين الصواب والخطأ، والصحيح والفاسد، والنافع والضارّ[٢].

قال الرازيّ ـ بعد طول البحث ـ: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. ثم قال: ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. انتهى[٣].

فميزان صحة المعقولات هي الموافقة للكتاب والسُّنَّة.

---

(١) «تهافت التهافت» لابن رُشد ٢/ ٥٤٧. (٢) «علم العقيدة» ص١٩٤ ـ ١٩٥.

(٣) «شرح العقيدة الطحاويّة» لابن أبي العزّ ١/ ٢٤٤.

قال الأصبهانيّ: وأما أهل الحق فجعلوا الكتاب والسُّنَّة إمامهم، وطلبوا الدين من قِبَلهما، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الكتاب والسُّنَّة، فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم له، وإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسُّنَّة، ورجعوا بالتهمة على أنفسهم، فإن الكتاب والسُّنَّة لا يهديان إلا إلى الحق، ورأي الإنسان قد يرى الحق، وقد يرى الباطل. انتهى[1].

والعقل قد يهتدي بنفسه إلى مسائل الاعتقاد الكبار على سبيل الإجمال؛ كإثبات وجود الله تعالى، مع ثبوت ذلك في الفطرة أوّلاً.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: واعلم أن عامّة مسائل أصول الدين الكبار مما يُعلم بالعقل. انتهى[2].

أما مسائل العقيدة التفصيليّة مما يتعلّق بذات الله تعالى، وصفاته، ورسله، وأنبيائه، وما يجب لهم، وما يستحيل، فما كانت العقول لتدركها لولا مجيء الوحي.

قال الأصفهانيّ رحمه الله: ولأن العقل لا مجال له في إدراك الدين بكماله، وبالعلم يدرك بكماله. انتهى. ويعني بالعلم: الوحي[3].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: لا تحسبنّ أن العقول لو تُركت وعلومها التي تستفيدها بمجرّد النظر عرفت الله تعالى معرفة مفصّلة بصفاته، وأسمائه على وجه اليقين. انتهى[4].

---

(١) «الحجة في بيان المحجة» ٢/ ٢٣٨.
(٢) «مجموع الفتاوى» ١٩/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٣) «الحجة في بيان المحجة» ٢/ ٤ ـ ٥.
(٤) الصارم المسلول» لابن تيميّة ٢/ ٤٥٩.

وقال اللالكائيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وسياق ما يدل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما روي عن رسول الله ﷺ على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل.

قال: قال الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ بلفظ خاصّ، والمراد به العام؛ يعني: إن هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى شخص النبيّ ﷺ، إلا أن المراد به جميع الخلق.

قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ أي: فاعلم يا محمد أنت وجميع الخلق أنه لا إلٰه إلا الله.

فهذه الآية تدل على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا إلٰه بحق إلا هو، ولو كان يُعرف ذلك بالعقل، فإن أرجح العقول وأقواها وأهداها سبيلاً هو عقل نبينا محمد ﷺ، وقد خاطبه الله عَزَّوَجَلَّ بهذا النقل، والأمر ابتداءً لا يُعرف إلا من قِبَل النقل.

والعرب كانوا من أرجح الناس عقلاً وذكاءً وفطنة، وغير ذلك، ومع هذا كانوا يعبدون الأصنام، ويعبدون غير الله عَزَّوَجَلَّ، وقالوا بعقولهم: ما نعبد هذه الآلهة إلا لتقرّبنا إلى الله زلفى.

والذي هداهم إلى ذلك عقولهم الفاسدة التي كانت من الذكاء والحفظ والإتقان والتثبت بمكان، وربما لا تبلغ أعظم العقول في هذا الزمان أقل العقول في أيام الجاهلية من جهة الحفظ والإتقان، فقد كان الواحد منهم يحفظ القصيدة أو الألفية المكوّنة من ألف بيت أو ألفين من المرة الأولى، ومع هذا كان منحرفاً في جهة التوحيد وزائغاً ضالاً؛ لأنه ليس عنده نَقْل يُثبت أن الله تعالى إلٰه واحد.

وقد خاطب الله عَزَّوَجَلَّ نبيّه ﷺ بهذا الخطاب ليثبت له سمعاً

ونقلاً ووحياً أن الله تعالى هو المتفرد والمستحق للألوهية وحده، وأن هذه الآلهة التي تُعبد من دون الله ﷻ إنما هي آلهة مزعومة.

قال: وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، وكان كل نبي يؤمر بهذا عند رسالته، ويُكلَّف بتبليغ هذا الأمر إلى أمته، فأخبر الله نبيّه ﷺ في هذه الآية أنه بالسمع والوحي عَرَف الأنبياء مِن قبله التوحيد.

فالأنبياء أنفسهم لم يعرفوا التوحيد إلا من قِبَل الوحي، ولا شك أن النبيّ ﷺ كان قبل الرسالة على الحنيفية السمحة.

وهذا التوحيد الذي جاء به النبيّ ﷺ بعد الرسالة وبعد التكليف لم يكن يعرفه ﷺ تفصيلاً قبل الوحي، فقد كان النبيّ ﷺ على الحنيفية السمحة، والنبيّ ﷺ كان صاحب عبادة وتهجد واختلاء بالله تعالى وذِكر له، ولكن ليس بهذه المنهجية والتأصيل الذي أرسله الله ﷻ به، وإلا فما فائدة الوحي في حق النبيّ ﷺ حينئذ؟ قال: فأخبر الله نبيه ﷺ - أي: في هذه الآيات المتقدمة - أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ [سبأ: ٥٠]؛ أي: قل يا محمد ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ يعني: أن الهداية بوحي، والإيمان بوحي، والتوحيد بوحي، والوحي

سمع ونقل، ولا دخل للعقل فيه؛ لأنه كلام الله تعالى، قال: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

قال: وكذلك وجوب معرفة الرسل ثبت بالسمع؛ يعني: إذا كان الله تعالى لا يُعرف إلا بالسمع والنقل فكذلك رسل الله ﷻ لا يُعرفون إلا بالسمع، ولذلك لما ادعى المدعون النبوة في زمن النبيّ ﷺ كان أتباعهم يعرفون أنهم كذبة؛ لأنه لا نقل ولا سمع ولا وحي ينْزل عليهم، وكان أتباعهم متأكدين من ذلك وإن تابعوهم، ولكنهم كانوا في حقيقة أمرهم يعرفون أنه لا ينْزل عليهم الوحي، وأنهم كَذَبة، فمعرفة الرسل لا بد أن تكون بوحي من السماء.

قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فقد دلت هذه الآيات على أن معرفة الله والرسل بالسمع، كما أخبر الله ﷻ، وهذا مذهب أهل السُّنَّة والجماعة. انتهى[(١)].

ثم إن كثيراً من مسائل الاعتقاد بعد معرفتها والعلم بها لا تُدرك العقول حقيقتها، وكيفيّتها، وذلك كصفات الله تعالى، وأفعاله، وحقائق ما ورد من أمور اليوم الآخر من الغيبيّات التي لا يُحيلها، أو يردّها العقل، ولا يوجبها، أو يبطلها[(٢)].

ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في القرآن الكريم لتقرير الغيب

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» للالكائي ٢/١٩٣ ـ ١٩٦.

(٢) «علم العقيدة» ص١٩٧.

تنبيهاً للعقول على إمكان وجودها، فاستدلّ على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وعلى خلق الإنسان بخلق السماوات والأرض، وهي أعظم وأبلغ في القدرة، وعلى البعث بعد الموت بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الماء عليها[(١)].

قال السفارينيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لو كانت العقول مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه، لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب، واللازم باطل بالنص، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]، فكذا الملزوم. انتهى[(٢)].

وخلاصة القول: أن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح، فالأول خَلْق الله تعالى، والثاني أَمْره، ولا يختلفان؛ لأن مصدرهما واحد، وهو الحقّ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس في الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة شيء يخالف العقل الصريح؛ لأن ما خالف العقل الصريح باطلٌ، وليس في الكتاب والسُّنَّة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفة منهم، لا من الكتاب والسُّنَّة؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. والله أعلم.

ولذا قال الإمام محمد بن شهاب الزهريّ رَحِمَهُ اللَّهُ: من الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) «منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السُّنَّة والجماعة» لعثمان حسن ١/١٧٨.

(٢) «لوامع الأنوار البهية» ١/١٠٥.

العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم[1].

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو: أن العقل مع النقل كالعاميّ المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالِماً، ولا يمكن للعالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالِماً، فدل عليه عاميّاً آخر، ثم اختلف المفتي والدالّ، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدالّ، فلو قال الدالّ: الصواب معي دون المفتي؛ لأني أنا الأصل في علمك بأنه مفتٍ، فإذا قدّمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتٍ، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لمّا شهدت له بأنه مفتٍ، ودللت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعيّن، لا تستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك، لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ. والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له، والانقياد لأمره[2]. والله تعالى أعلم.

وأما الفطرة السويّة: فهي خلق الخليقة على قبول الإسلام، والتهيّؤ للتوحيد، أو هي الإسلام، والدين القيّم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) «السُّنَّة» للخلال ٣/ ٥٧٩.

(٢) «شرح الطحاوية» لابن أبي العزّ، ص١٦٩.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إلٰه غيره. انتهى[(١)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فعلم أن الحنيفية من موجبات الفطرة، ومقتضياتها، والحب لله، والخضوع له، والإخلاص له هو أصل أعمال الحنيفية. انتهى[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] معناه: أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الحنيفيّة المستقيمة، وفي الحديث الصحيح: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنتِجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟**»، رواه الشيخان.

فمعنى خَلْق المولود على الفطرة: هو أن الطفل خُلق سليماً من الكفر على الميثاق الذي أخذه الله على ذرّيّة آدم حين أخرجهم من صُلبه، والفطرة قبول الإسلام، فهي كالأرض الخصبة القابلة، والوحي كالغيث النازل من السماء، ما إن ينْزل عليها حتى تهتزّ، وتربو، وتُنبت من كلّ زوج بهيج.

والفطرة السويّة تقبل الإسلام، وتهتدي إلى وجود الخالق بما أودع الله الخلائق من قوانين كلّيّة، تظهر آثارها في الطفل الناشئ الذي لم يتعلّم، أو يتكلّم، فهو يدرك أن الحادث لا بدّ له من محدِث، وأن الجزء دون الكلّ، وأنه يستحيل الجمع بين المتناقضين، وهذا من أوائل العقل وبواكيره، وقلوب بني آدم مفطورة

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٦/٣١٣.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» ٨/٤٥١.

على قبول الإسلام، وإدراك الحقّ، ولولا هذا الاستعداد ما أفاد النظر، ولا البرهان، شأنُها في ذلك شأن الأبدان، فطرها الله تعالى قابلة للانتفاع، والاغتذاء بالطعام والشراب، ولولا هذا الاستعداد لَمَا حصل الانتفاع.

والفطرة السويّة تهدي العبد إلى أصول التوحيد والإيمان، وجمهرة أهل العلم من أهل السُّنَّة وغيرهم على فطريّة الإيمان، وليس يحتاج العبد لتحصيله من أصله إلى استدلال، أو برهان فضلاً عن أن يشكّ، ويخرج من ثوب اليقين والإذعان.

والقلوب مفطورة على الإقرار به ـ سبحانه ـ أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإقرار والاعتراف بالخالق فطريّ ضروريّ في نفوس الناس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يُفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر تحصل له به المعرفة. انتهى[(١)].

وقال أيضاً: إن أصل العلم الإلٰهيّ فطريّ ضروريّ، وإنه أشدّ رسوخاً في النفوس من مبدإ العلم الرياضيّ؛ كقولنا: إن الواحد نصف الاثنين، ومبدإ العلم الطبيعيّ؛ كقولنا: إن الجسم لا يكون في مكانين؛ لأن هذه المعارف أسماء قد تُعرِض عنها أكثر الفِطَر، وأما العلم الإلٰهيّ فما يُتصور أن تعرض عنه فطرة. انتهى[(٢)].

والفطرة تدلّ على اتصاف الخالق بالصفات العُلى، والكمال

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٦/٣٢٨.

(٢) «مجموع الفتاوى» ٢/ ١٥ ـ ١٦.

المطلق، فهي تُدرك أن من يخلق لا يكون كمن لا يخلق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧].

فالخالق لهذا الكون لا يستوي مع غيره في صفاته، وأفعاله، وذاته، فهي تدرك علوّ الصفات، كما تدرك علوّ الذات، فإنه ما قال عارف مؤمن قط: «يا الله» إلا وجد في نفسه ضرورة بطلب العلوّ، لا يلتفت يمنة، ولا يسرة، لا يجادل في ذلك مجادل.

والفطرة، وإن غشيتها غشية الإلحاد تهتدي إلى تفرّده تعالى بالألوهيّة، يظهر ذلك في أوقات الشدّة والمحنة، فإن القلب يفزع إلى خالقه، ويلجأ إلى بارئه عند حلول الحوادث العظام، والخطوب الجسام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧][1].

والإسلام بعقائده وأحكامه موافق للفطرة، لا يعارضها، بل كلما كانت العقائد والأحكام بعيدة عن الإسلام كانت معارضة للفطرة الصحيحة، مضادة لها، ففي الفطرة محبة العدل وإيثاره، وبُغض الظلم والنفار منه، واستقباح إرادة الشرّ لذاته، لكن تفاصيل ذلك إنما تُعلم من جهة الرسل، فالطفل عند أول تمييزه إذا ضُرب من خلفه التفت؛ لِعلمه أن تلك الضربة لا بد لها من ضارب، فإذا شعر به بكى حتى يُقتصّ له منه، فيسكن، ويهدأ، فهذا إقرار في الفطرة بالخالق، وهو التوحيد، وبالعدل الذي هو شرعة الربّ تعالى[2]. والله تعالى أعلم.

---

(١) «علم العقيدة» ص٢٠١.

(٢) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير، ص٢٤٠.

ثَمَرَتُهُ

أي: هذا مبحث ثمرة التوحيد، وفائدته.

٤٤ ـ تَحْصِيلُ قُدْرَةٍ عَلَى الْإِرْشَادِ   تَعْلِيمُكَ الرَّاغِبَ فِي الرَّشَادِ

٤٥ ـ كَذَا مُحَرَّفَ الْغُلَاةِ تَنفِي   وَلِانتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ تُطْفِي

٤٦ ـ تَأْوِيلَ جُهَّالٍ تُزِيلُ مُفْحِمَا   مُخَالِفِي الْحَقِّ بِبُرْهَانٍ سَمَا

***

(تَحْصِيلُ قُدْرَةٍ عَلَى الإِرْشَادِ)؛ يعني: أن ثمرة معرفة علم التوحيد أن يحصل لك القدرة على إرشاد الناس إلى المعرفة بربهم.

وقوله: (تَعْلِيمُكَ الرَّاغِبَ فِي الرَّشَادِ) عُطِف بعاطف مقدّر؛ أي: من ثمراته أيضاً: أن تقدر على تعليم من يرغب في أن يُرشَدَ إلى الحقّ.

(كَذَاكَ مُحَرَّفَ) بضم الميم وفتح الراء المشدّدة، مصدر ميميّ من التحريف، وهو منصوب بـ«تنفي». (الْغُلَاةِ) بضمّ الغين المعجمة: جمع غال، وهو المجاوز للحدّ. (تَنفِي)؛ يعني: أنك تستطيع أن تنفي تحريف الغالين، (وَلِانْتِحَالِ)؛ أي: لاختيار (الْمُبْطِلِينَ)؛ أي: الذين يسعون في إبطال معالم الدين، ومحو آثاره في العالمين. والجارّ والمجرور متعلّق بـ(تُطْفِي) بضمّ أوله وتخفيف الهمزة، من الإطفاء؛ أي: تمحوه.

وقوله: (تَأْوِيلَ جُهَّالٍ) بالجرّ معطوف بعاطف مقدّر، وهو مفعول مقدّم لـ(تُزِيلُ) بضمّ أوله، من الإزالة. **وقوله:** (مُفْحِمًا) حال من الفاعل، وهو بضمّ الميم: اسم فاعل من أفحم خصمه: إذا غلبه بالحجة، وأسكته.

وقوله: **(مُخَالِفِي الْحَقِّ)** منصوب على أنه مفعول «مفحماً».

وقوله: **(بِبُرْهَانٍ)** متعلّق بـ«مُفحماً»، قال الفيّوميّ: والبرهان: الحجة، وإيضاحها، قيل: النون زائدة، وقيل: أصلية، وحَكَى الأزهريّ القولين، فقال في باب الثلاثيّ: النون زائدة، وقولهم: بَرْهَنَ فلان مُوَلَّد، والصواب أن يقال: أَبْرَهَ: إذا جاء بالبرهان، كما قال ابن الأعرابيّ. وقال في باب الرباعيّ: برهن: إذا أتى بحجته. واقتصر الجوهريّ على كونها أصلية، واقتصر الزمخشريّ على ما حُكي عن ابن الأعرابيّ، فقال: البرهان: الحجة، من الْبَرَهْرَهَة، وهي البيضاء من الْجَوَاري، كما اشتُقّ السلطان من السَّلِيط، لإضاءته، قال: وأَبْرَه: جاء بالبرهان، وبَرْهَنَ مُوَلَّدة. انتهى[(١)].

وقوله: **(سَمَا)** من باب نصر: بمعنى علا، صفة لـ«بُرهان». والله تعالى أعلم.

غَايَتُهُ

أي: هذا مبحث غاية تعلّم التوحيد.

اعلم أن الغاية، والغرض، والفائدة، والثمرة من العلم بمعنى واحد، فكلّ ذلك اسم للمصلحة المترتّبة على تعلّم العلم، وإنما اختلفت العبارات لاختلاف الاعتبارات، فكلّ منفعة ترتّبت على فعلٍ مَا تُسمّى فائدة، وثمرة من حيث ترتّبها عليه، وتُسمّى غاية من حيث إنها على طرف الفعل ونهايته، وغرضاً من حيث إن الفاعل فعل ذلك الفعل لأجل حصوله[(٢)].

---

(١) «المصباح المنير» ١/٤٦.

(٢) «ترتيب العلوم» للمرعشي، ص٨٦.

ثم إن غاية تعلّم علم التوحيد على منهج أهل السُّنَّة والجماعة تظهر من جهات وحيثيّات كثيرة، إلا أنها تعود إلى أمرين:

الأول: باعتبار المكلّف.

والثاني: باعتبار العلم نفسه، والعلوم الأخرى.

وما يتعلّق بالمكلّف يعود إلى منفعة دنيويّة وأخرويّة، والدنيويّة ترجع إلى منفعة علميّة وعمليّة، وإلى القسم الأول أشار **بقوله:**

٤٧ ـ غَايَتُهُ بِنِسْبَةِ الْمُكَلَّفِ ... إِفْرَادُ طَاعَةِ الإِلَٰهِ، فَاعْرِفِ

٤٨ ـ كَذَاكَ تَصْحِيحُ الْعَقِيدَةِ الَّتِي ... هِيَ الْوَسِيلَةُ لِأَعْلَى الْجَنَّةِ

٤٩ ـ مِن مُجْمَلِ الإِيمَانِ أَيْضاً تَرْتَقِي ... إِلَى الْمُفَصَّلِ، وَنِعْمَ الْمُرْتَقِي

٥٠ ـ تُنقَلُ مِنْ حَالِ مُقَلِّدٍ إِلَىٰ ... حَالِ الْيَقِينِ، نِعْمَ ذَاكَ مَنزِلَا

٥١ ـ مُصَدِّقاً عَنِ الدَّلِيلِ الْقَاطِعِ ... مُنشَرِحَ الصَّدْرِ بِنُورٍ سَاطِعِ

٥٢ ـ مُحَقِّقاً أَعْمَالَ قَلْبٍ؛ كَالرَّجَا ... وَالْخَوْفِ، وَالتَّقْوَىٰ، وَنِعْمَ مَنْهَجَا

٥٣ ـ وَتَتَحَرَّكُ الْجَوَارِحُ بِمَا ... يَرْضَاهُ رَبُّنَا تَعَالَىٰ عِظَمَا

٥٤ ـ تَنجُو مِنَ الْبِدَعِ وَالشُّبْهَةِ، ثُمّ ... تُنْعَمُ فِي الأُخْرَىٰ بِكُلِّ مَا تَؤُمّ

٥٥ ـ غَايَتُهُ بِنِسْبَةِ الْمُجْتَمَعِ ... طِيبُ الْحَيَاةِ، وَاتِّسَاعُ الْمَرْتَعِ

٥٦ ـ وَالأَمْنُ، وَالرَّخَاءُ، وَالْبَرَكَةُ ... كَذَٰلِكَ التَّمْكِينُ، نِعْمَ الرِّفْعَةُ

٥٧ ـ أَمَّا بِنِسْبَةِ الْعُلُومِ نَفْسِهَا ... يَحْفَظُهَا حَقّاً بِحِفْظِ أُسِّهَا

٥٨ ـ يُحَصِّلُ الْقُدْرَةَ لِلْإِرْشَادِ ... وَنَفْيِ تَحْرِيفِ الْغُلَاةِ الْبَادِي

٥٩ ـ كَذَا انتِحَالُ الْمُبْطِلِينَ، وَكَذَا ... تَأْوِيلُ جَاهِلٍ عَلَى الدِّينِ بَذَا

(غَايَتُهُ)؛ أي: غاية علم التوحيد، (بِنِسْبَةِ الْمُكَلَّفِ) بصيغة اسم المفعول؛ أي: بالنظر إلى من كُلّف بالتوحيد، وهو العاقل البالغ، (إِفْرَادُ طَاعَةِ الْإِلَـٰهِ)؛ يعني: أن يُفرد الله ﷻ بالعبادة، فلا يُعبد معه غيره. **وقوله:** (فَاعْرِفِ)؛ أي: فاعلم ذلك.

(كَذَاكَ) أيضاً من الغاية، (تَصْحِيحُ الْعَقِيدَةِ الَّتِي هِيَ الْوَسِيلَةُ)؛ أي: السبب (لِـ)لوصول إلى (أَعْلَى الْجَنَّةِ).

وقوله: (مِن مُجْمَلِ الإِيمَانِ) من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ أي: الإيمان المجمل، والجارّ متعلّق بـ«ترتقي». (أَيْضاً تَرْتَقِي إِلَى) الإيمان (الْمُفَصَّلِ). **وقوله:** (وَنِعْمَ الْمُرْتَقِي) بصيغة اسم الفاعل؛ أي: نِعم الرجل المرتقي أنت.

وقوله: (تُنْقَلُ) بالبناء للمفعول؛ أي: ومن الغاية أيضاً أنك تُنقل (مِنْ حَالِ مُقَلِّدٍ)؛ أي: من حال أن تقلّد غيرك، (إِلَى حَالِ الْيَقِينِ)؛ أي: إلى حال أن تعلم به علماً يقيناً، واضحاً ثابتاً، لا لَبْس فيه، ولا ريب، قال الفيوميّ: يَقِنَ الأمرُ يَيْقَن يَقَناً، من باب تَعِبَ: إذا ثبت، ووضح، فهو يقين، فَعِيل بمعنى فاعل، ويُستعمل متعدّياً أيضاً بنفسه، وبالباء، فيقال: يَقِنته، ويَقِنت به، وأيقنت به، وتيقنته، واستيقنته؛ أي: علمته، واليقين: العلم الحاصل عن نظر، واستدلال، ولهذا لا يسمى علم الله تعالى يقيناً. انتهى[1].

(نِعْمَ ذَاكَ)؛ أي: هذا الحال الذي وصلت إليه من علم اليقين، (مَنْزِلَا) منصوب على التمييز، حال كونك (مُصَدِّقاً عَنِ الدَّلِيلِ)؛ أي: بالدليل، فـ«عن» بمعنى الباء. (القَاطِعِ)؛ أي:

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٦٨١.

المقطوع به، وحال كونك (مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ بِنُورٍ سَاطِعِ)، وحال كونك (مُحَقِّقاً أَعْمَالَ قَلْبٍ)، وذلك (كَالرَّجَا) بالقصر للوزن، (وَالْخَوْفِ) من الله، (وَالتَّقْوَى)؛ أي: وتقوى الله ﷻ، (وَنِعْمَ) ما ذُكر (مَنْهَجَا)؛ أي: من حيث المنهج والطريق المستقيم.

(وَتَتَحَرَّكُ الْجَوَارِحُ)؛ أي: أعضاؤك، (بِمَا يَرْضَاهُ رَبُّنَا تَعَالَى) من الأعمال الصالحات، **وقوله:** (عِظَمَا) تمييز محوّل عن الفاعل؛ أي: تعالت عظمته.

(تَنْجُو)؛ أي: تَسْلَم (مِنَ الْبِدَعِ) بكسر الباء: جمع بِدعة، وهي الأمور المُحْدَثة بعد كمال الدين، بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]، والمعنى: أنك تَسْلم من المعتقدات الفاسدة، والخرافات الباطلة. (وَالشُّبْهَةِ)؛ أي: وتنجو أيضاً من الشبهة ـ بضمّ، فسكون ـ، وهي العقيدة الملبّس مأخذها، سُمّيت بذلك؛ لأنها تُشبه الحقّ.

(ثُمّ تُنْعَمُ) بضمّ أوله، من الإنعام، (فِي) الدار (الأُخْرَى بِكُلِّ مَا تَؤُمّ)؛ أي: بكل ما تقصده، وتريده من النعيم المقيم.

(غَايَتُهُ بِنِسْبَةِ الْمُجْتَمَعِ)؛ يعني: أن غاية علم التوحيد بالنسبة لجماعة المسلمين، (طِيبُ الْحَيَاةِ)؛ أي: حصول الحياة الطيّبة، (وَاتِّسَاعُ الْمَرْتَعِ)؛ أي: وَسَعة العيش، وأصل المرتع: موضع رَتْع الماشية، وهو المكان الذي ترعى فيه كيف شاءت، استُعير هنا لسعة العيش. (وَالأَمْنُ وَالرَّخَاءُ وَالْبَرَكَةُ كَذَلِكَ التَّمْكِينُ)؛ أي: تمكينهم في الأرض، (نِعْمَ الرِّفْعَةُ) هذه المنزلة.

حاصل ما أشارت إليه هذه الأبيات: أن غاية علم التوحيد تظهر من حيثيّات كثيرة، إلا أنها كلها تعود إلى أمرين:

الأول: باعتبار المكلّف، **والثاني:** باعتبار العلم نفسه مع العلوم الأخرى.

فما يتعلّق بالمكلّف يعود إلى منفعة دنيويّة وأخرويّة، والدنيويّة ترجع إلى منفعة علميّة وعمليّة.

ففي حياة الدنيا طيب العيش، وانتظام أمر الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

فالإيمان يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزقه الله تعالى، وعدم تعلّقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيّبة، فإن الحياة الطيّبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوّشه مما يتشوّش منه الفاقد للإيمان الصحيح[(١)].

وفي الصحيح: **«عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ»**[(٢)].

---

(١) «التوضيح والبيان» لشجرة الإيمان للشيخ السعديّ، ص٧٣.

(٢) صحيح مسلم (ح٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

وقال ابن القيّم عن شيخه ابن تيميّة: وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرّهم نَفْساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفَتَح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من روحها ونسيمها وطِيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها. انتهى[1].

وفصّل بعضهم القول في بيان حياة المؤمن الطيّبة في الدنيا من خمسة وجوه، فقال:

إن المؤمن يعلم أن رزقه من تدبير ربه سبحانه، وربه محسن له فيه، فهذا يدعوه إلى الرضا عن الله ورزقه.

وإن المؤمن يعلم حقيقة الدنيا، وسرعة تقلّبها، فلا يجزع عند حلول كَدَرها؛ لأنه يعلم أن العيش عيش الآخرة.

والمؤمن مع رضاه، وعدم جزعه مغمور بالسعادة في حياته؛ لأن غايته إرضاء ربه، فهو يلهج بهذه الكلمة: «**إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي**».

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» ص٤٨.

ثم إن لذّات الدنيا زائلة خسيسةٌ، وأعظم لذّاتها: الوقاع والطعام، وقد يحتقرهما الإنسان إذا تفكّر فيهما.

فالمؤمن عندما تُقبل عليه الدنيا لا يعانقها معانقة العاشق؛ لأنه يعلم زوالها، فيأخذ منها بقدر ما يتزوّد إلى الآخرة.

وقد تحدّث الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الحياة الطيّبة، فقال: فأعظم الأسباب التي تحصّل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته سبحانه، ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذّاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خُلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تتقلب آلاماً وعذاباً، ويبقى صاحبها في المعيشة الضَنْك، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعض المحبين تمرّ به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في نعيم مثل هذا إنهم لفي عيش طيّب، وكان غيره يقول: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف. انتهى[1].

وقرأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حين أُدخل السجن قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري،

(١) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ص٢٣٣.

أنى رُحتُ فهي معي، لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة[1].

و(**أَمَّا**) غايته (**بِنِسْبَةِ الْعُلُومِ نَفْسِهَا يَحْفَظُهَا**)؛ أي: العلوم، (**حَقّاً بِحِفْظِ أُسِّهَا**) بضمّ الهمزة وتشديد السين المهملة؛ أي: أصلها.

وهو التوحيد (**يُحَصِّلُ**) من التحصيل، (**الْقُدْرَةَ**)؛ أي: الاقتدار (**لِلإِرْشَادِ**)؛ أي: إرشاد الخلق إلى الحقّ، (**وَ**) إلى (**نَفْيِ تَحْرِيفِ الْغُلَاةِ الْبَادِي**)؛ أي: الظاهر، صفة لـ«تحريف»، (**كَذَا انْتِحَالُ الْمُبْطِلِينَ وَكَذَا تَأْوِيلُ جَاهِلٍ عَلَى الدِّينِ**) متعلّق بـ(**بَذَا**) بالذال المعجمة؛ أي: أفحش في تأويله، والجملة صفة لـ«جاهل». والله تعالى أعلم.

وَاضِعُهُ

أي: هذا مبحث واضع التوحيد، والمراد: وضْع هذا الفنّ، ومدوّنه في الكتب.

٦٠ - وَاضِعُهُ: الأَئِمَّةُ الْفُحُولُ ... الْحُنَفَاءُ الْقُدْوَةُ الْعُدُولُ

٦١ - مِن سَلَفِ الْأُمَّةِ خَيْرِ مَن مَضَىٰ ... وَمَن قَفَا مَنْهَجَهُمْ ذَا الْمُرْتَضَىٰ

(**وَاضِعُهُ**)؛ أي: واضع هذا الفنّ، (**الأَئِمَّةُ الْفُحُولُ الْحُنَفَاءُ الْقُدْوَةُ الْعُدُولُ مِن سَلَفِ الأُمَّةِ خَيْرِ مَن مَضَى**) بجرّ «خير» صفة لـ«الأمة»؛ أي: أفضل الأمم الماضية. (**وَمَن قَفَا**)؛ أي: ومن تبع (**مَنْهَجَهُمْ**)؛ أي: طريقهم. **وقوله:** (**ذَا**) اسم إشارة بدل مما قبله. **وقوله:** (**الْمُرْتَضَى**) نعت، أو بدل، أو عَطْف بيان لـ«ذَا».

(١) «الوابل الصيّب» ص٦٩.

اعلم أنه لا شكّ أن التوحيد جاءت به الأنبياء والرسل عليهم السلام من عند الله سبحانه.

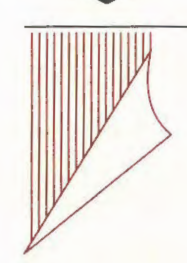
وأما علم التوحيد فقد مرّ في وَضْعه وتدوينه على مرحلتين:

الأولى: مرحلة الرواية، **والثانية**: مرحلة التدوين.

أما المرحلة الأولى: فإنه لم يكن الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم بحاجة إلى التدوين في الكتب، فقد كانوا يتلقّون عن رسول الله ﷺ الوحيين مباشرة، ويسألونه عما يُشكل عليهم، فيجيبهم عنها، فقد أورد عليه أصحابه، وأعداؤه من الأسئلة شيئاً كثيراً، أما أصحابه فللاسترشاد، والفهم وزيادة الإيمان، وأما أعداؤه فللتعنّت وطلب التعجيز والغلبة، وكلّ ذلك حَفِظه الصحابة عنه ﷺ، ورووه لمن بعدهم، فكانت مسائل الاعتقاد محفوظة في أذهانهم، مستدَلّاً عليها بكتاب ربهم سبحانه، وسُنَّة نبيّهم ﷺ، ولم يقع بينهم اختلاف في شأن العقيدة، بل اجتمعوا على عقيدة صحيحة سالمة نقيّة خالية من كلّ شوب، فكانوا أقرب إلى أن يوفّقوا للصواب من غيرهم بما خصّهم الله تعالى به من توقّد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسَعة العلم، وتقوى الربّ، فالعربيّة طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فِطَرهم وعقولهم، عَلِموا التنْزيل، وأسبابه، والتأويل وآدابه، وعاينوا الأنوار القرآنيّة، والأشعّة المصطفويّة، فهم أسعد الأمة بإصابة الصواب، وأجدرها بعلم فقه السُّنَّة والكتاب[1].



(١) «إعلام الموقعين» لابن القيّم ٤/١٤٨ ـ ١٥٠.

الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي فَضْلِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

٦٢ - الدِّينُ عِنْدَ رَبِّنَا: الْإِسْلَامُ وَمَا عَدَاهُ بَاطِلٌ أَوْهَامُ

٦٣ - وَهُوَ: الِاسْتِسْلَامُ بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ الْخَالِي عَنِ الْإِلْحَادِ

٦٤ - وَالِاتِّبَاعُ لِلرَّسُولِ الْمُصْطَفَىٰ مَعَ التَّبَرِّي مِن طَرِيقِ الْجُلَفَا

٦٥ - وَهُوَ دِينُ الْأَنبِيَاءِ وَالرُّسُلْ عَلَيْهِ آيَاتُ الْكِتَابِ قَد تَدُلّ

٦٦ - فَقَوْلُهُ جَلَّ: ﴿رَضِيتُ لَكُمُ﴾ أَعْظَمُ آيَةٍ لَهُ قَد تُكْرِمُ

٦٧ - لَا يَسَعُ الْإِنسَانَ أَن يَدِينَا بِغَيْرِهِ حَتَّىٰ يَرَى الْيَقِينَا

٦٨ - إِذْ هُوَ لَا يُقْبَلُ؛ قَدْ قَالَ ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ جَلَّ وَاهِبُ الْمِنَنْ

٦٩ - كَذَاكَ قَالَ الْمُصْطَفَىٰ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ»، وَهْوَ وَعِيدٌ يَرْدَعُ

٧٠ - وَهُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَهْ قَدْ أَوْضَحَتْهُ الْآيَةُ الْكَرِيمَهْ

٧١ - دِينُ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةِ الْعَمِيمَهْ وَالْيُسْرِ دُونَ كُلْفَةٍ أَلِيمَهْ

٧٢ - دِينُ التَّحَرُّرِ عَنِ التَّعَبُّدِ لِغَيْرِ رَبِّنَا وَلِيِّ الْمُهْتَدِي

٧٣ - وَهُوَ دِينُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا أَشَارَ رَبُّنَا بِنَصٍّ أُحْكِمَا

٧٤ - وَالْمُسْلِمُونَ هُمْ خِيَارُ الْأُمَّةِ وَالْأُمَّةُ الْوَسَطُ دُونَ مِرْيَةِ

٧٥ - وَالشُّهَدَا عَلَىٰ جَمِيعِ الْأُمَمِ كَمَا أَبَانَهُ بِنَصٍّ مُحْكَمِ

(الدِّينُ عِندَ رَبِّنَا الإسْلَامُ) هذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ

عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. **(وَمَا عَدَاهُ)** من الأديان التي يدين بها كثير من الناس، **(بَاطِلٌ أَوْهَامُ)**؛ أي: أخطاء، أخطؤوا به الطريق.

(وَهُوَ)؛ أي: الإسلام؛ أي: معناه، **(الاسْتِسْلَامُ)**؛ أي: الانقياد لله تعالى **(بِالتَّوْحِيدِ الْخَالِصِ)**. **وقوله: (الْخَالِي)** تفسير لـ«الخالص»، **(عَنِ الإِلْحَادِ)** مصدر ألحد، يقال: لَحَد الرجلُ في الدين لَحْداً، وألحد إلحاداً: طعن. قال الفيّوميّ: قال بعض الأئمة: والملحدون في زماننا هم الباطنية الذين يدّعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأنهم يعلمون الباطن، فأحالوا بذلك الشريعة؛ لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن. وقال أبو عبيدة: ألحد إلحاداً: جادل، وماري. ولَحَد: جارَ، وظلم. وألحد في الحرم بالألف: استحلّ حُرمته، وانتهكها. انتهى[(١)].

(وَالاتِّبَاعُ) بالرفع عطفاً على «الاستسلام»، **(لِلرَّسُولِ الْمُصْطَفَى)** ﷺ **(مَعَ التَّبَرِّي مِن طَرِيقِ الْجُلْفَا)** بالقصر للوزن، وهو بضمّ الجيم: جمع جِلْفٍ، بكسر فسكون: الرجل الجافي، والمراد به: المنحرف عن الدين.

(وَهُوَ)؛ أي: الإسلام، **(دِينُ الأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلْ)** عليهم السلام، **(عَلَيْهِ)**؛ أي: ما ذكرناه، **(آيَاتُ الْكِتَابِ)**؛ أي: القرآن الكريم، **(قَد تَدُلّ، فَقَوْلُهُ جَلَّ)**: وَ**(﴿رَضِيتُ لَكُمُ﴾)** ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾، **(أَعْظَمُ آيَةٍ لَهُ)**؛ أي: لهذا الدين، **(قَد تُكْرِمُ)**؛ أي: ترفع قدره، وتُعليه.

(لَا يَسَعُ الإِنسَانَ) العاقل البالغ **(أَن يَدِينَا)** بألف الإطلاق؛

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٥٥٠.

أي: يتعبّد الله تعالى (بِغَيْرِهِ)؛ أي: بغير الإسلام، (حَتَّى يَرَى الْيَقِينَا)؛ أي: حتى يموت، فاليقين: الموت، كما في «القاموس». (إِذْ هُوَ)؛ أي: لأنه، فـ«إذ» تعليليّة، (لَا يُقْبَلُ) بالبناء للمفعول؛ أي: لا يقبله الله من صاحبه. (قَدْ قَالَ) تعالى مبيّناً ذلك: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا (فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] (جَلَّ)؛ أي: تعالى وتقدّس، (وَاهِبُ الْمِنَنْ) بالكسر: جمع مِنّة، وهي العطيّة؛ أي: معطي العطايا للخلق، وهو الله سبحانه. (كَذَاكَ قَالَ الْمُصْطَفَى) ﷺ: (لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ) هو إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِن بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**». (وَهْوَ)؛ أي: هذا النصّ، (وَعِيدٌ يَرْدَعُ)؛ أي: يزجر، يقال: ردعته عن الشيء أردعه رَدْعاً: إذا منعته، وزَجَرته.

(وَهُوَ)؛ أي: الإسلام، (دِينُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَهْ)؛ أي: البريئة من التلوّث بالأهواء، وتقليد الآباء، والمشايخ. (قَدْ أَوْضَحَتْهُ الآيَةُ الْكَرِيمَهْ)؛ أي: في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

(دِينُ الْهُدَى)؛ أي: وهو أيضاً دين الهداية إلى الصراط المستقيم، (وَالرَّحْمَةِ الْعَمِيمَهْ)؛ أي: التي وسعت كلّ شيء، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

(وَالْيُسْرِ) بضمّ فسكون؛ أي: وهو أيضاً دين التيسير والتسهيل، (دُونَ كُلْفَةٍ)؛ أي: من غير مشقّة (أَلِيمَهْ)؛ أي: مؤلمة، صفة لـ«كُلْفة».

(دِينُ التَّحَرُّرِ)؛ أي: هو دين يُحرّر الإنسان (عَنِ التَّعَبُّدِ لِغَيْرِ رَبِّنَا)؛ أي: عن عبادة غير الله تعالى، (وَلِيِّ الْمُهْتَدِي) بجرّ «وليّ» صفة لـ«ربِّنا».

(وَهُوَ دِينُ الْعِلْمِ)؛ أي: هو دين يهدي إلى العلم (وَالْعَقْلِ)؛ أي: وإلى صلاح العقل، (كَمَا أَشَارَ رَبُّنَا) سبحانه (بِنَصٍّ) إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ الآية [المجادلة: ١١]، وإلى قوله ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَٰتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

وقولي: (أُحْكِمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: أُحكمت آياته، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

(وَالْمُسْلِمُونَ) مبتدأ. **وقوله:** (هُمْ) حرف فَصْل، أو ضمير فصل، لا محلّ له من الإعراب. **وقوله:** (خِيَارُ الأُمَّةِ) خبر المبتدأ، وهو إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله: (وَالأُمَّةُ) عطف على «خيارُ»، (الْوَسَطُ) بفتحتين؛ أي: العدول. **وقوله:** (دُونَ مِرْيَةِ) بالكسر: اسم من الامتراء؛ أي: من غير شكّ.

(وَالشُّهَدَا) بالقصر للوزن؛ أي: هم الشهداء عند ربهم (عَلَى

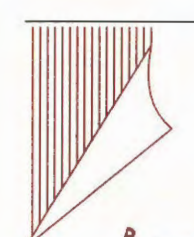
جَمِيعِ الأُمَمِ) السابقة، **(كَمَا أَبَانَهُ)**؛ أي: أوضحه الله ﷻ **(بِنَصٍّ مُحْكَمٍ)**؛ أي: حيث قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال في «فتح القدير» في تفسير هذه الآية: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: مثل ذلك الجعل جعلناكم، قيل: معناه: وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً. والوسط: الخيار، أو العدل، والآية محتملة للأمرين، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل، فوجب الرجوع إلى ذلك، ولمّا كان الوسط مجانباً للغلوّ والتقصير كان محموداً؛ أي: هذه الأمة لم تَغْلُ غلوَّ النصارى في عيسى، ولا قَصّروا تقصير اليهود في أنبيائهم عليهم السلام. ويقال: فلان أوسط قومه، وواسطتهم؛ أي: خيارهم.

وقوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: يوم القيامة تشهدون للأنبياء عليهم السلام على أممهم أنهم قد بلّغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، ويكون الرسول شهيداً على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمره بتبليغه إليهم. انتهى[١]. والله تعالى أعلم.



(١) «فتح القدير» للشوكانيّ ١/ ١٧٤ ـ ١٧٥.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَخَصَائِصِهِمْ

٧٦ ـ ثُمَّتَ أَهْلُ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ ... مُقَابِلٌ لِلْفِرَقِ الْبِدْعِيَّهْ

٧٧ ـ وَالسُّنَّةُ: الطَّرِيقَةُ الْمُتَّبَعَهْ ... فِي الدِّينِ قَدْ أَوْضَحَهَا مَن شَرَعَهْ

٧٨ ـ سَلَكَهَا الرَّسُولُ وَالصَّحَابَةْ ... مِن قَوْلٍ، اَوْ فِعْلٍ، كَذَاكَ النِّيَّةْ

(ثُمَّتَ) هي «ثُمَّ» العاطفة، زيدت فيها التاء لتأنيث اللفظ. (أَهْلُ السُّنَّةِ) مبتدأ، (السَّنِيَّهْ) فعيلة بمعنى مفعولة، من السناء بالمدّ، وهو الرفعة، أو من السنا بالقصر، وهو الضوء، صفة لـ«السُّنَّة»، (مُقَابِلٌ) خبر المبتدأ، (لِلْفِرَقِ الْبِدْعِيَّهْ) أعني: أن أهل السُّنَّة هم مقابل أهل البدع.

ثم فسّر السُّنَّة **بقوله:** (وَالسُّنَّةُ الطَّرِيقَةُ) مبتدأ وخبره، (الْمُتَّبَعَهْ)؛ أي: التي ينبغي اتّباعها (فِي الدِّينِ). **وقوله:** (قَدْ أَوْضَحَهَا) جملة حاليّة؛ أي: أوضح تلك الطريقة (مَنْ شَرَعَهْ)؛ أي: شرع الدين، وهو الله تعالى، فـ«مَن» فاعل «أوضح». (سَلَكَهَا)؛ أي: سلك تلك الطريق (الرَّسُولُ) ﷺ، (وَ) سلكها بعده (الصَّحَابَةُ) رضي الله عنهم، **وقوله:** (مِنْ قَوْلٍ اَوْ) بدرج الهمزة، (فِعْلٍ كَذَاكَ النِّيَّةُ) أعني: أن السُّنَّة تشمل القول، والفعل، والنيّة.

ثم بيَّن معنى الجماعة بقوله:

٧٩ ـ أَمَّا الْجَمَاعَةُ فَهُمْ: أُولُو السَّنَنْ مَذْهَبُهُمْ حَقٌّ، وَرَأْيُهُمْ حَسَنْ

٨٠ ـ وَأَخْيَرُ الْأُمَّةِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَهْلُ الْهُدَىٰ وَالْفَضْلِ وَالْجَمَاعَةِ

٨١ ـ هُمُ: الصَّحَابَةُ، وَمَن قَد تَبِعَا سَبِيلَهُم بِالصِّدْقِ وَالْحُبِّ مَعَا

(أَمَّا الْجَمَاعَةُ) مبتدأ خبره جملة **قوله:** (فَهُمْ أُولُو)؛ أي: أصحاب (السَّنَنْ)؛ أي: هم المتمسّكون بها، (مَذْهَبُهُمْ حَقٌّ، وَرَأْيُهُمْ حَسَنْ) لأنهم على هدى من ربهم.

(وَأَخْيَرُ الأُمَّةِ)؛ أي: أفضلها رتبة عند الله تعالى، وهو مبتدأ خبره **قوله:** (أَهْلُ السُّنَّةِ)؛ أي: الطريقة المحمديّة، (أَهْلُ الْهُدَى)؛ أي: هم أهل الهداية (وَالْفَضْلِ)؛ أي: وأهل زيادة المنْزلة والدرجة عند الله تعالى، (وَالْجَمَاعَةِ)؛ أي: لاجتماع كلمتهم على الحقّ. (هُمُ)؛ أي: هؤلاء الذين وُصفوا بأنهم السُّنَّة والجماعة هم (الصَّحَابَةُ) رضي الله عنهم (وَمَن قَد تَبِعَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: ومن سلك (سَبِيلَهُمْ) حال كونه متّصفاً (بِالصِّدْقِ) في أقواله، وأفعاله، وأحواله كلها، (وَالْحُبِّ)؛ أي: حبّ الله عز وجل، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين، (مَعَا)؛ أي: حال كون الصدق والحبّ مجتمعين، لا تفريق بينهما.

ثم بيَّن معنى السلف، فقال:

٨٢ ـ وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ أَهْلُ الْأَثَرِ وَالِاتِّبَاعِ، وَوُعَاةُ الْخَبَرِ

٨٣ ـ وَالْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ الْمَنصُورَهْ أَخْبَارُهُمْ عَالِيَةٌ مَشْهُورَهْ

(وَالسَّلَفُ الصَّالِحُ) مبتدأ، وخبره **قوله:** (أَهْلُ الأَثَرِ) المنقول عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه رضي الله عنهم، (وَالاتِّبَاعِ) لسُنَّة النبيّ صلى الله عليه وسلم،

(وَوُعَاةُ) بالضمّ، جمع واع؛ أي: حَفَظةُ **(الْخَبَرِ)**؛ أي: الحديث النبويّ، والمراد: حِفظهم له عن الضياع والتحريف، سواء حفِظوه في صدورهم، أو في بطون كتبهم. **(وَالْفِرْقَةُ)** بكسر فسكون؛ أي: وهم الجماعة، والطائفة **(النَّاجِيَةُ)** في الدنيا والآخرة، **(الْمَنصُورَهْ)** على أعدائها، وهو إشارة إلى حديث: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**». متّفق عليه.

(أَخْبَارُهُمْ عَالِيَةٌ)؛ أي: مرتفعة القدر، **(مَشْهُورَهْ)** بين الناس.

٨٤ ـ وَكُلُّ مَن بِاللَّهِ رَبّاً رَضِيَا ... كَذَاكَ بِالْإِسْلَامِ دِيناً عَلِيَا

٨٥ ـ وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيّاً أُرْسِلَا ... مُلْتَزِماً بِدِينِهِ مُفَضِّلَا

٨٦ ـ مُحَكِّماً شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ ... وَقَدْ بَرِي مِن كُلِّ ذِي أَسْقَامِ

٨٧ ـ مِن كُلِّ بِدْعِيٍّ؛ فَإِنَّهُ غَدَا ... مِنْ أَهْلِ سُنَّةٍ عَلَىٰ نَهْجِ الْهُدَىٰ

٨٨ ـ وَذَاكَ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْأُمَّةِ ... غَيْرَ الْمُخَالِفِينَ نَهْجَ السُّنَّةِ

٨٩ ـ لَمْ يَنطَوُوا تَحْتَ لِوَاءِ الْبِدْعَةِ ... وَلَمْ يُكَثِّرُوا سَوَادَ الْفِرْيَةِ

(وَكُلُّ مَنْ بِاللهِ) سبحانه، و«كلُّ» مبتدأ، خبره **قوله:** «فإنه غدا» إلخ، **(رَبّاً)** منصوب على الحال، **(رَضِيَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، **(كَذَاكَ)** رضي **(بِالْإِسْلَامِ دِيناً)**. **وقوله: (عَلِيَا)** بألف الإطلاق أيضاً، من عَلِيَ الشيءُ كرَضِيَ، لغة في علا الشيءُ كغزا، بمعنى: ارتفع[1]، والجملة صفة لـ«ديناً»، **(وَ)**رضي أيضاً **(بِمُحَمَّدٍ)** ﷺ، حال

(١) راجع: «القاموس» ص٩٠٨.

كونه (**نَبِيّاً أُرْسِلَا**) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، وحال كونه (**مُلْتَزِماً بِدِينِهِ**)؛ أي: بدين النبيّ ﷺ، حال كونه (**مُفَضِّلَا**)، من التفضيل؛ أي: معلياً قدره على جميع الأديان، وحال كونه (**مُحَكِّماً**) من التحكيم، (**شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ**)؛ يعني: أنه لا يتحاكم في جميع شؤونه إلا إلى الإسلام، (**وَقَدْ بَرِي**) بتخفيف الهمزة، من البراءة؛ أي: والحال أنه قد تبرّأ (**مِن كُلِّ ذِي أَسْقَامِ**) بالفتح: جمع سقم ـ بفتحتين ـ، أو بضمّ فسكون، وهو: المرض، والمراد هنا: العقائد الفاسدة التي تُمرض القلب. **وقوله:** (**مِن كُلِّ بِدْعِيٍّ**) بدل من الجارّ والمجرور قبله. **وقوله:** (**فَإِنَّهُ غَدَا**) خبر «كلّ»؛ أي: صار (**مِنْ أَهْلِ سُنَّةٍ**)؛ أي: من أهل السُّنَّة والجماعة. **وقوله:** (**عَلَى نَهْجِ الْهُدَى**)؛ أي: على طريق الهداية، وهو مؤكّد لِمَا قبله.

(**وَذَاكَ**)؛ أي: هذا الذي ذكرناه من أوصاف أهل السُّنَّة والجماعة، (**يَشْمَلُ جَمِيعَ الأُمَّةِ**) الإسلاميّة (**غَيْرَ الْمُخَالِفِينَ نَهْجَ**)؛ أي: طريق (**السُّنَّةِ لَمْ يَنطَوُوا**) بالطاء؛ أي: لم يجتمعوا، ويَحْتَمِل أن يكون بالضاد المعجمة، وهو بمعناه. (**تَحْتَ لِوَاءِ الْبِدْعَةِ**) بمعنى: أنهم لا يوالون أهل البدعة، ولا يتبعون آراءهم، وأفعالهم السيّئة، (**وَلَمْ يُكَثِّرُوا**) بتشديد الثاء المثلّثة، من التكثير، (**سَوَادَ الْفِرْيَةِ**) والسّواد ـ بفتح السين المهملة، وتخفيف الواو ـ: العدد الكثير، و«الفِرْيَة» ـ بكسر الفاء، وسكون الراء ـ: اسم من الافتراء، وهو الكذب؛ أي: لم يكثّروا جماعة الضلالة.

٩٠ ـ هُمْ وَسَطُ الْأُمَّةِ لَا مَكَانَ خَصّ ... وَلَا الزَّمَانُ عَنْهُمُ يَخْلُو بِنَصّ

٩١ ـ لَا يَخْرُجُونَ قَطُّ فِي الْعَقِيدَةِ ... عَمَّا أَتَىٰ ذُو السِّيرَةِ الْحَمِيدَةِ

٩٢ ـ وَصَحْبُهُ، وَهُمْ: أُولُو الْعِنَايَةِ ... بِالذِّكْرِ وَالْهُدَىٰ، أُولُو الرِّعَايَةِ

٩٣ ـ أَهْلُ اجْتِمَاعٍ، وَاتِّفَاقٍ، وَتَبَعْ لَيْسَ لَـهُمْ هَوَىٰ ضَلَالٍ يُبْتَدَعْ

(هُمْ وَسَطُ الأُمَّةِ) مبتدأ وخبره؛ أي: أهل السُّنَّة والجماعة وسط الأمة؛ أي: خيارهم وأفضلهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(لَا مَكَانَ خصّ)؛ أي: لا يخصّهم مكان معيّن، (وَلَا الزَّمَانُ عَنْهُمُ) متعلّق بـ(يَخْلُو)، وذلك (بِنَصّ) من النبيّ ﷺ، حيث قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنصُورَةً، لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

(لَا يَخْرُجُونَ قَطُّ فِي الْعَقِيدَةِ عَمَّا أَتَى) به، وسنّه لأمته، (ذُو السِّيرَةِ) برفع «ذو» على الفاعليّة لـ«أتى»، و«السِّيرة» بالكسر: الطريقة، وجمعها سِيَر، مثلُ: سِدْرة وسِدَرٍ؛ أي: صاحب الطريقة، وهو النبيّ ﷺ. (الْحَمِيدَةِ)؛ أي: المحمودة، (وَصَحْبُهُ)؛ أي: وعما أتى به صحبه، (وَهُمْ أُولُو الْعِنَايَةِ) بالكسر؛ أي: الاعتناء، وهو الاهتمام بالشيء والاشتغال به، (بِالذِّكْرِ)؛ أي: بالقرآن الكريم، كما سمّاه تعالى بذلك حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] (وَالْهُدَى)؛ أي: وهو الهدى، كما سمّاه تعالى أيضاً بذلك حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ

لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]. (أُولُو الرِّعَايَةِ)؛ أي: المحافظة على سُنَّة النبيّ ﷺ، وهم أيضاً (أَهْلُ اجْتِمَاعٍ) على الحقّ، (وَاتِّفَاقٍ) عطف تفسير لِمَا قبله، (وَتَبَعْ) بفتحتين، مصدر تَبِعَ، يقال: تَبِعَ زيدٌ عمراً، من باب تَعِبَ: إذا مشى خلفه[1]؛ أي: هم أصحاب اتّباع للسُّنَّة المحمّديّة، (لَيْسَ لَهُمْ هَوَى ضَلَالٍ)؛ أي: لا يتّبعون هوى الضلال، و«الهَوَى» ـ بفتحتين ـ في الأصل مصدر هَوِيَ الشيءَ، من باب تَعِبَ: إذا أحبّه، وعَلِقَ به، ثمّ أُطْلِقَ على ميل النفس وانحرافها نحوَ الشيء، ثمّ استُعمل في ميلٍ مذموم، فيقال: اتّبَع هواه، وهو من أهل الأهواء[2].

و«الضلال»: ضدّ الرشاد.

وقوله: (يُبْتَدَعْ) بالبناء للمفعول، صفة لِمَا قبله.

٩٤ ـ وَهُمْ يُوَالُونَ يُعَادُونَ عَلَىٰ ... سُنَّةِ أَحْمَدَ، وَنِعْمَ عَمَلَا

٩٥ ـ سِيَرُهُمْ حَسَنَةٌ قَوِيمَهْ ... كَذَا عَقَائِدُهُمُ سَلِيمَهْ

٩٦ ـ وَلَا يُخَالِفُونَ فِي التَّرْبِيَةِ ... هَدْيَ الَّذِي أُرْسِلَ لِلتَّرْقِيَةِ

٩٧ ـ الْتَزَمُوا آدَابَهُ، وَقَدْ قَفَوْا ... آثَارَهُ، وَالِانْحِرَافَ قَدْ نَفَوْا

٩٨ ـ مُعَلِّمِينَ وَمُرَبِّينَ الْفِرَقْ ... بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِسَانُهُمْ نَطَقْ

❊ ❊ ❊

(وَهُمْ)؛ أي: أهل السُّنَّة والجماعة؛ أي: ومن خصائصهم أنهم (يُوَالُونَ) الناس، و(يُعَادُونَـ)ـهم (عَلَى سُنَّةِ أَحْمَدَ) ﷺ؛ يعني: أنهم يوالون من تمسّك بالسُّنَّة، ويعادون من خالفها معانداً ومكابراً، (وَنِعْمَ) هذا العمل (عَمَلَا) منصوب على التمييز.

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٧٢.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٤٣.

(سِيَرُهُمْ) بكسر ففتح، جمع سيرة ـ كما مرّ قريباً ـ؛ أي: طريقتهم (حَسَنَةٌ) لكونها مبنيّة على الكتاب والسُّنَّة، (قَوِيمَهْ)؛ أي: مستقيمة، لا اعوجاج فيها، ولا انحراف.

(كَذَا عَقَائِدُهُمُ سَلِيمَهْ) من شوائب الأهواء الباطلة، ورذائل النِّحَل العاطلة.

(وَلَا يُخَالِفُونَ فِي التَّرْبِيَةِ)؛ أي: في تربية الناس، وإرشادهم، (هَدْيَ) بفتح فسكون؛ أي: طريق النبيّ ﷺ (الَّذِي أُرْسِلَ) بالبناء للمفعول، (لِلتَّرْقِيَةِ)؛ أي: ليرقّي العباد من حضيض عبادة العباد إلى أَوْج عبادة رب العباد، ويرفع منْزلتهم عند الله تعالى في الدنيا ويوم المعاد. (الْتَزَمُوا آدَابَهُ)؛ أي: آداب النبيّ ﷺ، (وَقَدْ قَفَوْا)؛ أي: اتبعوا (آثَارَهُ) ﷺ، والجملة مؤكّدة لِمَا قبلها.

(وَالانْحِرَافَ)؛ أي: عن هديه ﷺ (قَدْ نَفَوْا)؛ أي: أبعدوه عنهم، حال كونهم (مُعَلِّمِينَ، وَمُرَبِّينَ الْفِرَقْ) بكسر ففتح، جمع فرقة ـ بكسر فسكون ـ؛ أي: طوائف الناس على اختلاف أجناسهم، وتفرّق أهوائهم. **وقوله:** (بِالأَمْرِ وَالنَّهْيِ) متعلّق بـ«نطق»، (لِسَانُهُمْ نَطَقْ)؛ يعني: أنهم يَلهجون دائماً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فلا يسأمون، ولا ينقطعون.

٩٩ ـ وَلَا تَزَالُ فِرْقَةٌ تُجَاهِدُ ... بِالْيَدِ وَالسِّنَانِ مَن يُعَانِدُ

١٠٠ ـ كَذَاكَ بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ ... مَنصُورَةً عَلَىٰ مَدَى الأَزْمَانِ

١٠١ ـ حَتَّىٰ تَجِيءَ السَّاعَةُ الْمَوْعُودَهْ ... وَهْيَ عَلَىٰ دَعْوَتِهَا الْمَحْمُودَهْ

١٠٢ ـ وَلَا يَضُرُّهَا الْمُخَالِفُ وَلَا ... خَاذِلُهَا، فَاعْجَبْ لِقَوْمٍ فُضِّلَا

١٠٣ ـ قُدْوَةُ مَن سَارَ، مَنَارُ الْحَائِرِ ... وَحُجَّةُ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْقَاهِرِ

(وَ)من خصائصهم أيضاً أنه (لَا تَزَالُ فِرْقَةٌ) منهم (تُجَاهِدُ بِالْيَدِ وَالسِّنَانِ)؛ أي: بالرمح والسيف. **وقوله:** (مَنْ يُعَانِدُ) مفعول «تجاهد»؛ أي: من يخالف الحقّ تكبّراً وتجبّراً، (كَذَاكَ) تجاهد (بِـ)إقامة (الْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ)؛ أي: ببيان الحقّ، حال كونها (مَنصُورَةً) على أعدائها، وغالبة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]. (عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ)؛ أي: في الأوقات المختلفة، (حَتَّى تَجِيءَ السَّاعَةُ)؛ أي: إلى أن تقوم الساعة (الْمَوْعُودَهْ)؛ أي: التي وعد الله تعالى بإتيانها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: ٥٩]. (وَهْيَ)؛ أي: والحال أن هذه الفرقة قائمة، ومستمرّة (عَلَى دَعْوَتِهَا الْمَحْمُودَهْ) عند الله تعالى، وعند من عَقِل عن الله.

(وَلَا يَضُرُّهَا الْمُخَالِفُ) لها (وَلَا خَاذِلُهَا) اسم فاعل من خذله، من باب قتل: إذا ترك نصرته وإعانته، وتأخّر عنه، (فَاعْجَبْ) أيها السامع، (لِقَوْمٍ)؛ أي: لخصائص قوم (فُضَلا) بضمّ ففتح، جمع فاضل؛ كشاعر وشُعَراء، وفي نسخة «نُبَلا»: جمع نَبيل؛ كشريف وشُرفاء، وزناً ومعنًى.

(قُدْوَةُ) بضمّ القاف، وتُكسر، وسكون الدال المهملة، قال الفيّوميّ رحمه الله: الْقُدْوة: اسم مَنِ اقتَدَى به: إذا فَعل مثل فِعله تأسياً، وفلان قدوةٌ؛ أي: يُقتَدَى به، والضم أكثر من الكسر. قال ابن فارس: ويقال: إن القدوة: الأصلُ الذي يتشعب منه الفروع. انتهى. والمعنى: أنهم يقتدي بهم (مَن سَارَ) لنيل الدرجات العلى.

وهم (مَنَارُ الْحَائِرِ)؛ أي: علامة يستدلّ بها الشخص الذي تحيّر في أمره، (وَحُجَّةُ اللهِ الْعَزِيزِ الْقَاهِرِ)؛ أي: هم أيضاً حجة الله على الناسِ؛ إذ بهم قامت الحجة عليهم، فهم ورثة الأنبياء والمرسلين، فكما قامت الحجة بالرسل على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، كذلك قامت بالعلماء بعدهم.

١٠٤ ـ وَمَعَ رِفْعَةِ مَقَامِهِمْ فَلَا نَزْعُمُ عِصْمَتَهُمْ بَيْنَ الْمَلَا

١٠٥ ـ بَلْ كُلُّهُمْ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ وَيُرَدّ إِلَّا النَّبِيَّ حَيْثُ وَحْياً اسْتَنَدْ

١٠٦ ـ قَدْ حَكَّمُوا الشَّرْعَ، تَوَاصَوْا بِالْهُدَىٰ نَهَوْا عَنِ الْغُلُوِّ جَالِبِ الرَّدَىٰ

١٠٧ ـ كَذَا عَنِ الْجَفَاءِ، وَانْدِفَاعِ تَهَوُّرٍ، عَجْزٍ، أَوِ انْقِطَاعِ

(وَمَعَ رِفْعَةِ)؛ أي: ارتفاع وعلوّ (مَقَامِهِمْ)؛ أي: منْزلتهم عند الله تعالى، (فَلَا نَزْعُمُ)؛ أي: لا نعتقد، ولا ندّعي (عِصْمَتَهُمْ)؛ أي: كونهم معصومين من الخطأ (بَيْنَ الْمَلَا)؛ أي: بين الخلق، (بَلْ كُلُّهُمْ يُؤْخَذُ مِنْهُمْ)؛ أي: بعض ما يصدر منهم من القول والفعل؛ لكونه صواباً، (وَيُرَدّ) البعض الآخر؛ لكونه خطأً، (إِلَّا النَّبِيَّ) ﷺ، فإنه يؤخذ منه كلّ ما يصدر منه من قول وعمل، (حَيْثُ وَحْياً اسْتَنَدْ)؛ أي: لأنه مستنِد إلى وحي الله تعالى إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

(قَدْ حَكَّمُوا) بتشديد الكاف، من التحكيم، (الشَّرْعَ)؛ أي: جعلوه حاكماً عليهم في ظواهرهم وبواطنهم. (تَوَاصَوْا)؛ أي: أوصى بعضهم بعضاً (بِالْهُدَى)؛ أي: بالهداية إلى الصراط المستقيم.

(نَهَوْا عَنِ الْغُلُوِّ) في الدين؛ أي: عن مجاوزة الحقّ فيه. (جَالِبِ الرَّدَى)؛ أي: الهلاك، وهو صفة لـ«الغلوّ»، (كَذَا عَنِ الْجَفَاءِ)؛ أي: نهوا أيضاً عن البعد عن الحقّ، (وَاندِفَاع) إلى شيءٍ مّا بلا تأمل وتفكّر و(تَهَوُّرٍ)؛ أي: وقوع في الأمر بلا بيّنة، و(عَجْزٍ) عن أداء ما طُلب منهم، (أَو) بمعنى الواو، (انْقِطَاع) عن فعل الخير.

١٠٨ ـ وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا عَافِيَةً مِن كُلِّ شَرٍّ وَبَلَا

١٠٩ ـ لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلْبَلَاءِ فَإِن بِهِمْ نَزَلَ بِالْقَضَاءِ

١١٠ ـ اسْتَسْلَمُوا وَاسْتَرْجَعُوا؛ فَظَفِرُوا بِرَحْمَةِ الْمَوْلَىٰ، وَنِعْمَ الظَّفَرُ

١١١ ـ وَجَانَبُوا كُلَّ الْمَعَاصِي، وَاللَّغَطْ يُخَالِطُونَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ

(وَ)؛ أي: من خصائهم أيضاً أنهم (يَسْأَلُونَ اللهَ جَلَّ وَعَلَا عَافِيَةً)؛ أي: أن يعافيهم (مِنَ كُلِّ شَرٍّ وَبَلَا).

و(لَا يَتَعَرَّضُونَ لِلْبَلَاءِ) يقال: تعرّض للشيء، وتعرّضه يتعدّى بنفسه، وبالحرف: إذا تصدّى له، وطلبه[1]. والمعنى: أنهم لا يطلبون البلاء، وذلك بالبعد عن أسبابه، وتجنّب الطريق الموصل إليه. (فَإِن بِهِمْ نَزَلَ)؛ أي: فإن نزل البلاء عليهم، دون تعرّضهم له، بل (بِالْقَضَاءِ)؛ أي: بل أصابهم بقضاء الله تعالى وقدره، (اسْتَسْلَمُوا) لقضاء الله تعالى وقدره، وصبروا عليه (وَاسْتَرْجَعُوا)؛ أي: قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، (فَظَفِرُوا) بكسر الفاء؛ أي: فازوا (بِرَحْمَةِ الْمَوْلَى) سبحانه، (وَنِعْمَ الظَّفَرُ) هذا، وهذا إشارة إلى قوله تعالى:

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٠٤.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

(وَجَانَبُوا كُلَّ الْمَعَاصِي، وَاللَّغَطْ) بفتحتين، وبفتح فسكون: الصوت، والجلَبة، والمراد به هنا: اللغو والكلام الباطل. **(يُخَالِطُونَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ)**؛ يعني: أنهم يعتزلون الناس ويبتعدون عنهم إلا في الخير؛ كصلاة الجماعة، والجمعة، ومجالس العلم، والذكر، ولا يخالطونهم ولا يجالسونهم في مجالس السوء والضلال، كما أمرهم الله ﷻ بذلك، حيث قال: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

١١٢ ـ قَوْمٌ سَرَائِرُهُمْ نَقِيَّهْ لَا يَعْرِفُونَ الْغِشَّ وَالتَّقِيَّهْ

١١٣ ـ قَوْمٌ يُدَارُونَ بِلَا مُدَاهَنَهْ يُعْطُونَ مَنْ حَرَمَهُم مُعَاوَنَهْ

١١٤ ـ وَأَخَذُوا الْعَفْوَ، وَعُرْفاً أَمَرُوا وَأَعْرَضُوا عَن جَاهِلٍ قَدْ يَبْطَرُ

***

(قَوْمٌ)؛ أي: من خصائصهم أيضاً أنهم قوم **(سَرَائِرُهُمُ نَقِيَّهْ)**؛ أي: صافية، لا يشوبها كَدَر الشرك، والشكّ، والنفاق. **(لَا يَعْرِفُونَ الْغِشَّ)** بالفتح، والغشّ: خلاف النصيحة، يقال: غشّه غَشّاً، من باب قَتَلَ، والاسم: غِشّ بالكسر: إذا لم ينصحه، وزيّن له غير المصلحة، قاله الفيّوميّ[1]. **(وَالتَّقِيَّهْ)**؛ أي: ولا يعرفون أيضاً التقيّة،

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٤٧.

وهي من صفات المنافقين، يظهرون خلاف ما يُبطنون لمخادعة المسلمين، واتقاءً لبأسهم، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأن ذاك للمؤمنين الذين يخافون بطش الكفار بهم، فيتقون شرّهم بإظهار الودّ لهم، فيباح لهم ذلك؛ للضرورة. والله تعالى أعلم.

(قَوْمٌ)؛ أي: ومن خصائهم أيضاً أنهم قوم **(يُدَارُونَ)** الناس **(بِلَا مُدَاهَنَهْ)** لهم، والفرق بينهما: أن المداراة هي ترك شيء من الدنيا لإصلاح الدين، وأما المداهنة فهي ترك شيء من الدين لإصلاح الدنيا، وهو حرام، إلا للضرورة؛ كأن يُكره بالتلفظ بالكفر، وأما المداراة فهي جائزة، بل مستحبّة. والله تعالى أعلم.

(يُعْطُونَ مَنْ حَرَمَهُمْ)؛ أي: ومن خصائصهم أيضاً أنهم يُعطون من منعهم ماله **(مُعَاوَنَهْ)**؛ أي: إعانة له، **(وَأَخَذُوا الْعَفْوَ)** يقال: أخذت حقي عفواً؛ أي: سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ، كما ثبت في «الصحيحين» أنه كان يقول: «**يَسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنَفِّرُوا**»، والمراد بالعفو هنا: ضد الْجَهْد[1].

(وَعُرْفاً أَمَرُوا)؛ أي: أمروا بالمعروف؛ أي: بما عُرف حُسنه شرعاً وعقلاً، **(وَأَعْرَضُوا عَنْ جَاهِلٍ قَدْ يَبْطَرُ)** من باب تعب؛ أي: يتكبر عن الحقّ ويدفعه، والجملة صفة لـ«جاهل»، وهذا إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني ٢/ ٣١٨.

قال النسفيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو ضدّ الْجَهْد؛ أي: ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم، ولا تطلب منهم الْجَهْد وما يشق عليهم، حتى لا ينفروا؛ كقوله ﷺ: «**يَسِّرُوا، وَلَا تُعَسِّرُوا**». ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ بالمعروف والجميل من الأفعال، أو هو كل خصلة يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ولا تكافئ السفهاء بمثل سَفَهِهم، ولا تُمارِهم، واحلُم عليهم. انتهى(١).

١١٥ ـ بِالصَّبْرِ، وَالْحِلْمِ، وَبِالتَّوَكُّلِ ... وَالْحُبِّ، وَالْخَشْيَةِ وَصْفُهُمْ جَلِي

١١٦ ـ وَقِلَّةِ الضِّحْكِ، وَقِلَّةِ الْفَرَحْ ... بِهَٰذِهِ الدُّنْيَا؛ فَهِي دَارُ تَرَحْ

١١٧ ـ وَبِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَفِي ... إِقَامَةِ الطَّاعَةِ، وَالْبِرِّ الْوَفِي

١١٨ ـ وَكَفِّ أَلْسِنَتِهِمْ، وَحِفْظِ مَا ... ظَهَرَ أَوْ بَطَنَ حِفْظاً مُحْكَمَا

١١٩ ـ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ الْعَلِي ... بِالْعِلْمِ، وَالْحِكْمَةِ، وَالرِّفْقِ الْجَلِي

(بِالصَّبْرِ) متعلّق بـ«الوصف»؛ أي: بصبرهم على الأذى، وعلى الطاعة، وعن المعاصي، **(وَالْحِلْمِ)** عمن جهل بهم، **(وَبِالتَّوَكُّلِ)** على ربهم **(وَالْحُبِّ)** لله، وفي الله تعالى، **(وَالْخَشْيَةِ)**. **وقوله: (وَصْفُهُمْ جَلِي)** مبتدأ وخبره؛ أي: ظاهر.

والمعنى: أن من خصائصهم أيضاً أنهم متّصفون بالصبر، والحلم، والتوكل على الله تعالى، والحب له، وفيه، والخشية له سبحانه.

---

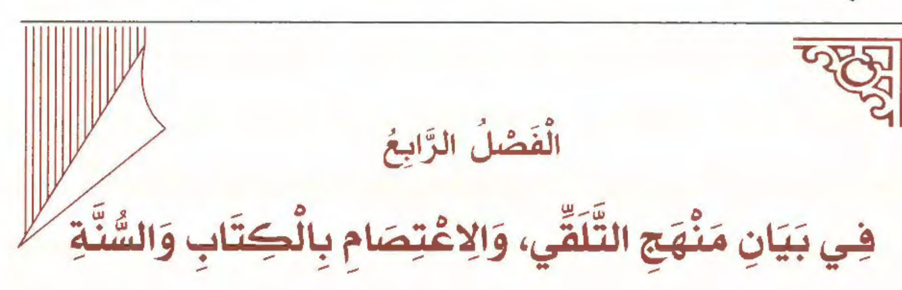
(١) «مدارك التنْزيل وحقائق التأويل» ١/ ٦٢٦.

(وَ) هم موصوفون أيضاً بـ(قِلَّةِ الضَّحْكِ) بفتح الضاد المعجمة، وكسرها، وأصله الضَّحِك ـ بفتح فكسر ـ، فخُفّف (وَ) بـ(قِلَّةِ الْفَرَحْ بِهَذِهِ الدُّنْيَا)؛ أي: بمتاعها وملاذّها، (فَهْي) بسكون الياء لغة في فتحها، وليس ضرورةً، فتنبّه، والفاء للتعليل؛ أي: لأن هذه الدنيا (دَارُ تَرَحْ) بفتحتين، ضدّ الفرح؛ أي: دار حزن وهمّ وغم.

(وَ)من خصائصهم أيضاً أنهم معروفون (بِالصَّلَاةِ فِي الْجَمَاعَةِ، وَفِي إِقَامَةِ الطَّاعَةِ) لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ولولاة أمورهم (وَالْبِرِّ)؛ أي: الإحسان إلى عباد الله تعالى. **وقوله:** (الْوَفِي) صفة لـ«البرّ».

(وَ)من خصائصهم أيضاً أنهم موصوفون بـ(كَفِّ أَلْسِنَتِهِمْ) عن التكلّم فيما لا خير فيه، من الغيبة، والنميمة، والكذب، ونحوها، (وَحِفْظِ مَا ظَهَرَ) من أقوالهم، وأفعالهم، وأحوالهم، (أَوْ) بمعنى الواو، (بَطَنَ)؛ أي: استتر عن أعين الناس منها، (حِفْظاً)؛ أي: يحفظون ذلك حفظاً (مُحْكَما)؛ أي: قويّاً.

(وَ)من خصائصهم أيضاً أنهم معروفون بـ(دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى اللهِ الْعَلِي)؛ أي: إلى عبادته ﷻ (بِالْعِلْم)، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ﴾ الآية [يوسف: ١٠٨]، (وَالْحِكْمَةِ)، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ﴾ الآية [النحل: ١٢٥]، (وَالرِّفْقِ)؛ أي: اللِّين في الدعوة، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٩]. **وقوله:** (الْجَلِي)؛ أي: الظاهر، صفة لـ«اللين». والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

فِي بَيَانِ مَنْهَجِ التَّلَقِّي، وَالِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

أي: هذا فصل نبيّن فيه طريق تلقّي العلم من الكتاب والسُّنّة، وطريق التمسّك بهما.

١٢٠ ـ ثُمَّتَ أَهْلُ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ أَخْذُهُمُ الْعَقِيدَةَ السَّمِيَّهْ

١٢١ ـ عَنِ الْكِتَابِ، وَصَحِيحِ مَا أَتَىٰ وَلَوْ عَنِ الْوَاحِدِ نَقْلاً ثَبَتَا

١٢٢ ـ فَلَا يُقَدِّمُونَ قَوْلَ أَحَدِ عَلَىٰ كَلَامِ رَبِّنَا الْمُمَجَّدِ

١٢٣ ـ وَلَا عَلَى السُّنَّةِ مَهْمَا عَظُمَا قَائِلُهُ، فَاعْجَبْ لِقَوْمٍ كُرَمَا

(ثُمَّتَ) بضم أوله هي «ثُمّ» العاطفة، زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ. (أَهْلُ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ)؛ أي: المضيئة، أو الرفيعة القدر، فـ«أهلُ» مبتدأ، و(أَخْذُهُمُ) مبتدأ ثان، (الْعَقِيدَةَ السَّمِيَّهْ)؛ أي: الرفيعة القدر. **وقوله:** (عَنِ الْكِتَابِ) خبر الثاني، والجملة خبر الأول؛ أي: يأخذون عقيدتهم عن كتاب الله سبحانه (وَ)عن (صَحِيحِ مَا أَتَى)؛ أي: جاء عن النبيّ ﷺ، (وَلَوْ عَنِ الْوَاحِدِ) متعلّق بـ«ثبت»، (نَقْلاً) منصوب على التمييز، أو الحال. (ثَبَتَا) بألف الإطلاق؛ أي: ولو ثبت نقله عن طريق راوٍ واحد، ففيه أنهم يقبلون خبر الواحد في العقائد، وهذا هو الحقّ الذي درج عليه السلف، والمحقّقون من الخَلَفَ، فخبر الواحد تثبت به العقائد، كما تثبت به الأحكام.

(فَلَا يُقَدِّمُونَ)؛ أي: ومن صفاتهم أنهم لا يقدّمون **(قَوْلَ أَحَد)** من الناس **(عَلَى كَلَامِ رَبِّنَا الْمُمَجَّدِ)**؛ أي: المعظم، **(وَلَا عَلَى السُّنَّةِ)** الصحيحة **(مَهْمَا عَظُمَا)** بألف الإطلاق؛ أي: مهما كان **(قَائِلُهُ)**؛ يعني: أنهم لا يبالون بقول من خالف الكتاب والسُّنَّة، ولو كان المخالف عظيم القدر، فهما أعظم منه، **(فَاعْجَبْ لِقَوْمٍ كُرَمَا)** هذا كلام مدح لهؤلاء، فإنهم يستحقّون الثناء الخالد.

١٢٤ ـ وَأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ السُّنَنَا ... حُجَّةَ كُلِّ نَازِلٍ يُصِيبُنَا

١٢٥ ـ وَيَقْبَلُونَ النَّصَّ بِالتَّعْظِيمِ ... يُقَدِّمُونَهُ لَدَى التَّحْكِيمِ

١٢٦ ـ يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ قَدْ شَمَلَا ... جَمِيعَ مَا يَطْلُبُهُ كُلُّ الْمَلَا

١٢٧ ـ وَيَأْخُذُونَهُ بِالِاعْتِمَادِ ... عَلَيْهِ فَهْوَ عُمْدَةُ الرَّشَادِ

١٢٨ ـ وَيَفْهَمُونَهُ بِفَهْمِ السَّلَفِ ... مِنَ الصَّحَابَةِ، وَمَن جَا يَقْتَفِي

١٢٩ ـ يُفَسِّرُونَ النَّصَّ بِالنَّصِّ، فَمَا ... عَن سَلَفِ الْأُمَّةِ جَاءَ مُحْكَمَا

١٣٠ ـ إِن لَمْ يَكُن فَمِن لُغَاتِ الْعَرَبِ ... الْفُصَحَاءِ الرُّفَعَاءِ الرُّتَبِ

❊ ❊ ❊

(وَأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ السُّنَنَا) بألف الإطلاق؛ أي: سنن النبيّ ﷺ، **(حُجَّةَ كُلِّ نَازِلٍ)**؛ أي: كلّ أمر نازل ينْزل بالأمة. **وقولي: (يُصِيبُنَا)** صفة لـ«نازل»، **(وَيَقْبَلُونَ)** بفتح أوله، من القبول، **(النَّصَّ)**؛ أي: نصّ الكتاب والسُّنَّة، **(بِالتَّعْظِيمِ، يُقَدِّمُونَهُ)**؛ أي: النصّ، **(لَدَى التَّحْكِيمِ)**؛ أي: عند التحاكم في الخصومات والمنازعات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

(يَعْتَقِدُونَ كَوْنَهُ)؛ أي: كون النصّ (قَدْ شَمَلَا) بألف الإطلاق، من بابي قعد، وتعب؛ أي: عمّ (جَمِيعَ مَا يَطْلُبُهُ) بنصب «جميعَ» على المفعوليّة لـ«شمل»، والفاعل **قوله:** (كُلُّ الْمَلَا)؛ أي: جميع الناس.

والمعنى: أنهم يعتقدون أن نصوص الكتاب والسُّنَّة تجمع كلّ ما يحتاج إليه كلّ الناس، بحيث لا يخرج منها شيء، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ الآية [الأنعام: ٣٨].

(وَيَأْخُذُونَهُ)؛ أي: نصّ الكتاب والسُّنَّة، (بِالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ)؛ أي: بالاتّكاء إليه، يقال: اعتمدت على الشيء: إذا اتكأت، واعتمدت على الكتاب: رَكِنت، وتمسكت به. **وقوله:** (فَهْوَ عُمْدَةُ الرَّشَادِ) جملة تعليليّة؛ أي: لأنه مُعتمد للاهتداء به، (وَيَفْهَمُونَهُ)؛ أي: نصّ الكتاب والسُّنَّة، (بِفَهْمِ السَّلَفِ)؛ أي: بالمعنى الذي فهمه السلف (مِنَ الصَّحَابَةِ) ﷺ، (وَمَن جَا يَقْتَفِي)؛ أي: يقتدي بالصحابة من التابعين، ومن تبعهم بإحسان.

تنبيه: إنما قال: «بفهم السلف»؛ لأن كثيراً من الخلف أتوا بأهوائهم في تفسير الكتاب والسُّنَّة ما يخالف هدي الرسول ﷺ، وهدي المؤمنين، فضلّوا وأضلوا، والدليل على أن فهم السلف هو الحقّ المطلوب، وما يخالفه هو الضلال المردود قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

فقد توعّد الله تعالى من خالف سبيل المؤمنين، كما توعّد من

خالف الرسول ﷺ سواء، والمراد بالمؤمنين: هم الصحابة الذين نزلت الآية المذكورة عليهم، وكذا كل من تبعهم بإحسان.

والحاصل: أن الواجب على المسلم أن يفهم الكتاب والسُّنَّة على ما بيّنه ﷺ، وفَهِمه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. والله تعالى أعلم.

(يُفَسِّرُونَ النَّصَّ بِالنَّصِّ) لأن النصوص يفسِّر بعضها بعضاً، **(فَمَا عَن سَلَفِ الأُمَّةِ جَاءَ)**؛ أي: إذا لم يجدوا تفسير النصّ بالنصّ يفسّرونه بما جاء عن السلف، حال كونه **(مُحْكَما)**؛ أي: متقناً مفصّلاً، **(إِن لَمْ يَكُنْ)**؛ أي: إن لم يوجد عن السلف في تفسير النصّ، **(فَمِن لُغَاتِ الْعَرَبِ)**؛ أي: يفسّرونه بما نُقل عن العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: ٣]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ٣]. **وقوله: (الْفُصَحَاءِ الرُّفَعَاءِ الرُّتَبِ)** صفة لـ«العرب»، و«الفصحاء»: جمع فصيح، و«الرُّفعاء»: جمع رفيع، وهو مضاف إلى «الرتب» جمع رتبة، وهو من إضافة الصفة إلى مرفوعها. والله تعالى أعلم.

١٣١ ـ وَظَاهِرُ النُّصُوصِ أَجْرَوْهُ عَلَىٰ ... ظَاهِرِهِ؛ فَلَا يُرَىٰ مُؤَوِّلَا
١٣٢ ـ وَيَدْفَعُونَ إِن تَعَارُضٌ ظَهَرْ ... فِي النَّقْلِ وَالْعَقْلِ بِدَافِعِ الضَّرَرْ
١٣٣ ـ يَعْتَقِدُونَ النَّصَّ لَا يَجِي بِمَا ... يُحَالُ، بَلْ بِمَا يُحِيرُ الْفُهَمَا
١٣٤ ـ وَإِن يَقَعْ تَعَارُضٌ فَالْخَلَلُ ... فِي الْعَقْلِ، أَوْ ضَعْفٍ لِمَا قَدْ نَقَلُوا

(وَظَاهِرُ النُّصُوصِ) برفع «ظاهر» على الابتداء، والخبر ما بعده، أو بنصبه مفعول لفعل محذوف، يفسّره ما بعده. **(أَجْرَوْهُ عَلَى ظَاهِرِهِ)**؛ يعني: أنهم يُجرون النصّ على ظاهره، **(فَلَا يُرَى)** بالبناء للمفعول، **(مُؤَوَّلا)**؛ أي: إلا لدليل يدلّ على تأويله، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢] اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله وأيّنا لم يظلم نفسه؟ فقال: «**أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»، فقد أجرى الصحابة رضي الله عنهم هذا النصّ على عمومه، بحيث يشمل الظلم الأصغر والظلم الأكبر، فبيّن النبيّ ﷺ أن العموم ليس مراداً هنا، بل المراد هنا: الظلم العظيم، فصُرف هذا العموم إلى الخصوص بالدليل المذكور.

ولمّا سمعت عائشة رضي الله عنها النبيّ ﷺ يقول: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**» قالت عائشة: فقلت: أوَ ليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨]؟! قالت: فقال: «**إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِن مَن نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلَكْ**».

والحاصل: أن تأويل ظواهر النصوص إن كان لدليل جاز، وإلا فلا، فتأويل الخلف للكتاب والسُّنَّة بأهوائهم، ولا سيما آيات الصفات، وأحاديث الصفات ليس مقبولاً، بل هو باطل مردود؛ لأنه لا يستند إلى دليل، وإنما مستنده العقل الصرف، فتنبّه، فإن هذا مزلة أقدام. والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

(وَيَدْفَعُونَ) التعارض **(إِن تَعَارُضٌ ظَهَر فِي النَّقْلِ وَالْعَقْلِ)**؛ يعني: أنه إن حصل ما ظاهره التعارض بين صحيح النقل وصريح العقل دفعوا ذلك التعارض، **(بِدَافِعِ الضَّرَر)**؛ أي: بما يزيل ذلك التعارض بينهما، والمراد بالضرر: هو التعارض.

(يَعْتَقِدُونَ النَّصَّ)؛ أي: هم يعتقون أن النصّ **(لَا يَجِي)** بتخفيف الهمزة، **(بِمَا يُحَالُ)**؛ أي: بالشيء المستحيل الذي يُحيله العقل، **(بَلْ)** إنما يأتي أحياناً **(بِمَا يُحِيرُ الْفُهَمَا)** بضم حرف المضارعة؛ أي: يوقع عقل العقلاء في الحيرة، يقال: حار في أمره يَحار حَيَراً، من باب تَعِب، وحَيْرةً: إذا لم يَدْرِ وجه الصواب.

(وَإِن يَقَعْ تَعَارُضٌ) بين النقل والعقل، دون إمكان التوفيق بينهما، **(فَالْخَلَلُ فِي الْعَقْلِ)**؛ يعني: أن العقل ليس صريحاً، بل هو مشوّه بما يغطي عنه فَهْم الحقّ، **(أَوْ ضُعْفٍ)** بفتح الضاد، وضمها، **(لِمَا قَدْ نَقَلُوا)**؛ أي: للذي نقلوه.

وحاصل المعنى: أنه إذا وقع التعارض بين النصّ والعقل، ولم يمكن الجمع بينهما، فهذا يعود إلى أحد أمرين: إما أن يكون النص المنقول غير صحيح، بأن كان حديثاً ضعيفاً، أو أن العقل الذي عارضه غير سليم، بأن ينسدّ عليه طريق الفهم بسبب من الأسباب؛ كالهوى، والشبهة، وتقليد أهل الأهواء.

وخلاصة القول: أنه لا يقع التعارض بين صحيح النقل وصريح العقل، وإنما يقع ذلك بين ضعيف النقل وصريح العقل، أو بين صحيح النقل وفاسد العقل. والله تعالى أعلم.

١٣٥ ـ مَا سَكَتَ الشَّارِعُ عَنْهُ وَعَفَا   قَدْ سَكَتُوا عَنْهُ فَنِعْمَ الْحُنَفَا
١٣٦ ـ وَنَقَّحُوا الْمَصَادِرَ الشَّرْعِيَّهْ   عَنْ كُلِّ مَا يَشُوبُ مِن رَزِيَّهْ
١٣٧ ـ مِمَّا أَتَىٰ أَهْلُ الْكَلَامِ وَالسَّفَهْ   بِهِ، وَمَا شَوَّهَ أَهْلُ الْفَلْسَفَهْ

(مَا) موصولة مبتدأ، خبره: «قد سكتوا عنه»؛ يعني: أن الأمر الذي (سَكَتَ الشَّارِعُ عَنْهُ) ولم يبيّن الحكم فيه، لا بالتحليل، ولا بالتحريم، ولا بغيرهما، (وَعَفَا) عنه، (قَدْ سَكَتُوا عَنْهُ) فلم يبحثوا، ولم يتكلّموا فيه؛ لأن الله ـ سبحانه ـ لم يسكت عنه إلا رأفة بعباده ورحمة لهم، فلا ينبغي البحث عنه، وهو إشارة إلى حديث أبي ثعلبة الخشنيّ رضي الله عنه مرفوعاً: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ، غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»، رواه الدارقطنيّ وغيره، وحسّنه بعضهم.

ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَن شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُم بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» متفق عليه.

وقوله: (فَنِعْمَ الْحُنَفَا) مَدْح لهؤلاء أهل السُّنَّة والجماعة الذين وُصفوا بهذه الصفات العالية الغالية.

(وَنَقَّحُوا)؛ أي: هذّبوا (الْمَصَادِرَ)؛ أي: الأدلة (الشَّرْعِيَّه) الكتاب والسُّنَّة، (عَنْ كُلِّ مَا يَشُوبُ) من باب قال؛ أي: يختلط بها (مِن رَزِيَّه)؛ أي: من مصائب، ثم بيّن الرزيّة **بقوله:** (مِمَّا أَتَى أَهْلُ الْكَلَامِ)؛ أي: المتكلّمون المشتغلون بعلم الكلام. **وقوله:** (وَالسَّفَهْ)

عَطْف تفسير لِمَا قبله. **وقوله:** (بِهِ) متعلّق بـ«أتى»، (وَ) من (مَا شَوَّهَ)؛ أي: قبّح به (أَهْلُ الْفَلْسَفَه)؛ أي: الفلاسفة الذين يحكّمون العقل في كلّ شيء، ولا يلتفتون إلى النقل: الكتاب والسُّنَّة، بل مرجعهم العقل الصِّرْف، فما قَبِلَه قبلوه، وما رَفَضَه رفضوه، وهم الذين انطمست بصيرتهم، وانتكست قلوبهم، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

١٣٨ ـ يَعْتَمِدُونَ فِي التَّخَاطُبِ لَدَىٰ　　مَسَائِلِ الدِّينِ وَالَاصْلِ الْـمُقْتَدَىٰ=

١٣٩ ـ أَلْفَاظَ مَا وَرَدَ فِي النَّصِّ؛ فَلَا　　يَسْتَعْمِلُونَ مُحْدَثاً قَدْ سَفَلَا=

١٤٠ ـ كَجَوْهَرٍ، وَعَرَضٍ، مِمَّا ابْتَدَعْ　　لَهُ أُولُو الْكَلَامِ، بِئْسَ الْـمُبْتَدَعْ

(يَعْتَمِدُونَ فِي التَّخَاطُبِ)؛ أي: في محاوراتهم، وفي الكلام الجاري بينهم، (لَدَى)؛ أي: عند تقريرهم (مَسَائِلِ الدِّينِ)؛ أي: مسائل الاعتقاد المعلقة بالدين، (وَالَاصْلِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها. **وقوله:** (الْمُقْتَدَى) صفة لـ«الأصل»؛ أي: وعند تقرير أصول الدين، فهو مؤكّد لِمَا قبله. **وقوله:** (أَلْفَاظَ) منصوب على المفعوليّة لـ«يعتمدون»، وهو مضاف إلى (مَا وَرَدَ) من إضافة الموصوف إلى الصفة؛ أي: الألفاظ التي وردت (فِي النَّصِّ)؛ أي: في نصّ كتاب الله تعالى، ونصّ سُنَّة رسول الله ﷺ.

والحاصل: أنهم يعتمدون ألفاظ ومصطلحاتِ الكتاب والسُّنَّة

عند تقرير مسائل الاعتقاد، وأصول الدين، ويعبّرون بها عن المعاني الشرعيّة وِفق لغة القرآن، وبيان الرسول ﷺ.

(فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ مُحْدَثاً)؛ أي: لفظاً مبتدَعاً (قَدْ سَفَلَا) مثلّث الفاء، من باب كَرُمَ، ونَصَرَ، وعَلِم: ضدّ عَلا، صفة لـ«محدثاً»، وإنما كان سافلاً لكونه مهجوراً عند أهل السُّنّة، حيث لم يَرِدْ في استعمال الكتاب والسُّنَّة، وذلك (كَـ)لفظ (جَوْهَرٍ، وَ) لفظ (عَرَضٍ، مِمَّا ابْتَدَع لَهُ) اللام زائدة؛ أي: من اللفظ الذي اخترعه (أُولُو)؛ أي: أصحاب علم (الْكَلَامِ). **وقوله:** (بِئْسَ الْمُبْتَدَع) جملة سيقت لذمّ هذا الاستعمال. والله تعالى أعلم.

١٤١ ـ لِلْأُمَّةِ الْعِصْمَةُ إِنْ أَجْمَعَتِ ... وَلَا يَعُمُّ ذَا فُرَادَى الْأُمَّةِ

(لِلأُمَّةِ الْعِصْمَةُ) مبتدأ وخبره؛ أي: إن الأمة الإسلاميّة معصومة (إِنْ أَجْمَعَتِ)؛ أي: إن وقع الإجماع منها على شيء، (وَلَا يَعُمُّ ذَا)؛ أي: ما ذُكر من العصمة، (فُرَادَى الأُمَّةِ)؛ أي: آحادها.

و«**الفُرادى**» بالضمّ مقصوراً، قيل: هو جمع على غير قياس، وقيل: كأنه جمع فَرْدان، وفَرْدى، مثلُ: سُكارى في جمع سَكران، وسَكرَى، قاله الفيّوميّ[1].

وحاصل المعنى: أنه لا عصمة لأحد بعد النبيّ ﷺ إلا لإجماع الأمة إذا انعقد، وليس لآحادها عصمة.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/٤٦٦.

١٤٢ ـ وَاعْتَقَدُوا حُجِّيَّةَ الْإِجْمَاعِ ... لِكُلِّ الاحْكَامِ بِلَا نِزَاعِ

١٤٣ ـ وَمَا بِهِ الْخِلَافُ لِلنَّصِّ يُرَدّ ... فَإِنَّهُ الْمَرْجِعُ مِن دُونِ نَكَدْ

١٤٤ ـ مَعَ اعْتِذَارٍ لِلَّذِي أَخْطَأَ فِي ... هَدَفِهِ مَعَ اجْتِهَادِهِ الْوَفِي

١٤٥ ـ فَلَيْسَ مَعْصُوماً، وَلَا يُؤَثَّمُ ... بِخَطَإٍ، بَلَىٰ بِأَجْرٍ يُكْرَمُ

١٤٦ ـ مَا لَمْ يَرِدْ نَصٌّ وَلَا الْإِجْمَاعُ فِي ... شَأْنِهِ، مَنْ خَالَفَ لَا تُعَنِّفِ

١٤٧ ـ لِأَنَّ الِاجْتِهَادَ فِيهِ جَائِزُ ... فَمَن يُصِبْ أَجْرَيْنِ فِيهِ حَائِزُ

١٤٨ ـ وَمَن يَكُنْ أَخْطَا فَأَجْراً نَالَا ... فَفِي كِلَيْهِمَا الْعِتَابُ زَالَا

١٤٩ ـ وَإِن يَكُنْ خِلَافُهُ شُذُوذَا ... فَلَا يَنَالُ عِندَهُمْ نُفُوذَا

❊ ❊ ❊

(وَاعْتَقَدُوا)؛ أي: ومن صفاتهم أنهم يعتقدون (حُجِّيَّةَ الإِجْمَاعِ)؛ أي: كون الإجماع حجة (لِكُلِّ الاحْكَامِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودرجها، (بِلَا نِزَاعِ) بينهم في ذلك.

(وَمَا بِهِ الْخِلَافُ)؛ أي: والأمر الذي وقع فيه الخلاف بينهم في حكمه، (لِلنَّصِّ) متعلّق بـ(يُرَدّ) بالبناء للمفعول؛ أي: يردّ إلى الكتاب والسُّنَّة؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]. (فَإِنَّهُ)؛ أي: النصّ، (الْمَرْجِعُ)؛ أي: محلّ الرجوع، كما نصّ الله تعالى عليه في الآية المذكورة. (مِن دُونِ نَكَد)؛ أي: من دون عُسر ومشقّة، (مَعَ اعتِذَارٍ)؛ أي: مع إقامة عذر، يقال: اعتذر من فعله: إذا أظهر عذره، (لِلَّذِي أَخْطَأَ فِي هَدَفِهِ)؛ أي: في الوصول إلى مطلوبه، و«الْهَدَف» بفتحتين: الغرض، وجَمْعه أهداف، مثل: سبب وأسباب.

(مَعَ اجْتِهَادِهِ)؛ أي: مع بذل جهده في الوصول إلى الحقّ. **وقوله:** (الْوَفِي) صفة لـ«الاجتهاد»؛ أي: مع اجتهاده الكامل (فَلَيْسَ مَعْصُوماً)؛ أي: فليس المجتهد معصوماً في اجتهاده، فلا يُقبل ما اجتهد فيه إلا بحجة، (وَلَا يُؤَثَّمُ) بتشديد الثاء المثلّثة، مبنيّاً للمفعول؛ أي: لا يُنسب إلى الإثم، (بِخَطَأٍ)؛ أي: بسبب خطأه في اجتهاد، (بَلَى بِأَجْرٍ يُكْرَمُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يعطيه الله تعالى أجراً على اجتهاده مع كونه أخطأ، كما ورد بذلك النصّ الصحيح، فقد أخرج البخاريّ في «صحيحه» من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**».

وقوله: (مَا لَمْ يَرِدْ نَصٌّ) من الكتاب والسُّنَّة، و«ما» مصدريّة ظرفيّة متعلّقة بـ«تُعنّف»، (وَلَا الإِجْمَاعُ فِي شَأْنِهِ)؛ أي: شأن المخالف، (مَنْ خَالَفَـ)ـك (لَا تُعَنِّف)؛ أي: لا تَلُمه، ولا تعاتبه فيما خالفك فيه مدّة عدم ورود النصّ، أو وقوع الإجماع خلاف ما قاله، إذا كان الحقّ قَصْده، واجتهد في طلبه.

وحاصل المعنى: أن كلّ ما لم يَرِدْ بشأنه دليلٌ من نقل صحيح صريح، أو إجماع منعقد، فهو من مسائل الاجتهاد، فلا يُثَرَّب ولا يُعنّف المجتهد فيها، وإن أخطأ، إذا كان قَصْده إصابة الحقّ والوصول إليه، وذلك (لأَنَّ الاجْتِهَادَ فِيهِ)؛ أي: لهذا المخالف، فـ«في» بمعنى اللام، (جَائِز، فَمَنْ) شرطيّة، ولذا جُزم الفعل بعدها بها. (يُصِب) الحقّ في اجتهاده، (أَجْرَيْنِ) مفعول مقدّم لـ«حائز»، (فِيهِ)؛ أي: بسبب اجتهاده، فـ«في» سببيّة. **وقوله:** (حَائِزُ) خبر لمحذوف،

والجملة جواب «من»، وهو بالحاء المهملة، من حاز الشيء يحوزه بمعنى: جَمَعه وضمّه إليه.

والمعنى: أن من أصاب الحقّ في اجتهاده ينال أجرين: أجراً باجتهاده، وأجراً بإصابته الحقّ.

(وَمَن يَكُنْ أَخْطَا) بتخفيف الهمزة للوزن، **(فَأَجْراً نَالَا)** بألف الإطلاق؛ أي: أصاب أجراً واحداً، وذلك بسبب اجتهاده، **(فَفِي كِلَيْهِمَا)**؛ أي: كلا الحالين: حال الإصابة، وحال الخطأ، **(الْعِتَابُ)**؛ أي: معاتبة المجتهد، ولومه **(زَالَا)** بألف الإطلاق أيضاً.

والمعنى: أنه لا يعاتَب المجتهد في حالتي الإصابة، والخطأ؛ لكونه مأجوراً فيهما.

(وَإِن يَكُنْ خِلَافُهُ)؛ أي: خلاف المخالف، **(شُذُوذا)**؛ أي: ذا شذوذ وتفرّد، لا يؤيّده دليل من الكتاب والسُّنَّة، **(فَلَا يَنَالُ عِنْدَهُمْ)**؛ أي: عند أهل السُّنَّة والجماعة، **(نُفُوذَا)**؛ أي: قبولاً، مِن نَفَذ الأمر إذا مضى وقُبل، قال الفيّوميّ: نَفَذ السهمُ نفوذاً، من باب قَعَد، ونفاذاً: خَرَقَ الرميّةَ، وخرج منها، ويتعدى بالهمزة، والتضعيف، ونَفَذ الأمر والقول نُفُوذاً ونفاذاً: مضى، وأمره نافذٌ؛ أي: مطاع. انتهى[1].

وحاصل المعنى: أنه إذا حصل من المجتهد خلافٌ شاذّ، بأن جرى مجرى الزلّة والهفوة منه، فأهل السُّنَّة لا يتابعونه على ذلك، ويحذّرون الناس من اتباعهم له على ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/٦١٦.

١٥٠ ـ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مَا يُجْتَهَدُ فِيهِ وَمَا لَيْسَ اجْتِهَادٌ يُحْمَدُ

١٥١ ـ وَلَا تَعَارُضَ لَدَيْهِمُ وَفَا بِتَرْكِ الِانكَارِ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَا

١٥٢ ـ مَعَ بَيَانِ ضَعْفِ مَذْهَبِهِ أَنْ يَقْتَدِيَ النَّاسُ بِهِ إِذْ قَدْ وَهَنْ

(يُفَرِّقُونَ)؛ أي: أهل السُّنَّة والجماعة، (بَيْنَ مَا يُجْتَهَدُ فِيهِ) ببناء الفعل للمفعول؛ أي: بين الأمور التي يجوز فيها الاجتهاد، (وَمَا لَيْسَ اجْتِهَادٌ يُحْمَدُ) بالبناء للمفعول أيضاً؛ أي: وبين الأمور التي لا يُحمَد فيها الاجتهاد، بمعنى: أنه لا يجوز الاجتهاد فيها.

(وَلَا تَعَارُضَ لَدَيْهِمْ)؛ أي: عند أهل السُّنَّة. **وقوله:** (وَفَا)؛ أي: تمَّ، وحصل، (بِتَرْكِ الِانكَارِ) بنقل حركة الهمزة، ودرجها، (عَلَى مَنْ خَالَفَا) بألف الإطلاق؛ أي: على المجتهد الذي خالف في المسائل الاجتهاديّة، (مَعَ بَيَانِ ضَعْفِ مَذْهَبِهِ) بفتح الضاد وضمّها، لغتان؛ أي: مع بيانهم ضعف دليل مذهبه. **وقوله:** (أَنْ يَقْتَدِيَ)؛ أي: لئلا يقتدي (النَّاسُ بِهِ)؛ أي: بمذهب ذلك المخالف، (إِذْ) تعليليّة؛ أي: لأنه (قَدْ وَهَن) من باب وعد؛ أي: ضَعُفَ.

وحاصل المعنى: أنه لا تعارض بين ترك الإنكار والتضييق على المخالف في المسائل الاجتهاديّة، وبين بيان ضعف دليله، وتحذير الناس من متابعة مذهبه حيث كان ضعيفاً. والله تعالى أعلم.

١٥٣ ـ فِرَاسَةٌ صَادِقَةٌ حَقٌّ، كَمَا صَالِحَةُ الرُّؤْيَا تَكُونُ مَكْرَمَا

١٥٤ ـ وَلَيْسَ ذَانِ مَصْدَرَيْ تَشْرِيعِ بَلِ الْكِتَابُ مَرْجِعُ الْجَمِيعِ

(فِرَاسَةٌ) بكسر الفاء وتخفيف الراء، قال الفيّوميّ: فَرَستُ

بالعين أَفْرِس، من باب ضرب، فِرَاسةً ـ بالكسر ـ، وتفرّست فيه الخيرَ: تعرفته بالظنّ الصائب، ومنه: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ**». انتهى[١]. وهذا الحديث حسّنه بعضهم.

قال أبو السعادات ابن الأثير: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنظُرُ بِنُورِ اللهِ**» يقال بمعنيين:

أحدهما: ما دلَّ ظاهر هذا الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الظن والحدس.

والثاني: نوع يُتعلم بالدلائل والتجارب والْخَلْق والأخلاق، فتُعرف به أحوال الناس، وللناس فيه تصانيف قديمة وحديثة. انتهى.

ولابن القيم في «مدارج السالكين» كلام طويل حول الفراسة، واستشهد فيه بالنقول عن الصحابة الكرام، وقَسّم الفراسة إلى أقسام ثلاثة، لخص كلامه ابن أبي العزّ الحنفيّ في «شرح الطحاوية»، فقال: ومما ينبغي التنبيه عليه ها هنا: أن الفراسة ثلاثة أنواع:

إيمانية: وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده، وحقيقتها: أنها خاطر يهجُم على القلب، يَثِب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، ومنها اشتقاقها، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدّ فراسة، قال أبو سليمان الدارانيّ: الفراسة مكاشفة النفس، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان. انتهى.

وفراسة رياضية: وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي،

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٦٧.

فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان، ولا على ولاية، ولا تكشف عن حق نافع، ولا عن طريق مستقيم، بل كَشْفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم.

وفراسة خِلْقية: وهي التي صنَّف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلوا بالخَلق على الخُلق، لِمَا بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله؛ كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبِكِبَرِه على كِبَره، وسَعة الصدر على سعة الخلق، وبضيقه على ضيقه، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبها، وضعف حرارة قلبه ونحو ذلك. انتهى[1].

فقوله: «فراسة» مبتدأ، و(صَادِقَةٌ) صفته، و(حَقٌّ) خبره.

(كَمَا) مصدريّة. **وقوله:** (صَالِحَةُ الرُّؤْيَا) من إضافة الصفة للموصوف، وهو مبتدأ خبره **قوله:** (تَكُونُ مَكْرَمَا) بالفتح؛ أي: محلّ إكرام للرائي، أو لمن رئيت له، وذلك لأن الرؤيا الصالحة من الله تعالى، فهي إكرام منه ﷻ لعبده، فقد أخرج الشيخان عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مرفوعاً: **«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِن مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَه»**.

(وَلَيْسَ ذَانِ)؛ أي: المذكوران من الفراسة والرؤيا الصالحة، (مَصْدَرَيْ تَشْرِيعِ)؛ أي: محلّ صدور التشريع؛ يعني: أنه لا تؤخذ

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» ص٤٩٤.

منهما الأحكام الشرعيّة، (بَلِ) مصدر التشريع هو (الْكِتَابُ)؛ أي: القرآن الكريم، فهو (مَرْجِعُ الْجَمِيعِ)؛ أي: محلّ رجوع الأمة كلها، فمن أخذ الشرع من غيرهما فقد تزندق، ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق.

١٥٥ - لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا كَرَامَةٌ بِهَا مَقَامُهُمْ جَلَا

١٥٦ - وَأَفْضَلُ الْكَرَامَةِ الدَّوَامُ فِي طَاعَةِ الْمَوْلَىٰ كَمَا يُرَامُ

١٥٧ - وَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَلِيٌّ رَبِّهِ بِقَدْرِ مَا يُكِنُّهُ فِي قَلْبِهِ

(لِأَوْلِيَاءِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا) الجارّ والمجرور خبر مقدّم **لقوله:** (كَرَامَةٌ)؛ أي: يكرمهم الله تعالى بها بين عباده، (بِهَا)؛ أي: بسبب الكرامة، (مَقَامُهُمْ جَلَا)؛ أي: ظهر وانكشف للناس.

(وَأَفْضَلُ الْكَرَامَةِ)؛ أي: أعلى الكرامة وأرفعها هو (الدَّوَامُ)؛ أي: الاستمرار (فِي طَاعَةِ الْمَوْلَى) سبحانه، (كَمَا يُرَامُ) بالبناء للمفعول؛ أي: مثل ما يراد ويُطلب من العبد.

والمعنى: أن أفضل الكرامة هو الدوام على الطاعة والاستقامة، وأما خرق العادة فلا يدلّ بمجرّده على الولاية، فإنها قد تقع على أيدي من لا استقامة له، بل على أيدي الفسقة، من المشعوذين، والدجاجلة، بل الذي يأتي به الدجال الأكبر أكفر خلق الله أكثر وأكثر.

والحاصل: أن الكرامة الحقيقيّة هي الاستقامة على السُّنّة، وأما خرق العادة، فإن وُجد عند من تمسك بالسُّنَّة واستقام عليها، فإنها كرامة من الله ﷻ له، وإلا فإنها استدراج، كما قال ﷻ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢].

(وَكُلُّ مُؤْمِنٍ وَلِيُّ رَبِّهِ)؛ يعني: أن المؤمنين هم أولياء الله تعالى، قال الطحاويّ: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن»، قال الشارح: قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، والولي: من الوَلاية بفتح الواو التي هي ضد العداوة، وقد قرأ حمزة: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] بكسر الواو، والباقون بفتحها، وقيل: هما لغتان، وقيل: بالفتح النصرة، وبالكسر الإمارة، قال الزجاج: وجاز الكسر؛ لأن في تولي بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل، وكل ما كان كذلك مكسور مثل: الخياطة ونحوها، فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالى وليّهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد: ١١]، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ الآية [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

فهذه النصوص كلها ثَبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأنهم أولياء الله، وأن الله وليّهم ومولاهم، فالله يتولى عباده

المؤمنين، فيحبهم، ويحبونه، ويرضى عنهم، ويرضون عنه، ومن عادى له وليّاً فقد بارزه بالمحاربة.

وهذه الولاية من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، فالله تعالى ليس له وليّ من الذل، بل لله العزة جميعاً، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى وليّ ينصره.

والولاية أيضاً نظير الإيمان، فيكون مراد الشيخ: أن أهلها في أصلها سواء، وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ منصوب على أنه صفة أولياء الله، أو بدل منه، أو بإضمار: أمدح، أو مرفوع بإضمار: هم، أو خبر ثان لـ«إنّ»، وأجيز فيه الجر بدلاً من ضمير: عليهم، وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث، وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابّه، ومساخطه، ليست بكثرة صوم، ولا صلاة، ولا تملّق، ولا رياضة.

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ، والخبر: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهو بعيد؛ لقطع الجملة عما قبلها، وانتثار نظم الآية.

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، كما قد

يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظيّ بين أهل السُّنَّة، ونزاع معنويّ بينهم وبين أهل البدع، كما تقدم في الإيمان، ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ الآية [الحجرات: ١٤]، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. وقال ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَن كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ، حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»، وفي رواية: «**وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» بدل: «**وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**»، أخرجاه في «الصحيحين». وحديث شُعَب الإيمان تقدم، وقوله ﷺ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَن كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»، فعُلم أنَّ مَن كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلّد في النار، وإن كان معه كثيرٌ من النفاق، فهو يعذَّب في النار على قَدْر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار، فالطاعات من شُعب الإيمان، والمعاصي من شُعب الكفر، وإن كان رأس شُعب الكفر: الجحود، ورأس شُعب الإيمان: التصديق.

وأما ما يُروَى مرفوعاً إلى النبيّ ﷺ أنه قال: «مَا مِن جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ إِلا وَفِيهِمْ وَلِيٌّ لله، لا هُمْ يَدْرُونَ بِهِ، وَلَا هُوَ يَدْرِي بِنَفْسِهِ» فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفاراً، وقد يكونون فساقاً يموتون على الفسق، وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا

هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ الآية [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وهم قسمان: مقتصدون ومقربون.

فالمقتصدون: الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح.

والسابقون: الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، كما في «صحيح البخاريّ» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِن سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَن شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن قَبْضِ نَفسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»**.

والولي: خلاف العدو، وهو مشتق من الولاء، وهو الدنوُّ والتقرب، فوليّ الله: هو من والى الله بموافقته محبوباته، والتقرب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، قال أبو ذرّ رضي الله عنه: لمّا نزلت الآية، قال النبيّ ﷺ: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ عَمِلَ النَّاسُ بِهَذِهِ الآيَةِ لَكَفَتْهُمْ»**، فالمتقون يجعل الله لهم مخرجاً مما ضاق على

الناس، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، فيدفع الله عنهم المضارّ، ويجلب لهم المنافع، ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها من المكاشفات، والتأثيرات. انتهى[1].

وقوله: (بِقَدْرِ مَا يُكِنُّهُ) متعلّق بـ«وليُّ»؛ أي: هو وليّ لله تعالى بمقدار ما يضمره، ويعتقده **(فِي قَلْبِهِ)** من الإيمان، والتقوى، والصدق، والمحبّة لله تعالى، وفيه إشارة إلى تفاوت المؤمنين في الولاية.

قال الطحاويّ: «وأكرمهم عند الله أطوعهم، وأتبعهم للقرآن». قال شارحها: أراد: أن أكرم المؤمنين هو الأطوع لله، والأتبع للقرآن، وهو الأتقى، والأتقى هو الأكرم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي «السنن» عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لأَسْوَدَ عَلَى أَبْيَضَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِن تُرَابٍ**».

وبهذا الدليل يظهر ضَعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر، وترجيح أحدهما على الآخر، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال، والأحوال، والحقائق، فالمسألة فاسدة في نفسها، فإن التفضيل عند الله بالتقوى، وحقائق الإيمان، لا بفقر، ولا غنى، ولهذا ـ والله أعلم ـ قال عمر رضي الله عنه: الغنى والفقر مطيّتان، لا أبالي أيهما ركبت.

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز، ص٣٦١.

والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ الآية [الفجر: ١٥]، فإن استوى الفقير الصابر والغني الشاكر في التقوى استويا في الدرجة، وإن فَضَل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله، فإن الفقر والغنى لا يوزنان، وإنما يوزن الصبر والشكر، ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر: وهو أن الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ، فكل منهما لا بد له من صبر وشكر، وإنما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعاً من الشكر، وأخذوا في الترجيح، فجرَّدوا غنيّاً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوه القُرَب، شاكراً لله عليه وفقيراً متفرغاً لطاعة الله، ولأداء العبادات، صابراً على فقره، وحينئذ يقال: إن أكملهما أطوعهما وأتبعهما، فإن تساويا تساوت درجتهما، والله أعلم، ولو صح التجريد لصح أن يقال: أيما أفضل معافى شاكر أو مريض صابر، أو مطاع شاكر أو مهان صابر، أو آمن شاكر أو خائف صابر؟، ونحو ذلك. انتهى[1].

١٥٨ ـ لَيْسَ الْـمُكَاشِفُ بِمَعْصُومٍ؛ فَلَا يَـكُـونُ مَـصْـدَراً لِـشَـرْعٍ نَـبُـلَا

(**لَيْسَ الْمُكَاشِفُ**)؛ أي: الشخص الذي يكشف الله تعالى له بعض المغيّبات كرامة، (**بِمَعْصُوم**) بل هو عرضة لتسلط الشيطان عليه، (**فَـ**)إذا كان كذلك فـ(**لَا يَكُونُ مَصْدَراً لِشَرْعٍ نَبُلَا**) بفتح أوله وضمّ ثانيه؛ كشَرُف وزناً ومعنى، والجملة صفة لـ«شرعٍ».

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز، ص٣٥٧.

والمعنى: أنه لا عصمة للمكاشفات إن ادُّعيت، فلا تؤخذ منها الأحكام الشرعيّة، فجَعْلها مصدراً من مصادر التشريع من أخطر مناهج البدع، والزندقة، والإلحاد.

فمصدر التشريع هو الكتاب والسُّنَّة، فقط، فمن ادّعى غير ذلك، فقد ضلّ، وتزندق، وألحد. والله تعالى المستعان.

١٥٩ ـ وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ يَتِمُّ بِالْعَمَلْ ... وَالْعِلْمِ، فَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَن كَمَلْ

١٦٠ ـ وَمَنْهَجَ السَّلَفِ فَاتْبَعْ مُطْلَقَا ... سُلُوكاً اوْ عَقِيدَةً لِتُنتَقَىٰ

١٦١ ـ يُوَحِّدُ الصَّفَّ، وَيَجْمَعُ عَلَىٰ ... كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَنِعْمَ مَوْئِلَا

١٦٢ ـ يُحَقِّقُ التَّمْكِينَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا ... يُحَقِّقُ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ مُكْرَمَا

* * *

(وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ) مبتدأ، خبره **قوله**: (يَتِمُّ بِالْعَمَل وَالْعِلْمِ) المعنى: أن تمام الفقه في الدين يكون بالعلم والعمل معاً، وبهما وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، (فَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَن كَمَل) بتثليث الميم، والفتح هنا أنسب للتقفية؛ أي: اتّبع طريق من كان كاملاً في العلم والعمل.

(وَمَنْهَجَ) بالنصب على أنه مفعول مقدّم لـ«اتبع»؛ أي: طريقَ (السَّلَفِ) الصالح، (فَاتْبَعْ مُطْلَقا) ثم فسّر الإطلاق **بقوله**: (سُلُوكاً)؛ أي: عملاً، وهو منصوب على التمييز، **وقولي**: (اوْ) بنقل حركة الهمزة، ودَرْجها، (عَقِيدَةً)؛ أي: من حيث المعتقد، (لِتُنتقَى)؛ أي: لتكون مختاراً ومكرماً عند الله تعالى في الدارين، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

(يُوَحِّدُ) بالبناء للفاعل، والفاعل ضمير يعود إلى الاتباع المفهوم؛ يعني: أن اتباع منهج السلف في العلم والعمل، والتزامه يجعل (الصَّفَّ)؛ أي: صفوف المسلمين صفّاً واحداً، (وَيَجْمَعُ)هم (عَلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ، وَنِعْمَ) هذا التوحيد والجمع (مَوْئِلا) بفتح الميم وكسر الهمزة؛ أي: مرجِعاً.

(يُحَقِّقُ) هذا الالتزام (التَّمْكِينَ)؛ أي: تمكين المسلمين (فِي الأَرْضِ)؛ أي: في أرضهم التي يعيشون فيها بمقتضى وعده السابق، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، (كَمَا يُحَقِّقُ) لهم (الْفَوْزَ الْعَظِيمَ مَكْرَمَا)؛ أي: كرامة لهم في دار كرامته، كما وعدهم بذلك، حيث قال ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]. والله تعالى أعلم.

[فَائِدَةٌ]

فِي الِاحْتِجَاجِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ فِي بَابِ الْعَقَائِدِ

١٦٣ ـ قَدْ أَجْمَعَ السَّلَفُ أَن يُحْتَجَّ فِي ... بَابِ الْعَقَائِدِ بِهِ، فَلْتَقْتَفِ

١٦٤ ـ كَبَابِ الاحْكَامِ؛ إِذِ الدَّلِيلُ عَمّ ... كِلَيْهِمَا، فَمَن يُفَرِّقْ قَدْ ظَلَمْ

١٦٥ ـ وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحُكْمِ وَالْعَقَائِدِ ... أَحْدَثَهُ أُولُو اتِّجَاهٍ فَاسِدِ

١٦٦ ـ فَلَيْسَ يُعْرَفُ عَنِ الصَّحْبِ، وَلَا ... مِمَّنْ أَتَى بَعْدَهُمُ مُعْتَدِلَا

١٦٧ - وَإِنَّمَا يُعْرَفُ عَن رُؤُوسِ ... أَهْلِ الْهَوَىٰ وَالْمَذْهَبِ الْمَنْحُوسِ

١٦٨ - مِنْ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ وَالْجَهْمِيَّةِ ... وَنَحْوِهِم مِن فِرَقٍ غَوِيَّةِ

١٦٩ - بَلْ هُوَ حُجَّةٌ لِكُلِّ بَابِ ... مِن دُونِ فَرْقٍ لِذَوِي الْأَلْبَابِ

١٧٠ - لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا تَعُمُّ الْبَلْوَىٰ ... وَغَيْرِهِ لَدَىٰ ثُبُوتِ الْفَتْوَىٰ

١٧١ - وَبَيْنَ مَا يَسْقُطُ بِالشُّبْهَةِ، أَوْ ... زَادَ عَلَى الْقُرْآنِ كُلًّا قَدْ رَأَوْا=

١٧٢ - أَوْ خَالَفَ الْقِيَاسَ؛ إِذْ أَدِلَّةُ ... وُجُوبِ أَخْذِنَا لِكُلٍّ تُثْبِتُ

(قَدْ أَجْمَعَ السَّلَفُ أَن يُحْتَجَّ) بالبناء للمفعول، (فِي بَابِ الْعَقَائِدِ بِهِ)؛ أي: بخبر الواحد، (فَلْتَقْتَفِ)؛ أي: فلتتبع مذهب السلف في ذلك. (كَبَابِ الَاحْكَامِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها؛ أي: كما يُحتجّ به في باب الأحكام؛ كالصلاة، والنكاح، والبيع، ونحوها، (إِذِ الدَّلِيلُ) تعليليّة؛ أي: لأن الدليل الذي يدلّ على الاحتجاج بخبر الواحد (عَمّ كِلَيْهِمَا)؛ أي: كلا البابين: باب العقائد، وباب الأحكام، (فَمَن يُفَرِّقْ) بين البابين في الاحتجاج، (قَدْ ظَلَمْ) نفسه بذلك.

(وَ)هذا (الْفَرْقُ بَيْنَ الْحُكْمِ)؛ أي: بين باب الأحكام (وَ)بين باب (الْعَقَائِدِ) في الاحتجاج بخبر الواحد في أحدهما دون الآخر، (أَحْدَثَهُ أُولُو)؛ أي: أصحاب (اتِّجَاهٍ)؛ أي: مذهب (فَاسِدِ)؛ أي: باطل، (فَلَيْسَ يُعْرَفُ) بالبناء للمفعول، (عَنِ الصَّحْبِ) ﷺ، (وَلَا عَمَّنْ أَتَى بَعْدَهُمُ)؛ أي: التابعين، وهلمّ جرّا، حال كونه (مُعْتَدِلا)؛ أي: مستقيماً في دينه، (وَإِنَّمَا يُعْرَفُ) بالبناء للمفعول، (عَن رُؤُوسِ أَهْلِ الْهَوَى)؛ أي: من الذين يتبعون أهواءهم، (وَ)من أهل (الْمَذْهَبِ

الْمَنْحُوسِ) اسم مفعول من نَحَسه: إذا جفاه؛ أي: المجفوّ الذي يجب على العاقل الابتعاد منه، (مِنْ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ) المعتزلة: أصحاب واصل بن عطاء الغزّال، اعتزل عن مجلس الحسن البصري، فلُقّب به[1]، (وَ)من (الْجَهْمِيَّةِ) هم: أصحاب جهم بن صفوان، قالوا: لا قدرة للعبد أصلاً، لا مؤثرة، ولا كاسبة، بل هو بمنْزلة الجمادات، والجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى، قاله الجرجانيّ[2]. (وَنَحْوِهِمْ مِن فِرَقٍ غَوِيَّةِ)؛ أي: ضالّة.

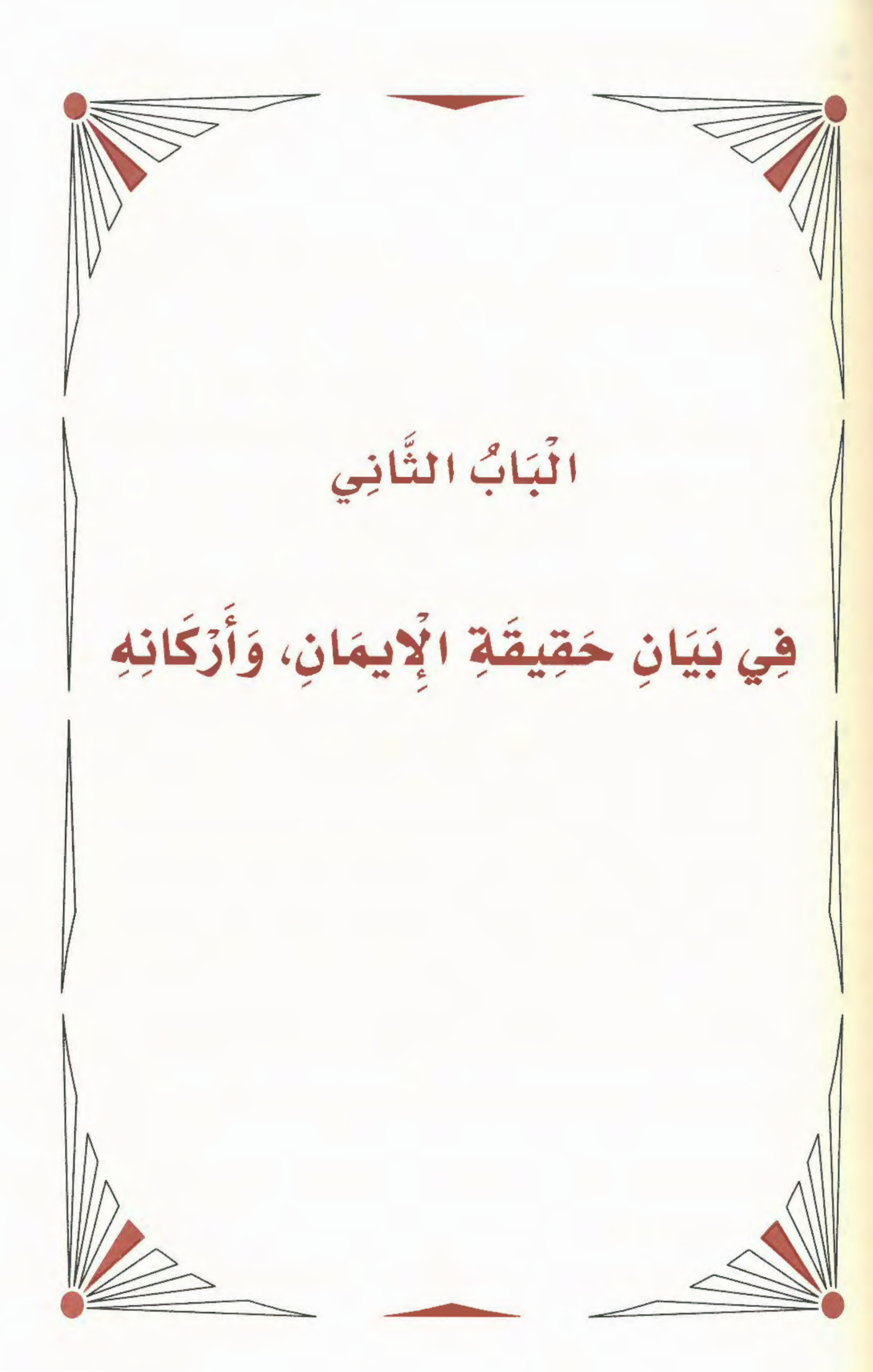
(بَلْ هُوَ)؛ أي: خبر الواحد، (حُجَّةٌ لِكُلِّ بَابٍ مِن دُونِ فَرْقٍ لِذَوِي الأَلْبَابِ)؛ أي: عند أصحاب العقول السليمة، والأحوال المستقيمة، (لَا فَرْقَ) في كونه حجة (بَيْنَ مَا تَعُمُّ الْبَلْوَى)؛ أي: بين الأخبار التي تتعلّق بالوقائع التي يعمّ ابتلاء الناس بها بسبب تكرّرها، وكثرة وقوعها، (وَغَيْرِهِ)؛ أي: وبين غيره مما لا تعم البلوى به، بل يخصّ بعض الناس، أو بعض الأوقات، أو الأماكن. **وقوله:** (لَدَى ثُبُوتِ الْفَتْوَى) متعلّق بـ«فَرْق»؛ أي: عند صدور فتوى المفتي من أجلها. (وَ)لا فرق أيضاً (بَيْنَ مَا)؛ أي: بين الذي يتعلّق بالحادث الذي (يَسْقُطُ بِالشُّبْهَةِ) كالحدود، وبين ما لا يسقط بها، (أَوْ) بمعنى الواو؛ أي: ولا فرق أيضاً بين ما (زَادَ عَلَى الْقُرْآنِ) وبين ما لم يزد؛ يعني: أنه لا فرق بين خبر الواحد الذي لم يرد في القرآن ما يدلّ عليه نصّاً، وبين ما لم يزد بأن كان مبيّناً، أو موافقاً. (كُلّاً)؛ أي: كلّ هذه الأقسام، (قَدْ رَأَوْا)؛ أي: رأى أهل السُّنَّة الاحتجاج

---

(١) «التعريفات» ص٢٢٢.
(٢) «التعريفات» ص٨٠.

بها، (أَوْ) بمعنى الواو أيضاً؛ أي: ولا فرق أيضاً بين ما (خَالَفَ الْقِيَاسَ) وبين ما وافقه، (إِذْ) تعليليّة، (أَدِلَّةُ وُجُوبِ أَخْذِنَا) بخبر الواحد مطلقاً (لِكُلٍّ)؛ أي: لكلّ هذه الأقسام، وهو متعلّق بقوله: (تُثْبِتُ)؛ أي: تثبت الأدلّة كلّ ذلك. والله تعالى أعلم.





الْبَابُ الثَّانِي

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَأَرْكَانِهِ

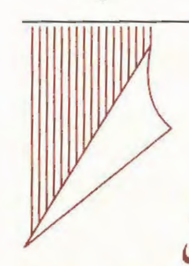
رُكن الشيء لغةً: جانبه القويّ، فيكون عينَه.

وفي الاصطلاح: ما يقوم به ذلك الشيء من التقوّم؛ إذ قوام الشيء بركنه، لا من القيام، وإلا يلزم أن يكون الفاعل ركناً للفعل، والجسم ركناً للعرض، والموصوف للصفة.

وقيل: ركن الشيء ما يتم به، وهو داخل فيه، بخلاف شرطه، وهو خارج عنه. قاله الجرجانيّ[1].



(١) «التعريفات» ص١١٢.




الْفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِاللّهِ تَعَالَى

١٧٣ - إِيمَانُنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكِ ... وَالْكُتْبِ، وَالرُّسْلِ الْكِرَامِ الْمَسْلَكِ=

١٧٤ - وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَخَيْرِ الْقَدَرِ ... وَشَرِّهِ، وَلْتَسْتَعِذْ مِن ضَرَرِ

١٧٥ - هَٰذِي هِيَ الْعَقِيدَةُ السَّلِيمَهْ ... مَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْعَمِيمَهْ

(إِيمَانُنَا بِاللهِ) ﷻ (وَ)بـ(الْمَلَائِكِ) لغة في الملائكة، قال في «القاموس»: الملَك ـ مُحَرّكةً ـ: واحد الملائكة، والملائك. وقال في «المصباح»: ألك بين القوم ألْكاً، من باب ضَرَب، وأُلُوكاً أيضاً: تَرَسَّلَ، واسم الرسالة: مَأْلُكٌ ـ بضم اللام ـ، ومَألُكة أيضاً ـ بالهاء، ولامها تُضم، وتفتح ـ، والملائكة مشتقة من لفظ الألُوك. وقيل: من المألك، والواحد مَلَكٌ، وأصله مَلأَكٌ، ووزنه: مَعْفَلٌ، فنُقلت حركة الهمزة إلى اللام، وسَقَطت، فوزنه: مَعَلٌ، فإن الفاء هي الهمزة، وقد سقطت. وقيل: مأخوذ من لأك: إذا أَرْسَل، فملأك مفعل، فنُقلت الحركة، وسقطت الهمزة، وهي عين، فوزنه مَفَلٌ. وقيل فيه غير ذلك. انتهى[1].

(وَ)بـ(الْكُتْبِ) بضمّ فسكون، أو بضمّتين، والأول متعيّنٌ هنا للوزن، وهو جمع كتاب.

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ١٨.

(وَ)بـ(الرُّسْلِ) بالضبط الماضي: جمع رسول. **وقوله:** (الْكِرَامِ) صفة لـ«الرسل»، وهو مضاف إلى (الْمَسْلَكِ) بفتح الميم، والمراد: طريقهم ومذهبهم؛ أي: الشريف طريقهم ومنهجهم، والإضافة من إضافة الصفة إلى مرفوعها، (و)بـ(الْيَوْمِ الآخِرِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودرجها، (وَ)بـ(خَيْرِ الْقَدَرِ وَشَرِّهِ)؛ أي: وإيماننا بالقدر خيره وشرّه. **وقوله:** (وَلْتَسْتَعِذْ مِنْ ضَرَرِ) تكميل للبيت؛ أي: لتعتصم بالله تعالى من شرّ القدر.

وقوله: (هَذِي) مبتدأ، خبره الجملة بعده، والإشارة إلى ما سبق من الإيمان بالله، وما عُطف عليه، (هِيَ الْعَقِيدَةُ السَّلِيمَه)؛ أي: السالمة من شائبة الكفر والضلال، وهي (مَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ)؛ أي: طريقتهم (الْعَمِيمَه)؛ أي: التي تعمّ المكلّفين جميعاً، لا بدّ لهم منها؛ إذ الهداية والفلاح والسعادة الأبديّة مربوطة بها، قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ. . . - إلى أن قال: - أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ الآية [الحديد: ١٩].

١٧٦ ـ وَالنُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ أَوَّلُ ... وَاجِبِ مَنْ كُلِّفَ فِيمَا نَقَلُوا

١٧٧ ـ مُعْتَقِداً مَعْنَاهُمَا، وَعَامِلَا ... بِمُقْتَضَاهُمَا لِكَيْمَا يَكْمُلَا

(وَالنُّطْقُ)؛ أي: التكلّم (بِالشَّهَادَتَيْنِ أَوَّلُ وَاجِبِ مَنْ كُلِّفَ)

بالبناء للمفعول؛ يعني: أن أول واجب على المكلّفين النطق بالشهادتين، (فِيمَا نَقَلُوا)؛ أي: فيما نقله العلماء من الأدلّة الشرعيّة، حال كونه (مُعْتَقِداً مَعْنَاهُمَا، وَعَامِلا بِمُقْتَضَاهُمَا)؛ أي: بما يقتضيانه من الالتزام بالأحكام الشرعيّة كلها، (لِكَيْمَا يَكْمُلَا) بألف الإطلاق؛ أي: ليكون المكلّف كاملاً في دينه، ودنياه، وشؤونه كلها.

١٧٨ - إِيمَانُنَا اسْمٌ شَامِلٌ لِشُعَبِ ... كَثِيرَةٍ أَدْنَىٰ وَأَعْلَى الرُّتَبِ

١٧٩ - كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ أَعْلَاهَا، كَمَا ... إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ لِأَدْنَاهَا سَمَا

١٨٠ - بِبَعْضِهَا الْإِيمَانُ يُوجَدُ، كَمَا ... بِكُلِّهَا حَقِيقَةً قَدْ عُلِمَا

❀ ❀ ❀

(إِيمَانُنَا اسْمٌ شَامِلٌ)؛ أي: جامع (لِشُعَبِ) بضمّ ففتح: جمع شُعْبة؛ أي: أجزاء (كَثِيرَةٍ أَدْنَى)؛ أي: أدنى الرتب، فهو مما حُذف المضاف إليه؛ لدلالة ما بعده عليه، كما قال في «الخلاصة»:

وَيُحْذَفُ الثَّانِي فَيَبْقَى الأَوَّلُ ... كَحَالِهِ إِذَا بِهِ يَتَّصِلُ

بِشَرْطِ عَطْفٍ وَإِضَافَةٍ إِلَى ... مِثْلِ الَّذِي لَهُ أَضَفْتَ الأَوَّلَا

(وَأَعْلَى الرُّتَبِ)؛ يعني: أن الإيمان اسم لمعنىً ذي شَعَب وأجزاء كثيرة، له أدنى وأعلى، فـ(كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ)؛ أي: لا إله إلا الله (أَعْلَاهَا)؛ أي: أعلى الشعب درجةً، (كَمَا إِمَاطَةُ الأَذَى لأَدْنَاهَا) متعلّق بـ(سَمَا)؛ أي: ارتفع؛ أي: كما أن إماطة الأذى مثال لأدنى الدرجات، وهذا إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**».

(بِبَعْضِهَا الإِيمَانُ يُوجَدُ)؛ يعني: أن الإيمان يتحقّق ببعض تلك الشُّعَب، (كَمَا بِكُلِّهَا) متعلّق بـ«عُلما»، حال كونه (حَقِيقَةً قَدْ عُلِمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: كما يتحقّق الإيمان بتلك الأجزاء كلها، كذلك يوجد ببعضها.

١٨١ ـ إِيمَانُنَا: اعْتِقَادُنْ، الْقَوْلُ، الْعَمَلْ ... وَظَاهِرٌ، وَبَاطِنٌ بِهَا اكْتَمَلْ

١٨٢ ـ فَمَا اسْتَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ بَاطِنُ، ... وَالظَّاهِرُ الَّذِي غَدَا يُعَايَنُ،=

١٨٣ ـ عَلَى اللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَمَا ... بَطَنَ ضَرْبَانِ لَدَىٰ مَن فَهِمَا

١٨٤ ـ قَوْلٌ مَعَ الْعَمَلِ، فَالْأَوَّلُ قُلْ ... عِلْمٌ، وَتَصْدِيقٌ، يَقِينٌ قَدْ كَمُلْ

١٨٥ ـ ثَانِيهِمَا: عَمَلُ قَلْبٍ، عَظِّمِ ... لِلَّهِ، أَخْلِصْ، وَاقْبَلَن، وَسَلِّمِ

١٨٦ ـ أَذْعِن، وَوَالِ، وَارْجُوَن، وَلْتَخَفِ ... أَحِبَّ، وَاسْتَحِي، بِإِجْلَالٍ يَفِي

١٨٧ ـ وَاتَّقِ، أَخْبِتْ، وَارْضَيَنَّ، وَاصْبِرِ ... وَلْتَصْدُقَنَّ، وَاشْكُرَن، تَفَكَّرِ

١٨٨ ـ وَلْتَخْضَعَنَّ، وَاخْشَيَن، تَأَلَّهَا ... أَنِبْ، تَوَكَّلْ، وَاسْتَعِن لِتَنبُهَا

***

(إِيمَانُنَا) مبتدأ، خبره **قوله:** (اعْتِقَادٌ) و(الْقَوْلُ) و(الْعَمَل، وَظَاهِرٌ، وَبَاطِنٌ)؛ يعني: أن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح والأركان، ومنه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن. **وقوله:** (بِهَا)؛ أي: بهذه الأجزاء، متعلّق بـ(اكْتَمَلْ)؛ أي: تمّ الإيمان بها.

(فَمَا اسْتَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ) من المعتقدات، (بَاطِنُ)؛ يعني: أن الباطن هو ما استقرّ في القلب، وهو أصل الإيمان، (وَالظَّاهِرُ الَّذِي غَدَا)؛ أي: صار (يُعَايَنُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يشاهد، (عَلَى اللِّسَانِ) كقول: لا إله إلا الله، (وَالْجَوَارِحِ)؛ أي: وما يعاين على الجوارح من

الصلاة، وسائر أعمال الجوارح، (وَمَا بَطَنَ)؛ أي: والإيمان الباطن (ضَرْبَانِ)؛ أي: نوعان، (لَدَى)؛ أي: عند (مَن فِهِمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: عند أولي الفهم والعلم. (قَوْلٌ) هذا بيان للضرب الأول، (مَعَ الْعَمَلِ) هذا هو الضرب الثاني. (فَالأَوَّلُ)؛ أي: قول القلب (قُلْ: عِلْمٌ، وَتَصْدِيقٌ) و(يَقِينٌ، قَدْ كَمُل) قد كمل بهذا قول القلب، (ثَانِيهِمَا)؛ أي: ثاني الضربين، (عَمَلُ قَلْبٍ) ثم أشار إلى بيان هذا العمل، وهو عمل القلب **بقوله:** (عَظِّم لِلَّهِ) سبحانه، (أَخْلِصْ) عملك له، (وَاقْبَلَن) شرعه، (وَسَلِّم) أمرك إليه، (أَذْعِنْ) بقطع الهمزة، يقال: أذعن يُذعِن إذعاناً: انقاد ولم يستعص[1]. (وَوَالِ) من الولاء؛ أي: والِ أولياءه، (وَارْجُوَن) رحمته، (وَلْتَخَف) عقابه، (أَحِبَّ) الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] (وَاسْتَحِي) بياء واحدة، ويقال بياءين، لكن لا يناسب هنا؛ لانكسار الوزن به. قال الفيّوميّ رَحِمَهُ اللهُ: اسْتَحْيَا منه، وهو الانقِبَاضُ، والانزِوَاءُ، قال الأخفشُ: يتعدّى بنفسه، وبالحرف، فيقال: اسْتَحْيَيْتُ منه، واسْتَحْيَيْتُهُ، وفيه لغتان: إحداهما لغة الحجاز، وبها جاء القرآن بياءين، والثانية لتميم، بياء واحدة. انتهى[2].

(بِإِجْلَالٍ)؛ أي: مع إجلال الله سبحانه. **وقولي:** (يَفِي) مضارع وفا الشيء: إذا تمّ، والجملة صفة لـ«إجلال»؛ أي: مع إجلال تامّ، (وَاتَّقِ) الله في جميع أحوالك، (أَخْبِتْ) بقطع الهمزة، يقال: أخبت الرجل إخباتاً: خضع لله، وخشع قلبه له، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، (وَارْضَيَنَّ) بوصل الهمزة؛ أي: ارض

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق ١/ ١٦٠.

بقضاء الله ﷻ، (وَاصْبِرِ) على ما أصابك من المصائب، واصبرن أيضاً على طاعة الله ﷻ، وعن معاصيه، (وَلْتَصْدُقَنَّ)؛ أي: والزم الصدق مع الله تعالى، ومع الخَلْق، (وَاشْكُرَن) بالنون الخفيفة؛ أي: اشكرن ربك على نعمه، (تَفَكَّر) بكسر الراء للتقفية؛ أي: تفكّر في آيات الله الكونيّة والشرعيّة، (وَلْتَخْضَعَنَّ) لأمر الله تعالى، (وَاخْشَيَنْ) بالنون الخفيفة أيضاً؛ أي: اخش ربك، واخش يوماً ترجع فيه إلى الله تعالى، و(تَأَلَّهَا) بالألف المبدَلة من نون التوكيد للوقف، كما قال في «الخلاصة»:

وَأَبْدِلَنْهَا بَعْدَ فَتْحٍ أَلِفَا ... وَقْفاً كَمَا تَقُولُ فِي قِفَن قِفَا

ومعنى «تألّه»؛ أي: تعبّد لله ﷻ.

و(أَنِبْ)؛ أي: ارجع إلى ربك، و(تَوَكَّلْ) على الله تعالى، (وَاسْتَعِن) بربك في جميع شؤونك. **وقوله:** (لِتَنبُهَا) بضمّ الباء؛ أي: لتشرُف، ويعظم قَدْرك عند الله سبحانه.

١٨٩ ـ وَعَمَلُ الْقَلْبِ هُوَ الأَصْلُ لِمَا ... يَصْدُرُ مِنْ خَيْرٍ وَبِرٍّ فَاعْلَمَا

١٩٠ ـ إن زَالَ قَوْلُ الْقَلْبِ أَوْ عَمَلُهُ، ... كُلّاً فَقَدْ زَالَ الأَمَانُ كُلُّهُ،

* * *

(وَعَمَلُ الْقَلْبِ هُوَ الأَصْلُ لِمَا يَصْدُرُ)؛ أي: يحصل ويوجد (مِنْ خَيْرٍ، وَبِرٍّ)؛ أي: طاعة. **والمعنى:** أن ما في القلب من الإيمان هو الأصل لعمل الجوارح؛ لأن القلب ملك الأعضاء، تأتمر بأمره، وتطيعه، فإذا صلح صلحت، وإذا فسد فسدت، قال ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» متفق عليه.

(فَاعْلَمَا) بالألف المبدَلة من نون التوكيد الخفيفة، كما تقدّم؛

أي: اعلم ذلك وتحقّقه، (إِن زَالَ قَوْلُ الْقَلْبِ، أَوْ عَمَلُهُ كُلّاً)؛ أي: بالكلّية، (فَقَدْ زَالَ الأَمَانُ) بالفتح، والمراد به: الإيمان ـ بالكسر ـ، وأطلق عليه لأن الإيمان سبب للأمان في الدنيا والآخرة. **وقوله:** (كُلُّه) توكيد لـ«أمان».

١٩١ ـ وَظَاهِرُ الْإِيمَانِ قِسْمَيْنِ غَدَا قَوْلٌ، مَعَ الْعَمَلِ خُذْ نِلْتَ الْهُدَىٰ

١٩٢ ـ فَالْأَوَّلُ: الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَهْ مُعْتَقِداً مَضْمُونَهَا الْإِفَادَهْ

١٩٣ ـ وَمُقْتَضَى الشَّهَادَةِ: الْتِزَامُ عِبَادَةِ اللَّهِ، فَذَا الْمَرَامُ=

١٩٤ ـ مَعَ الْتِزَامِ طَاعَةِ الرَّسُولِ وَيَتَلَقَّى الشَّرْعَ بِالْقَبُولِ

١٩٥ ـ فَمَنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ وَمَا صَدَّقَ بِالْقَلْبِ يَكُونُ مُسْلِمَا=

١٩٦ ـ فِي ظَاهِرٍ مُنَافِقاً فِي الْبَاطِنِ فَلَيْسَ نَاجِياً نَجَاةَ آمِنِ

(وَظَاهِرُ الإِيمَانِ قِسْمَيْنِ غَدَا)؛ أي: صار قسمين. **وقوله:** (قَوْلٌ مَعَ الْعَمَلِ) هذان هما القسمان. **والمعنى:** أن الإيمان الظاهر على قسمين: قول اللسان، وعمل الجوارح. **وقوله:** (خُذْ نِلْتَ الْهُدَى) تمام البيت؛ أي: خذ ما ذكرته لك لتنال الهداية.

(فَالأَوَّلُ)؛ أي: قول اللسان هو (الإِقْرَارُ بِالشَّهَادَهْ)؛ أي: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، حال كونه (مُعْتَقِداً مَضْمُونَهَا)؛ أي: معناها، وهو أنه لا معبود بحقّ إلا الله. **وقوله:** (الإِفَادَهْ) بدل مما قبله؛ أي: ما تفيده، وهو معناها.

(وَمُقْتَضَى الشَّهَادَةِ) مبتدأ، خبره قولي: (الْتِزَامُ عِبَادَةِ اللهِ)؛ يعني: أن الذي تقتضيه الشهادة، وتطلبه أن يلتزم العبد عبادة الله سبحانه،

(فَذَا الْمَرَامُ)؛ أي: فهذا غاية المقصود، (مَعَ الْتِزَامِ طَاعَةِ الرَّسُولِ) محمد ﷺ، (وَيَتَلَقَّى الشَّرْعَ)؛ أي: شرع الله ﷻ، (بِالْقَبُولِ).

(فَمَنْ أَقَرَّ بِلِسَانِهِ وَمَا صَدَّقَ بِالْقَلْبِ يَكُونُ مُسْلِمًا فِي ظَاهِرٍ)؛ أي: لِمَا ظهر عليه من مظاهر الإسلام، ويكون (مُنَافِقاً فِي الْبَاطِنِ)؛ أي: لعدم إذعانه، وتصديقه بقلبه، (فَلَيْسَ نَاجِياً) في الآخرة (نَجَاةَ آمِنٍ)؛ أي: نجاة من يأمن من دخول النار، بل يدخلها، كما أخبر الله ﷻ بذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

١٩٧ - ثُمَّتَ مِن قَوْلِ اللِّسَانِ: الذِّكْرُ، وَالْحَمْدُ، وَالدُّعَاءُ، ثُمَّ الشُّكْرُ،

١٩٨ - وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتِّلَاوَةُ،

١٩٩ - نَهْيٌ عَنِ الْمُنكَرِ، نَشْرُ الْعِلْمِ، وَنَحْوُهَا مِن كُلِّ خَيْرٍ يَنْمِي

(ثُمَّتَ) هي «ثمّ» العاطفة، (مِن قَوْلِ اللِّسَانِ)؛ أي: من جملة العبادات التي تقال باللسان، (الذِّكْرُ، وَالْحَمْدُ، وَالدُّعَاءُ، ثُمَّ) بمعنى الواو، (الشُّكْرُ، وَالاسْتِعَاذَةُ)؛ أي: الاعتصام من الشيطان بالله تعالى، (وَالاسْتِغَاثَةُ)؛ أي: طلب الغوث؛ أي: العون والنصر من الله تعالى، يقال: أغاثه إغاثةً: إذا أعانه ونصره[1]. (وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالتِّلَاوَةُ)؛ أي: قراءة كتاب الله ﷻ، و(نَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ) و(نَشْرُ الْعِلْمِ) بين الناس، (وَنَحْوُهَا مِن كُلِّ خَيْرٍ يَنمِي) من باب رمى؛ أي: يزداد ويكثر.

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٥٥.

٢٠٠ ـ ثَانِيهِمَا: قَوْلْ عَمَلُ الْجَوَارِحِ ... مِثْلُ: الصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ الرَّابِحِ

٢٠١ ـ وَالْحَجِّ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ ... وَدَعْوَةٍ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ

٢٠٢ ـ وَبِرٍّ وَالِدَيْكَ، وَالْقَضَاءِ ... وَحِسْبَةٍ لِلَّهِ ذِي الثَّنَاءِ

٢٠٣ ـ لَا يَنفَعُ الْبَاطِنُ دُونَ الظَّاهِرِ ... كَعَكْسِهِ إِلَّا بِعُذْرٍ قَاهِرِ

٢٠٤ ـ كَمِثْلِ: إِكْرَاهٍ، وَخَوْفِ هُلْكِ ... فَإِنَّهُ عُذْرٌ بِغَيْرِ شَكِّ

٢٠٥ ـ تَخَلُّفُ الْعَمَلِ ظَاهِراً وَقَدْ ... عُدِمَ مَانِعٌ دَلِيلٌ يُعْتَمَدْ=

٢٠٦ ـ عَلَىٰ فَسَادِ بَاطِنِ الْمُتَّصِفِ ... وَعَدَمِ الْخُلُوصِ فِي الْعَقْدِ الْوَفِي

***

(ثَانِيهِمَا)؛ أي: ثاني القسمين (قَوْلْ: عَمَلُ الْجَوَارِحِ، مِثْلُ: الصَّلَاةِ، وَالْجِهَادِ الرَّابِحِ) صفة لـ«الجهاد»، (وَالْحَجِّ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ، وَدَعْوَةٍ)؛ أي: دعوة الناس إلى الله تعالى، (وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَبِرٍّ وَالِدَيْكَ)؛ أي: طاعتهما والإحسان إليهما، (وَالْقَضَاءِ) بين الناس ابتغاء مرضاة الله، (وَحِسْبَةٍ لِلَّهِ)؛ أي: الاحتساب وطلب الأجر من الله تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. **وقولي:** (ذِي الثَّنَاءِ) صفة لـ«لله».

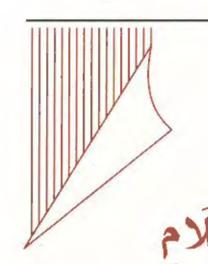
(لَا يَنفَعُ الْبَاطِنُ)؛ أي: الاعتقاد في الباطن (دُونَ الظَّاهِرِ)؛ أي: دون العمل بالجوارح، (كَعَكْسِهِ)؛ أي: كما لا ينفع الظاهر دون الباطن (إِلَّا بِعُذْرٍ)؛ أي: إلا إذا كان تَرْكه للعمل لأجل عذر. **وقوله:** (قَاهِرِ) صفة لـ«عذر»، وذلك (كَمِثْلِ إِكْرَاهٍ)؛ أي: كأن يُكرَه على ترك بعض الأعمال، وكـ(خَوْفِ هُلْك) بضمّ فسكون؛ أي: هلاك، بأن خاف لو عمل ذلك العمل يحصل له مرض يُهلكه، (فَإِنَّهُ)؛ أي: المذكور، (عُذْرٌ) يُبيح الترك (بِغَيْرِ شَكِّ) لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية [البقرة: ٢٨٦]، وقال:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

(تَخَلُّفُ الْعَمَلِ)؛ أي: تأخّره؛ يعني: أنَّ ترك العمل (ظَاهِراً، وَ)الحال أنه (قَدْ عُدِمَ) بالبناء للمفعول، (مَانِعٌ) من ذلك العمل، (دَلِيلٌ يُعْتَمَد) بالبناء للمفعول، والجملة صفة لـ«دليل». **وقوله:** (عَلَى فَسَادِ بَاطِنِ الْمُتَّصِفِ) به متعلّق بـ«دليل»، (وَعدَمِ الْخُلُوصِ فِي الْعَقْدِ)؛ أي: ودليل أيضاً على عدم خلوص إيمانه. **وقوله:** (الْوَفِي) صفة لـ«العقد».

وحاصل المعنى: أن تخلّف العمل ظاهراً مع عدم المانع دليل على فساد الباطن، وعدم خلوص عقيدته. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي بَيَانِ الْعَلاقَةِ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ

٢٠٧ ـ هُمَا لَدَى الْإِطْلَاقِ قَد تَرَادَفَا وَعِندَ الِاقْتِرَانِ قَد تَخَالَفَا

٢٠٨ ـ فَيُطْلَقُ الْإِسْلَامُ لِلْقَوْلِ، الْعَمَلْ وَيُطْلَقُ الْإِيمَانُ لِلَّذِي نَزَلْ=

٢٠٩ ـ فِي قَلْبِهِ مِن بَاطِنِ الْأَعْمَالِ مِمَّا يُرَىٰ مُعْتَقَداً فِي الْبَالِ

٢١٠ ـ وَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَن يَجْتَمِعَا فِي الْعَبْدِ دَائِماً لِكَي يَرْتَفِعَا

٢١١ ـ فَلَيْسَ يَكْفِي أَن يَكُونَ مُسْلِمَا بِدُونِ إِيمَانٍ؛ كَعَكْسٍ فَاعْلَمَا

٢١٢ ـ مَرَاتِبُ الدِّينِ ثَلَاثاً قَدْ وَفَىٰ أَوَّلُهَا: الْإِسْلَامُ، وَالثَّانِ: اقْتَفَىٰ=

٢١٣ ـ إِيمَانُنَا، وَالثَّالِثُ: الْإِحْسَانُ وَهَٰكَذَا فِي النَّصِّ جَا الْبَيَانُ

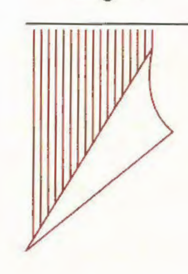
(هُمَا)؛ أي: الإيمان والإسلام (لَدَى الإطْلَاقِ)؛ أي: عند استعمال كلّ منهما دون قرينة، (قَد تَرَادَفَا)؛ أي: صارا مترادفين على معنى واحد، فيراد بكلّ منهما ما يراد بالآخر، (وَعِندَ الِاقْتِرَانِ)؛ أي: اجتماعهما في الذكر، (قَد تَخَالَفَا)؛ أي: اختلف مفهوم كلّ منهما عن مفهوم الآخر.

كما بيّنه **بقوله:** (فَيُطْلَقُ الإِسْلَامُ) ببناء الفعل للمفعول، (لِلْقَوْلِ)؛ أي: على القول؛ كالشهادتين، وعلى (الْعَمَلْ)؛ أي: على عمل الجوارح، (وَيُطْلَقُ الإِيمَانُ لِلَّذِي)؛ أي: على الشيء الذي (نَزَلْ فِي قَلْبِهِ)؛ أي: في قلب الشخص، (مِن بَاطِنِ الأَعْمَالِ) من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: من الأعمال الباطنة،

(مِمَّا يُرَى) بالبناء للمفعول، (مُعْتَقَداً فِي الْبَالِ)؛ أي: القلب.

(وَإِنَّهُ) الضمير للشأن؛ أي: وإن الأمر والشأن (لَا بُدَّ أَن يَجْتَمِعَا)؛ أي: الإيمان والإسلام، (فِي الْعَبْدِ دَائِماً)؛ أي: باستمرار الزمان؛ يعني: إلى الموت، (لِكَي يَرْتَفِعَا) بألف الإطلاق؛ أي: لأجل أن يكون العبد مرتفع القدر عند الله وعند الناس، (فَلَيْسَ يَكْفِي أَن يَكُونَ) العبد (مُسْلِما) و«أن يكون» في تأويل المصدر، تنازعاه «ليس» و«يكفي». **وقوله:** (بِدُونِ إِيمَانٍ) المراد به بعض الإيمان، (كَعَكْسٍ)؛ أي: كما لا يكفي الإيمان بدون الإسلام، (فَاعْلَمَا) بالألف المنقلبة من نون التوكيد الخفيفة للوقف، كما سبق نظيره.

(مَرَاتِبُ الدِّينِ ثَلَاثاً قَدْ وَفَى)؛ أي: صار ثلاث مراتب، (أَوَّلُهَا)؛ أي: أول تلك المراتب: (الإِسْلَامُ، وَالثَّانِ) بحذف الياء للوزن (اقْتَفَى)؛ أي: تَبِع ما قبله في الذكر، (إِيمَانُنَا) مرفوع على الفاعليّة؛ يعني: أن الإيمان يتبع الإسلام في الذكر، (وَالثَّالِثُ: الإِحْسَانُ، وَهَكَذَا)؛ أي: مثل هذا التقسيم (فِي النَّصِّ)؛ أي: الحديث النبويّ (جَا) بتخفيف الهمزة، لغة في «جاء» بالمدّ، (الْبَيَانُ)؛ أي: بيان النبيّ ﷺ في حديث جِبْرِيلَ عليه السلام المشهور حين جاء إلى النبيّ ﷺ على صورة رجل أعرابي، وسأله عن الإسلام، فقال: «**أَن تَشْهَدَ أَن لَا إِلَه إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**»، وسأله عن الإيمان؟ فقال: «**أَن تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِه، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وسأله عن الإحسان؟ فقال: «**أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». متّفقٌ عليه. والله تعالى أعلم.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ

٢١٤ - ثُمَّتَ لِلْإِيمَانِ قُلْ مَرَاتِبُ ... تَفَاوَتَتْ حَسَبَمَا هُو الْغَالِبُ

٢١٥ - أُولَىٰ مَرَاتِبِهِ: مَا يَمْنَعُ مِنْ ... خُلُودِهِ فِي النَّارِ إِن بِهَا فُتِنْ

٢١٦ - بِأَصْلِ إِيمَانٍ وَمُطْلَقِهِ، أَوْ ... بِمُجْمَلِ الْإِيمَانِ وَصْفَهُ رَأَوْا

٢١٧ - وَهْوَ: الْتِزَامُ طَاعَةِ الْمَعْبُودِ ... مُمْتَثِلاً لِأَمْرِهِ الْمَحْمُودِ

٢١٨ - مُحَكِّماً شَرْعَهُ فِي التَّحْلِيلِ ... وَضِدِّهِ، وَانقَادَ بِالتَّبْجِيلِ

٢١٩ - لَٰكِنَّهُ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمَا ... جَنَىٰ؛ فَأُورِدَ لَظَىٰ جَهَنَّمَا

(ثُمَّتَ لِلإِيمَانِ قُلْ: مَرَاتِبُ تَفَاوَتَتْ) فيما بينها، (حَسَبَمَا هُو) بسكون الواو، لغة في فتحها، وليس ضرورة. (الْغَالِبُ)؛ أي: قَدْر ما هو الغالب من الأوصاف.

(أُولَى مَرَاتِبِهِ: مَا يَمْنَعُ) بالبناء للفاعل؛ أي: يمنع صاحبه (مِنْ خُلُودِهِ فِي النَّارِ، إِن بِهَا فُتِنْ) بالبناء للمفعول؛ أي: إن فُتن بدخولها؛ يعني: أن صاحب هذا الإيمان وإن دخل في النار للمعاصي، لكنه لا يخلّد فيها لإيمانه.

(بِأَصْلِ إِيمَانٍ) متعلّق بـ«وصفه»، (وَمُطْلَقِهِ)؛ أي: بمطلق الإيمان، (أَوْ بِمُجْمَلِ الإِيمَانِ وَصْفَهُ) مفعول مقدّم لـ(رَأَوْا)؛ أي: رآه العلماء كونه موصوفاً بهذه الصفات.

(وَهْوَ)؛ أي: الإيمان المذكور؛ أي: حقيقته (الْتِزَامُ طَاعَةِ

(الْمَعْبُودِ) سبحانه، حال كونه (مُمْتَثِلاً لأَمْرِهِ) تعالى. **وقوله:** (الْمَحْمُودِ) صفة لـ«أمره»، وحال كونه (مُحَكِّماً) بتشديد الكاف، اسم فاعل من التحكيم، (شَرْعَهُ)؛ أي: الله تعالى، (فِي التَّحْلِيلِ) للشيء (وَضِدِّهِ) هو التحريم، والمعنى: أنه لا يرجع في التحليل والتحريم إلا إلى شرع الله ﷻ. **وقوله:** (وَانقَادَ) عطف على الحال؛ أي: وحال كونه منقاداً لأمر الله تعالى (بِالتَّبْجِيلِ)؛ أي: بتعظيم ذلك الأمر، (لَكِنَّهُ)؛ أي: لكن هذا المؤمن (ظَلَمَ نَفْسَهُ بِمَا جَنَى) على نفسه بترك بعض الواجبات، واقتراف بعض السيّئات، (فَأُورِدَ) بالبناء للمفعول؛ أي: أُدخل (لَظَى) كفتى: النار، أو لهبها، ويُطلق أيضاً على جهنّم، كما في «القاموس»، وهو مضاف إلى (جَهَنَّمَا) بألف الإطلاق.

وحاصل المعنى: أن أُولى مراتب الإيمان هو المانع من الخلود في النار، وقد يُسمّى أصلَ الإيمان، أو مطلق الإيمان، أو الإيمان المجمل، وحقيقته: التزام العبادة لله تعالى وحده، فلا يتوجّه بالحوائج إلا إليه، وإفراده بالطاعة والانقياد، فلا يرجع في التحريم والتحليل إلا إليه، وإن أخلّ صاحبه الظالم لنفسه بالواجبات، وقارف السيئات، ما دام مجتنباً للنواقض المكفّرات. والله تعالى أعلم.

٢٢٠ ـ أَوْسَطُهَا: مَا يَمْنَعُ الدُّخُولَا نَارَ لَظَىٰ مُذَمَّماً مَخْذُولَا
٢٢١ ـ يَدْعُونَهُ الْإِيمَانَ وَاجِباً، كَمَا يُدْعَىٰ بِمُطْلَقٍ مُفَصَّلٍ سَمَا
٢٢٢ ـ وَيَتَضَمَّنُ لِفِعْلِ الْوَاجِبِهْ وَتَرْكِ مَا حُرِّمَ بِالتَّجَانُبِهْ
٢٢٣ ـ وَذَا كَمَالُهُ الَّذِي قَدْ وَجَبَا وَأَهْلُهُ فِي الْفَضْلِ صَارُوا رُتَبَا
٢٢٤ ـ صَاحِبُهُ الْمُقْتَصِدُ الْمُبَجَّلْ مَنزِلُهُ الْجَنَّةُ فِيهَا يَنزِلْ

٢٢٥ - إِنِ انتَفَى الْإِيمَانُ مُطْلَقاً فَلَا مُطْلَقُهُ يُنفَىٰ؛ فَفَرِّقْ وَاعْقِلَا

(أَوْسَطُهَا)؛ أي: أوسط مراتب الإيمان (مَا)؛ أي: هو الذي (يَمْنَعُ الدُّخُولَا) بألف الإطلاق؛ أي: من الدخول في (نَارَ لَظَى) كفتى، اسم لجهنم، كما سبق بيانه، حال كونه (مُذَمَّماً)؛ أي: غير ممدوح، وحال كونه (مَخْذُولا)؛ أي: مهاناً غير معان، والمراد: أنه لا يدخل النار أصلاً.

وهذا النوع (يَدْعُونَهُ)؛ أي: يسميه العلماء: (الإِيمَانَ) حال كونه (وَاجِباً، كَمَا يُدْعَى)؛ أي: يسمى (بِمُطْلَقٍ)؛ أي: بالإيمان المطلق.

وقوله: (مُفَصَّلٍ سَمَا)؛ أي: ارتفع أيضاً بتسميته بالإيمان المفصّل.

(وَيَتَضَمَّنُ) هذا الإيمان (لِفِعْلِ الْوَاجِبِ) مما أوجبه الشرع، (وَتَرْكِ مَا حُرِّمَ) بالبناء للمفعول، (بِالتَّجَانُبِ)؛ أي: بالابتعاد عنه، (وَذَا)؛ أي: القسم، (كَمَالُهُ الَّذِي قَدْ وَجَبَا) بألف الإطلاق، (وَأَهْلُهُ فِي الْفَضْلِ صَارُوا رُتَبَا) جَمْع رُتبة؛ أي: أصحاب رُتَب مختلفة؛ يعني: أنهم يتفاوتون في رتبتهم.

(صَاحِبُهُ)؛ أي: صاحب هذا القسم، وهو مبتدأ خبره **قوله:** (الْمُقْتَصِدُ)؛ أي: المتوسّط بين السابق والظالم لنفسه. **وقوله:** (الْمُبَجَّلُ)؛ أي: المعظّم، وُصف به لكونه لم يُذمّ بما ذُمّ به الظالم لنفسه، (مَنْزِلُهُ الْجَنَّةُ) مبتدأ وخبر، (فِيهَا يَنْزِلُ)؛ يعني: أن المقتصد أول منازله الجنة، فلا يلج النار.

(إِنِ انتَفَى الإِيمَانُ مُطْلَقاً)؛ أي: إن زال الإيمان المطلق، (فَلَا مُطْلَقُهُ يُنفَى)؛ أي: فلا يُنفى مطلق الإيمان، (فَفَرِّقْ) بينهما (وَاعْقِلَا) بالألف المنقلبة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: اعلمن ذلك وحقّقه.

٢٢٦ ـ ثُمَّتَ أَعْلَاهُ: الْمُرَقِّي فِي الدَّرَجْ ... دَرَجِ جَنَّةِ الْعُلَىٰ بِلَا حَرَجْ

٢٢٧ ـ بِالْمُسْتَحَبِّ سَمِّهِ، أَوْ كَامِلِهِ ... بِمُسْتَحَبِّ الْخَيْرِ مِن نَوَافِلِهِ

٢٢٨ ـ يُحَقَّقُ الْإِيمَانَ بِازْدِيَادِهِ ... مِن فِعْلِ طَاعَةِ الْإِلَٰهِ الْهَادِي

٢٢٩ ـ مُجْتَنِباً مَا لَا يُحِبُّهُ، فَذَا ... كَمَالُهُ الْمَحْبُوبُ قُلْ يَا حَبَّذَا

٢٣٠ ـ صَاحِبُهُ السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِهِ ... يَسْبِقُ رَاقِياً إِلَى الْجَنَّاتِهِ

٢٣١ ـ قَدْ نَوَّهَتْ آيَةُ الِاصْطِفَاءِهِ ... بِذِكْرِهِمْ فِي مَوْضِعِ الثَّنَاءِهِ

٢٣٢ ـ فَالْأَوَّلُ: الْمُسْلِمُ قَد تَحَلَّىٰ ... بِمُطْلَقِ الْإِيمَانِ وَصْفاً يُعْلَىٰ

٢٣٣ ـ وَالثَّانِ: مُؤْمِنٌ بِإِيمَانٍ وُصِفْ ... بِمُطْلَقٍ، وَثَالِثٌ: قُلْ مُتَّصِفْ=

٢٣٤ ـ بِأَنَّهُ الْمُحْسِنُ حَيْثُ كَمَلَا ... بِالْمُسْتَحَبَّاتِ، فَنِعْمَ رَجُلَا

***

(ثُمَّتَ أَعْلَاهُ)؛ أي: أعلى أنواع الإيمان هو (الْمُرَقِّي)؛ أي: الْمُصْعِد (فِي الدَّرَجِ). **وقوله:** (دَرَجِ جَنَّةِ الْعُلَى) بدل مما قبله، (بِلَا حَرَجْ)؛ أي: دون مشقّة وتعب، (بِالْمُسْتَحَبِّ) متعلّق بـ(سَمِّهِ)؛ أي: سمّ هذا النوع بالإيمان المستحبّ، (أَوْ كَامِلِ)؛ أي: أو سمّه بالإيمان الكامل. **وقوله:** (بِمُسْتَحَبِّ الْخَيْرِ) متعلّق بـ«كامل»، وهو من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: بالخير المستحبّ. **وقوله:** (مِن نَوَافِلِ) بيان لمستحبّ الخير، (يُحَقَّقُ الإِيمَانُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يطلب فيه تحقيق الإيمان (بِازْدِيَادِ مِن فِعْلِ طَاعَةِ الإِلَهِ الْهَادِي)؛ أي: الذي يهدي الخلق إلى الحقّ، حال كونه (مُجْتَنِباً)؛ أي: مباعداً (مَا لَا يُحِبُّهُ) الله تعالى من المخالفات، (فَذَا)؛ أي: فهذا الوصف (كَمَالُهُ)؛ أي: كمال الإيمان، (الْمَحْبُوبُ) عند الله تعالى. **وقوله:**

(قُلْ) مادحاً لهذا النوع: **(يَا حَبَّذَا)** قال في «القاموس»: حَبَّذَا الأَمْرُ؛ أي: هو حَبِيبٌ، جُعِلَ «حَبَّ» و«ذا» كَشَيْءٍ واحِدٍ، وهو اسمٌ، وما بعدَه مرفوعٌ به، ولَزِمَ «ذا» «حَبَّ»، وجرى كالمَثَلِ، بدليلِ قَوْلِهِمْ في المُؤَنَّثِ: حَبَّذَا، لا حَبَّذِه. انتهى[1].

(صَاحِبُهُ)؛ أي: هذا النوع **(السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ يَسْبِقُ)** حال كونه **(رَاقِياً إِلَى)** أعلى **(الْجنَّاتِ، قَدْ نَوَّهَتْ)** بتشديد الواو، يقال: ناه بالشيء نَوْهاً، من باب قال، ونوّه به تنويهاً: رفع ذِكره، وعظّمه. قاله الفيّوميّ[2]، والمعنى هنا: رَفَعَتْ وأَعْلَت **(آيَةُ الاِصْطِفَاءِ بِذِكْرِهِمْ)**؛ أي: بذكر أهل هذه المراتب الثلاث، **(فِي مَوْضِعِ الثَّنَاءِ)**؛ أي: المدح، والمراد بآية الاصطفاء: هي قوله تعالى في «سورة فاطر»: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢، ٣٣].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لِمَا بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو: المفرّط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: المؤدِّي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وهو:

---

(١) «القاموس المحيط» ص٧١.

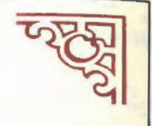
(٢) «المصباح المنير» ٢/ ٦٣١.

الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. انتهى[1]. (فَالأَوَّلُ) هو (الْمُسْلِمُ) حال كونه (قَد تَحَلَّى)؛ أي: اتّصف (بِمُطْلَقِ الإِيمَانِ) حال كونه (وَصْفاً يُعْلَى) بالبناء للمفعول، والجملة صفة «وصفاً».

(وَالثَّانِ) بحذف الياء للوزن؛ أي: ثاني الأقسام: (مُؤْمِنٌ بِإِيمَانٍ وُصِف بِمُطْلَقٍ)؛ أي: هو صاحب الإيمان المطلق: (وَثَالِثٌ)؛ أي: ثالث الأقسام (قُلْ: مُتَّصِف بِأَنَّهُ الْمُحْسِنُ حَيْثُ كَمَلَا) بألف الإطلاق وتثليث الميم؛ أي: كمُل إيمانه (بِالْمُسْتَحَبَّاتِ)؛ أي: بفعل ما يُستحبّ من العبادات. **وقوله:** (فَنِعْمَ رَجُلَا) مَدْح وثناء له حيث كان إيمانه كاملاً. والله تعالى أعلم.



(١) «تفسير ابن كثير» ٦/ ٥٤٦.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

فِي بَيَانِ حُكْمِ الاِسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ

٢٣٥ ـ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّنِيّهْ يَجُوزُ الاسْتِثْنَا بِحُسْنِ النِّيَّهْ

٢٣٦ ـ ذَلِكَ قَوْلُكَ لَدَىٰ إِيمَانِ أَيْ: مُطْلَقٍ خَوْفاً مِنِ افْتِتَانِ=

٢٣٧ ـ مُؤْمِنٌ ان شَاءَ الْإِلَٰهُ، خَائِفَا تَزْكِيَةَ النَّفْسِ بِذَا، فَلْتَعْرِفَا

٢٣٨ ـ فِي مُطْلَقِ الْإِيمَانِ لَا تَقُلْ إِذَا كَانَ تَرَدُّداً، فَبِئْسَ الْمُحْتَذَىٰ

٢٣٩ ـ وَمَن مِنَ الْعَوَامِ قَالَ: مُؤْمِنُ بِالْجَزْمِ فَهْوَ مُسْلِمٌ مُؤَمَّنُ

(أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّنِيّه) على أنه (يَجُوزُ الاسْتِثْنَا) بنقل كسر الهمزة إلى اللام ودَرْجها، (بِحُسْنِ النِّيَّه)؛ أي: مع حسن النيّة، وهو اطمئنان قلبه بالإيمان. (ذَلِكَ)؛ أي: الاستثناء، (قَوْلُكَ لَدَى إِيمَانِ أَيْ مُطْلَقٍ)؛ أي: الإيمان المطلق، (خَوْفاً)؛ أي: لأجل خوفك (مِنِ افْتِتَانِ)؛ أي: من أن تُفتن في إيمانك، فربما تحولت عن إيمانك؛ لأن القلوب بيد الله تعالى، يقلّبها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال ﷺ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أُصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**». رواه مسلم. **وقوله:** (مُؤْمِنٌ) مقول «قولُك»، (ان شَاءَ) بنقل كسرة «إن» إلى التنوين، (الإِلَهُ) سبحانه، حال كونك (خَائِفَا تَزْكِيَةَ النَّفْسِ بِذَا)؛ أي: أن تزكي نفسك بقولك:

أنا مؤمن؛ لأن تزكيتها ممنوع، قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]. **(فَلْتَعْرِفَا)** بالألف المبدَلة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: اعلمن هذا الأمر وتحقّقه، فإنه مهمّ.

(فِي مُطْلَقِ الإِيمَانِ لَا تَقُلْ): أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، **(إِذَا كَانَ تَرَدُّداً)**؛ أي: لأجل التردّد والشكّ، **(فَبِئْسَ الْمُحْتَذَى)** بصيغة اسم المفعول؛ أي: بئس هذا الاستثناء مقتدًى به.

خلاصة القول في هذه المسألة: ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله: إن الإيمان المطلق يتضمن فِعل ما أمَر الله به عبده كله، وتَرْك المحرمات كلها، فإذا قال الرجل: «أنا مؤمن» بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به، وتَرْك كل ما نُهوا عنه، فيكون من أولياء الله، وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة، فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوّزوا ترك الاستثناء بهذا الاعتبار[1].

وقال أيضاً: وأما مذهب سلف أصحاب الحديث؛ كابن مسعود، وأصحابه، والثوري، وابن عيينة، وأكثر علماء الكوفة، ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة، وأحمد بن حنبل، وغيره من أئمة السُّنَّة، فكانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم، لكن ليس في هؤلاء من قال: أنا أستثني لأجل

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٧/ ٤٤٦.

الموافاة، وأن الإيمان إنما هو اسم لِمَا يوافي به العبد ربه؛ بل صرّح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك، كما لا يشهدون لها بالبرّ والتقوى؛ فإن ذلك مما لا يعلمونه، وهو تزكية لأنفسهم بلا علم. انتهى[(١)].

ويؤكّد[(٢)] هذا ما جاء عن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعملٌ، والعمل: الفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون فرّطنا في العمل، فيُعجبني أن نستثني في الإيمان، نقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى[(٣)].

والمقصود بحديث ابن مسعود هو قوله ﷺ: «**مَن شَهِدَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَلْيَشْهَدْ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[(٤)].

وقال الخلال في «كتاب السُّنَّة»: حدّثنا سليمان بن الأشعث ـ يعني: أبا داود السجستانيّ ـ قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال له رجل: قيل لي: أمؤمن أنت؟ قلت: نعم؛ هل عليّ في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء، قال الله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] مَن هؤلاء؟ ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال له الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل؟

(١) المصدر السابق ٧/ ٤٣٨.
(٢) د. محمد يسري، ص٨٩ ـ ٩٠.
(٣) «مسائل ابن هاني» ٢/ ١٦٢؛ «السُّنَّة» للخلال ٣/ ٦٠٠.
(٤) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» ١/ ٣٣٨ و٣٤١.

قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول: إن شاء الله، ويستثني؟

قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي سُريج أن أحمد بن حنبل كتب إليه في هذه المسألة أن الإيمان قول وعمل، فجئنا بالقول، ولم نجئ بالعمل، فنحن نستثني في العمل. وذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل: سمعت أبا عبد الله يقول: كان سليمان بن حرب يحمل هذا على التقبل؛ يقول: نحن نعمل، ولا ندري يُتقبل منا أم لا؟ انتهى(١).

وفي كلام أحمد الأخير إشارة إلى مأخذ آخر للاستثناء، وهو أن الإنسان لا يدري؛ أيُتقبّل منه أم لا؟

وثمة مأخذ ثالث نبّه عليه أحمد أيضاً، فيما رواه الخلال عنه: قال أبو عبد الله: قول النبيّ ﷺ حين وقف على المقابر: **«وَإِنَّا - إِن شَاءَ اللهُ - بِكُمْ لَاحِقُونَ»**(٢)، وقد نُعيت إليه نفسه أنه صائر إلى الموت؛ يعني: أنه استثنى مع تيقنه الموت.

وفي قصّة صاحب القبر: **«وَعَلَيْهِ حَيِيتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ - إِن شَاءَ اللهُ -»**(٣).

---

(١) «السُّنَّة» للخلال ٣/ ٥٩٧.
(٢) رواه مسلم.
(٣) أشار به إلى ما أخرجه ابن ماجه في «سننه» ٢/ ١٤٢٦ عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْمَيِّتَ يَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ، فَيُجْلَسُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فِي قَبْرِهِ، غَيْرَ فَزِعٍ، وَلَا مَشْعُوفٍ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: فِيمَ كُنتَ؟ فَيَقُولُ: كُنتُ فِي الإِسْلَامِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِندِ اللهِ، فَصَدَّقْنَاهُ، فَيُقَالُ لَهُ: هَل رَأَيْتَ اللهَ؟ فَيَقُولُ: مَا يَنبَغِي لأَحَدٍ أَن يَرَى اللهَ، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النَّارِ، فَيَنظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً، فَيُقَالُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ الْجَنَّةِ، فَيَنظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، وَيُقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِن شَاءَ اللهُ...**» الحديث، صححه البوصيريّ.

وفي قول النبيّ ﷺ: «**إِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي، وَهِيَ نَائِلَةٌ - إِن شَاءَ اللهُ - مَن لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً**»(١).

وَفِي مَسْأَلَةِ الرَّجُلِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَحَدُنَا يُصْبِحُ جُنُباً، يَصُومُ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي لأَفْعَلُ ذَلِكَ، ثُمَّ أَصُومُ**»، فَقَالَ: لَسْتَ مِثْلَنَا، أَنتَ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «**وَاللهِ لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ للهِ**»(٢). وهذا كثير وأشباهه على اليقين(٣).

واحتجّ أحمد في تتمة الرواية بقول الله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] قال: فقد علم الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّناً أوجه الاستثناء: فإن كثيراً من السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم استثنوا في الإيمان، وآخرون أنكروا الاستثناء فيه، وقالوا: هذا شك. والذين استثنوا فيه منهم من أوجبه، ومنهم من لم يوجبه، بل جوّز تركه باعتبار حالتين، وهذا أصح الأقوال، وهذان القولان في مذهب أحمد وغيره، فمن استثنى لعدم علمه بأنه غير قائم بالواجبات كما أمر الله ورسوله ﷺ، فقد أحسن، وكذلك من استثنى لعدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله تعالى، لا شكّاً، ومن جزم بما هو في نفسه في هذه الحال، كمن يعلم من نفسه أنه شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فجَزم بما هو متيقن حصوله في نفسه فهو محسن في ذلك. وكثير من منازعات الناس في مسائل الإيمان ومسائل

---

(١) رواه البخاريّ.
(٢) رواه مسلم.
(٣) «السُّنَّة» للخلال ٣/ ٥٩٥.

الأسماء والأحكام هي منازعات لفظية، فإذا فصل الخطاب زال الارتياب. والله سبحانه أعلم بالصواب. انتهى[١].

ويتضح[٢] مما سبق أن الاستثناء عند السلف راجع إلى أحد خمسة أمور:

الأول: أن الإيمان المطلق يتضمّن فعل المأمورات، وترك المحرّمات جميعها، وليس أحد يدّعي أنه أتى بذلك، فجاز أن يستثني على هذا الاعتبار، وهذا مأخذ عامة السلف الذي كانوا يستثنون[٣].

الثاني: النظر إلى قبول الأعمال، فإن الإنسان يعمل، ولا يدري أيُتقبّل منه أم لا؟؛ لخوفه أن لا يكون أتى بالعمل على الوجه المأمور به، قال شيخ الإسلام: وهذا أظهر الوجوه في استثناء من استثنى منهم في الإيمان[٤].

الثالث: ترك تزكية النفس، وأيّ تزكية أعظم من التزكية في الإيمان[٥].

الرابع: أن الاستثناء يكون في الأمور المتيقّنة التي لا يشك فيها، كما سبق في آية الفتح، وفي قصّة صاحب القبر.

الخامس: الاستثناء لعدم العلم بالعاقبة، وخوف تغيّر الحال في مستقبل العمر، وفي ذلك يقول ابن بطّة رَحِمَهُ اللَّهُ: ويصح الاستثناء أيضاً من وجه آخر يقع على مستقبل الأعمال، ومستأنف الأفعال،

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٨/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) للدكتور محمد يسري، ص٩٣ ـ ٩٤.

(٣) «مجموع الفتاوى» ٧/ ٤٤٦.

(٤) «مجموع الفتاوى» ٧/ ٤٩٦.

(٥) «الإيمان» لابن بطة ٢/ ٨٦٥.

وعلى الخاتمة، وبقية الأعمار، ويريد: إني مؤمن إن ختم الله لي بأعمال المؤمنين، وإن كنت عند الله مثبتاً في ديوان أهل الإيمان، وإن كان ما أنا عليه من أفعال المؤمنين أمراً يدوم لي، ويبقى عليَّ حتى ألقى الله به، ولا أدري هل أُصبح وأمسي على الإيمان أم لا؟ وبذلك أدَّب الله نبيَّه والمؤمنين من عباده، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، فأنت لا يجوز لك إن كنت ممن يؤمن بالله وتعلم أن قلبك بيده يصرفه كيف شاء أن تقول قولاً حزماً حتماً: إني أصبح غداً مؤمناً، إلا أن تصل كلامك بالاستثناء فتقول: إن شاء الله، فهكذا أوصاف العقلاء من المؤمنين. انتهى[(١)].

والحاصل: أن أكثر أهل السُّنَّة على جواز الاستثناء لهذه الاعتبارات، وجواز تَرْكه إذا كان المقصود أصل الإيمان، لا الإيمان المطلق الكامل، وأما على الشكّ فيُمنع منه اتفاقاً، وينبغي لمن لم يستثن أن يقرن كلامه بما يبيّن أنه لا يريد الإيمان المطلق الكامل؛ كأن يقول: آمنت بالله وملائكته ورسله، ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: «أنا مؤمن» بلا استثناء، إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبيّن أنه لم يُرِد الإيمان المطلق الكامل. انتهى.

وقال ابن أبي العزّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ملخّصاً أوجه الاستثناء: وأما من يجوّز الاستثناء وتَرْكه، فهم أسعد بالدليل من الفريقين، وخير الأمور

---

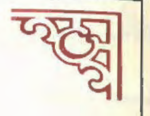
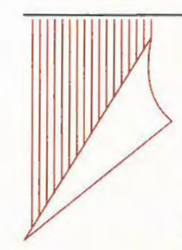
(١) «الإبانة الكبرى» لابن بطة ٢/ ٨٦٥ ـ ٨٦٦.

أوسطها: فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه مُنع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، فالاستثناء حينئذ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله، لا شكّاً في إيمانه. وهذا القول في القوة كما ترى. انتهى[1].

(وَمَن مِنَ الْعَوَام) بتخفيف الميم للوزن، وهو خلاف الخاصّة الذين هم من أهل العلم، (قَالَ): أنا (مُؤْمِن بِالْجَزْمِ فَهْوَ مُسْلِمٌ مُؤَمَّن)؛ يعني: أنه لا يُنكر ذلك عليه. والله تعالى أعلم.



(١) «شرح الطحاوية» ص٣٤٠.

الْفَصْلُ الْخَامِسُ

فِي بَيَانِ حُكْمِ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ

٢٤٠ ـ كَبَائِرُ الذُّنُوبِ قُلْ: قَوَادِحُ، تَقْدَحُ فِي إِيمَانِنَا وَتَجْرَحُ،

٢٤١ ـ مَن يَرْتَكِبْ فَفَاسِقٌ لَا يَسْتَحِقّ إِيمَانَهُ الْمُطْلَقَ، إِنَّمَا يَحِقّ=

٢٤٢ ـ مُطْلَقُ إِيمَانٍ لَهُ، وَاتَّفَقُوا أَئِمَّةُ السُّنَّةِ طُرّاً أَطْبَقُوا

٢٤٣ ـ فَأَثْبَتُوا التَّبْعِيضَ فِي الْحُكْمِ، كَذَا فِي الِاسْمِ؛ فَالشَّخْصُ يُرَىٰ قَدْ أَخَذَا=

٢٤٤ ـ بَعْضاً مِنَ الْإِيمَانِ فَلْيُعْطَ بِهِ حُكْمَ ذَوِي الْإِيمَانِ وَلْتَنتَبِهِ

٢٤٥ ـ لَهُ ثَوَابُهُم بِقَدْرِ مَا مَعَهْ مُعَاقَباً بِقَدْرِ ذَنبٍ صَنَعَهْ

٢٤٦ ـ وَلَا يَرَوْنَ أَن يُكَفَّرَ أَحَدْ مِنْ أَهْلِ قِبْلَةٍ لِرَبِّهِ سَجَدْ=

٢٤٧ ـ إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ مَا يَنْقُضُ مَا أَبْرَمَ مِنْ إِيمَانِهِ وَأَجْرَمَا

* * *

(كَبَائِرُ الذُّنُوبِ) من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: الذنوب الكبار، وهو مبتدأ، خبره **قوله:** (قُلْ) هي (قَوَادِحُ) جمع قادحة، يقال: قدح فلان في فلان قَدْحاً، من باب نَفَعَ: إذا عابه وتنقّصه، قاله في «المصباح»؛ يعني: أنها (تَقْدَحُ)؛ أي: تنتقص (فِي إِيمَانِنَا) فيكون ناقصاً بسببها. **وقوله:** (وَتَجْرَحُ)؛ أي: تعيبه، مؤكّد لِمَا قبله. (مَن) شرطيّة، ولذا جُزم بها **قوله:** (يَرْتَكِبْ)؛ أي: فالشخص الذي يفعل الكبائر من الذنوب، وجواب الشرط **قوله:** (فَفَاسِقٌ)؛ أي: فهو فاسق؛ لارتكابه الكبائر، فـ(لَا يَسْتَحِقّ إِيمَانَهُ الْمُطْلَقَ)؛ أي: اسم

الإيمان المطلق، بل (إِنَّمَا يَحِقّ)؛ أي: يثبت (مُطْلَقُ إِيمَانٍ لَهُ)؛ يعني: أنه إنما يثبت له مطلق الإيمان، وقد عرفت الفرق بينهما فيما سبق، فلا تغفُل. والله تعالى أعلم.

(وَاتَّفَقُوا أَئِمَّةُ السُّنَّةِ) هذا من باب «أكلوني البراغيث»، ففيه الجمع بين ضمير الجماعة والفاعل الظاهر، وهو جائز، وإن كان الأفصح التجريد عن الضمير، كما قال في «الخلاصة»:

وَجَرِّدِ الْفِعْلَ إِذَا مَا أُسْنِدَا ... لِاثْنَيْنِ أَوْ جَمْعٍ كَفَازَ الشُّهَدَا

وَقَدْ يُقَالَ سَعِدَا وَسَعِدُوا ... وَالْفِعْلُ لِلظَّاهِرُ بَعْدُ مُسْنَدُ

وقوله: (طُرّاً) بضمّ الطاء المهملة وتشديد الراء؛ أي: جميعاً، قال في «التاج»: وقولهم: جاءوا طُرّاً؛ أي: جميعاً، وهو منصوب على المصدر، أو الحال، قال سِيبَوَيْهِ: وقالوا: مررت بهم طُرّاً؛ أي: جميعاً، قال: ولا يُسْتَعْمَلُ إِلّا حالاً، واستَعملَهَا خَصِيبٌ النَّصْرانيّ المُتَطَبِّبُ في غير الحال، وقيل له: كيف أنت؟ فقال: أحمد الله إلى طُرِّ خَلْقه. وفي نَوَادِر الأعراب: رأيت بني فُلانٍ بِطُرِّهم، إذا رأيتَهُم بأَجْمَعِهم. وقال يُونُس: الطُّرُّ: الجماعةُ، وقولهم: جاءني القوم طُرّاً، منصوب على الحال، يقال: طَرَرْتُ القومَ؛ أي: مررت بهم جميعاً. وقال غيره: «طُرّاً» أُقِيمَ مقام الفاعل، وهو مصدر؛ كقولك: جاءني القوم جميعاً. انتهى[1].

(أَطْبَقُوا)؛ أي: أجمعوا، قال الفيّوميّ رحمه الله: يقال: أطبقوا على الأمر بالألف: إذا اجتمعوا عليه متوافقين غير متخالفين. انتهى[2].

---

(١) «تاج العروس من جواهر القاموس» ١٢/ ٤٢٧.

(٢) «المصباح المنير» ٢/ ٣٦٩.

(فَأَثْبَتُوا التَّبْعِيضَ فِي الْحُكْمِ)؛ أي: في إثبات الأحكام التي تثبت للمؤمن، (كَذَا) أطبقوا أيضاً (فِي الِاسْمِ)؛ أي: في اسم الإيمان، (فَالشَّخْصُ يُرَى) بالبناء للمفعول، (قَدْ أَخَذَا) بألف الإطلاق مبنيّاً للفاعل، (بَعْضاً مِنَ الإِيمَانِ) لا كلّه بسبب نقصه بالذنوب، (فَلْيُعْطَ بِهِ حُكْمَ ذَوِي)؛ أي: أهل (الإِيمَانِ). **وقوله:** (وَلْتَنْتَبِه) تتميم للبيت، (لَهُ ثَوَابُهُمْ)؛ أي: ثواب أهل الإيمان، (بِقَدْرِ مَا مَعَهْ) من الإيمان، حال كونه (مُعَاقَباً)؛ أي: مستحقّاً للعقاب، فهو على حذف مضاف، (بِقَدْرِ ذَنْبٍ صَنَعَه)؛ أي: بحَسَب ما ارتكبه من الذنوب.

(وَلَا يَرَوْنَ)؛ أي: أهل السُّنَّة والجماعة، (أَن يُكَفَّرَ) بتشديد الفاء، مبنيّاً للمفعول؛ أي: أن يُنسب إلى الكفر (أَحَد مِنْ أَهْلِ قِبْلَةٍ لِرَبِّهِ سَجَد)؛ أي: صلى لله سبحانه، (إِلَّا إِذَا ارْتَكَبَ مَا يَنْقُضُ)؛ أي: يزيل (مَا أَبْرَمَ)؛ أي: أحكم (مِنْ إِيمَانِهِ). **وقوله:** (وَأَجْرَمَا) بألف الإطلاق؛ أي: ارتكب ذنباً يُخرجه من الملّة.

وحاصل المعنى: أن من أصول أهل السُّنَّة والجماعة أنهم لا يكفّرون أحداً من أهل القبلة بكلّ ذنب، إلا إذا ارتكب ما يناقض الإيمان.

وعبارة الطحاويّة: «ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».

كتب بعضهم على العبارة ما نصّه: عبارة المؤلف تقتضي أن أهل السُّنَّة لا يكفّرون أحداً من أهل القبلة بأيّ ذنب، والذنوب نوعان:

- ذنوب من أنواع الردة؛ كالشرك وما في درجته، وهي أعظم الذنوب.

- وذنوب دون الشرك لا توجب الردة.

وإذا أخذت عبارة المؤلف على إطلاقها فظاهرها: أن كل من كان مسلماً فإنه لا يكفَّر، بأي ذنب ارتكبه حتى ولو كان شركاً، ولا ريب أن الطحاويّ لم يقصد هذا، وإنما يقصد الذنوب التي دون الشرك.

ولهذا قال الشارح ابن أبي العزّ: امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول: بأنا لا نكفِّر أحداً بذنب؛ بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب، فهذه هي العبارة الدقيقة، وتكون من سَلْب العموم، لا من عموم السلب؛ كعبارة الطحاويّ، ومضمون سلب العموم: أنا لا نكفِّر أحداً من أهل القبلة بكل ذنب، إنما نكفره بالشرك وما في حكمه، ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بما دون ذلك، والله تعالى قد جعل الذنوب قسمين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فنحن أهل السُّنَّة لا نكفّر أحداً من أهل القبلة بشيء من الذنوب التي دون الشرك، خلافاً للخوارج الذين يكفّرون بالذنوب، وقد يَعُدُّون ما ليس بذنب ذنباً، فيكفِّرون به، والخوارج الذين ظهروا بهذه البدعة في عهد عليّ رضي الله عنه، فقاتلهم، وقد أخبر الرسول ﷺ عنهم، ونَدب إلى قتالهم، وذَكَر الأجر العظيم لمن قَتَلهم(١).

إذاً؛ الذنوب فيها مكفِّر وغير مكفِّر؛ فكل ما هو من أنواع الردة فهو مكفر؛ كالشرك، والتكذيب بما جاء به الرسول ﷺ،

(١) صحيح البخاري (ح٦٩٣٠ - ٦٩٣٢)؛ وصحيح مسلم (ح١٠٦٦) ١/ ٤٣٣.

والاستهزاء بالرسول ﷺ، أو بالقرآن، وهناك ذنوب اختلف العلماء في كفر فاعلها؛ كترك الصلاة.

وقوله: «ما لم يستحله»؛ أي: لا نكفره بهذا الذنب إلا أن يعتقد حِلَّه، فإن اعتقد حله كفر؛ كجحد وجوب الصلاة أو الحج أو صيام رمضان، وجحد تحريم المحرمات المعلوم حكمها بالضرورة من دين الإسلام؛ كتحريم الزنا، والخمر؛ لأنه يكون مكذباً للقرآن والسُّنَّة المتواترة، وما أجمع عليه المسلمون، ومن اعتقد حِلّ ما حرَّمه الله مما تحريمه معلوم من دين الإسلام بالضرورة فهو كافر حتى ولو لم يفعله؛ لأنه ليس من شرط ثبوت الردة بالاستحلال فعل المكلف لِمَا استحله من الحرام. انتهى[1].

٢٤٨ ـ أَهْلُ الْكَبَائِرِ لَهُمْ شَفَاعَهْ مِنَ النَّبِي يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَهْ

٢٤٩ ـ هُمْ دَاخِلُونَ فِي الْمَشِيئَةِ الَّتِي وَعَدَنَا بِهَا مُعِيدُ النَّشْأَةِ

٢٥٠ ـ يَعْفُو الْإِلَـٰهُ عَنْهُمُ إِذْ وَحَّدُوا أَوْ حَسَنَاتٌ قَدْ مَحَتْ مَا أَلْحَدُوا

٢٥١ ـ أَوْ بِمَصَائِبَ، وَكُلُّ ذَٰلِكَا مِن مَحْضِ فَضْلِ رَبِّنَا تَبَارَكَا

٢٥٢ ـ وَمَن يُعَاقَبُ بِذَنبٍ فَإِلَىٰ وَقْتٍ مُعَيَّنٍ بِلَا خُلْدٍ تَلَا

(أَهْلُ الْكَبَائِرِ لَهُمْ شَفَاعَه مِنَ النَّبِي)؛ يعني: أن أهل الذنوب الكبائر تنالهم شفاعة النبيّ ﷺ (يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَهْ) فقد أخرج أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**».

---

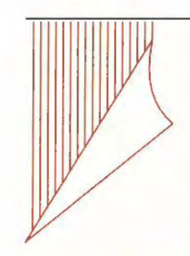
(١) «شرح العقيدة الطحاوية» للبراك ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(هُمْ دَاخِلُونَ فِي الْمَشِيئَةِ)؛ أي: تحت المشيئة (الَّتِي وَعَدَنَا بِهَا)؛ يعني: التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، **وقوله:** (مُعِيدُ النَّشْأَةِ) مرفوع على الفاعليّة؛ أي: معيد الخلق، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، (يَعْفُو الإِلَهُ) سبحانه (عَنْهُمُ)؛ أي: عن العصاة، (إِذْ) تعليليّةٌ، (وَحَّدُوا)؛ أي: لأنهم موحّدون، فيعفو عنهم لتوحيدهم، (أَوْ حَسَنَاتٌ)؛ أي: أو يعفو عنهم بسبب حسنات لهم (قَدْ مَحَتْ مَا أَلْحَدُوا)؛ أي: ما مالوا فيه عن الحقّ، وهي المعاصي، (أَوْ بِمَصَائِبَ)؛ أي: أو يعفو عنهم بسبب مصائب نزلت بهم، فكفّرت عنهم سيّئاتهم، (وَكُلُّ ذَالِكَا) بألف الإطلاق؛ أي: وكلّ ما ذُكر من مكفّرات الذنوب (مِن مَحْضٍ)؛ أي: خالص (فَضْلِ رَبِّنَا تَبَارَكَا) لألف الإطلاق أيضاً؛ يعني: أن هذا كلّه من محض فضل الله تعالى، لا باستحقاق العبد على الله شيئاً.

(وَمَن) موصولة، ولذا رُفع الفعل بعدها، (يُعَاقَبُ) بالبناء للمفعول، (بِذَنبٍ)؛ أي: بسبب ذنوبه، (فَإِلَى وَقْتٍ مُعَيَّنٍ)؛ أي: فتعذيبه إلى وقت محدّد بقدر ذنوبه، (بِلَا خُلْدٍ) بضمّ فسكون: البقاء، والدوام؛ كالخلود، قاله المجد. **وقوله:** (تَلَا) صفة لـ«خُلْد»؛ أي: تَبِع ذلك الخلد الوقت المعيّن، والمراد: أنه لا يخلّد في النار. والله تعالى أعلم.

۞ ۞ ۞





الْفَصْلُ السَّادِسُ

فِي بَيَانِ الْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ الْقِبْلَةِ

٢٥٣ ـ وَمَنْ إِلَى الْقِبْلَةِ صَلَّىٰ فَهْوَ مِنْ   مِلَّةِ الإسْلَامِ؛ فَصَلِّ يَا فَطِنْ=

٢٥٤ ـ وَرَاءَهُ، كَذَا عَلَيْهِ وَاحْكُمَا   فِي ظَاهِرٍ أَنَّهُ كَانَ مُسْلِمَا

٢٥٥ ـ وَمَن يَكُن ظَاهِرُهُ الْإِسْلَامَا   ظُنَّ بِهِ خَيْراً، وَلَا مَلَامَا

٢٥٦ ـ لَٰكِن لَكَ اخْتِبَارُهُ، كَالْجَارِيَهْ   إِذَا دَعَتْ قَرِينَةٌ مُوَاتِيَهْ

٢٥٧ ـ مَحَنَهَا النَّبِيُّ: «أَيْنَ رَبُّنَا»   فَقَدْ أَجَابَتْ: فِي السَّمَاءِ عَلَنَا

٢٥٨ ـ فَقَالَ: «أَعْتِقْهَا»، فَمِثْلُ ذَا يُؤَمّ   لَيْسَ بِبِدْعَةٍ قَبِيحَةٍ تُذَمّ

(وَمَن) شرطيّةٌ، أو موصولة، (إِلَى الْقِبْلَةِ) متعلّق بـ(صَلَّى)؛ يعني: أن من استقبل الكعبة وصلى (فَهْوَ مِنْ مِلَّةِ)؛ أي: من أهل ملة (الِاسْلَامِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها؛ يعني: أنه مسلم، له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، (فَصَلِّ)؛ أي: فإذا ثبت كونه مسلماً. **وقوله:** (يَا فَطِنْ) جملة معترضة. **وقوله:** (وَرَاءَهُ) ظرف متعلّق بـ«صلّ»؛ أي: صلّ وراءه إذا تقدّم إماماً؛ إذ الحكم للظاهر، والله تعالى يتولى السرائر. (كَذَا عَلَيْهِ)؛ أي: كذا صلّ عليه إذا مات، (وَاحْكُمَا) بالألف المبدَلة من نون التوكيد الخفيفة، (فِي ظَاهِرٍ أَنَّهُ كَانَ مُسْلِما)؛ يعني: أنك تحكم بأنه مسلم في الظاهر، على ما ظهر من حاله.

(وَمَن يَكُن ظَاهِرُهُ الإِسْلَامَا) بألف الإطلاق، (ظُنَّ بِهِ خَيْراً)؛

أي: ظُنّ أنه مسلم كما هو ظاهر حاله، **(وَلَا مَلَامَا)**؛ أي: لا لوم عليك في ذلك؛ لأنك على الصواب، **(لَكِن لَكَ اخْتِبَارُهُ)** حتى يظهر لك حاله، **(كَالْجَارِيَه)**؛ أي: مثل اختبار الجارية **(إِذَا دَعَتْ)**؛ أي: إذا استدعت **(قَرِينَةٌ مُوَاتِيَه)**؛ أي: موافقة. قال في «المصباح»: آتيته على الأمر بمعنى وافقته، وفي لغة لأهل اليمن تُبدل الهمزة واواً، فيقال: واتيته على الأمر مواتاةً، وهي المشهورة على ألسنة الناس، وكذلك ما أشبهه. انتهى[1]. ثم بيّن قصّة اختبار الجارية، فقال: **(مَحَنَهَا)** من باب نفع، بمعنى: اختبرها، يقال: محنته مَحْناً، من باب نفع: اختبرته، وامتحنته كذلك، والاسم: الْمِحْنة، والجمع: مِحَن، مثلُ: سِدْرة وسِدَر، **(النَّبِيُّ)** ﷺ **بقوله: (أَيْنَ رَبُّنَا)** سبحانه، **(فَقَدْ أَجَابَتْ)** الجارية بقولها: **(فِي السَّمَاءِ عَلَنَا)**؛ أي: ظاهراً؛ أي: أجابت بذلك في ملأٍ من الناس، **(فَقَالَ)** ﷺ: **(أَعْتِقْهَا)** أشار بهذا إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن معاوية بن الحكم السلميّ رضي الله عنه، قال: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ... الحديث، وفيه: قال: وَكَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَماً لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِن بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: **«ائْتِنِي بِهَا»** فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: **«أَيْنَ اللهُ؟»** قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: **«مَنْ أَنَا؟»** قَالَتْ: أَنتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: **«أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»**[2].

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٤.

(٢) «صحيح مسلم» ١/ ٣٨١.

(فَمِثْلُ ذَا)؛ أي: مثل هذا السؤال، (يُؤَمّ) بالبناء للمفعول؛ أي: يُقصد، (لَيْسَ) هو (ببِدْعَةٍ قَبِيحَةٍ تُذَمّ) بالبناء للمفعول أيضاً، والجملة صفة بعد صفة لـ«بدعة».

والحاصل: أن امتحان بعض الناس الذين يُشكّ في إيمانهم مشروع جائز، كما فعل النبيّ ﷺ بهذه الجارية، وأما من لم يظهر عليه شيء من الريبة فلا يُشرع امتحانه، بل هو من بدع المرجئة، ولهذا وَرَد عن السلف إنكاره، قال إبراهيم النخعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سؤال الرجل الرجل: أمؤمن أنت؟ بدعة[١].

وقال ابن عيينة: إذا سئل: أمؤمن أنت؟ إن شاء لم يُجبه، أو يقول: سؤلك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني[٢].

وقال الآجريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا قال لك رجل: أنت مؤمن؟ فقل: آمنت بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورسله، واليوم الآخر، والموت، والبعث من بعد الموت، والجنة والنار، وإن أحببت أن لا تجيبه تقول له: سؤالك إياي بدعة، فلا أجيبك، وإن أجبته، فقلت: أنا مؤمن ـ إن شاء الله تعالى ـ على النعت الذي ذكرناه، فلا بأس به، واحذر مناظرة مثل هذا، فإن هذا عند العلماء مذموم، واتّبع من مضى من أئمة المسلمين تَسْلم، إن شاء الله تعالى. انتهى[٣].

والمرجئة أوردوا هذا السؤال احتجاجاً منهم على أن الإيمان قول وتصديق بلا عمل، ووجه ذلك: أن المجيب إذا قال: أنا مؤمن، قيل له: فهل جئت بالعمل؟ وكيف ساغ لك الجزم بالإيمان،

---

(١) «الشريعة» للآجريّ ٢/ ٦٧٠. (٢) «السُّنَّة» لعبد الله بن أحمد ١/ ٣٣٨.
(٣) «الشريعة» للآجريّ ٢/ ٦٦٧.

وأنت لا تجزم بالعمل؟ فهذا تسليم منك بأن الإيمان قول بلا عمل!.

فلمّا علم السلف مقصودهم كرهوا السؤال، وكرهوا جوابه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره: أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة؛ ليحتجوا بها لقولهم؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر؛ بل يجد قلبه مصدقاً بما جاء به الرسول ﷺ، فيقول: أنا مؤمن، فيثبت أن الإيمان هو التصديق؛ لأنك تجزم بأنك مؤمن، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أُمرت به؛ فلمّا علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب، أو يفصّلون في الجواب، وهذا لأن لفظ «الإيمان» فيه إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: «أنا مؤمن» بلا استثناء إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبيّن أنه لم يُرِد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدّمه.

وقال المروذيّ: قيل لأبي عبد الله: نقول: نحن المؤمنون؟ فقال: نقول: نحن المسلمون، وقال أيضاً: قلت لأبي عبد الله: نقول: إنا مؤمنون؟ قال: لا، ولكن نقول: إنا مسلمون؛ ومع هذا فلم يُنكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قَصْده قَصْد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، بل يُكره تركه لِمَا يعلم أن في قلبه إيماناً، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه.

قال الخلال: أخبرني أحمد بن أصرم المزنيّ أن أبا عبد الله قيل له: إذا سألني الرجل فقال: أمؤمن أنت؟ قال: سؤالك إياي بدعة لا يشك في إيمانه، أو قال: لا نشك في إيماننا. قال المزني: وحِفظي أن أبا عبد الله قال: أقول كما قال طاووس: آمنت بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورسله.

وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل وأبو داود، قال أبو داود: سمعت أحمد: قال: سمعت سفيان ـ يعني: ابن عيينة ـ يقول: إذا سئل: أمؤمن أنت؟ لم يجبه، ويقول: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن قال: إن شاء الله فليس يُكره، ولا يداخل الشك، فقد أخبر عن أحمد أنه قال: لا نشك في إيماننا، وإن السائل لا يشك في إيمان المسؤول، وهذا أبلغ وهو إنما يجزم بأنه مقرّ مصدق بما جاء به الرسول ﷺ، لا يجزم بأنه قائم بالواجبات.

فعُلم أن أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون، ولا يشكّون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال، ويجعلون الاستثناء عائداً إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور. انتهى[١].

٢٥٩ ـ لَا تُنزِلَنَّ أَحَداً فِي جَنَّتِهِ ... أَوْ فِي جَهَنَّمَ بِلَا بَيِّنَتِهِ

٢٦٠ ـ وَارْجُ لِمُحْسِنٍ، وَبَشِّرْهُ، وَلَا ... تُؤَمِّنَنَّهُ؛ فَذَا قَدْ حُظِلَا

٢٦١ ـ وَخَفْ عَلَى الْمُسِيءِ، لَا تُقَنِّطَا ... فَذَاكَ أَفْرَطَ، وَهَـٰذَا فَرَّطَا

(١) «مجموع الفتاوى» ٧/٤٤٨ ـ ٤٥٠؛ «الإيمان عند السلف» لمحمد محمود آل خضر ١/٨٩ ـ ٩٧.

٢٦٢ - وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْخَوَاتِمِ ... يَا رَبِّ فَارْحَمْنَا بِهَا وَأَكْرِمِ

٢٦٣ - مَن لَمْ يُبَلَّغْ حُجَّةً فَلَمْ تَقُمْ ... عَلَيْهِ حُجَّةٌ، إِذاً فَلَا تَلُمْ=

٢٦٤ - مِنْ أَهْلِ فَتْرَةٍ فَيُمْتَحَنُ فِي ... غَدٍ؛ لِيَنكَشِفَ حَالُهُ الْخَفِي

٢٦٥ - وَمَن مِنَ الْأَطْفَالِ مَاتَ دَخَلَا ... فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ بِإِجْمَاعٍ جَلَا

٢٦٦ - وَاخْتَلَفُوا فِي طِفْلِ مَن قَدْ أَشْرَكَا ... وَالْحَقُّ: فِي الْجَنَّةِ، خُذْهُ مَسْلَكَا

(لَا تُنْزِلَنَّ) بضم التاء، من الإنزال، (أَحَداً) من الناس (فِي جَنَّة، أَوْ فِي جَهَنَّمَ بِلَا بَيِّنَة)؛ أي: بلا حجة تبيّن كونه من أهل الجنّة، أو من أهل النار، وذلك بأن أخبر عنه النبيّ ﷺ أنه من أهل الجنة؛ كالعشرة المبشّرين بالجنة، فقد قال ﷺ: **«أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ ابْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ»**(١)، وكذا شَهِد لغيرهم.

أو أخبر ﷺ أنه من أهل النار، كما في حديث الشيخين عن أبي هريرة: شَهِدْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ خَيْبَرَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِمَّن مَعَهُ يَدَّعِي الإِسْلَامَ: **«هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**، فَلَمَّا حَضَرَ الْقِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ مِنْ أَشَدِّ الْقِتَالِ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: **«أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»**، فَكَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ أَن يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ وَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الْجِرَاحِ، فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِهِ، فَانتَزَعَ مِنْهَا سَهْماً فَانتَحَرَ

---

(١) رواه الترمذيّ، وقال: حديث حسن صحيح، وهو كما قال؛ لطرقه، وشواهده.

بِهِ، فَأُخْبِرَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لِبِلَالٍ: «**قُمْ فَأَذِّن: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**».

قال شارح الطحاويّة رَحِمَهُ اللَّهُ: لا نقول عن أحد معيَّن من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة، أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة؛ كالعَشَرة رضي الله عنهم. وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من يشاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقف في الشخص المعيَّن، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء.

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء عليهم السلام، وهذا يُنقل عن محمد ابن الحنفية، والأوزاعي.

والثاني: أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون، كما في «الصحيحين» أنه: مُرَّ بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْها بِخَيْرٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَجَبَتْ**»، وَمُرَّ بِأُخْرَى، فَأُثْنِي عَلَيْهَا بِشَرٍّ، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**». وفي رواية كرر: «وَجَبَتْ» ثلاث مرات، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا وَجَبَتْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْراً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرّاً وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**». وقال ﷺ: «**تُوشِكُونَ أَن تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**بِالثَّنَاءِ الْحَسَنِ، وَالثَّنَاءِ السَّيِّئِ**». فأخبر أن ذلك

مما يُعلم به أهل الجنة وأهل النار. انتهى[١].

(وَارْجُ) بوصل الهمزة، من الرجاء، أمْر من الرجاء؛ أي: ارج الخير والجنّة (لِمُحْسِنٍ)؛ أي: لمن أحسن في عمله، (وَبَشِّرْهُ) بالخير حيث كان محسناً، (وَلَا تُؤَمِّنَنَّهُ)؛ أي: لا تجعله من الآمنين من عذاب الله تعالى وسَخَطه، (فَذَا قَدْ حُظِلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: مُنع، (وَخَفْ) بفتح فسكون، أمْر من الخوف، (عَلَى الْمُسِيءِ)؛ أي: من أساء في عمله، (لَا تُقَنِّطَا) بالألف المنقلبة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: لا تحمله على القنوط من رحمة الله تعالى؛ إذ القنوط من رحمته من الكبائر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

(فَذَاكَ) الأول، وهو من يؤمّن المؤمن، (أَفْرَطَ) بهمزة القطع، يقال: أفرط إفراطاً: أسرف وجاوز الحدّ[٢]. (وَهَذَا) الثاني، وهو من يقنّط من رحمة الله تعالى، (فَرَّطَا) بتشديد الراء، والألف إطلاقيّة، من التفريط، يقال: فرّط في الأمر تفريطاً: قصّر فيه وضيّعه[٣].

(وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْخَوَاتِمِ)؛ أي: فمن خُتم له بالخير فهو من أهل الجنّة، ومن ختم له بسوء فهو من أهل النار. (يَا رَبِّ فَارْحَمْنَا بِهَا)؛ أي: بالخاتمة الحسنى، (وَأَكْرِمِ)؛ أي: أكرمنا بها.

(مَن لَمْ يُبَلَّغْ) بالبناء للمفعول. **وقوله:** (حُجَّةً) مفعول ثان لـ«يبلّغ»، (فَلَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ)؛ يعني: أن من لم تَبْلُغه حجة الله تعالى، وهم الرسل، والكتب المنَزّلة عليهم، فليس ممن قامت عليه

---

(١) «شرح الطحاوية» لابن أبي العزّ، ص٣٧٠.

(٢) «المصباح المنير» ٢/ ٤٦٩.

(٣) المصدر السابق.

الحجة. (إِذاً)؛ أي: إذا كان كذلك (فَلَا تَلُمْ) من اللوم؛ أي: فلا تَعِبْ عليه؛ لأنه معذور بعدم بلوغ الدعوة إليه.

وقوله: (مِنْ أَهْلِ فَتْرَةٍ) خبر لمحذوف؛ أي: هو من أهل الفترة الذين يُمتحنون في الآخرة، (فَيُمْتَحَنُ) بالبناء للمفعول، (فِي غَدٍ)؛ أي: يوم القيامة، (لِيَنكَشِفَ حَالُهُ الْخَفِي) هل هو ممن يطيع الله تعالى بامتثال أمره أم لا؟.

(وَمَن مِنَ الأَطْفَالِ مَاتَ دَخَلَا) بألف الإطلاق، (فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ). **وقوله:** (بِإِجْمَاعٍ) متعلّق بـ(جَلَا)؛ أي: ظهر؛ يعني: أنهم أجمعوا على أن من مات من أطفال المسلمين يدخل الجنّة.

(وَاخْتَلَفُوا فِي طِفْلِ مَن قَدْ أَشْرَكَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أنهم اختلفوا في أولاد المشركين، هل هم في الجنة أو في النار؟ (وَالْحَقُّ)؛ أي: القول الصواب أنهم (فِي الْجَنَّةِ خُذْهُ)؛ أي: خذ هذا القول (مَسْلَكا)؛ أي: مذهباً تسلكه وتعتمد عليه؛ لكونه صواباً، قال الإمام النوويّ رَحِمَهُ اللهُ: المذهب الصحيح الذي صار إليه المحققون أنهم ـ؛ أي: أولاد المشركين ـ في الجنة. انتهى.

وأخرج الإمام أحمد، وغيره، وصححه ابن حبان من حديث سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الطويل، وفيه: «**وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي رَأَيْتُ فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ**»، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينِ**». والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ السَّابِعُ

فِي بَيَانِ أَبْوَابِ الْإِيمَانِ، وَأَقْسَامِ التَّوْحِيدِ



٢٦٧ ـ إِيمَانُنَا بِاللَّهِ ـ جَلَّ ـ اشْتَمَلَا   إِثْبَاتَ وَحْدَانِيَّةٍ لَهُ عَلَا

٢٦٨ ـ وَكَوْنَهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ رَبّاً، جَلَا   أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَىٰ، صِفَاتِهِ الْعُلَىٰ

٢٦٩ ـ فَإِن تُرِد تَوْحِيدَهُ فَقُلْ: أَحَدْ   وَوَاحِدٌ فِي اسْمٍ وَذَاتٍ انفَرَدْ

٢٧٠ ـ فَلَا سَمِيَّ، لَا مَثِيلَ، انفَرَدَا   بِفِعْلِهِ، فَلَا نَظِيرَ وُجِدَا

٢٧١ ـ هُوَ الْحَقِيقُ بِالْعِبَادَةِ؛ فَلَا   شَرِيكَ، وَحْدَهُ اتَّخِذْهُ مَوْئِلَا

٢٧٢ ـ أَطِعْهُ وَحْدَهُ بِكُلِّ مَا أَمَرْ   وَاجْتَنِبَنَّ كُلَّ مَا عَنْهُ زَجَرْ

٢٧٣ ـ وَجَامِعُ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ   إِفْرَادُكَ الْإِلَٰهَ بِالتَّمْجِيدِ=

٢٧٤ ـ لِسَاناً، اوْ قَلْباً، أَوِ الْجَوَارِحْ   مِن دُونِ أَن تَنقُضَ بِالْجَوَارِحْ

(إِيمَانُنَا) مبتدأ، خبره **قوله:** «اشتملا»، (بِاللهِ جَلَّ)؛ أي: تعاظم وتقدّس، (اشْتَمَلَا) بألف الإطلاق مبنيّاً للفاعل، (إِثْبَاتَ وَحْدَانِيَّةٍ) بنصب «إثباتَ» على المفعوليّة، (لَهُ)؛ أي: لله، (عَلَا)؛ أي: ارتفع على خلقه.

(وَكَوْنَهُ) بالنصب عطفاً على «إثبات»؛ أي: واشتمل أيضاً كون الله (سُبْحَانَهُ) وتعالى (رَبّاً جَلَا)؛ أي: كَشَفَ الشدائد والأزمات عن عباده، وأفاض عليهم الرحمات.

وقوله: (أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى) بنصب «أسماء» بالعطف أيضاً؛ أي: ويشتمل أيضاً أسماء الله تعالى الحسنى. **وقوله:** (صِفَاتِهِ) بالعطف

بعاطف مقدّر؛ أي: ويشمل أيضاً صفات الله تعالى (الْعُلَى) بضمّ العين وفتح اللام: جمع عُلْيَا ـ بضمّ فسكون ـ، قال الفيّوميّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْعُلْيَا: خلاف السُّفْلَى، تُضم العين فتُقصر، وتُفتح فتُمَدّ، قال ابن الأنبَارِيِّ: والضم مع القصر أكثر استعمالاً، فيقال: شفة عليا، وعلياء، وأصل العَلْيَاءِ: كل مكان مُشْرِفٍ، وجمع العُلْيَا عُلىً، مثل: كُبْرَى وَكُبَر. انتهى[1].

(فَإِن تُرِد تَوْحِيدَهُ) تعالى (فَقُلْ) بلسانك، معتقداً بجنانك هو (أَحَد وَوَاحِدٌ فِي اسْم)؛ أي: في اسمه تعالى، (وَذَاتٍ)؛ أي: وفي ذاته تعالى، حال كونه (انفَرَد) في ذلك، (فَلَا سَمِيَّ) بفتح السين وكسر الميم وتشديد الياء، فعيل بمعنى مفعول؛ أي: لا يوجد من يسمّى بأسمائه تعالى، (لَا مَثِيلَ)؛ أي: لا نظير له سبحانه، (انفَرَدَا) بألف الإطلاق، (بِفِعْلِهِ) متعلّق بما قبله؛ أي: هو سبحانه منفرد بأفعاله (فَلَا نَظِيرَ) له. **وقوله:** (وُجِدَا) بألف الإطلاق أيضاً مبنيّاً للمفعول، صفة لِمَا قبله.

(هُوَ)؛ أي: الله ﷻ، (الْحَقِيقُ)؛ أي: الجدير، يقال: فلان حقيق بكذا، بمعنى: خليق، وهو مأخوذ من الحقّ الثابت[2]. (بِالْعِبَادَةِ)؛ يعني: أنه مستحقّ لها، (فَلَا شَرِيكَ) له، حال كونه (وَحْدَهُ اتَّخِذْهُ مَوْئِلا)؛ أي: ملجأ تلجأ إليه في المهمات، وتتوكل عليه في الـمُلِمّات. (أَطِعْهُ) بقطع الهمزة، أمْر من أطاع، يقال: أطاعه إطاعة؛ أي: انقاد له، وطاعه طَوْعاً، من باب قال، وبعضهم يُعَدّيه بالحرف، فيقول: طاع له، وفي لغة من بابَي باع وخاف،

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٢٧.
(٢) «المصباح المنير» ١/ ١٤٤.

والطاعة اسم منه، والفاعل من الرباعي مطيع، ومن الثلاثي طائع. قاله الفيّوميّ[1].

حال كونه (وَحْدَهُ) لا شريك له. **وقوله:** (بِكُلِّ مَا أَمَرْ) متعلّق بـ«أطعه»، و«أَمَر» مبنيّ للفاعل؛ أي: أطع الله ﷻ بكلّ ما أمرك به من أنواع المأمورات، (وَاجْتَنِبَنَّ)؛ أي: ابتعدنّ، (كُلَّ مَا عَنْهُ زَجَرْ)؛ أي: كلّ شيء نهى عنه الله سبحانه.

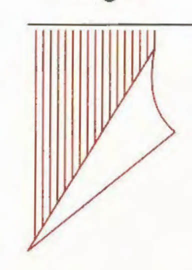
(وَجَامِعُ الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ)؛ أي: الأمر الذي يجمع الإيمان والتوحيد هو (إِفْرَادُكَ الإِلَهَ) سبحانه (بِالتَّمْجِيدِ)؛ أي: التعظيم والتبجيل، (لِسَاناً)؛ أي: بلسان، (اوْ) بنقل حركة الهمزة إلى التنوين ودرجها، وهي هنا بمعنى الواو. (قَلْباً)؛ أي: وبقلبك أيضاً، (أَوِ الْجَوَارِح) جَمْع جارحة، وهي: الأعضاء؛ أي: وبجوارحك؛ أي: أعضائك أيضاً.

وحاصل المعنى: أن جِمَاع الإيمان والتوحيد أن يفرد العبد ربه باعتقادات تقوم بقلبه، وأقوال تجري على لسانه، وأفعال تحصل بجوارحه.

(مِن دُونِ أَن تَنقُضَ) بالضاد المعجمة، يقال: نقضتُ البناء أنقُضُه، من باب نصر: هدمته؛ أي: من دون تهدم بناء إيمانك، (بِالْجَوَارِح) جمع جارحة، بمعنى المعاصي التي تجرح الإيمان، وأما الجوارح في الشطر الأول، فهي جمع جارحة بمعنى: أعضاء الإنسان. والله تعالى أعلم.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٨٠).

الْفَصْلُ الثَّامِنُ

فِي بَيَانِ أَدِلَّةِ الْإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ

٢٧٥ ـ اَللَّهُ ـ جَلَّ ـ أَزَلِيٌّ مَا سُبِقْ وَأَبَدِيٌّ فَالْفَنَاءُ مَا لَحِقْ

٢٧٦ ـ وُجُودُهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ ذَاتِيٌّ دَلَّ عَلَىٰ ذَا صُنْعُهُ الْجَلِيُّ

(اللهُ جَلَّ أَزَلِيٌّ) قال المرتضى في «التاج»: الأزَلَ ـ بالتحريك ـ: القِدَم الذي ليس له ابتداء، وهو أيضاً: استمرار الوجود في أزمنة مقدّرة غير متناهية في جانب الماضي، كما أن الأبد: استمراره كذلك في المآل، كذا في «تعريفات المناوي».

وهو سبحانه أزليّ: منسوب إلى الأزل، وهو ما ليس بمسبوق بالعدم، والموجود ثلاثة أقسام لا رابع لها: أزليّ أبديّ، وهو الحق ـ سبحانه ـ، ولا أزليّ ولا أبديّ، وهو الدنيا، وأبديّ غير أزليّ وهو الآخرة، وعكسه محال؛ إذ ما ثبت قِدَمه استحال عدمه، وصرّح أقوام بأن «الأزليّ» ليس بعربيّ، أو أصله: يزليّ، منسوب إلى قولهم للقديم: لم يزل، ثم نُسب إلى هذا، فلا يستقيم إلا باختصار، فقالوا: يزليّ، ثم أُبدلت الياء ألفاً للخفة، فقالوا: أزليّ، كما قالوا في الرمح المنسوب إلى ذي يَزَن: أزنيّ، وإلى يثرب: أثربيّ، نقله الصاغاني هكذا عن بعض أهل العلم.

وفي «الأساس»: وقولهم: «كان في الأزل قادراً عالِماً»،

و«علمه أزلي»، و«له الأزلية» مصنوع، لا من كلامهم، ولعلهم نظروا إلى لفظ لم يزل. انتهى.

وقال قوم: هو مشتق من الأزل، وهو الضِّيق؛ لضيق العقل عن إدراك أوله. انتهى[1].

وقوله: (مَا سُبِقْ) بالبناء للمفعول؛ أي: لم يسبقه شيء، وهو مؤكِّد لِمَا قبله، **(وَأَبَدِيٌّ)** قال المرتضى: الأبد ـ محركة ـ: الدهر مطلقاً، وقيل: هو الدهر الطويل الذي ليس بمحدود. جَمْعه آباد، وأبود، والأبد: الدائم، والأبد: القديم الأزليّ. وقال الراغب في «المفردات»: الأبد ـ بالتحريك ـ: عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبد كذا، وكان حقه أن لا يثنّى ولا يُجمع؛ إذ لا يُتصور حصول أبد آخر يُضم إليه، فيثنّى، ويُجمع. انتهى[2].

وقوله: **(فَالْفَنَاءُ مَا لَحِقْ)** مؤكِّد لِمَا قبله؛ أي: لم يَلحق الله ـ سبحانه ـ فناء، بل هو باقٍ دائماً.

(وُجُودُهُ)؛ أي: وجود الله **(سُبْحَانَهُ)** وتعالى **(ذَاتِيٌّ)**؛ أي: ليس لعلّة ولا سبب، **(دَلَّ عَلَى ذَا)**؛ أي: على كون وجوده ذاتيّاً، **(صُنْعُهُ)**؛ أي: ما صنعه من مخلوقاته. **وقوله:** **(الْجَلِيُّ)**؛ أي: الظاهر الدلالة على ذلك.

---

(١) «تاج العروس» ٢٧/ ٤٤٢.

(٢) «تاج العروس» ٧/ ٣٧١.

ثم إن أدلة ما ذكرناه كثيرة، فمنها الفطرة السليمة، وإليها أشار **بقوله:**

٢٧٧ ـ دَلَّتْ عَلَيْهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَهْ   كَذَا النُّصُوصُ الْغُرَرُ الْكَرِيمَهْ

٢٧٨ ـ لِذَلِكَ الْإِيمَانُ فِطْرِيٌّ وُلِدْ   عَلَيْهِ مَوْلُودٌ فَعَنْهُ لَمْ يَحِدْ

٢٧٩ ـ لَٰكِنَّ ذَا الْأَصْلَ بِوَحْيٍ كُمِّلَا   وَازْدَادَ بِالْفِكْرِ، وَمَا قَدْ عَمِلَا

٢٨٠ ـ فَجَاءَتِ الرُّسُلُ تَنبِيهاً إِلَىٰ   مَا هُوَ مَرْكُوزٌ بِفِطْرَةٍ جَلَا

٢٨١ ـ يُذَكِّرُونَ بِالْمَوَاثِيقِ الَّتِي   مَضَىٰ بِهَا الْعَهْدُ زَمَانَ الذَّرَّةِ

(دَلَّتْ عَلَيْهِ)؛ أي: وجود الله تعالى، (الْفِطْرَةُ السَّلِيمَه) المستقيمة على الدين غير المشوّهة بالهوى، والشهوات، والعادات السيئة، (كَذَا النُّصُوصُ)؛ أي: نصوص الكتاب والسُّنَّة (الْغُرَرُ الْكَرِيمَه، لِذَلِكَ الإِيمَانُ فِطْرِيٌّ وُلِدْ) بالبناء للمفعول، (عَلَيْهِ مَوْلُودٌ)؛ يعني: أن كلّ مولود وُلد على الفطرة؛ أي: على الدين المستقيم، (فَعَنْهُ)؛ أي: عن الإيمان (لَمْ يَحِدْ)؛ أي: لم يَمِل المولود إلى غيره، وهذا إشارة إلى ما أخرجه الشيخان في «صحيحيهما»، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِن مَوْلُودٍ إلا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ؟**»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

(لَكِنَّ ذَا الأَصْلَ)؛ أي: الإيمان الفطريّ، (بِوَحْيٍ) متعلّق بـ(كُمِّلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ يعني: أن هذا الأصل وتفاصيله يتوقّف على العلم بالوحي، فكمّله الله تعالى بإرسال الرسل

وإنزال الكتب، **(وَازْدَادَ)** أيضاً **(بِالْفِكْرِ)**؛ أي: التفكّر في آيات الله تعالى الكونيّة والشرعيّة، **(وَمَا قَدْ عَمِلَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: وازداد أيضاً بالعمل الذي يعمله العبد من أنواع العبادات، **(فَجَاءَتِ الرُّسُلُ)**؛ أي: أرسل الله تعالى الرسل **(تَنبيهاً)**؛ أي: لأجل تنبيه العباد **(إِلَى مَا هُوَ مَرْكُوزٌ)**؛ أي: مُثْبَتٌ **(بِفِطْرَةٍ)**؛ أي: في فطرة العباد، متعلّق **بقوله: (جَلَا)**؛ أي: ظهر وانكشف.

(يُذَكِّرُونَ) من التذكير؛ أي: يعظون الناس **(بِالْمَوَاثِيقِ)**؛ أي: بالعهود **(الَّتِي مَضَى بِهَا الْعَهْدُ زَمَانَ الذَّرَّةِ)** إشارة إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وحاصل المعنى: أن الرسل إنما جاءوا ينبّهون العباد على ما هو مركوز في فِطَرهم، ويذكّرونهم بما أخذ الله ﷻ من المواثيق، ويدعونهم إلى الالتزام بموجَبها تفصيلاً وتكميلاً. والله تعالى أعلم.

ومن الأدلة أيضاً دلالة العقل الصريحة، وإليها أشار **بقوله:**

٢٨٢ ـ بَدَاهَةُ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ يُثْبِتُ ... أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يَثْبُتُ=

٢٨٣ ـ إِلَّا بِمُوجِدٍ، كَمَا لَا يَخْلُقُ ... الشَّيْءُ نَفْسَهُ، وَذَا مُحَقَّقُ

٢٨٤ ـ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ حَقَّقَهْ ... فَلَيْسَ مَخْلُوقٌ سِوَى مَنْ خَلَقَهْ

(بَدَاهَةُ الْعَقْلِ)؛ أي: أوّله. قال في «القاموس»: الْبَدْهُ، والْبَدَاهة ـ بفتح أولهما، ويُضمّان ـ، والبديهة: أولُ كل شيء. انتهى. **وقوله: (الصَّرِيحِ)** صفة لـ«العقل»، والصريح: الخالص من

كل شيء؛ كالصرَح ـ بالتحريك ـ، والصُّرَاح ـ بالفتح والضمّ ـ. أفاده في «القاموس»[١].

ومعنى كون العقل صريحاً: أن لا يُغلب بالهوى، والشهوات، وتسويل شياطين الجنّ والإنس.

فقوله: «بداهة العقل» مبتدأ خبره **قوله:** (يُثْبِتُ) بضم أوله، من الإثبات، (أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ) من الأشياء (يَثْبُتُ)؛ أي: يُوجَد (إِلَّا بِمُوجِدٍ)؛ أي: إلا بشيء يوجده من العدم، (كَمَا لَا يَخْلُقُ الشَّيْءُ نَفْسَهُ)؛ أي: مثلما أنه لا يخلق الشيء نفسه بنفسه، وإنما يخلقه غيره، وهو الله ﷻ. (وَذَا)؛ أي: وهذا الأمر الذي ذكرناه من أنه لا يوجد موجود إلا بموجد، وأن الشيء لا يخلق نفسه، (مُحَقَّقٌ)؛ أي: ثابت نقلاً، وعقلاً، فقوله ﷻ: (﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ حَقَّقَه)؛ أي: أثبت ما ذكرناه، والآية بتمامها هي: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، (فَلَيْسَ مَخْلُوقٌ سِوَى مَنْ خَلَقَه)؛ أي: لا يوجد في الكون مخلوق من المخلوقات إلا والله ـ سبحانه ـ خالقه، فلا خالق غير الله تعالى.

والحاصل: أن العقل السليم يقضي بأن لكل مخلوق خالقاً، فكما أن الصنعة تدلّ على صفة صانعها، فإن صنعة الكون المحكمة تدلّ على صفات باريها ومبدعها. والله تعالى أعلم.

ومن الأدلّة أيضاً: الإجماع، وإليه أشار بقوله:

---

(١) «القاموس» ص٧٣٤.

٢٨٥ ـ وَاتَّفَقَ الْأُمَمُ إِلَّا مَن طُرِدْ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ كُلَّ مَن وُجِدْ

(وَاتَّفَقَ الأُمَمُ إِلَّا مَنْ طُرِد)؛ أي: أُبعد عن رحمة الله تعالى، ممن يُنكر أن الله تعالى هو خالق كلّ شيء، (بِأَنَّهُ) سبحانه (الْخَالِقُ كُلَّ مَن وُجِد) بالبناء للمفعول؛ أي: كلّ من خُلِق.

ومنها أيضاً: آيات الله تعالى الكونيّة المشاهَدة، وإليها أشار **بقوله:**

٢٨٦ ـ وَهَـٰذِهِ الْآيَاتُ فِي الْكَوْنِ غَدَتْ تَدُلُّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ إِذْ بَدَتْ

(وَهَذِهِ الآيَاتُ) التي (فِي الْكَوْنِ غَدَتْ)؛ أي: صارت، (تَدُلُّ لِلَّهِ تَعَالَى)؛ أي: على كونه هو الخالق وحده (إِذْ بَدَتْ)؛ أي: إذ ظهرت عجيبة، وصنعة غريبة.

ومنها أيضاً: إجابة الدعوات، وإليها أشار **بقوله:**

٢٨٧ ـ كُلٌّ مِنَ النَّاسِ يَمُدُّ يَدَهُ لَهُ تَضَرُّعاً، يُرِي وُجُودَهُ

(كُلٌّ مِنَ النَّاسِ)؛ أي: جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، بَرّهم وفاجرهم، (يَمُدُّ يَدَهُ لَهُ)؛ أي: إلى الله ﷻ، (تَضَرُّعاً يُرِي وُجُودَهُ) تعالى، وأنه الخالق لكلّ شيء.

والحاصل: أن جميع الناس يشهدون بوقوع إجابة دعوة المضطرّين عند توجهه بدعاء رب العالمين، وليس من شرط هذا الدليل اطّراد الإجابة في كلّ دعاء؛ لموانع تمنع من ذلك، أو لِحِكَم بالغة. والله تعالى أعلم.

ومنها: آيات الرسل ومعجزاتهم، وإليها أشار **بقوله:**

٢٨٨ ـ إِرْسَالُهُ الرُّسُلَ بِالْآيَاتِ مُؤَيَّدِينَ حُجَّةُ الْإِثْبَاتِ

(إِرْسَالُهُ) سبحانه (الرُّسُلَ) عليهم السلام (بِالآيَاتِ) متعلّق بـ(مُؤَيَّدِينَ)؛ أي: حال كونهم مُقَوّين بها. **فقوله:** «إرسال» مبتدأ خبره **قوله:** (حُجَّةُ الإِثْبَاتِ)؛ أي: دليل إثبات وجوده تعالى، وأنه الخالق وحده لا شريك له.

والحاصل: أن المعجزات التي يُظهرها الله تعالى على أيدي الرسل تأييداً لصدقهم، تدلّ على الله ـ سبحانه ـ، ولا سيّما معجزة القرآن الكريم الخالدة على مدى الأزمان، المتلوّة باللسان، والمسموعة بالآذان، والمحفوظة بالجَنان. والله تعالى أعلم.

ومنها: النصوص الصحيحة، وإليها أشار **بقوله:**

٢٨٩ ـ بِذَا النُّصُوصُ الْوَاضِحَاتُ حَقَّتِ مَنْ حَادَ خَارِجٌ عَنَ أَصْلِ الْخِلْقَةِ

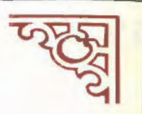
(بِذَا)؛ أي: بهذا الذي ذكرناه من وجود الله تعالى، وأنه الخالق وحده، (النُّصُوصُ الْوَاضِحَاتُ) مما أوحاه الله ﷻ إلى رسله، (حَقَّتِ)؛ أي: ثبتت وتحقّقت. **فقوله:** «بذا» متعلّق بـ«حَقَّت». **وقوله:** «النصوص» مبتدأ، خبره جملة «حقّت».

وحاصل **المعنى**: أنه لا يُعرِّف بالله تعالى مثلُه، فقد تعرّف إلى عباده بما أوحاه إلى أنبيائه عليهم السلام، وما شَرَعه لهم، فالشرائع كلها، والرسل جميعها جاءت بالخبر عن الله ﷻ، عن ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجميع ما يتعلّق به.

(مَنْ حَادَ)؛ أي: من مال عما دلّت عليه هذه الدلائل، **(خَارِجٌ عَنَ اصْلِ)** بنقل حركة الهمزة إلى نون «عن»، ودَرْجها، وهو لغة لا ضرورة. **(الْخِلْقَةِ)**؛ أي: الفطرة التي فطر الله عباده عليها.

وحاصل المعنى: أن من مال عما دلّت عليه هذه الأدلّة، وألحد فيها، فقد خرج عن أصل الخلقة، ومقتضى الفطرة، وبداهة العقول، وصرائح النقول، وإجماع الأمم. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ التَّاسِعُ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِصِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِهَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْأُلُوهِيَّةِ

٢٩٠ ـ دَلَّ الْقُرَانُ أَنَّهُ مُنفَرِدُ ... بَصِفَةِ الرَّبِّ؛ فَلَا تُعَانِدُوا

٢٩١ ـ إِيمَانُنَا ـ أَيْ: بِالرُّبُوبِيَّةِ ـ أَنْ ... نُفْرِدَهُ بِفِعْلِهِ دُونَ وَهَنْ

٢٩٢ ـ يَخْلُقُ، يَرْزُقُ، وَيُشْقِي، يُسْعِدُ ... يَضُرُّ، يَنفَعُ، وَيُدْنِي، يُبْعِدُ

٢٩٣ ـ وَلَيْسَ يَكْفِي الْمَرْءَ أَن يُصَدِّقَا ... وَصْفَ الرُّبُوبِيَّةِ، بَلْ إِن صَدَّقَا=

٢٩٤ ـ مَعَ الْأُلُوهِيَّةِ تَمَّ، وَلَزِمْ ... إِفْرَادُهُ بِطَاعَةٍ كَي يَغْتَنِمْ

٢٩٥ ـ فَمَن تَحَقَّقَ بِذَيْنِ يَنْشَرِحْ ... صَدْرُهُ لِلْحَقِّ، وَلِلْخَيْرِ رَبِحْ

٢٩٦ ـ أَنَارَ عَقْلُهُ، وَقَلْبُهُ اطْمَأَنّْ ... رَضِيَ بِالْقَضَاءِ مِنْ غَيْرِ إِحَنْ

٢٩٧ ـ عَلَىٰ إِلَـٰهِهِ الْكَرِيمِ اتَّكَلَا ... حَقَّ تَوَكُّلٍ، وَنِعْمَ مَوْئِلَا

***

(دَلَّ الْقُرَانُ) بنقل حركة الهمزة إلى الراء، وهو لغة، قرأ به بعض السبعة. (أَنَّهُ) تعالى (مُنفَرِدُ بَصِفَةِ الرَّبِّ)؛ أي: بصفة الربوبيّة.

والمعنى: أن القرآن الكريم دلّ على انفراد الله تعالى بصفة الربوبيّة، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

وقوله: (فَلَا تُعَانِدُوا) تكميل للبيت؛ أي: لا تجاوزوا الحدّ، ولا تخالفوا الحقّ، يقال: عَنَدَ عن القصد عُنُوداً، من باب قعد:

جار، وعاند معاندةً، من باب قاتل: إذا ركب الخلاف والعصيان[1].

(إِيمَانُنَا أَيْ) تفسيريّة، (بِالرُّبُوبِيَّةِ أَن نُفْرِدَهُ)؛ أي: نفرد الربّ ـ سبحانه ـ (بِفِعْلِهِ)؛ أي: بما يفعله في خلقه، وبمقتضيات الربوبيّة، من الخلق، والتقدير، والمُلك، والتدبير، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ [يونس: ٣١].

وقوله: (دُونَ وَهَنٍ) بفتحتين؛ أي: من غير ضَعف في هذا الإفراد، بل يكون جازماً لا تردّد فيه. ومن أنواع إفراده تعالى بأفعاله: إفراده بما ذكره **بقوله:**

(يَخْلُقُ) كلّ شيء، (يَرْزُقُ) عباده، (وَيُشْقِي) بضم أوله، من الإشقاء، وبابه كَرَضِيَ، وهو ضدّ **قوله:** (يُسْعِدُ) بضم أوله من الإسعاد، قال في «القاموس»: السعادة: خلاف الشقاوة، وقد سَعِد؛ كعَلِم، وعُنِي، فهو سعيدٌ، ومسعود، وأسعده الله فهو مسعود، ولا يقال: مُسعَدٌ. انتهى[2].

وقال في «المصباح»: سَعِد فلانٌ يَسْعَد، من باب تَعِب في دِين أو دنيا سَعْداً، فهو سعيد، والجمع: سُعداء، والسعادة اسم منه، ويُعَدَّى بالحركة في لغة، فيقال: سَعَده اللهُ يَسْعَدُهُ ـ بفتحتين ـ، فهو مسعود، وقرئ في السبعة بهذه اللغة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٢) القاموس» ص٦١٤.

سُعِدُواْ﴾ [هود: ١٠٨] بالبناء للمفعول، والأكثر أن يتعدى بالهمزة، فيقال: أسعده الله، وَسُعِدَ ـ بالضم ـ خلاف شَقِيَ. انتهى[1].

(يَضُرُّ، يَنفَعُ، وَيُدْنِي) بضمّ أوله، من الإدناء، وهو التقريب، و(يُبْعِدُ) بضم أوله أيضاً، من الإبعاد، وهو ضدّ الإدناء، (وَلَيْسَ يَكْفِي الْمَرْءَ أَن يُصَدِّقَا) بألف الإطلاق، (وَصْفَ الرُّبُوبِيَّةِ) بنصب «وصفَ» بنَزع الخافض؛ يعني: أنه لا يكفي في البراءة من الشرك، والدخول في الإيمان التصديق بالربوبيّة فقط، (بَلْ إِن صَدَّقَا) بألف الإطلاق أيضاً، (مَعَ الأُلُوهِيَّةِ تَمَّ) إيمانه، (وَلَزِمْ إِفْرَادُهُ) سبحانه (بِطَاعَةٍ كَي يَغْتَنِمْ)؛ أي: لكي يكون غانماً بالسعادة الدنيويّة والأخرويّة.

(فَمَن تَحَقَّقَ بِذَيْنِ)؛ أي: بالإيمان بالربوبيّة والألوهيّة، (يَنشَرِحْ صَدْرُهُ لِلْحَقِّ)؛ أي: لقبول الحقّ (وَلِلْخَيْرِ) متعلّق بـ(رَبِح)؛ أي: ربح خير الدنيا والآخرة. (أَنَارَ)؛ أي: أضاء (عَقْلُهُ) بنور الإيمان، (وَقَلْبُهُ اطْمَأَنْ) بذكر الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. (رَضِيَ بِالْقَضَاءِ)؛ أي: بما قضاه الله له من خير وشرّ، (مِنْ غَيْرِ إِحَنٍ) بكسر ففتح: جمع إحنة ـ بكسر فسكون ـ، وأصلها: العداوة، والمراد بها هنا: عدم الاستسلام والخضوع لقضاء الله تعالى.

(عَلَى إِلَاهِهِ الْكَرِيمِ) متعلّق بـ(اتَّكَلَا) بألف الإطلاق. **وقوله:** (حَقَّ تَوَكُّلٍ) مفعول مطلق لـ«اتكل»، (وَنِعْمَ) الله ـ سبحانه ـ (مَوْئِلَا)؛ أي: ملجأً يُلجأ إليه في المُلِمّات والمُهِمّات. والله تعالى أعلم.

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٧٦.



الْفَصْلُ الْعَاشِرُ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ

٢٩٨ ـ الْعِلْمُ وَالْإِيمَانُ بِالْأَسْمَاءِ وَبِالصِّفَاتِ أَشْرَفُ الْبِنَاءِ

٢٩٩ ـ طَرِيقُ مَعْرِفَةِ مَوْلَانَا بِهِ تَعْظِيمِهِ، تَمْجِيدِهِ، فَانتَبِهِ

٣٠٠ ـ سَبَبُ الِازْدِيادِ فِي الْإِيمَانِ وَلِلرُّقِيِّ دَرَجَ الْجِنَانِ

٣٠١ ـ رَأْسُ إِقَامَةِ أُمُورِ الدِّينِ مُحَصِّلُ الرِّفْعَةِ وَالتَّمْكِينِ

٣٠٢ ـ مِعْرَاجُ سَالِكٍ إِلَىٰ أَخْلَاقِ الصَّالِحِينَ أَكْرَمِ الرِّفَاقِ

٣٠٣ ـ آمَنَ أَهْلُ السُّنَّةِ السَّنِيَّةْ بِكُلِّهَا، مُهَذِّبِينَ النِّيَّةْ

٣٠٤ ـ مُنَزِّهِينَ رَبَّهُمْ، قَدْ قَطَعُوا طَمَعَهُمْ؛ إِذْ دَرْكُهَا لَا يَقَعُ،=

٣٠٥ ـ عَلَى الْيَقِينِ، إِنَّمَا نُثْبِتُهَا كَمَا بِهِ يَلِيقُ، فَالْفَصْلُ انتَهَىٰ

(الْعِلْمُ) مبتدأ خبره «أشرف»، (وَالإِيمَانُ بِالأَسْمَاءِ)؛ أي: بأسماء الله تعالى الحسنى (وَبِالصِّفَاتِ) العليا، (أَشْرَفُ الْبِنَاءِ) الذي يبني عليه المسلم عقيدته وعمله، (طَرِيقُ مَعْرِفَةِ مَوْلَانَا) ﷻ كائنة (بِهِ)؛ أي: بهذا العلم، وطريق (تَعْظِيمِهِ) و(تَمْجِيدِهِ، فَانتَبِه) أيها العاقل لهذا المهمّ، وهو أيضاً (سَبَبُ الِازْدِيادِ فِي الإِيمَانِ)؛ يعني: أن الإيمان يزداد به، (وَ)سببٌ أيضاً (لِلرُّقِيِّ) بضمّ الراء، وكسر القاف، وتشديد الياء، بوزن فُعُول؛ أي: للارتقاء، (دَرَجَ الْجِنَانِ) بنصب «درجَ» على أنه مفعول به لـ«رُقيّ»؛ لأنه مصدر رَقِي، يقال: رقيت السطحَ والجبلَ: إذا عَلَوْتُه، يتعدى بنفسه، قاله في

«المصباح»[1]، وهو أيضاً (رَأْسُ إِقَامَةِ أُمُورِ الدِّينِ) و(مُحَصِّلُ الرِّفْعَةِ)؛ أي: ارتفاع الدرجات، (وَالتَّمْكِينِ) في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [النور: ٥٥]، وهو أيضاً (مِعْرَاجُ سَالِكٍ)؛ أي: مَصْعَد من يريد الصعود (إِلَى أَخْلَاقِ الصَّالِحِينَ) حتى يتخلّق بها.

وقوله: (أَكْرَمِ الرِّفَاقِ) صفة لـ«الصالحين».

(آمَنَ أَهْلُ السُّنَّةِ السَّنِيَّه بِكُلِّهَا)؛ يعني: أهل السُّنَّة آمنوا وصدّقوا بكل الأسماء والصفات، حال كونهم (مُهَذِّبِينَ النِّيَّه)؛ أي: مخلصين قَصْدهم في الإيمان بها، وحال كونهم (مُنَزِّهِينَ رَبَّهُمْ) عن مشابهة خَلْقه فيها، (قَدْ قَطَعُوا طَمَعَهُمْ) عن إدراك كيفيّتها، (إِذْ) تعليليّة؛ أي: لأن (دَرْكُهَا) بفتح فسكون، اسم بمعنى: الإدراك، (لَا يَقَعُ عَلَى الْيَقِينِ، إِنَّمَا نُثْبِتُهَا كَمَا بِهِ)؛ أي: بالله تعالى (يَلِيقُ)؛ يعني: أننا نُثبت الأسماء والصفات لله تعالى على ما يليق بجلاله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد دلّ القرآن على تفرّده تعالى بالأسماء الحسنى، والصفات العلى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

وقوله: (فَالْفَصْلُ انْتَهَى)؛ أي: تمّ هذا الفصل واكتمل. والله تعالى أعلم.

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٣٦.



الْفَصْلُ الْحَادِيَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى

٣٠٦ ـ وَكُلُّ أَسْمَاءِ الْإِلَٰهِ حُسْنَىٰ ... انفَرَدَتْ وَاقْتَرَنَتْ بِالْمَعْنَىٰ

٣٠٧ ـ ثُمَّتَ الِإيمَانُ بِهَا تَضَمَّنَا ... ثَلَاثَةً مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْتَنَىٰ

٣٠٨ ـ وَذَاكَ: أَن تُؤْمِنَ بِاسْمِهِ، وَمَا ... دَلَّ عَلَيْهِ مِن مَعَانٍ تُعْتَمَىٰ

٣٠٩ ـ كَذَاكَ تُؤْمِنُ بِمَا اقْتَضَاهُ مِنْ ... آثَارِهِ الَّتِي بِهِ قَدْ تَقْتَرِنْ

٣١٠ ـ تَعْلَمُ أَنَّهُ بِعِلْمٍ وُصِفَا ... أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَا خَفَا

٣١١ ـ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ وَفْقَ عِلْمِهِ ... سُبْحَانَهُ أَكْرِمْ بِعَدْلِ حُكْمِهِ

(وَكُلُّ أَسْمَاءِ الْإِلَهِ) تعالى (حُسْنَى)؛ أي: بالغة في الحُسن غايته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وذلك لأنها متضمّنة لصفات كاملة لا نَقْص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً، ولا تقديراً(١).

ثم إن الحُسن للأسماء الله تعالى يَثبت لها سواء (انفَرَدَتْ، وَاقْتَرَنَتْ بِالْمَعْنَى) الواو بمعنى «أو»؛ يعني: اقترنت بغيرها مما هو ثابت الاسميّة، وهذا معنى **قوله:** «بالمعنى».

وحاصل المعنى: أن الحُسْن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار

(١) «القواعد المثلى» للشيخ ابن عثيمين، ص١١.

كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جَمْعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمالٌ فوق كمال.

مثال ذلك: «العزيز الحكيم» فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً، فيكون كل منهما دالّاً على الكمال الخاصّ الذي يقتضيه، وهو العزة في العزيز، والحُكم والحكمة في الحكيم. والجمع بينهما دالٌّ على كمال آخر، وهو أن عزته تعالى مقرونة بالحكمة، فعزته لا تقتضي ظلماً وجَوْراً وسوء فعل، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين، فإن العزيز منهم قد تأخذه العزة بالإثم فيظلم ويجور ويسيء التصرف، وكذلك حُكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعز الكامل، بخلاف حُكم المخلوق وحكمته فإنهما يعتريهما الذل[1].

وقوله: (ثُمَّتَ) هي «ثُمَّ» التي للتراخي، زيدت عليها الهاء للتأنيث اللفظيّ. (الايمَانُ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، ودَرْجها، (بِهَا)؛ أي: بأسمائه تعالى، (تَضَمَّنَا) بألف الإطلاق. **وقوله:** (ثَلَاثَةً) منصوب على المفعوليّة. **وقوله:** (مِنَ الأُمُورِ) بيان لـ«ثلاثة». **وقوله:** (تُعْتَنَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تقصد لأهمّيتها، (وَذَاكَ أَن تُؤْمِنَ بِاسْمِهِ) تعالى، (وَ)تؤمن أيضاً بـ(مَا دَلَّ عَلَيْهِ) ذلك الاسم (مِن مَعَانٍ تُعْتَمَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تُختار تلك المعاني لكونها مناسبة له.

(كَذَاكَ تُؤْمِنُ بِمَا اقْتَضَاهُ) ذلك الاسم. **وقوله:** (مِنْ آثَارِهِ) بيان لـ«ما»، (الَّتِي بِهِ)؛ أي: بذلك الاسم (قَدْ تَقْتَرِن) وذلك أنك (تَعْلَمُ أَنَّهُ) تعالى (بِعِلْمٍ) متعلّق بـ(وُصِفَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول،

(١) «القواعد المثلى» ص٧.

(أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ مَا خَفَا)؛ أي: بكلّ ما استتر وغاب عن الخلق، و«خفا» من باب رَضِي، لكن هنا فُتحت الفاء على لغة من قال: بَقَى يَبقَى، وفَنَى يفنَى، وهي لغة طيّء، قال الفيّوميّ رحمه الله في مادّة بَقِي يَبْقَى ما حاصله: بَقِيَ الشيءُ يَبْقى، من باب تَعِبَ... إلى أن قال: وطيء تُبدل الكسرة فتحة، فتنقلب الياء ألفاً، فيصير بَقَا، وكذلك كل فعل ثلاثيّ، سواء كانت الكسرة والياء أصليتين، نحو: بَقِي، ونَسِي، وفَنِي، أو كان ذلك عارضاً، كما لو بُنِي الفعل للمفعول، فيقولون في هُدِيَ زيدٌ، وبُنِي البيتُ: هُدَا زيدٌ، وبُنَا البيت. انتهى[1].

(يُدَبِّرُ) الله تعالى (الأُمُورَ وَفْقَ عِلْمِهِ)؛ أي: على موافقة ما علمه (سُبْحَانَهُ)؛ أي: تنْزيهاً له. **وقوله:** (أَكْرِمْ) صيغته صيغة أمر، ومعناه التعجّب. **وقوله:** (بِعَدْلِ حُكْمِهِ) الباء زائدة، و«عدل» هو الفاعل لـ«أكرم»، وإضافته لِمَا بعده من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: ما أعجب حكمه العادل.

ثم بيّن أن أسماء الله تعالى كلها توقيفيّة، **فقال:**

٣١٢ ـ أَسْمَاؤُهُ نَقُولُ: تَوْقِيفِيَّهْ دَلَّتْ بِهَا الأَدِلَّةُ الْوَفِيَّهْ

٣١٣ ـ فَلَا تُشَقُّ مِن صِفَاتِهِ، وَلَا أَفْعَالِهِ، بَلَىٰ بِعَكْسِهِ جَلَا

٣١٤ ـ قَدْ شُقَّتِ الصِّفَاتُ مِنْ أَسْمَائِهِ ....

(أَسْمَاؤُهُ) مبتدأ، خبره **قوله:** (نَقُولُ: تَوْقِيفِيَّه)؛ أي: متوقّف جواز إطلاقها عليه تعالى على الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، كما أشار

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٥٨.

إليه **بقوله:** (دَلَّتْ بِهَا)؛ أي: عليها (الأَدِلَّةُ) من الكتاب والسُّنَّة الصحيحة. **وقوله:** (الْوَفِيَّه) صفة لـ«الأدلة»؛ أي: الوافية بما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

حاصل المعنى: أن أسماء الله تعالى توقيفية، لا مجال للعقل فيها، فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسُّنَّة، فلا يزاد فيها، ولا يُنقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النصّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولأن تسميته تعالى بما لم يُسَمِّ به نفسه، أو إنكار ما سمى به نفسه جناية في حقه تعالى، فوجب سلوك الأدب في ذلك، والاقتصار على ما جاء به النص[1]. والله تعالى أعلم.

(فَلَا تُشْتَقُّ)؛ أي: لا يجوز أن تُشتقّ أسماؤه تعالى (مِن صِفَاتِهِ، وَلَا) من (أَفْعَالِهِ) سبحانه، (بَلَى بِعَكْسِهِ) متعلّق بـ(جَلَا)؛ أي: ظهر؛ يعني: أنه تُشتق صفاته تعالى من أسمائه، كما أوضحه **بقوله:** (قَدْ شُقَّتِ الصِّفَاتُ)؛ أي: صفات الله ﷻ، (مِنْ أَسْمَائِهِ) سبحانه.

ثم بيّن أنها لا تحصر بالعدّ، فقال:

٣١٤ - .... وَالْعَدُّ لَا يَحْصُرُهَا، فَانْتَبِهِ

---

(١) «القواعد المثلى» ص١٣.

(وَالْعَدُّ لَا يَحْصُرُهَا)؛ يعني: أن أسماء الله تعالى لا تنحصر بعدد معيّن، **(فَانتَبِه)** لهذا، فإنه مهمّ.

وحاصل المعنى: أن أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معيَّن؛ لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِندَكَ**» الحديث، رواه أحمد، وابن حبان، والحاكم، وهو حديث صحيح.

وما استأثر الله تعالى به في علم الغيب لا يمكن أحداً حصرُه، ولا الإحاطة به.

فأما قوله ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مِائَةً إِلَّا وَاحِداً، مَنْ أَحْصَاهَا**[1] **دَخَلَ الْجَنَّةَ**» فلا يدل على حصر الأسماء بهذا العدد، ولو كان المراد الحصر لكانت العبارة: إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً، من أحصاها دخل الجنة، أو نحو ذلك.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذاً فمعنى الحديث: أن هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة، وعلى هذا فيكون قوله: «**مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» جملة مكملة لِمَا قبلها وليست مستقلة، ونظير هذا أن تقول: عندي مائة درهم أعددتها للصدقة، فإنه لا يمنع أن يكون عندك دراهم أخرى لم تعدّها للصدقة.

ولم يصح عن النبيّ ﷺ تعيين هذه الأسماء، والحديث المروي عنه في تعيينها ضعيف.

---

(١) إحصاؤها: حِفظها، وفَهْم معناها، وأن يتعبّد الله بمقتضاها. ابن عثيمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعيينها ليس من كلام النبيّ ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه[(١)]. وقال قبل ذلك[(٢)]: إن الوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين، كما جاء مفسَّراً في بعض طرق حديثه. اهـ.

وقال الحافظ في «الفتح»: ليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد فقط، بل الاختلاف فيه والاضطراب، وتدليسه، واحتمال الإدراج. انتهى[(٣)].

ولمّا لم يَصِحَّ تعيينُها عن النبيّ ﷺ اختلف السلف فيه، ورُوِيَ عنهم في ذلك أنواع، وقد جمعتُ تسعة وتسعين اسماً مما ظهر لي من كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

فمن كتاب الله تعالى:

الله، الأحد، الأعلى، الأكرم، الإلٰه، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، البارئ، البَرّ، البصير، التوّاب، الجبار، الحافظ، الحَسِيب، الحفيظ، الحَفِيّ، الحقّ، المبين، الحكيم، الحليم، الحميد، الحيّ، القيوم، الخبير، الخالق، الخَلَّاق، الرؤوف، الرحمٰن، الرحيم، الرزاق، الرقيب، السلام، السميع، الشاكر، الشكور، الشهيد، الصمد، العالم، العزيز، العظيم، العفوّ، العليم، العليّ، الغفار، الغفور، الغنيّ، الفتاح، القادر، القاهر، القدوس، القدير، القريب، القويّ، القهار، الكبير، الكريم، اللطيف، المؤمن، المتعالي، المتكبر، المتين، المجيب، المجيد، المحيط،

---

(١) «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٨٣.
(٢) «مجموع الفتاوى» ٦/ ٣٧٩.
(٣) «فتح الباري» ١١/ ٢١٥ ط. السلفية.

المصور، المقتدر، المُقيت، الملك، المليك، المولى، المهيمن، النصير، الواحد، الوارث، الواسع، الودود، الوكيل، الوليّ، الوهاب.

ومن سُنَّة رسول الله ﷺ:

الجميل، الجواد، الحَكَم، الحَيِيُّ، الربّ، الرفيق، السُّبُّوح، السيد، الشافي، الطيب، القابض، الباسط، المقدم، المؤخر، المحسن، المعطي، المنان، الوتر.

قال الشيخ ابن عثيمين: هذا ما اخترناه بالتتبع: واحد وثمانون اسماً في كتاب الله تعالى، وثمانية عشر اسماً في سُنَّة رسول الله ﷺ، وإن كان عندنا تردد في إدخال «الحفيّ»؛ لأنه إنما ورد مقيداً في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، وكذلك «المحسن»؛ لأننا لم نطّلع على رواته في الطبرانيّ، وقد ذكره شيخ الإسلام من الأسماء.

ومن أسماء الله تعالى ما يكون مضافاً، مثل: مالك الملك، ذي الجلال والإكرام. انتهى[١].

ثم بيَّن أن أسماءه تعالى فاضلة في نفسها، متفاضلة فيما بينها، **فقال:**

٣١٥ ـ وَكُلُّهَا فَاضِلَةٌ، لَكِنَّهَا تَفَاضَلَتْ؛ إِذَا تُوَازَىٰ بَيْنَهَا

(وَكُلُّهَا)؛ أي: كل أسماء الله تعالى، وهو مبتدأ، خبره **قوله:**

---

(١) «القواعد المثلى» ص٢٠ ـ ٢٥.

(فَاضِلَةٌ)؛ أي: رفيعة القَدْر، (لَكِنَّهَا تَفَاضَلَتْ إِذَا تُوَازَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تُحَاذى، والموازاة: المحاذاة، (بَيْنَهَا)؛ أي: إذا قُرنت فيما بينها فهي متفاضلة.

ثم بيَّن أنها أعلام مترادفة، وأوصاف متباينة، **فقال:**

٣١٦ ـ وَهِـيَ أَعْـلَامٌ تَـرَادَفَـتْ، كَـذَا وَصْفٌ تَبَايَنَتْ، فَحَقِّقْ فَرْقَ ذَا

(وَهِيَ أَعْلَامٌ تَرَادَفَتْ)؛ أي: مترادفة المعنى، (كَذَا وَصْفٌ تَبَايَنَتْ)؛ أي: هي أوصاف متباينة الدلالة، (فَحَقِّقْ فَرْقَ ذَا) المذكور؛ أي: إنها مترادفة المعنى؛ لكونها تدل على مسمًّى واحد، وهو الله ﷻ، متباينة الدلالة؛ لدلالة كل واحد منها على معناه الخاصّ.

وحاصل المعنى: هو ما حقّقه الشيخ ابن عثيمين رحمه الله حيث قال: أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله ﷻ، وبالاعتبار الثاني متباينة؛ لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص.

فـ«الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحمٰن، الرحيم، العزيز، الحكيم» كلها أسماء لِمُسَمًّى واحد، وهو الله ﷻ، لكن معنى «الحي» غير معنى «العليم»، ومعنى «العليم» غير معنى «القدير»، وهكذا.

وإنما قلنا بأنها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ

ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، فإن الآية الثانية دَلَّت على أن الرحيم هو المتصف بالرحمة. ولإجماع أهل اللغة والعرف أنه لا يقال: عليم إلا لمن علم، ولا سميع إلا لمن سمع، ولا بصير إلا لمن له بَصَر. وهذا أمر أبْيَن من أن يحتاج إلى دليل.

وبهذا عُلم ضلال من سلبوا أسماء الله تعالى معانيَها من أهل التعطيل، وقالوا: إن الله تعالى سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعزيز بلا عزة، وهكذا. وعللوا ذلك بأن ثبوت الصفات يستلزم تعدد القدماء، وهذه العلة عليلة، بل ميتة لدلالة السمع والعقل على بطلانها.

أما السمع: فلأن الله تعالى وصف نفسه بأوصاف كثيرة مع أنه الواحد الأحد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٢ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥]، ففي هذه الآيات الكريمة أوصاف كثيرة لموصوف واحد، ولم يلزم من ثبوتها تعدد القدماء.

وأما العقل: فلأن الصفات ليست ذواتاً بائنة من الموصوف حتى يلزم من ثبوتها التعدد، وإنما هي من صفات من اتصف بها فهي قائمة به، وكل موجود فلا بد له من تعدد صفاته، ففيه صفة الوجود، وكونه واجب الوجود، أو ممكن الوجود، وكونه عيناً قائماً بنفسه، أو وصفاً في غيره.

وبهذا أيضاً عُلم أن «الدهر» ليس من أسماء الله تعالى؛ لأنه

اسم جامد لا يتضمن معنى يُلحقه بالأسماء الحسنى، ولأنه اسم للوقت والزمن، قال الله تعالى عن منكري البعث: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، يريدون: مرور الليالي والأيام.

فأما قوله ﷺ: «**قال الله ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**» فلا يدل على أن الدهر من أسماء الله تعالى، وذلك أن الذين يسبون الدهر إنما يريدون الزمان الذي هو محل الحوادث، لا يريدون الله تعالى، فيكون معنى قوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» ما فسَّره بقوله: «**بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، فهو سبحانه خالق الدهر وما فيه، وقد بَيَّنَ أنه يُقلِّب الليل والنهار، وهما الدهر، ولا يمكن أن يكون المقلِّب ـ بكسر اللام ـ هو المقلَّب ـ بفتحها ـ، وبهذا تبيَّن أنه يَمتنع أن يكون الدهر في هذا الحديث مراداً به الله تعالى. انتهى كلام الشيخ رحمه الله[1].

ثم بيَّن معنى الإلحاد في أسماء الله تعالى، **فقال:**

٣١٧ ـ إِلْحَادُهَا: إِنكَارُهَا، أَوْ مَا تَدُلّ عَلَيْهِ، أَوْ تَشْتَقُّ مِنْهَا مَا يَدُلّ

٣١٨ ـ أَوْ أَن تُشَبِّهَ لَهَا بِمَا خُلِقْ فَاجْتَنِبِ الْإِلْحَادَ كَيْ لَا تنزَلِقْ

❊ ❊ ❊

(**إِلْحَادُهَا**)؛ أي: المراد بالإلحاد في أسماء الله تعالى الذي هدّد الله تعالى أصحابه في قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ

(١) «القواعد المثلى» ص١٣ ـ ١٦.

ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ [فصلت: ٤٠] هو **(إِنكَارُهَا، أَوْ)** إنكار **(مَا تَدُلّ عَلَيْهِ)** من الصفات والأحكام، **(أَوْ تَشْتَقُّ مِنْهَا)**؛ أي: من أسمائه تعالى، **(مَا يَدُلّ)** على معنىً للأصنام ونحوها؛ كاشتقاق العُزَّى من العزيز، واللات من الإله، **(أَوْ أَن تُشَبِّهَ لَهَا)**؛ أي: لصفات الله تعالى **(بِمَا خُلِقْ)** بالبناء للمفعول؛ أي: بصفات المخلوق، **(فَاجْتَنِب)** يا من يريد النجاة في الدنيا والآخرة، **(الإِلْحَادَ)** بجميع أصنافه، **(كَيْ لَا تَنـزَلِق)**؛ أي: لئلا تسقط في مهاوي الردى والهلاك.

وحاصل معنى الأبيات بإيضاح: هو ما قاله الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الإلحاد في أسماء الله تعالى هو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن يُنكر شيئاً منها، أو مما دلت عليه من الصفات والأحكام، كما فعل أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم، وإنما كان ذلك إلحاداً لوجوب الإيمان بها، وبما دلت عليه من الأحكام والصفات اللائقة بالله تعالى، فإنكار شيء من ذلك مَيل بها عما يجب فيها.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين، كما فعل أهل التشبيه، وذلك لأن التشبيه معنىً باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، فجَعْلُهَا دالةً عليه مَيْلٌ بها عما يجب فيها.

الثالث: أن يُسَمِّيَ اللهَ تعالى بما لم يُسَمِّ به نفسه؛ كتسمية النصارى له: «الأب»، وتسمية الفلاسفة إياه: «العلة الفاعلة»، وذلك

لأن أسماء الله تعالى تَوْقِيفِيَّة، فتسمية الله تعالى بما لم يُسَمِّ به نفسه مَيْل بها عما يجب فيها، كما أن هذه الأسماء التي سمّوه بها نفسها باطلة، يُنَزَّه الله تعالى عنها.

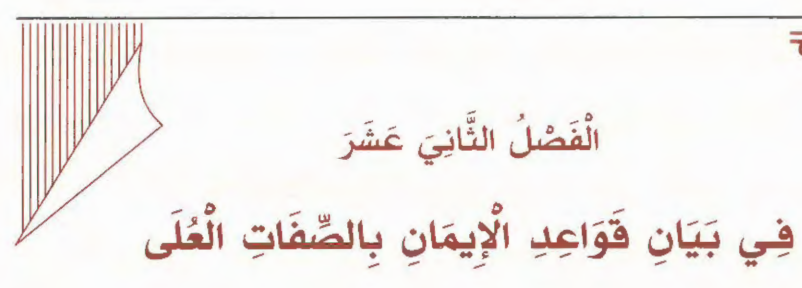
الرابع: أن يَشْتَقَّ من أسمائه أسماءً للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العُزَّى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله على أحد القولين، فسَمَّوْا بها أصنامهم، وذلك لأن أسماء الله تعالى مختصة به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨]، وقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤]، فكما اختص بالعبادة وبالألوهية الحقة، وبأنه يسبّح له ما في السماوات والأرض، فهو مختص بالأسماء الحسنى، فتسمية غيره بها على الوجه الذي يختص بالله ﷻ مَيْلٌ بها عما يجب فيها.

والإلحاد بجميع أنواعه محرَّم؛ لأن الله تعالى هَدَّدَ الملحدين بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومنه ما يكون شركاً أو كفراً؛ حسبما تقتضيه الأدلة الشرعية. انتهى كلامه رحمه الله[١].



(١) «القواعد المثلى» ص٢٥ ـ ٢٧.



الْفَصْلُ الثَّانِيَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ بِالصِّفَاتِ الْعُلَى

٣١٩ ـ صِفَاتُهُ الْعُلْيَا هِيَ الثَّنَاءُ، وَهْيَ كَمَالٌ مَا لَهَا انتِهَاءُ،

(صِفَاتُهُ) تعالى (الْعُلْيَا هِيَ الثَّنَاءُ)؛ أي: كلها ثناء لله تعالى، (وَهْيَ كَمَالٌ)؛ أي: ذات كمال لا نقص فيها، (مَا لَهَا انتِهَاءُ)؛ أي: ليس لصفاته تعالى نهاية.

حاصل ما أشار إليه: أن صفات الله كلها عُليا، وكلها ثناء على الله تعالى، وهي صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة، وغير ذلك. وقد دل على هذا: السمع، والعقل، والفطرة.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾ [النحل: ٦٠]، والمثل الأعلى: هو الوصف الأعلى.

وأما العقل: فوجهه: أن كل موجود حقيقة فلا بد أن تكون له صفة، إما صفة كمال وإما صفة نقص، والثاني باطل بالنسبة إلى الرب الكامل المستحق للعبادة، ولهذا أظهر الله تعالى بطلان أُلُوهِيَّة الأصنام باتصافها بالنقص والعجز، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١]، وقال عن إبراهيم عليه السلام وهو يحتج على أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وعلى قومه: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

ثم إنه قد ثبت بالحس والمشاهدة: أن للمخلوق صفاتِ كمال، وهي من الله تعالى، فمعطي الكمال أَولى به.

وأما الفطرة: فلأن النفوس السليمة مجبولة مفطورة على محبة الله وتعظيمه، وهل تُحِب وتُعَظِّم وتَعْبُد إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائقة بربوبيته وأُلُوهِيَّته؟، وإذا كانت الصفة نقصاً لا كمال فيها فهي ممتنعة في حق الله تعالى؛ كالموت، والجهل، والنسيان، والعجز، والعمى، والصمم، ونحوها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله عن موسى: ﴿فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [فاطر: ٤٤]، وقوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال النبيّ ﷺ في الدجال: «**إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»، وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِباً**».

وقد عاقب الله تعالى الواصفين له بالنقص، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ

كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزَّه نفسه عما يصفونه به من النقائص، فقال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وإذا كانت الصفة كمالاً في حال ونقصاً في حال؛ لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تُثْبت له إثباتاً مطلقاً، ولا تُنفَى عنه نفياً مطلقاً، بل لا بد من التفصيل، فتجوز في الحال التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصاً، وذلك كالمكر، والكيد، والخداع، ونحوها، فهذه الصفات تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها؛ لأنها حينئذٍ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فِعله، أو أشد، وتكون نقصاً في غير هذه الحال، ولهذا لم يذكرها الله تعالى من صفاته على سبيل الإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]،

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

ولهذا لم يذكر الله أنه خان من خانوه، فقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال: ٧١]، فقال: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يقل: «فخانهم»؛ لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، وهي صفة ذم مطلقاً.

وبذا عُرِف أن قول بعض العوام: «خان الله من يخون» منكر فاحش يجب النهي عنه. ذكر هذا كله الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

٣٢٠ ـ وَكُلُّهَا تُؤْخَذُ عَن تَوْقِيفِهِ   لَا عَن قِيَاسٍ زَائِفٍ سَخِيفِهِ

(وَكُلُّهَا تُؤْخَذُ عَنْ تَوْقِيفِ)؛ يعني: أن صفاته تعالى توقيفيّة، فلا تُؤخذ إلا من الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، **(لَا عَن قِيَاسٍ)**؛ أي: لا تؤخذ الصفات من قياس **(زَائِفٍ)**؛ أي: رديء، **(سَخِيف)**؛ أي: ضعيف.

وحاصل معنى البيت بإيضاح: أن صفات الله تعالى تَوْقِيفِيَّةٌ، لا مجال للعقل فيها، فلا تؤخذ من القياس، فلا نُثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دلّ الكتاب والسُّنَّة على ثبوته، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث.

(١) «القواعد المثلى» ص٢٨ ـ ٣٢.

ولدلالة الكتاب والسُّنَّة على ثبوت الصفة ثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة؛ كالعِزَّة، والقوة، والرحمة، والبَطْش، والوجه، واليدين، ونحوها.

الثاني: تضمّن الاسم لها؛ مثل: «الغفور» متضمّن للمغفرة، و«السميع» متضمن للسمع، ونحو ذلك.

الثالث: التصريح بفِعْل أو وصف دَالٍّ عليها؛ كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد يوم القيامة، والانتقام من المجرمين، الدالّ عليها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، وقول النبيّ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنا إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا**» الحديث، وقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢][(١)]. والله تعالى أعلم.

٣٢١ ـ مِن بَابِ الَاسْمَاءِ الصِّفَاتُ أَوْسَعُ وَبَابُ الِاخْبَارِ عَلَىٰ ذِي أَرْفَعُ

(**مِن بَابِ الاسْمَاءِ**) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، ودَرْجها، وهو متعلّق بـ«أوسع»، (**الصِّفَاتُ أَوْسَعُ**)؛ يعني: أن باب الأسماء أوسع من باب الصفات، (**وَبَابُ الِاخْبَارِ**) بنقل كسرة الهمزة إلى اللام، ودَرْجها، (**عَلَى ذِي**)؛ أي: **على الصفات**، (**أَرْفَعُ**) أوسع.

وحاصل معنى البيت بإيضاح: أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، وأوسع منهما باب الإخبار، وذلك: لأن كل اسمٍ متضمن

(١) «القواعد المثلى» ص٤١ ـ ٤٢.

لصفة، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا منتهى لها، كما أن أقواله لا منتهى لها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

ومن أمثلة ذلك: أن من صفات الله تعالى: المجيء، والإتيان، والأخذ، والإمساك، والبطش، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١]، وقال: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١٢]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال النبيّ ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا...**» الحديث.

فنَصِفُ الله تعالى بهذه الصفات على الوجه الوارد، ولا نُسَمِّيه بها، فلا نقول: إن من أسمائه: «الجائي، والآتي، والآخذ، والممسك، والباطش، والمريد، والنازل»، ونحو ذلك، وإن كنا نُخبر بذلك عنه ونصفه به[1]. والله تعالى أعلم.

٣٢٢ ـ ثُمَّ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَسْمَاءِ أَفْعَالُهُ، سُبْحَانَ ذِي الْآلَاءِ

٣٢٣ ـ وَلَا يُحِيطُ بِالصِّفَاتِ أَحَدُ وَلَا يَجِي لِلْكُلِّ قَطْعاً عَدَدُ

٣٢٤ ـ وَهْيَ تَفَاضَلُ تَفَاضُلاً بِلَا لُزُومِ نَقْصٍ، بَلْ نُعُوتٌ تُجْتَلَىٰ

(١) «القواعد المثلى» ص٤١ ـ ٤٢.

٣٢٥ ـ تَفْسِيرُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ مَا لَزِمْ   بِهِ تَمَاثُلٌ، فَحَقِّقْ تَغْتَنِمْ

(ثُمَّ مِنَ الصِّفَاتِ وَالأَسْمَاءِ أَفْعَالُهُ)؛ أي: أفعال الله (سُبْحَانَ ذِي الآلَاءِ)؛ أي: العطاء، (وَلَا يُحِيطُ بِالصِّفَاتِ)؛ أي: بعلمها (أَحَدُ)؛ أي: من المخلوقين، لا مَلَك مُقرَّب، ولا نبيّ مُرسَل، (وَلَا يَجِي لِلْكُلِّ)؛ أي: على كلها، (قَطْعاً عَدَدُ)؛ يعني: أنها لا تُحصر بعدد معيّن، (وَهْيَ تَفَاضَلُ) أصله: تتفاضل، حُذفت إحدى التاءين، كـ ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، و﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤]، كما قال في «الخلاصة»:

وَمَا بِتَاءَيْنِ ابْتُدِي قَدْ يُقْتَصَرْ   فِيهِ عَلَى تَا كَـ«تَبَيَّنُ الْعِبَرْ»

(تَفَاضُلاً بِلَا لُزُومِ نَقْصٍ)؛ يعني: أنه لا يلزم من تفاضلها فيما بينهما نقص، (بَلْ) هي (نُعُوتٌ)؛ أي: صفات (تُجْتَلَى) بالبناء للمجهول؛ أي: يرتفع قدرها، (تَفْسِيرُ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ مَا) نافية، (لَزِم بِهِ تَمَاثُلٌ)؛ يعني: أن تفسير بعض الصفات ببعض لا يستلزم تماثلها، (فَحَقِّق) المعنى (تَغْتَنِمْ)؛ أي: تصير غانِماً في الدنيا والآخرة. والله تعالى أعلم.

ثم إن الصفات منها ثبوتيّ، ومنها سلبيّ أو منفيّ، وإلى ذلك أشرت بقولي:

٣٢٦ ـ مِنْهَا ثُبُوتِيٌّ، وَمِنْهَا سَلْبِي   أَوْ هُوَ مَنْفِيٌّ، فَحَقِّقْ صَوْبِي

(مِنْهَا)؛ أي: من الصفات العليّة؛ أي: بعضها (ثُبُوتِيٌّ)؛ أي: منسوب إلى الثبوت، حيث كان ثابتاً لله تعالى، (وَمِنْهَا سَلْبِي)؛ أي:

منسوب إلى السلب، **(أَوْ هُوَ مَنفِيٌّ)**؛ يعني: أو يقال له: منفيّ؛ لكونه مَنفِيّاً عن الله تعالى ومَسْلُوباً عنه، **(فَحَقِّقْ صَوْبِي)** بفتح الصاد المهملة، وسكون الواو، آخره موحّدة: بمعنى القصد، كما في «القاموس».

وحاصل المعنى بإيضاح: إن صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية، وسلبية.

فالثبوتية: ما أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنُّزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك.

فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به، بدليل السمع والعقل.

أما السمع: فمنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، فالإيمان بالله يتضمن: الإيمان بصفاته، والإيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله ﷺ يتضمن: الإيمان بكل ما جاء فيه من صفات الله، وكون محمد ﷺ رسولَه يتضمن: الإيمان بكل ما أخبر به عن مرسله، وهو الله ﷻ.

وأما العقل: فلأن الله تعالى أخبر بها عن نفسه، وهو أعلم بها من غيره، وأصدق قيلاً، وأحسن حديثاً من غيره، فوجب إثباتها له كما أخبر بها من غير تردد، فإن التردد في الخبر إنما يتأتى حين يكون الخبر صادراً ممن يجوز عليه الجهل أو الكذب أو العِيّ،

بحيث لا يُفصح بما يريد، وكل هذه العيوب الثلاثة ممتنعة في حق الله ﷻ، فوجب قَبول خبره على ما أخبر به.

وهكذا نقول فيما أخبر به النبيّ ﷺ عن الله تعالى، فإن النبيّ ﷺ هو أعلم الناس بربه، وأصدقهم خبراً، وأنصحهم إرادة، وأفصحهم بياناً، فوجب قَبول ما أخبر به على ما هو عليه. انتهى[1].

ثم بيّن أن الثبوتيّة على قسمين، **فقال:**

٣٢٧ ـ فَأَوَّلٌ لِلذَّاتِ، وَالْفِعْلِ انتَسَبْ ... وَكُلُّهَا أَوْصَافُ مَدْحٍ تُنتَخَبْ

٣٢٨ ـ ذَاتِيَّةٌ: لَازِمَةٌ لِلذَّاتِ لَا ... تَنفَكُّ، جَلَّ اللَّهُ أَن يُعَطَّلَا

٣٢٩ ـ لَا تَتَعَلَّقُ عَلَى الْمَشِيئَةِ ... فِعْلِيَّةٌ: خِلَافُهَا بِكُلِّ تِي

٣٣٠ ـ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ مَعْنَوِيَّهْ ... كَسَمْعِهِ، وَالْقُدْرَةِ الْقَوِيَّهْ

٣٣١ ـ كَذَاكَ مِنْهَا: خَبَرِيٌّ؛ كَالْقَدَمْ ... وَالْعَيْنِ، وَالْيَدَيْنِ، وَالْوَجْهُ يُؤَمّ

٣٣٢ ـ فِعْلِيَّةٌ؛ مِثْلُ: النُّزُولِ، وَالضَّحِكْ ... وَالِاسْتِوَا، الْمَجِيءِ، خُذْ لَا تَرْتَبِكْ

***

(فَأَوَّلٌ)؛ أي: القسم الأول، وهو الثبوتيّ، (لِلذَّاتِ وَالْفِعْلِ انتَسَبْ)؛ يعني: أنها تنقسم قسمين: ذاتيّ، وفعليّ، (وَكُلُّهَا)؛ أي: كلّ الأوصاف (أَوْصَافُ مَدْحٍ) لله سبحانه. **وقوله:** (تُنتَخَبْ) بالبناء للمجهول؛ أي: تُختار.

(ذَاتِيَّةٌ لَازِمَةٌ لِلذَّاتِ)؛ يعني: أن الصفات الذاتيّة لازمة للذات المقدّسة، (لَا تَنفَكُّ)؛ أي: لا يُتصوَّرُ انفكاكها عن الذات أزلاً وأبداً،

(١) «القواعد المثلى» ص٣٣ ـ ٣٥.

وذلك كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، وغير ذلك، (جَلَّ)؛ أي: تعالى وتقدّس (اللهُ) سبحانه (أَن يُعَطَّلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمجهول؛ أي: يُجَرَّد عن صفاته العليّة، ويكون خالياً عنها. (لَا تَتَعَلَّقُ عَلَى الْمَشِيئَةِ)؛ يعني: أن الصفات الذاتيّة لا تَعَلُّق لها بالمشيئة.

(فِعْلِيَّةٌ خِلَافُهَا عَلِّقْ بِتِي)؛ يعني: أن الصفة الفعليّة خلاف الصفة الذاتيّة، فإنها تتعلّق بالمشيئة، فإن شاء فَعَلها، وإن لم يشأ لم يفعلها، وذلك كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى السماء الدنيا كلّ ليلة، وغير ذلك.

(ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ مَعْنَوِيَّه)؛ يعني: أن الصفات الذاتيّة منها ما هو معنويّ، وذلك (كَسَمْعِهِ) سبحانه (وَالْقُدْرَةِ)؛ أي: وقدرة الله تعالى (الْقَوِيَّه) صفة لـ«القدرة».

(كَذَاكَ مِنْهَا) ما هو (خَبَرِيٌّ)، وذلك (كَالْقَدَم، وَالْعَيْنِ، والْيَدَيْنِ، وَالْوَجْهُ). **وقوله:** (يُؤَمّ) بالبناء للمفعول؛ أي: يُقصد ثبوتها لله ﷻ.

وقوله: (فِعْلِيَّةٌ) مبتدأ، خبره «مثل النُّزول»، وسوّغ الابتداء به وَصْفه بمقدّر؛ أي: صفة فعليّة، (مِثْلُ النُّزُولِ) إلى السماء الدنيا كلّ ليلة، (وَالضَّحِك، وَالاسْتِوَا) على العرش، و(الْمَجِيءِ) في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، (خُذْ) ما ذكرت لك من قِسْمَي الصفات، (لَا تَرْتَبِكْ)؛ أي: لا تقع في أمر مُرتبِك؛ أي: مختلط، يقال: ارتبك فلاناً: إذا ألقاه في وحل، فارتبك فيه. قاله في «القاموس».

وحاصل معنى الأبيات: هو ما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال: الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية، وفعلية:

فالذاتية: هي التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها؛ كالعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والعزة، والحكمة، والعلو، والعظمة.

ومنها الصفات الخبرية؛ كالوجه، واليدين، والعينين.

والفعلية: هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها؛ كالاستواء على العرش، والنُّزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين؛ كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته.

وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم عِلم اليقين أنه ـ سبحانه ـ لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]. انتهى[1].

٣٣٣ ـ مَنفِيَّةٌ؛ كَالْـمَوْتِ، وَالذُّهُولِ ... وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْغُفُولِ

٣٣٤ ـ وَلَيْسَ فِي الْـمَنْفِيِّ مَدْحٌ، غَيْرَ أَنْ ... ثَبَـتَ ضِدُّهَا لِـمَن لَهُ الْـمِنَنْ

(**مَنفِيَّةٌ**)؛ يعني: أن الصفة المنفيّة (**كَالْمَوْتِ، وَالذُّهُولِ**)؛ أي: الغفلة، (**وَالْعَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْغُفُولِ**) بالضمّ؛ أي: الغفلة عن

---

(١) «القواعد المثلى» ص٢٥.

الشيء، وهو بمعنى: الذهول، وكررهما لاختلاف لفظهما.

(وَلَيْسَ فِي الْمَنفِيِّ)؛ أي: الوصف المنفيّ، (مَدْحٌ) لأن النفي ليس بكمال، (غَيْرَ أَنْ ثَبَتَ ضِدُّهَا) «أن» مصدريّة؛ أي: غير ثبوت الصفة المنفيّة (لِمَن لَهُ الْمِنَن)؛ أي: لله ﷻ.

قال في «القواعد»: وأما الصفات السلبية: فهي ما نفاها الله ـ سبحانه ـ عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، وكلها صفات نقص في حقه؛ كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، فيجب نفيها عن الله تعالى، مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده، لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال، إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلاً عن أن يكون كمالاً، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالاً، كما لو قلت: «الجدار لا يظلم»، وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصاً، كما في قول الشاعر [من الطويل]:

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

وقول الآخر:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِن كَانُوا ذَوِي حَسَبٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فنفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

ثم إن الصفات الثُّبُوتِيَّة كلها صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوّعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات السلبية، كما هو معلوم.

أما الصفات السلبية فلم تُذكر غالباً إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيان عموم كماله، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

الثانية: نفي ما ادّعاه في حقه الكاذبون، كما في قوله: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [مريم: ٩١ ـ ٩٢].

الثالثة: دَفْع توهّم نَقْص في كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعيّن، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨][1]. والله تعالى أعلم.

٣٣٥ ـ طَرِيقَةُ الْوَحْيِ لَدَى الصِّفَاتِ: أَنْ ... تُجْمَلَ فِي النَّفْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَسَنْ

٣٣٦ ـ فَصِّل لَدَى الْإِثْبَاتِ، ثُمَّ الْقَولُ فِي ... صِفَاتِهِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ يَفِي

٣٣٧ ـ وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ مِثْلُمَا ... نَقُولُ فِي الْأُخْرَىٰ بِلَا فَرْقٍ نَمَا

٣٣٨ ـ وَلَا تَمَاثُلَ لَدَى اشْتِرَاكِهَا ... فِي الْوَصْفِ وَالسُّمَىٰ لَدَىٰ أَرْبَابِهَا

(١) «القواعد المثلى» ص٣٣ ـ ٣٥.

(طَرِيقَةُ الْوَحْيِ لَدَى الصِّفَاتِ أَن تُجْمَلَ) بالبناء للمفعول؛ أي: إجمالها (فِي النَّفْيِ)؛ أي: عند نفيها، (عَلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ)؛ أي: على الوجه اللائق به ـ سبحانه ـ (فَصِّل لَدَى الإِثْبَاتِ)؛ يعني: أنها تفصّل عند الإثبات.

(ثُمَّ الْقَولُ فِي صِفَاتِهِ) **وقوله:** (كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) متعلّق بـ(يَفِي) مضارع وفى، من الوفاء، (وَالْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ مِثْلُمَا نَقُولُ فِي) الصفات (الأُخْرَى بِلَا فَرْقٍ نَمَا)؛ أي: زاد؛ يعني: أنه ليس هناك فرق زائد، (وَلَا تَمَاثُلَ لَدَى اشْتِرَاكِهَا فِي الْوَصْفِ وَالسُّمَى) بتثليث أوله مقصوراً، لغة في الاسم؛ إذ فيه ثمانِ عشرة لغةً، مجموعة في قوله:

اسْمٌ سِمَةٌ سُمٌ سَمَاتٌ كَذَا سَمَا ... سَمَاءٌ بِتَثْلِيثٍ لأَوَّلِ كُلِّهَا

والمعنى: أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسمّيات والموصوفات. **وقوله:** (لَدَى أَرْبَابِهَا)؛ أي: هذا معروف عند أصحاب هذا الفنّ.

٣٣٩ ـ وَلَيْسَ فِي الْـمَعْقُولِ مَا يُخَالِفُ ... مَنْهَجَ الإِثْبَاتِ سِوَىٰ مَنْ خَالَفُوا

(وَلَيْسَ فِي الْمَعْقُولِ)؛ أي: العقل، (مَا يُخَالِفُ مَنْهَجَ الإِثْبَاتِ)؛ يعني: أن العقل لا يخالف طريقة إثبات الصفات لله تعالى، (سِوَى مَنْ خَالَفُوا)؛ أي: إلا عند الذين خالفوا العقل والنقل، وعاندوا، فإنهم يتوهّمون مخالفة الإثبات للعقل.

٣٤٠ ـ وَاجِبُنَا لَدَىٰ صِفَاتِهِ الْعُلَىٰ ... إِجْرَاؤُهَا عَلَى الَّذِي قَدِ انجَلَىٰ=

٣٤١ ـ مِن لَائِقٍ بِاللَّهِ، ثُمَّ مَا عُلِمْ ... مِن مُقْتَضَى الْخِطَابِ وَالسَّوْقِ فُهِمْ

(وَاجِبُنَا لَدَى صِفَاتِهِ الْعُلَى) التي ورد النصّ بها، (إِجْرَاؤُهَا عَلَى الَّذِي قَدِ انجَلَى)؛ أي: على المعنى الذي ظهر منها، (مِن) معنًى (لَائِقٍ بِاللهِ) تعالى، (ثُمَّ) على (مَا عُلِم) بالبناء للمفعول، (مِن مُقْتَضَى الْخِطَابِ)؛ أي: مما يقتضيه خطاب الكلام، وبيانه، (وَالسَّوْقِ)؛ أي: سياق الكلام. **وقوله:** (فُهِمْ) بالبناء للمفعول، في محل نَصْب على الحال.

وحاصل معنى البيتين بإيضاح: أن الواجب في نصوص القرآن والسُّنَّة إجراؤها على ظاهرها، دون تحريف، لا سيما نصوص الصفات، حيث لا مجال للرأي فيها.

ودليل ذلك: السمع، والعقل.

أما السمع: فقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]، وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي، إلا أن يمنع منه دليل شرعي.

وقد ذمَّ الله تعالى اليهود على تحريفهم، وبيَّن أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان، فقال: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية [النساء: ٤٦].

وأما العقل: فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من

غيره، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين، فوجب قَبوله على ظاهره، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة[1]. والله تعالى أعلم.

٣٤٢ ـ فَالِاسْمُ وَالصِّفَةُ إِنْ أُضِيفَا لِرَبِّنَا اخْتَصَّتْ فَلَا تَحِيفَا

٣٤٣ ـ أَثْبِتْ كَمَا تُثْبِتُ ذَاتاً جَلَّتِ أَن تُشْبِهَ الذَّوَاتِ، شَبِّهْ ذِي بِتِي

٣٤٤ ـ لِلَّهِ ذَاتٌ بِالْحَقِيقَةِ، كَمَا وَصْفٌ وَأَفْعَالٌ لَهُ، فَلْتَعْلَمَا

❁ ❁ ❁

(فَالِاسْمُ وَالصِّفَةُ إِنْ أُضِيفَا لِرَبِّنَا) ﷻ **(اخْتَصَّتْ)** به، **(فَلَا تَحِيفَا)** بالألف المنقلبة عن نون التوكيد الخفيفة؛ أي: لا تظلمن نفسك بالإلحاد فيها، بل **(أَثْبِت)** الأسماء والصفات لله تعالى **(كَمَا تُثْبِتُ)** له ـ سبحانه ـ **(ذَاتاً)**. **وقوله: (جَلَّتِ أَن تُشْبِهَ الذّوَاتِ)** جملة في محل نصب صفة لـ«ذاتاً»؛ أي: تَعَالَتْ وتقدّست تلك الذات أن تشبه ذوات المخلوقين، فـ**(شَبِّهْ ذِي)**؛ أي: هذه الأسماء والصفات، **(بِتِي)**؛ أي: بهذه الذات، فـ«ذي»، و«تي» اسما إشارة للمؤنّث، كما قال في «الخلاصة»:

بِـ«ذَا» لِمُفْرَدِ مُذَكَّرٍ أَشِرْ بِـ«ذِي» وَ«ذِهْ، تِي، تَا» عَلَى الأُنْثَى اقْتَصِرْ

فـ**(لِلَّهِ)** ـ سبحانه ـ **(ذَاتٌ بِالْحَقِيقَةِ)**؛ أي: ثابتة له على حقيقتها، **(كَمَا وَصْفٌ وَأَفْعَالٌ لَهُ)**؛ أي: يثبت له تعالى صفات وأفعال على الحقيقة، **(فَلْتَعْلَمَا)** بالألف المنقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، لتعلمن ذلك على وجه الحقيقة. والله تعالى أعلم.

٣٤٥ ـ وَشَمِلَ التَّفْوِيضُ عِندَ الْخَلَفِ تَفْوِيضَ مَعْنَاهَا، وَذَا حَيْفٌ يَفِي

---

(١) «القواعد المثلى» ص٣٣.

٣٤٦ ـ فَهْوَ مِنَ الْبِدَعِ، فَالصَّوَابُ أَنْ   يُفَوَّضَ الْكَيْفُ فَقَطْ دُونَ إِحَنْ

(وَشَمِلَ) بكسر الميم، وفتحها، يقال: شَمِلهم الأمر شَمَلاً، من باب تَعِبَ: عمّهم، وشَمَلَهُم شُمُولاً، من باب قعد، لغة فيه[1]. (التَّفْوِيضُ عِندَ الْخَلَفِ تَفْوِيضَ مَعْنَاهَا) الحقيقيّ، فهم يفوّضونه إلى الله تعالى، ويجعلونه مجهولاً لَدَيْنَا. (وَذَا)؛ أي: هذا؛ يعني: تفويض المعنى، (حَيْفٌ)؛ أي: ظُلم. **وقوله:** (يَفِي) صفة لـ«حَيْف»؛ أي: وافٍ تامّ في باب الظلم، (فَهْوَ مِنَ الْبِدَعِ) التي ابتدعها الخلف، (فَالصَّوَابُ: أَن يُفَوَّضَ الْكَيْفُ فَقَطْ)؛ أي: لا المعنى، (دُونَ إِحَنْ) بكسر ففتح، جمع إِحْنة ـ بفتح فسكون ـ، وأصله: الحقد والغضب، ولكن المراد هنا: الكراهية وعدم القبول لِمَا ذُكر.

وحاصل المعنى: أن الصواب الذي هو مذهب السلف تفويض الكيفيّة، لا المعنى، فمعنى الصفات معلوم لنا، وإنما المجهول هو الكيفيّة فقط، فما ذهب إليه الخَلَف من تفويض المعنى باطل. والله تعالى أعلم.

٣٤٧ ـ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّنِيَّهْ   لَدَىٰ صِفَاتِ رَبِّنَا الْعَلِيَّهْ=

٣٤٨ ـ مِن بَيْنِ أَهْلِ قِبْلَةٍ قُلْ: وَسَطُ   مَا فَرَّطُوا فِيهِ، وَلَا هُمْ أَفْرَطُوا

٣٤٩ ـ أَثْبِتْ، وَلَا تُمَثِّلَن، وَنَزِّهَا   وَلَا تُعَطِّلَن كَقَوْمٍ سُفَهَا

٣٥٠ ـ كُلُّ مُمَثِّلٍ مُعَطِّلٌ؛ كَمَنْ   يَعْبُدُ أَصْنَاماً تَحَلَّتْ بِالْوَهَنْ

٣٥١ ـ كُلُّ مُعَطِّلٍ مُمَثِّلٌ؛ كَمَنْ   يَعْبُدُ مَعْدُوماً مِنَ اوْهَنِ الْوَثَنْ

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٣٢٣.

٣٥٢ ـ وَمَن يُكَذِّبْ بِالصِّفَاتِ كَفَرَا كَذَا الْمُشَبِّهُ بِلَا فَرْقٍ يُرَى

٣٥٣ ـ لَا يُقْبَلُ التَّأْوِيلُ أَصْلاً مُطْلَقَا إِلَّا إِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ الْمُنتَقَى

***

(مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ) مبتدأ، خبره «قُلْ: وَسَطُ». **وقوله:** (السَّنِيَّه) صفة لـ«السُّنَّةِ»، من السنى ـ بالقصر ـ، وهو: الضوء، أو من السناء ـ بالمدّ ـ، وهو: الرفعة. (لَدَى صِفَاتِ رَبِّنَا الْعَلِيَّه مِن بَيْنِ أَهْلِ قِبْلَةٍ قُلْ: وَسَطُ)؛ يعني: أنه متوسّط بين فِرَق أهل القبلة، (مَا) نافية، (فَرَّطُوا) بتشديد الراء؛ أي: لم يُقَصِّرُوا (فِيهِ)؛ أي: في باب الصفات، حيث أثبتوا ما أثبته النصّ إثباتاً بلا تمثيل، (وَلَا هُمْ أَفْرَطُوا)؛ أي: لم يجاوزوا الحدّ، فلم يشبّهوا، ولم يمثّلوا، بل نزّهوا بلا تعطيل.

(أَثْبِت) الصفات لله ﷻ (وَلَا تُمَثِّلَنْـ)ـها بصفات المخلوقين، (وَنَزِّهَا) بالألف المنقلبة عن نون التوكيد الخفيفة؛ أي: نزّهن صفات الله تعالى عن أن تُشبه صفات المخلوقين، (وَلَا تُعَطِّلَن) الله تعالى عن صفاته العليّة، (كَقَوْم سُفَهَا)؛ أي: مثل ما عطّل قوم سفهاء، من الجهميّة وغيرهم، فـ(كُلُّ مُمَثِّلٍ مُعَطِّلٌ) فهو (كَمَن يَعْبُدُ أَصْنَاماً) بالفتح، جمع صَنَم ـ بفتحتين ـ، يقال: هو الوثن المتخذ من الحجارة، أو الخشب، ويُروَى عن ابن عباس، ويقال: الصنم: المتَّخَذ من الجواهر المعدنية التي تذوب، والوثن: هو المتَّخَذ من حجر أو خشب، وقال ابن فارس: الصنم: ما يتخذ من خشب، أو نحاس، أو فضة، والجمع: أصنام. قاله في «المصباح»[1].

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٣٤٩.

وقوله: (تَحَلَّتْ)؛ أي: اتّصفت (بِالْوَهَن) بفتحتين؛ أي: بالضَّعف، صفة لـ«أصناماً»، و(كُلُّ مُعَطِّلٍ مُمَثِّلٌ) فهو (كَمَن يَعْبُدُ مَعْدُوماً مِنَ اوْهَنِ) بنقل حركة الهمزة إلى النون، ودَرْجها. (الْوَثَنْ) بفتحتين، هو: الصنم، سواء كان من خشب، أو حجر، أو غيره، والجمع: وُثُنٌ، مثل: أَسَدٍ وأُسُدٍ، وأوثان، ويُنسب إليه من يتديّن بعبادته على لفظه، فيقال: رجلٌ وَثَنِيّ، وقوم وثنيّون، وامرأة وثنيّة، ونساء وثنيّات. قاله في «المصباح»[1].

قال في «القواعد المثلى»: عُلم مما سبق أن كل معطل ممثِّل، وكل ممثِّل معطل.

أما تعطيل المعطل فظاهر، وأما تمثيله: فلأنه إنما عطّل لاعتقاده أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه، فمثّل أولاً، وعَطَّل ثانياً، كما أنه بتعطيله مَثَّلَهُ بالناقص.

وأما تمثيل الممثل فظاهر، وأما تعطيله فمن ثلاثة أوجه:

الأول: أنه عَطَّل نفس النص الذي أُثبتت به الصفة، حيث جعله دالّاً على التمثيل، مع أنه لا دلالة فيه عليه، وإنما يدل على صفة تليق بالله ﷻ.

الثاني: أنه عَطَّل كل نص يدل على نفي مماثلة الله لخلقه.

الثالث: أنه عَطَّل الله تعالى عن كماله الواجب له، حيث مثَّله بالمخلوق الناقص. انتهى[2].

(وَمَن يُكَذِّبْ بِالصِّفَاتِ كَفَرَا) بألف الإطلاق، (كَذَا الْمُشَبِّهْ)

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٦٤٧.

(٢) «القواعد المثلى» ص٤٨.

والممثل يكفر أيضاً، (بِلَا فَرْقٍ يُرَى)؛ يعني: أنه لا فرق في الكفر بين من يكذّب بالصفات، وبين من يشبّهها بصفات المخلوقين.

(لَا يُقْبَلُ) بالبناء للمفعول، (التَّأْوِيلُ)؛ أي: تأويل الصفات، كما هو مذهب الخلف، (أَصْلاً مُطْلَقَا)؛ أي: في جميع الصفات، أو في بعضها، (إِلَّا إِذَا دَلَّ الدَّلِيلُ الْمُنْتَقَى)؛ أي: المختار. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

٣٥٤ - وَيُثْمِرُ الْإِيمَانُ بِالْأَسْمَاءِ وَبِالصِّفَاتِ لِذَوِي الثَّنَاءِ

٣٥٥ - مِنَ الْعُبُودِيَّةِ أَنْوَاعاً غَدَتْ آثَارُهَا عَلَى الْعِبَادِ قَدْ بَدَتْ

٣٥٦ - أَن يَعْلَمَ الْعَبْدُ جَلَالَ رَبِّهِ يُورِثُهُ الْخُضُوعَ، وَالصِّدْقَ بِهِ

٣٥٧ - وَعِلْمُهُ بِسَمْعِهِ وَالْبَصَرِ يُورِثُهُ حِفْظَ اللِّسَانِ الْمُفْتَرِي

٣٥٨ - وَلِجَوَارِحِهِ وَالْقَلْبِ وَقَدْ أَلْبَسَهُ الْحَيَاءَ وَصْفاً يُعْتَمَدْ

٣٥٩ - وَعِلْمُهُ بِكَوْنِهِ غَنِيَّا ذَا رَحْمَةٍ وَكَرَمٍ حَفِيَّا

٣٦٠ - يُورِثُهُ الرَّجَاءَ، وَالإِقْبَالَا عَلَى الْكَرِيمِ وَحْدَهُ تَعَالَىٰ

٣٦١ - وَعِلْمُهُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَبِإِلَٰهِيَّتِهِ فَانْتَبِهِ

٣٦٢ - يُورِثُهُ مَحَبَّةً وَشَوْقَا مُنَافِساً فِي وُدِّهِ قَدْ يَرْقَىٰ

٣٦٣ - وَلَهِجاً بِذِكْرِهِ لَهُ يَفِرّ وَلَا يُنَازِعُ بِمَا بِهِ أُمِرْ

٣٦٤ - وَلَيْسَ يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا نَزَلْ لَا يَتَحَاكَمُ لِغَيْرِ اللَّهِ جَلّ

٣٦٥ - وَلَا يُحَرِّمُ لِمَا اللَّهُ أَحَلّ وَلَا يُحِلُّ مَا مُحَرَّماً كَمَلْ

٣٦٦ - وَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ فَذَا مِنْ أَثَرِ اسْمِهِ وَوَصْفٍ حَبَّذَا

٣٦٧ - وَكُلُّ مَبْغُوضٍ لَهُ جَلَّ فَضِدّ لِنَعْتِهِ وَلِاسْمِهِ فَلْتَبْتَعِدْ

❊ ❊ ❊

(وَيُثْمِرُ) بضمّ أوله، من الإثمار، **(الإِيمَانُ بِالأَسْمَاءِ وَبِالصِّفَاتِ**

(لِذَوِي الثَّنَاءِ)؛ أي: لأهل الإيمان؛ لأنهم الذين يُثنون على الله ﷻ بما هو أهله، (مِنَ الْعُبُودِيَّةِ) بيان مقدّم على: (أَنْوَاعاً غَدَتْ)؛ أي: صارت تلك الأنواع، (آثَارُهَا عَلَى الْعِبَادِ) متعلّق بـ(قَدْ بَدَتْ)؛ أي: ظهرت.

فمن تلك الآثار: (أن يَعْلَمَ الْعَبْدُ جَلَال)؛ أي: عظمةَ (رَبِّهِ) ـ سبحانه ـ (يُورِثُهُ) ذلك العلم (الْخُضُوعَ) لله تعالى، (وَالصِّدْقَ بِهِ) تعالى، (وَعِلْمُهُ)؛ أي: علم العبد، مبتدأ، خبره «يُورِثُهُ» إلخ. (بِسَمْعِهِ)؛ أي: بسمع الله تعالى، (وَالْبَصَرِ)؛ أي: بصره تعالى (يُورِثُهُ)؛ أي: يورث العبد (حِفْظَ اللِّسَانِ)؛ أي: حِفْظ لسانه من فضول الكلام. **وقوله:** (الْمُفْتَرِي) صفة لـ«اللسان»، (وَلِجَوَارِحِهِ)؛ أي: ويورثه أيضاً حفظ أعضائه من ارتكاب الذنوب، (وَالْقَلْبِ)؛ أي: وحِفظ قلبه أيضاً من الخواطر الرَّدِيَّة، (وَقَدْ أَلْبَسَهُ الْحَيَاءَ)؛ أي: استحياءه من الله تعالى. **وقوله:** (وَصْفاً يُعْتَمَدْ) بالبناء للمفعول، جملة حاليّة من «الحياء»، وفيه مدح للحياء بأنه وصف عالٍ، (وَعِلْمُهُ)؛ أي: علم العبد (بِكَوْنِهِ)؛ أي: كون الله ﷻ (غَنِيًّا) عن خلقه، (ذَا)؛ أي: صاحب (رَحْمَةٍ) بالمؤمنين، (وَ)ذا (كَرَمٍ) بعباده، حال كونه (حَفِيًّا)؛ أي: مبالغاً في إكرام عباده. قال في «القاموس»: وحَفِيَ به؛ كَرَضِيَ، حَفَاوةً ـ بالفتح، ويكسرُ ـ، وحِفايَةً ـ بالكسر ـ، وتِحْفايَةً، فهو حافٍ، وحَفِيٌّ ـ كغَنِيٍّ ـ، وتَحَفَّى، واحْتَفَى: بالَغَ في إكْرامِه، وأظْهَرَ السُّرُورَ والفَرَحَ، وأكْثَرَ السُّؤالَ عن حاله، فهو حافٍ، وحَفِيٌّ ـ كغَنِيٍّ ـ، وحَفَا اللهُ به حَفْواً: أكْرَمَهُ. انتهى[1].

و(يُورِثُهُ) أيضاً، (الرَّجَاءَ، وَالإِقْبَالَا) بألف الإطلاق، (عَلَى

(١) «القاموس المحيط» ص١٢٧٥.

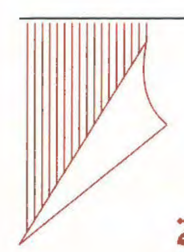
(الْكَرِيمِ وَحْدَهُ تَعَالَى، وَعِلْمُهُ)؛ أي: علم العبد، وهو مبتدأ، (بِأَمْرِهِ) تعالى (وَنَهْيِهِ، وَبِإِلَاهِيَّتِهِ). **وقوله:** (فَانْتَبِهِ) معترض كمّل به البيت. **وقوله:** (يُورِثُهُ) خبر المبتدأ؛ أي: يورث العبد (مَحَبَّةً) لربه ـ سبحانه ـ (وَشَوْقًا) إلى لقائه. **وقوله:** (مُنَافِساً) حال من فاعل «يرقى»، (فِي وُدِّهِ)؛ أي: في التودّد إليه تعالى، (قَدْ يَرْقَى)؛ أي: يصعد في درجات القرب إلى الله ﷻ، (وَ)حال كونه (لَهِجاً بِذِكْرِهِ) بفتح اللام وكسر الهاء؛ أي: مولَعاً وملازماً لذكره الله تعالى، (لَهُ يَفِرّ)؛ أي: يفرّ إلى الله تعالى، كما أمره بقوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

(وَلَا يُنَازِعُ) ربه (بِمَا بِهِ أُمِر) بالبناء للمفعول؛ أي: فيما أمره به من العبادات، (وَلَيْسَ) العبد (يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا نَزَل) من عند الله تعالى، وأيضاً (لَا يَتَحَاكَمُ لِغَيْرِ اللهِ جَلّ) وعلا، وإنما يتحاكم إلى ما أنزل الله تعالى، (وَلَا يُحَرِّمُ) من التحريم، (لِمَا اللهُ أَحَلّ، وَلَا يُحِلُّ) من التحليل، (مَا مُحَرَّماً كَمَل)؛ أي: ما كَمَل تحريمه من الله تعالى، (وَكُلُّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ) تعالى.

(فَذَا مِنْ أَثَرِ اسْمِهِ وَوَصْفِ)؛ يعني: أن كلّ ما يحبّه ﷻ فهو من آثار أسمائه وصفاته، وموجَبها. **وقوله:** (حَبَّذَا) مَدْح للأثر.

(وَكُلُّ مَبْغُوضٍ لَهُ جَلَّ) وعلا (فَضِدّ لِنَعْتِهِ)؛ أي: صفته (وَلِاسْمِهِ)؛ يعني: أن كلّ ما يُبغضه الله تعالى فهو مما يضادّ أسماءه وصفاته وينافيها، (فَلْتَبْتَعِدْ) أيها العاقل عما يبغضه الله تعالى ويكرهه. والله تعالى أعلم.

۞ ۞ ۞



الْفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ إِفْرَادِ اللَّهِ بِصِفَاتِ الْأُلُوهِيَّةِ

٣٦٨ ـ ثُمَّ الْأُلُوهِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَىٰ ... إِلَـٰهِنَا الْمَعْبُودِ جَلَّ وَعَلَا

٣٦٩ ـ إِيمَانُنَا بِهَا هُوَ: الْإِفْرَادُ ... لِلَّهِ فِي عِبَادَةٍ تُرَادُ

٣٧٠ ـ مَعْنَى الْعِبَادَةِ قُلِ: اسْمٌ يَجْمَعُ ... لِكُلِّ مَحْبُوبِ الْإِلَـٰهِ يَنْفَعُ=

٣٧١ ـ مِن قَوْلٍ، أَوْ فِعْلٍ، بِظَاهِرٍ، وَفِي ... بَاطِنِهِ، بِغَايَةِ الْحُبِّ الْوَفِي=

٣٧٢ ـ وَغَايَةِ الذُّلِّ وَتَعْظِيمٍ، حَذَرْ ... مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَيَرْجُو مَن قَدَرْ

٣٧٣ ـ إِفْرَادُهُ ـ جَلَّ ـ بِذِي الْعِبَادَةِ ... أَسَاسُ دِينِ اللَّهِ ذِي السَّعَادَةِ

٣٧٤ ـ حَقٌّ لَهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ، وَغَايَةُ ... خَلْقِ الْأَنَامِ أَوْضَحَتْهُ الْآيَةُ

٣٧٥ ـ وَفَيْصَلٌ بَيْنَ أُولِي الْإِسْلَامِ ... وَضِدِّهِم مُرْتَكِبِي الْإِجْرَامِ

٣٧٦ ـ وَلُبُّ دَعْوَةِ النَّبِيِّينَ سَبَقْ ... بِهِ خِطَابُ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَسَقْ

٣٧٧ ـ وَهُوَ عِصْمَةٌ عَلَى الدَّوَامِ ... حَتَّىٰ تَجِيءَ سَاعَةُ الْقِيَامِ

***

(ثُمَّ الأُلُوهِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى إِلهِنَا الْمَعْبُودِ جَلَّ وَعَلَا) المعنى: أن الأُلُوهِيَّة نسبة للإله المعبود المحبوب المرجوّ، المطلوب الذي تتذلل وتخضع له القلوب، فتطمئنّ بذكره، وتسكن إلى قضائه وقدره، تعبده، وتتوكل عليه، وإليه تُنيب.

(إِيمَانُنَا بِهَا)؛ أي: بالألوهيّة، (هُوَ الإِفْرَادُ لِلَّهِ) تعالى (فِي عِبَادَةٍ تُرَادُ)؛ أي: تُقصد؛ يعني: أن الإيمان بالألوهيّة: هو إفراد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له.

وفي تفرّده تعالى بصفة الإلٰهيّة قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله: (مَعْنَى الْعِبَادَةِ) مبتدأ، خبره **قوله:** (قُلِ اسْمٌ يَجْمَعُ لِكُلِّ مَحْبُوبِ الإِلهِ)؛ أي: كل ما يحبّه تعالى ويرضاه. **وقوله:** (يَنْفَعُ) حال من «كل» إلخ. **وقوله:** (مِن قَوْلٍ اوْ) بالنقل والدرج، (فِعْلٍ). **وقوله:** (بِظَاهِرٍ وَفِي بَاطِنِهِ) صفة لـ«قول»، أو «فعل»، (بِغَايَةِ)؛ أي: مع غاية (الْحُبِّ) لله تعالى. **وقوله:** (الْوَفِي) صفة لـ«الحبّ»؛ أي: الحب الكامل، (وَ)مع (غَايَةِ الذُّلِّ) لله ﷻ (وَتَعْظِيم) له تعالى، و(حَذَرٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ)؛ أي: ومع حذر من عقوبة الله تعالى، (وَيَرْجُو مَن قَدَر) «مَن» بفتح الميم، عبارة عن الله تعالى؛ أي: ومع الرجاء في رحمة الله تعالى.

(إِفْرَادُهُ) مبتدأ، خبره **قوله:** «أساس» إلخ، (جَلَّ) وعلا (بِـ)ـه(ذِي الْعِبَادَةِ أَسَاسُ)؛ أي: أصل (دِينِ اللهِ) تعالى، (ذِي السَّعَادَةِ) الذي يُسعد من يشاء بفضله. **وقوله:** (حَقٌّ) خبر بعد خبر، (لَهُ سُبْحَانَهُ) وَتعالى، (وَ)هو أيضاً (غَايَةُ خَلْقِ الأَنَامِ، أَوْضَحَتْهُ الآيَةُ) الكريمة وهي قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] (وَفَيْصَلٌ)؛ أي: وهو أيضاً فاصل (بَيْنَ أُولِي الإِسْلَامِ وَضِدِّهِمْ)؛ أي: الكفار؛ يعني: أنه الفارق بين أهل الإسلام وأهل الكفر. **وقوله:** (مُرْتَكِبِي الإِجْرَامِ) صفة لـ«ضدّهم»، (وَلُبُّ دَعْوَةِ النَّبِيِّينَ)؛ يعني:

أنه خلاصة دعوة النبيين عليهم السلام. **وقوله:** (سَبَقْ) حال من «لُبّ»؛ أي: حال كون زمنه تقدّم على زمن دعوة النبيّ ﷺ. **وقوله:** (بِهِ خِطَابُ النَّاسِ كُلَّهُمْ) بالنصب، مفعول مقدّم لـ(وَسَقْ) من باب وعد؛ أي: جَمَع؛ يعني: أن خطاب الناس به جمع كلهم، (وَهُوَ عِصْمَةٌ)؛ أي: سبب عصمة (عَلَى الدَّوَامِ)؛ أي: دائماً في الدنيا وفي الآخرة، (حَتَّى تَجِيءَ سَاعَةُ الْقِيَامِ)؛ أي: حتى تقوم الساعة.

وخلاصة القول: أن إفراد الله تعالى بالعبادة هو أصل الدين، وهو أول الدين وآخره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٣٧٨ ـ وَبِالأُلُوهِيَّةِ إِنْ آمَنَّا ... فَلِلرُّبُوبِيَّةِ قَدْ حَقَّقْنَا

٣٧٩ ـ وَلِلأَسَامِي وَالصِّفَاتِ كُلِّهَا ... وَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ عِندَ النُّبَهَا

(وَبِالأُلُوهِيَّةِ إِنْ آمَنَّا فَلِلرُّبُوبِيَّةِ قَدْ حَقَّقْنَا)؛ يعني: أن الإيمان بالأُلُوهِيّة يتضمّن الإيمان بالربوبيّة، (وَلِلأَسَامِي)؛ أي: وكذا يتضمّن الإيمان بالأسماء الحسنى، (وَالصِّفَاتِ) العلى (كُلِّهَا، وَذَا)؛ أي: الإيمان بما ذُكر، (هُوَ الْمَطْلُوبُ عِندَ النُّبَهَا)؛ أي: عند أرباب العقول المتّبعين للنقول.

٣٨٠ ـ كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ قَد تَضَمَّنَتْ ... إِفْرَادَهُ ـ جَلَّ ـ بِأَفْعَالٍ سَمَتْ=

٣٨١ ـ وَبِصِفَاتِهِ، وَأَسْمَاهُ الْعُلَىٰ ... جَامِعَةً لِكُلِّ خَيْرٍ اعْتَلَىٰ

٣٨٢ ـ وَتَتَضَمَّنُ الشَّهَادَةُ الَّتِي ... ثَانِي الْقَرِينَيْنِ رَفِيعُ الرُّتْبَةِ=

٣٨٣ ـ مَعْنَى الْيَقِينِ بِالرِّسَالَةِ، وَحُبّ ... صَاحِبِهَا مُتَابِعاً فِيمَا يَحُبّ

٣٨٤ ـ مُـوَقِّـراً مُـصَـدِّقـاً لِـخَـبَـرِهْ　　مُـجْـتَـنِـبـاً لِـنَـهْـيِـهِ وَمُـنـكَـرِهْ

٣٨٥ ـ لَا يَـعْـبُـدُ الْإِلَـٰـهَ إِلَّا إِن شَـرَعْ　　مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ ٱصْحَابِ الْبِدَعْ

(كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ) مبتدأ، خبره **قوله:** (قَدْ تَضَمَّنَتْ إِفْرَادَهُ)؛ أي: إفراد الله (جَلَّ) وعلا (بِأَفْعَالٍ سَمَتْ)؛ أي: ارتفعت، (وَبِصِفَاتِهِ) العليّة (وَأَسْمَاهُ) بالقصر للوزن، (الْعُلَى)؛ يعني: أن شهادة أن لا إلٰه إلا الله تتضمّن إفراد الله ﷻ بأفعاله، ومعرفة أسمائه، وصفاته حال كونها (جَامِعَةً لِكُلِّ خَيْرٍ اعْتَلَى)؛ أي: ارتفع قَدْره، من الحبّ، والرغبة إليه، والذلّ له، والرهبة منه، والخوف، والخشية، وهذا هو معنى الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

(وَتَتَضَمَّنُ الشَّهَادَةُ الَّتِي) هي (ثَانِي الْقَرِينَيْنِ) وهي: شهادة أن محمداً رسول الله (رَفِيعُ الرُّتْبَةِ). **وقوله:** (مَعْنَى الْيَقِينِ) منصوب على المفعوليّة لـ«تتضمّن»، (بِالرِّسَالَةِ)؛ أي: رسالة النبيّ ﷺ، (وَحُبَّ صَاحِبِهَا)؛ أي: تتضمّن أيضاً محبته ﷺ، حال كونه (مُتَابِعاً) له ﷺ (فِيمَا يَحُبّ) مضارع حَبّه، من باب نَصَر وضَرَب، والمناسب هنا الأول، ويقال فيه أيضاً: أحبه يُحبه؛ يعني: أنه يتّبع النبيّ ﷺ في كلّ ما يحبه من أمور شريعته، حال كونه (مُوَقِّراً)؛ أي: معظّماً له ﷺ، (مُصَدِّقاً لِخَبَرِه)؛ أي: موقناً بكل ما أخبر به النبيّ ﷺ عن الله تعالى، (مُجْتَنِباً لِنَهْيِهِ وَمُنكَرِه)؛ أي: ما أنكره ﷺ، (لَا يَعْبُدُ الْإِلَه) سبحانه (إِلَّا إِن شَرَع) الله تعالى على لسان نبيّه ﷺ، (مَعَ الْبَرَاءَةِ مِنَ اصْحَابِ) بنقل حركة الهمزة إلى النون قبلها، ودرْجها، (الْبِدَع)؛ أي: من اتباعهم، وتقليد آرائهم الباطلة.

٣٨٦ ـ وَبِالْأُلُوهِيَّةِ إِنْ آمَنتَا ... أَفْرِدْهُ بِالدُّعَاءِ إِذْ سَأَلْتَا

٣٨٧ ـ تَسْأَلُهُ مَا لَيْسَ يَقْدِرُ عَلَيْهْ ... سِوَاهُ فَالْخَيْرُ جَمِيعُهُ لَدَيْهْ

٣٨٨ ـ وَالذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ، وَسَعْيٍ، خَوْفِ ... تَوَكُّلٍ، وَنَحْوِهَا، وَالطَّوْفِ

٣٨٩ ـ فَكُلُّهَا عِبَادَةٌ لَا تُصْرَفُ ... لِغَيْرِ مَوْلَانَا، وَنِعْمَ الْمَصْرِفُ

(وَبِالأُلُوهِيَّةِ إِنْ آمنتَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أنك إن أردت تحقيق الإيمان بالألوهيّة فـ(أَفْرِدْهُ) ـ سبحانه ـ (بِالدُّعَاءِ إِذْ سَأَلْتَا) بألف الإطلاق، وذلك (تَسْأَلُهُ) ﷻ (مَا لَيسَ يَقْدِرُ عَلَيْه سِوَاهُ)؛ أي: في الشيء الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى، (فَالْخَيْرُ جَمِيعُهُ لَدَيْه)؛ أي: لأن جميع الخيرات لديه تعالى، فلا ينبغي أن يُطلب إلا منه تعالى. **وقوله:** (وَالذَّبْحِ) بالجر، وكذا ما بعده عطفاً على «الدعاء»، (وَالنَّذْرِ، وَسَعْيٍ) بين الصفا والمروة و(خَوْفِ) و(تَوَكُّلٍ، وَنَحْوِهَا، وَالطَّوْفِ) مصدر طاف بالبيت؛ كالطواف. ويَحْتَمِل أن **قوله:** «والذبح» إلخ مبتدأ، **وقوله:** (فَكُلُّهَا) مبتدأ ثان، والفاء زائدة، وخبره **قوله:** «عبادة»، والجملة خبر «الذبح»؛ أي: كلّ هذه الأشياء (عِبَادَةٌ لَا تُصْرَفُ) بالبناء للمفعول؛ أي: لا يجوز صرفها (لِغَيْرِ مَوْلَانَا) ـ سبحانه ـ (وَنِعْمَ الْمَصْرِفُ)؛ أي: الله تعالى.

٣٩٠ ـ تَوَسُّلٌ نَوْعَانِ: مَا قَدْ يُشْرَعُ ... يَرْضَاهُ رَبُّنَا، وَمَا قَدْ يُمْنَعُ

٣٩١ ـ فَأَوَّلٌ: مَا كَانَ بِالْأَسْمَاءِ، أَوْ ... صِفَاتِهِ، أَوْ فِعْلِهِ، كَمَا رَأَوْا

٣٩٢ ـ أَوْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ، أَوْ بِدَعْوَةِ ... تَأْتِيكَ مِن صَالِحِ قَوْمٍ خِيرَةِ

٣٩٣ ـ أَمَّا الَّذِي مُنِعَ فَهْوَ: مَا عَدَا ... ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي شَرْعِ الْهُدَى

(تَوَسُّلٌ) مبتدأ، سوّغه التقسيم. (نَوْعَانِ) أحدهما: (مَا قَدْ يُشْرَعُ) بالبناء للمفعول؛ أي: مشروع (يَرْضَاهُ رَبُّنَا) ـ سبحانه ـ (وَ)ثانيهما: (مَا قَدْ يُمْنَعُ) بالبناء للمفعول أيضاً.

(فَأَوَّلٌ:)؛ أي: المشروع، (مَا)؛ أي: التوسّل الذي (كَانَ بِالأَسْمَاءِ) الحسنى (أَوْ صِفَاتِهِ) العلى، (أَوْ فِعْلِهِ) تعالى (كَمَا رَأَوْا)؛ أي: كما اعتقد مشروعيّة ذلك العلماء، (أَوْ) للتنويع؛ أي: أو التوسّل بـ(صَالِحِ الأَعْمَالِ) كما وقع ذلك لأصحاب الكهف الذين أطبقت عليهم الصخرة باب الكهف، كما هو مذكور في «الصحيحين»، (أَوْ بِدَعْوَة تَأْتِيكَ مِن صَالِحِ)؛ أي: من رجل هو صالحُ (قَوْمٍ خِيرَةِ) بكسر فسكون، أو كسر ففتح؛ كعِنَبَة[1]، والأول هو المتعيّن هنا للوزن: اسم من الاختيار؛ أي: مختارين.

والمعنى: أن من الشفاعة المشروعة أن تتشفّع بدعوة رجل صالح يدعو لك، فذاك جائز، ففي «صحيح مسلم» عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً: **«دُعَاءُ الْمُسْلِمِ يُسْتَجَابُ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، عِندَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، مَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ إِلَّا قَالَ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»**.

(أَمَّا) التَّوَسُّل (الَّذِي مُنِعَ فَهْوَ: مَا عَدَا ذَلِكَ، مِمَّا لَيْسَ فِي شَرْعِ الْهُدَى)؛ أي: مما لم يشرعه الله تعالى في شريعته الهادية لكلّ العباد إلى طريق الرشاد.

٣٩٤ ـ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ: أَنَّ الْبَرَكَهْ مِنْ عِندِ رَبِّنَا، فَحَقِّقْ مَسْلَكَهْ

---

(١) راجع: «القاموس المحيط» ص٤٠٦.

٣٩٥ - أَمَّا التَّبَرُّكُ بِآثَارٍ فَقَدْ ثَبَتَ لِلنَّبِيِّ خَيْرِ مَنْ عَبَدْ

٣٩٦ - بِهِ تَبَرَّكَ الصِّحَابُ الْبَرَرَهْ أَمَّا لِغَيْرِهِ عُمُوماً لَمْ نَرَهْ

٣٩٧ - لَمْ يَتَبَرَّكْ أَحَدٌ بِالْخُلَفَا وَلَا بِغَيْرِهِمْ، فَجَانِبْ مَا جَفَا

٣٩٨ - كُلُّ ذَرِيعَةٍ إِلَى الشِّرْكِ وَجَبْ سَدٌّ لَهَا؛ فَالشِّرْكُ حَقّاً يُجْتَنَبْ

٣٩٩ - إِذِ الْوَسَائِلُ لَهَا قَدْ يَثْبُتُ مَا لِلْمَقَاصِدِ، فَخُذْ مَا أَثْبَتُوا

***

(صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ) ﷺ (أَنَّ الْبَرَكَه مِنْ عِندِ رَبِّنَا) أشار به ما أخرجه النسائيّ في «سننه» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبيّ ﷺ، فلم يجدوا ماء، فأُتي بِتَوْر، فأدخل يده، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، ويقول: «**حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ عز وجل**».

(فَحَقِّقْ مَسْلَكَه)؛ أي: طريق حصول البركة من الله تعالى، (أَمَّا التَّبَرُّكُ بِآثَارٍ) حاصلة من الخلق (فَقَدْ ثَبَتَ لِلنَّبِيِّ) ﷺ. **وقوله:** (خَيْرِ مَنْ عَبَد) صفة لـ«النبيّ»، (بِهِ تَبَرَّكَ الصِّحَابُ الْبَرَرَه) رضي الله عنهم، ففي «صحيح البخاريّ»: «وَمَا تَنَخَّمَ النَّبِيُّ ﷺ نُخَامَةً، إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ»، وفيه أيضاً: «وَإِذَا تَوَضَّأَ النَّبِيُّ ﷺ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ». (أَمَّا لِغَيْرِهِ) ﷺ (عُموماً لَمْ نَرَه)؛ أي: لم يثبت تبرّك بعض الناس ببعض فـ(لَمْ يَتَبَرَّكْ أَحَدٌ بِالْخُلَفَا)ء الراشدين رضي الله عنهم (وَلَا بِغَيْرِهِم) من الصحابة، فمَنْ بَعْدَهم، (فَجَانِبْ مَا جَفَا)؛ أي: ابتعد عن البدع والمخالفات، يقال: جفوت الرجلَ أجفوه: أعرضت عنه، أو طردته، وهو مأخوذ من جُفَاء السيل،

وهو ما نفاه السيل، وقد يكون مع بغض. قاله في «المصباح»[1].

فعليك ـ أيها العاقل الحريص على دينه ـ أن تبتعد عن التوسل، والتبرك بما لم يثبت في الشرع، فقد ذمّ الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

(كُلُّ ذَرِيعَةٍ)؛ أي: وسيلة **(إِلَى الشِّرْكِ وَجَب سَدٌّ لَهَا)**؛ يعني: أن كلَّ ذريعة إلى الشرك في عبادة الله تعالى يجب سدّها، وقَطْع الطريق الموصل إليها، **(فَالشِّرْكُ حَقّاً يُجْتَنَب)** بالبناء للمفعول؛ أي: الشرك بجميع أنواعه يجب اجتنابه، والابتعاد عنه، **(إِذِ الْوَسَائِلُ لَهَا قَدْ يَثْبُتُ مَا لِلْمَقَاصِدِ)**؛ يعني: أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فكما أنه يجب تجنّب الشرك، فكذلك يجب تجنب كل ما يوصل إليه، **(فَخُذْ مَا أَثْبَتُوا)**؛ أي: ما قرَّره أهل العلم، ولا سيما في هذا الباب، فهم أهم أبواب العقيدة، فإن علم العقيدة ما وُضع إلا للحفاظ على التوحيد، وإبطال الشرك، وسدّ طرقه. والله تعالى أعلم.

٤٠٠ ـ وَوَالِ مُـؤْمِـنـاً، وَعَـادِ كَـافِـرَا   فَـمِـنْ أُصُـولِ الـدِّيـنِ ذَا تَـقَـرَّرَا
٤٠١ ـ فَمَن يُوالِي غَيْرَ أَهْلِ الْـمِلَّةِ   قَـدْ هَـدَمَ الـدِّيـنَ بِـغَـيْـرِ مِـرْيَـةِ
٤٠٢ ـ وَأَطْوَعُ الـنَّـاسِ هُـوَ الأَوْلَـىٰ بِـذَا   هُـمُ الصَّـحَابَةُ وَمَن قَدِ احْتَذَىٰ

(وَوَالِ) من الموالاة، وهي المناصرة، **(مُؤْمِناً، وَعَادِ)** من المعاداة، وهي اتخاذه عدوّاً، **(كَافِرَا، فَمِنْ أُصُولِ الدِّينِ ذَا)**؛ أي:

(١) «المصباح المنير» ١/ ١٠٤.

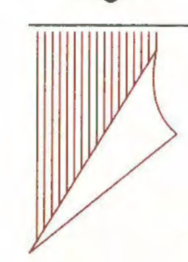
المذكور، من الموالاة والمعاداة (تقَرَّرَا) بألف الإطلاق؛ أي: ثبت؛ يعني: أن موالاة أهل الإيمان، ومعاداة أهل الكفر من أصول الدين، ومن شُعَب الإيمان.

(فَمَن يُوالِي غَيْرَ أَهْلِ الْمِلَّةِ) الإسلاميّة من اليهود والنصارى وغيرهم، (قَدْ هَدَمَ الدِّينَ بِغَيْرِ مِرْيَةِ)؛ أي: شك ومنازعة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

(وَأَطْوَعُ النَّاسِ)؛ أي: من كان أطوع الناس لله تعالى، (هُوَ الأَوْلَى بِذَا)؛ أي: بأن يُوَالَى ويناصر، و(هُمُ الصَّحَابَةُ) رضي الله عنهم (وَمَن قَدِ احْتَذَى)؛ أي: اقتدى بهم.

والمعنى: أن أولى الناس بالموالاة أطوعهم لله تعالى، وهم بعد الرسل عليهم السلام أصحاب رسول الله ﷺ، ثم من تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الْخَامِسَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِالْأُلُوهِيَّةِ

٤٠٣ ـ وَبِالْأُلُوهِيَّةِ إِن تُؤْمِنْ حَصَلْ ... آثَارُهَا دُنْيَا وَبِالْأُخْرَى اتَّصَلْ

٤٠٤ ـ أَمَّا بِذِي الدُّنْيَا: حَيَاةٌ طَيِّبَهْ ... أَيْ: بِالْعُبُودِيَّةِ أَعْلَى الْمَرْتَبَهْ

٤٠٥ ـ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ ذُقْتَ، تَأْنَسُ ... بِرَبِّكَ الْعَلِيِّ، نِعْمَ الْمَأْنَسُ

٤٠٦ ـ وَتَطْمَئِنُّ النَّفْسُ بِالتَّوَكُّلِ ... فَتَتَعَلَّقُ بِرَبِّهَا الْعَلِي

٤٠٧ ـ وَحَقَّقَتْ عِبَادَةَ الْقُلُوبِ ... وَخَضَعَتْ لِعَالِمِ الْغُيُوبِ

٤٠٨ ـ فَيَحْصُلُ اسْتِخْلَافُهَا فِي الْأَرْضِ ... وَمُكِّنَتْ فِي كُلِّ حَالٍ مَرْضِي

٤٠٩ ـ وَبَعْدَ ذَا يَنَالُ حُسْنَ الْخَاتِمَهْ ... يَلْقَىٰ إِلَٰهَهُ بِدُونِ لَائِمَهْ

٤١٠ ـ يُكْرَمُ فِي أُخْرَاهُ: بَالثَّبَاتِ فِي ... سُؤَالِهِ فِي الْقَبْرِ بِالْحَقِّ الْوَفِي

٤١١ ـ يَنجُو مِنَ الْعَذَابِ، يَأْمَنُ الْفَزَعْ ... يَوْمَ يَنَالُ النَّاسَ هَوْلٌ وَجَزَعْ

٤١٢ ـ وَسَيِّئَاتُهُ تُكَفَّرُ، وَجَازْ ... عَلَى الصِّرَاطِ بَعْدُ بِالْجَنَّةِ فَازْ

٤١٣ ـ وَفَوْقَ كُلِّ ذَا رِضَا الرَّبِّ عَلَا ... أَكْبَرُ نِعْمَةٍ بِجَنَّةِ الْعَلَا

***

(وَبِالْأُلُوهِيَّةِ إِن تُؤْمِنْ حَصَل) لك (آثَارُهَا) الطيّبة المباركة، (دُنْيَا)؛ أي: في هذه الدنيا، (وَبِالأُخْرَى) متعلّق بـ(اتَّصَلْ)؛ أي: اتّصل هذا الخير بالآخرة، فلا يكون قاصراً بالدنيا فقط.

(أَمَّا) الآثار المتعلقة (بِذِي الدُّنْيَا) فهي (حَيَاةٌ طَيِّبَه؛ أَيْ:)

تفسيريّة، (بِـ)ـتحقيق (الْعُبُودِيَّةِ) لله تعالى التي هي (أَعْلَى الْمَرْتَبَه) للعبد، ولكونها أعلى المراتب وَصَف الله تعالى نبيّه ﷺ بها في مقام التشريف، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

ومن آثارها أيضاً: أنك (حَلَاوَةَ الإِيمَانِ) مفعول مقدَّم لـ(ذُقْتَ)؛ أي: تذوَّق طَعْم الإيمان وحلاوته.

(وَ)منها أيضاً: أنك (تَأْنسُ بِرَبِّكَ الْعَلِيِّ)؛ أي: تجد الأُنس بالله تعالى، (نِعْمَ الْمَأْنسُ)؛ أي: نعم الأنس هو، (وَتَطْمَئِنُّ النَّفْسُ بِالتَّوَكُّلِ)؛ أي: بحسن التوكّل على الله تعالى، والاعتماد عليه، (فَتَتَعَلَّقُ بِرَبِّهَا الْعَلِي) دون الأسباب، (وَحَقَّقَتْ عِبَادَةَ الْقُلُوبِ) من المحبّة لله، والخشية، والتواضع، والقضاء بقدره، وغير ذلك. (وَخَضَعَت) القلوب (لِعَالِمِ الْغُيُوبِ) ـ سبحانه ـ (فَيَحْصُلُ اسْتِخْلَافُهَا)؛ أي: استخلاف أصحاب القلوب الخاضعة لله ﷻ (فِي الأَرْضِ، وَمُكِّنَتْ) بالبناء للمفعول، (فِي كُلِّ حَالٍ مَرْضِي) في الدين، على مقتضى وَعْده ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ الآية [النور: ٥٥].

(وَبَعْدَ) هـ(ذَا) كله (يَنَالُ حُسْنَ الْخَاتِمَه) من إضافة الصفة للموصوف، الخاتمة الحسنى، وهي الموت على الإسلام والإيمان، (يَلْقَى إِلهَهُ) سبحانه (بِدُونِ لَائِمَه)؛ أي: دون أن يكون عليه لوم بتقصيره في العبوديّة، (يُكْرَمُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يُكْرِمه الله تعالى

(فِي أُخْرَاهُ)؛ أي: في آخرته، من القبر وما بعده، **(بَالثَّبَاتِ فِي سُؤَالِهِ فِي الْقَبْرِ بِالْحَقِّ الْوَفِي)**؛ أي: الكامل، فقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله في «مسنده» من حديث البراء رضي الله عنه الطويل، وفيه: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَن صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ». قال: «فَيَأْتِيهِ مِن رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قال: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي...» الحديثَ، حديث صحيح.

(يَنجُو مِنَ الْعَذَابِ)؛ أي: من عذاب القبر فما بعده، **(يَأْمَنُ)** بفتح أوله وثالثه، من باب فَهِمَ، **(الْفَزَع)**؛ أي: الخوف، **(يَوْمَ يَنَالُ النَّاسَ هَوْلٌ)**؛ أي: خوف. **وقوله: (وَجَزَع)** بفتحتين، خلاف الصبر، وبابه كفرح، فعَطْفه على ما قبله من عَطْف المؤكّد.

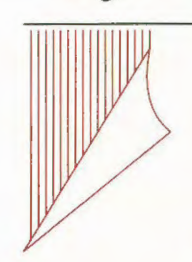
(وَسَيِّئَاتُهُ تُكَفَّرُ)؛ أي: ومن ثمرات الإيمان بالألُوهِيَّة أيضاً: تكفير سيّئات المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال أيضاً: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: ١٦].

(وَجَازْ عَلَى الصِّرَاطِ)؛ يعني: أنه يتجاوز الصراط، **(بَعْدُ)** بالبناء على الضمّ؛ لِقَطْعه عن الإضافة ونيّة معناها؛ أي: بعد ما تقدّم من أنواع الإكرام، والظرف متعلّق بـ«فاز». **(بِالْجَنَّةِ فَازْ)**؛ أي: ظفر بجنة الفردوس، **(وَفَوْقَ كُلِّ ذَا)**؛ أي: الذي ذكرناه من الإكرام، والظرف خبر مقدّم **لقوله: (رِضَا الرَّبِّ)** جلّ و**(عَلَا)**؛ يعني: أن رضا الله ـ سبحانه ـ أعظم نعمة تفوق كلّ ما ذُكر من النعم، وهذا إشارة إلى ما أخرجه الشيخان في «صحيحيهما» من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِن ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِن ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً**».

وقوله: (أَكْبَرُ نِعْمَةٍ) خبر لمحذوف؛ أي: هو أكبر نعمة حاصلة **(بِجَنَّةِ الْعَلَا)**؛ أي: فيها، فالباء بمعنى «في»، و«العلاء» بالفتح والمدّ، بمعنى: الشرف، قُصر للوزن، ويَحْتَمِل أن يكون بضمّ العين والقصر: جمع عُليا؛ ككُبْرى وكُبَر، وهو خلاف السُّفْل، وأصل العلياء: كلّ مكان مُشْرِف؛ أي: مرتفع. والله تعالى أعلم بالصواب.

❀ ❀ ❀

الْفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ عليهم السلام

الملائكة: جمع مَلَك: مشتق من لفظ الأُلُوك، وهي الرسالة، وأصله: ملأك، ووزنه: مَعْفَل، فنُقلت حركة الهمزة إلى اللام، وسقطت، فوزنه: مَعَلٌ، فإن الفاء هي الهمزة وقد سقطت، وقيل: مأخوذ من لأَك: إذا أرسل، فمَلأَكٌ: مَفْعَلٌ، فنُقلت الحركة، وسقطت الهمزة، وهي عين، فوزنه: مَفَلٌ، وقيل فيه غير ذلك. أفاده في «المصباح»(١).

٤١٤ ـ ثُمَّتَ أَن تُؤْمِنَ بِالْمَلَائِكَهْ ... حَتْمٌ أَتَىٰ فِي الْآيَةِ الْمُبَارَكَهْ

٤١٥ ـ هُمُ عِبَادُ اللَّهِ مَخْلُوقُونَ مِنْ ... نُورٍ، وَمُكْرَمُونَ بِالْفَضْلِ الْقَمِنْ

٤١٦ ـ لَيْسَ لَهُمْ أَكْلٌ، وَلَا شُرْبٌ، وَلَا ... تَنَاكُحٌ؛ فَلَا تَرَىٰ تَنَاسُلَا

٤١٧ ـ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْإِلَـٰهِ فُطِرُوا ... فَعَن قِيَامِهِم بِهَا مَا فَتَرُوا

٤١٨ ـ نُؤْمِنُ بِالْإِجْمَالِ فِيمَنْ أُجْمِلُوا ... أَمَّا الْمُفَصَّلُونَ قُلْ: نُفَصِّلُ

٤١٩ ـ مِنْهُم مُوَكَّلٌ بِوَحْيٍ، أَوْ مَطَرْ ... أَوْ صُورٍ، اوْ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْبَشَرْ

٤٢٠ ـ مُوَكَّلٌ بِالنَّارِ، أَوْ زَبَانِيَهْ ... خَزَنَةٌ لِلْجَنَّةِ الثَّمَانِيَهْ

٤٢١ ـ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَمِنْهُمْ حَفَظَهْ ... وَغَيْرُ هَـٰؤُلَا لَدَىٰ مَنْ حَفِظَهْ

٤٢٢ ـ هُمْ أَوْلِيَاءُ الْمُؤْمِنِينَ صِدْقَا ... يُبَجِّلُونَهُمْ كَمَا جَا حَقَّا

---

(١) «المصباح المنير» ١/١٨.

٤٢٣ ـ إِذْ يُكْرِمُونَهُم بِالِاسْتِغْفَارِ وَبِالصَّلَاةِ، وَالدُّعَاءِ الْجَارِي

٤٢٤ ـ وَمَن يَكُونُ مُؤْمِناً بِهِمْ عُصِمْ مِنَ الْخُرَافَاتِ، وَمِن وَهْمٍ يَهِمْ

***

وقوله: (ثُمَّتَ) هي «ثُمَّ» العاطفة، زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ، (أَن تُؤْمِنَ) بتاء الخطاب للمكلّف، أو بالنون؛ أي: نحن المكلّفون، (بِالْمَلَائِكَه) الكرام عليهم السلام (حَتْمٌ)؛ أي: واجب محتوم لا يُترخّص فيه؛ لأنه (أَتَى فِي الآيَةِ الْمُبَارَكَه)؛ أي: في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

(هُمُ)؛ أي: الملائكة عليهم السلام، مبتدأ، خبره **قوله:** (عِبَادُ اللهِ) تعالى، (مَخْلُوقُونَ مِن نُورٍ)؛ أي: خلقهم الله عز وجل من نور، (وَمُكْرَمُونَ بِالْفَضْلِ الْقَمِن) بفتح فكسر؛ أي: الحقيق والخليق بهم، وهذا إشارة إلى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

(لَيسَ لَهُمْ أَكْلٌ، وَلَا شُرْبٌ، وَلَا تَنَاكُحٌ)؛ أي: تزاوج، (فَلَا تَرَى تَنَاسُلَا)؛ أي: ليس لهم ذرّيّة، (عَلَى عِبَادَةِ الْإِلهِ) متعلّق بـ(فُطِرُوا) بالبناء للمفعول؛ أي: فطرهم الله تعالى، وسخّرهم لعبادته تعالى (فَعَن قِيَامِهِم بِهَا)؛ أي: بالعبادة، (مَا فَتَرُوا)؛ أي: لم ينقطعوا عنها، يقال: فَتَر عن العمل فُتوراً، من باب قَعَد: انكسرت حِدَّته، ولان بَعْدَ شِدّته، ومنه: فَتَر الحرّ: إذا انكسر فترةً، وفُتوراً، وطَرْفٌ فاترٌ ليس

بحديد، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]؛ أي: على انقطاع بعثتهم، واندراس أعلام دينهم. قاله في «المصباح»[(١)].

(نُؤْمِنُ)؛ أي: نصدّق (بِالإِجْمَالِ فِيمَنْ أُجْمِلُوا) بالبناء للمفعول؛ أي: بالملائكة الذي ورد ذكرهم بالإجمال، (أَمَّا الْمُفَصَّلُونَ)؛ أي: الذين وَرَدَ ذِكرهم بالتفصيل، (قُلْ: نُفَصِّلُ)؛ أي: نؤمن بهم بالتفصيل.

(مِنْهُمْ)؛ أي: بعض الملائكة، (مُوَكَّلٌ بِوَحْيٍ)؛ أي: بإبلاغ الوحي إلى الرسل، (أَوْ مَطَر)؛ أي: بإنزال المطر إلى الأرض، (أَوْ صُورٍ)؛ أي: أو النفخ في الصُّور، (اوْ بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْبَشَرْ) وغيرهم، ومنهم (مُوَكَّلٌ بِالنَّارِ)؛ أي: بعضهم مُوَكَّل بنار جهنم، (أَوْ زَبَانِيَه)؛ أي: بعضهم زبانية، من الزَّبْن، وهو: الدَّفع؛ سُمُّوا بذلك لأنهم يدفعون أهل النار إليها[(٢)]. (خَزَنَةٌ)؛ أي: بعضهم خزنة، جمع خازن، وهو: الحارس، (لِلْجَنَّةِ الثَّمَانِيَه، حَمَلَةُ الْعَرْشِ)؛ أي: بعضهم يحملون العرش العظيم، (وَمِنْهُمْ حَفَظَه) جمع حافظ؛ أي: يحفظون العباد، وأفعالهم، (وَغَيْرُ هَؤُلَا) بالقصر للوزن، (لَدَى مَنْ حَفِظَه)؛ أي: عند من حفظ أصنافهم من أهل العلم، (هُمْ)؛ أي: الملائكة، (أَوْلِيَاءُ الْمُؤْمِنِينَ صِدْقَا)؛ أي: ولاية صدق، (يُبَجِّلُونَهُمْ) من التبجيل؛ أي: يعظمونهم، (كَمَا جَا) بالقصر، لغة في جاء، (حَقًّا)؛ أي: مجيء حقّ، (إِذْ يُكْرِمُونَهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَبِالصَّلَاةِ). **وقوله:** (وَالدُّعَاءِ) عَطْف تفسير لـ«الصلاة»؛ لأن صلاة الملائكة معناها الدعاء. **وقوله:** (الْجَارِي) صفة للدعاء.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٦١.

(٢) «المصباح المنير» ١/ ٢٥١.

وهـذا إشـارة إلـى قـولـه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩﴾ [غافر: ٧ ـ ٩].

(وَمَن) موصولة؛ أي: الشخص الذي **(يَكُونُ مُؤْمِناً بِهِمْ)**؛ أي: بالملائكة، **(عُصِم)** بالبناء للمجهول؛ أي: حُفِظ **(مِنَ الْخُرَافَاتِ)**؛ أي: من الأكاذيب، وأصل الْخُرافة كما في «القاموس»: رجل من عُذْرة استهوته الجنّ، فكان يُحدّث بما رأى، فكذّبوه، وقالوا: حديث خُرافة، أو هي حديث مستملح كذِبٌ. انتهى[(١)].

(وَ)عُصم أيضاً **(مِنْ وَهْم)** بفتح فسكون؛ أي: خَطَر القلب، والمراد: الخَطَر الفاسد، **وقوله: (يَهِمْ)**؛ أي: يَرِد ويتردد إلى قلبه.

وحاصل مسألة الملائكة عليهم السلام: ما ذكره شارح «الطحاويّة» حيث قال:

وأما الملائكة فهم الموكّلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤﴾ [الذاريات: ٤]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان، وأتباع الرسل.

---

(١) «القاموس المحيط» ص٣٦٢.

وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دلَّ الكتاب والسُّنَّة على أصناف الملائكة، وأنها موكّلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وَكَّلَ بالجبال ملائكةً، ووَكَّلَ بالسحاب والمطر ملائكةً، ووَكَّل بالرَّحْمِ ملائكةً تُدَبِّر أمر النُّطْفَة حتى يَتِمَّ خَلْقُها، ثم وَكَّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووَكَّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكّل بالجنة وعمارتها وغرسها وعَمَل آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاً، والناشرات نشراً، والفارقات فرقاً، والملقيات ذِكراً. ومنهم: النازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً، فالسابقات سبقاً. ومنهم: الصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً.

ومعنى جَمْع التأنيث في ذلك كله: الفِرَق والطوائف والجماعات، التي مفردها: «فرقة» و«طائفة» و«جماعة».

ومنهم: ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وُكّلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ «الملَك» يشعر بأنه رسول منفِّذ لأمر مرسِله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره:

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أُمر به، لا يقصر عنه، ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقَطْر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصُّور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خَلْقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، يُنَزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أَطَّتِ السماوات بهم، وحُقّ لها أن تَئِطّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك قائم، أو راكع، أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه، آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يَقْرُن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حَفّهم بالعرش وحَمْلهم له، ومراتبهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص. قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم؛ فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، ويُنسب إلى أهل السُّنَّة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة، وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضّل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً، وحُكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السُّنَّة وبعض الصوفية. وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة، ومن الناس من فضَّل تفضيلاً آخر، ولم يقل أحد ممن له قول يُؤْثَر إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة، لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعني، و«**مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ**».

والشيخ ـ يعني: الطحاويّ رَحِمَهُ اللهُ ـ لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً؛ فإن الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ اللهُ وقف في الجواب عنها على ما ذكره في «مآل الفتاوى»، فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعَدَّ منها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء.

وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أيّ الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجبات لبُيِّن لنا نصّاً، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الصحيح[(١)]: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ ـ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ ـ فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا**». فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفياً وإثباتاً ـ والحالة هذه ـ أولى.

ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبَطة من الكتاب والسُّنَّة؛ لأن الأدلة هنا متكافئة، على ما أشير إليه ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وحملني على بَسْط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملَك خادماً للنبيّ ﷺ! أو: إن بعض الملائكة

---

(١) قال محمد ـ عفا الله عنه ـ: هذا الإطلاق فيه نظر؛ لأن الحديث متكلّم فيه، فتنبّه.

خُدَّامُ بني آدم!! يعنون: الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع، المجانبة للأدب، والتفضيل إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس لا شك في ردّه.

وليس هذه المسألة نظير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وُجد فيها نصّ، وهو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ: «وسيد المرسلين»؛ يعني: النبيّ ﷺ.

والمعتبَر: رجحان الدليل، ولا يُهْجَر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه، بعد أن تكون المسألة مختلفاً فيها بين أهل السُّنَّة، وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول أولاً بتفضيل الملائكة على البشر، ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله.

والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل، لا على الأفضلية، ولا نزاع في ذلك.

وللشيخ تاج الدين الفزاري رحمه الله مصنَّف سمّاه «الإشارة في البشارة في تفضيل البشر على الملَك»، قال في آخره: اعلم أن هذه المسألة من بِدع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا مَن بعدَهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنَّفات هذا الشأن، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلِّم فيها من علماء الظاهر بعلمه، لم يَخْل كلامه عن ضَعف واضطراب. انتهى، والله الموفق للصواب.

فمما استُدلّ به على تفضيل الأنبياء على الملائكة: أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وذلك دليل على تفضيله عليهم، ولذلك امتنع إبليس واستكبر، وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]. قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالاً لأمر ربهم، وعبادة وانقياداً وطاعة له، وتكريماً لآدم وتعظيماً، ولا يلزم من ذلك الأفضلية، كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه عليهما السلام تفضيل ابنه عليه، ولا تفضيل الكعبة على بني آدم بسجودهم إليها امتثالاً لأمر ربهم.

وأما امتناع إبليس، فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه، وهذه المقدمة الصغرى، والكبرى محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول! وكلتا المقدمتين فاسدة:

أما الأُولى: فإن التراب يفوق النار في أكثر صفاته، ولهذا خان إبليس عنصره، فأبى واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة، وإفساد ما تصل إليه ومَحْقه وإهلاكه وإحراقه، ونَفَع آدم عنصره، في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب: الثبات والسكون والرصانة، والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبت ويزكو، وينمي ويبارَك فيه، ضد النار.

وأما المقدمة الثانية ـ وهي: أن الفاضل لا يسجد للمفضول ـ فباطلة، فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لِحَجَر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد، وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه،

وإنما يدل على فضله. قالوا: وقد يكون قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] بعد طرده لامتناعه عن السجود له، لا قبله، فينتفي الاستدلال به.

ومنه: أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات، والأنبياء لهم عقول وشهوات، فلما نَهَوْا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع، كانوا بذلك أفضل.

وقال الآخرون: يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة، وتحمل العبادة، وترك الوَنَى والفتور فيها، ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم، مع طول مدة عبادة الملائكة.

ومنه: أن الله تعالى جعل الملائكة رسلاً إلى الأنبياء، وسفراء بينه وبينهم.

وهذا الكلام قد اعتَلّ به من قال: إن الملائكة أفضل، واستدلالهم به أقوى، فإن الأنبياء المرسلين، إن ثبت تفضيلهم على المرسَل إليهم بالرسالة، ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فإن الرسول الملكي يكون رسولاً إلى الرسول البشري.

ومنه: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ الآيات [البقرة: ٣١]. قال الآخرون: وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علّمهم الله، وليس الخَضِر أفضل من موسى بكونه عَلِم ما لم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم إلى الخضر، وتزوَّد لذلك، وطلب موسى منه العلم صريحاً، وقال له الخضر: إنك على علم من علم الله، إلى آخر كلامه. ولا الهدهد أفضل من سليمان عليه السلام بكونه أحاط بما لم يُحط به سليمان عِلْماً.

ومنه: قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا لزم تفضيله على محمد ﷺ.

فإن قلتم: هو من ذريته؟ فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم: «**ابْعَثْ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إِلَى النَّارِ**» يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحداً إلى الجنة، فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط؟

ومنه: قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: «ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد ﷺ» الحديث. فالشأن في ثبوته، وإن صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يَحْتَمِلِ أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ: يَا رَبَّنَا، أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنْيَا يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَيَلْبَسُونَ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ، وَلَا نَأْكُلُ وَلَا نَشْرَبُ وَلَا نَلْهُو، فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنْيَا فَاجْعَل لَنَا الآخِرَةَ. قَالَ: لَا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ كَمَن قُلْتُ لَهُ: كُن فَكَانَ**». أخرجه الطبراني. وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم، أنه قال: أخبرني الأنصاري، عن النبي ﷺ: «**أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالُوا...**» الحديث، وفيه: «**وَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: لَا، فَأَعَادُوا الْقَوْلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا**».

والشأن في ثبوتهما، فإن في سنديهما مقالاً، وفي متنهما شيئاً، فكيف يُظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوقون إلى ما سواها من شهوات بني آدم؟ والنوم أخو الموت، فكيف يغبطونهم به؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل؟ قالوا: بل الأمر بالعكس، فإن إبليس إنما وسوس إلى آدم ودلّاه بغرور، إذ أطمعه في أن يكون مَلَكاً بقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فدل أن أفضلية المُلك أمر معلوم مستقر في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطّعن أيديهن عند رؤية يوسف: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال الأولون: إن هذا إنما كان لِمَا هو مَرْكُوزٌ في النفس: أن الملائكة خَلْقٌ جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلة، خصوصاً العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً.

ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣]. قال الآخرون: قد يذكر «العالمين»، ولا يقصد به العموم المطلق، بل في كل مكان بحَسَبه، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥]، ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: ٧]، والبريئة: مشتقة من البَرْءِ، بمعنى:

الخلق، فثبت أن صالحي البشر خير الخلق. قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة في هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيراً من الملائكة. هذا على قراءة من قرأ «البريئة» بالهمز، وعلى قراءة من قرأ بالياء إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة.

وإن قلنا: إنها نسبة إلى البَرَى، وهو التراب ـ كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في «الصحاح» ـ يكون المعنى: أنهم خير من خُلِقَ من التراب، فلا عموم فيها؛ إذ الغير مَنْ خُلق مِن التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحَبَاهم الرحمٰن بمزيد قُرْبِه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم. وقال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها؟ فإن كان قد ثبت أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سَلِم المدعى، وإلا فلا.

ومما استُدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه؛ لأنه لا يجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك، ولا الشرطي أو الحارس! وإنما يقال: لن يستنكف الشرطي أن يكون خادماً للملك ولا الوزير. ففي مثل هذا التركيب يُتَرَقَّى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت

تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره، إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

أجاب الآخرون بأجوبة، أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعِظَم خلقه، وفي العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام لا يستنكف عنها، ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خَلْقاً، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه: قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ومثل هذا يقال بمعنى: إني لو قلت ذلك لادّعيت فوق منزلتي، ولست ممن يدّعي ذلك. أجاب الآخرون: بأن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأمر أن يقول لهم: إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب، لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه: ما روى مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**»، ومعلوم أن قوة البشر لا تداني قوة الملَك ولا تقاربها. قال الآخرون: الظاهر أن المراد المؤمن من البشر ـ والله أعلم ـ فلا تدخل الملائكة في هذا العموم.

ومنه: ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِندَ ظَنِّ**

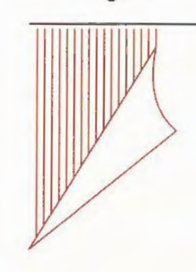
عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِن ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِن ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ» الحديث، وهذا نص في الأفضلية. قال الآخرون: يَحْتَمل أن يكون المراد خيراً منه للمذكور، لا الخيرية المطلقة.

ومنه: ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة، بسنده في كتاب التوحيد، عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ جَاءَ جِبْرَائِيلُ، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَقُمْتُ إِلَى شَجَرَةٍ مِثْلِ وَكْرَيِ الطَّيْرِ، فَقَعَدَ فِي إِحْدَاهُمَا، وَقَعَدْتُ فِي الأُخْرَى، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّتِ الْخَافِقَيْنِ، وَأَنَا أُقَلِّبُ بَصَرِي، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ مَسَّيْتُ، فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرَائِيلَ كَأَنَّهُ حِلْسٌ لَاطِئٌ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بِاللهِ عَلَيَّ». قال الآخرون: في سنده مقال، فلا نسلّم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته.

وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها كما تقدم. والله أعلم بالصواب. انتهى[1].



(١) «شرح الطحاوية» ص٢٧٩ ـ ٢٨٩.




الْفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِوُجُودِ الْجِنِّ

٤٢٥ ـ وَبِوجُودِ الْجِنِّ وَالشَّيْطَانِ   إِيمَانُنَا حَقٌّ، فَخُذْ بَيَانِي

٤٢٦ ـ وَقَبْلَنَا قَدْ خُلِقُوا مِن مَارِجِ   يَرَوْنَنَا وَلَا نَرَىٰ فِي الْخَارِجِ

٤٢٧ ـ وَهُمْ يَمُوتُونَ، وَيَحْيَوْنَ، كَمَا   لَهُمْ تَنَاكُحٌ، وَنَسْلٌ قَدْ نَمَا

٤٢٨ ـ مِنْهُم مَنَ آمَنَ، وَمِنْهُم مَن كَفَرَ   يَصْلَىٰ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ الْمُسْتَقَرّ

(وَبِوجُودِ الْجِنِّ) متعلّق بـ«إيمانُنا»، (وَالشَّيْطَانِ إِيمَانُنَا حَقٌّ)؛ يعني: أن الإيمان بوجود الجن والشياطين حقٌّ ثابت في الكتاب والسُّنَّة؛ لأنه جاء في آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة تذكرهم، وتذكر أوصافهم. **وقوله:** (فَخُذْ بَيَانِي) تتميم للبيت.

(وَقَبْلَنَا)؛ أي: قبل خلق بني آدم، (قَدْ خُلِقُوا) بالبناء للمفعول؛ أي: خلقهم الله تعالى قبل خلقنا، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧].

وقوله: (مِن مَارِج)؛ أي: خُلقوا من مارج، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمٰن: ١٥]، والمارج: هو اللهب الصافي الذي لا دخان فيه، وقيل: المختلِط بسواد النار، من مَرَج الشيءُ: إذا اضطرب واختلط. وقوله: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ هو بيان

لـ ﴿مَّارِجٍ﴾ كأنه قيل: من صافٍ من نار، أو مختلط من نار، أو أراد: من نار مخصوصة. قاله النسفيّ رَحِمَهُ اللَّهُ(١).

(يَرَوْنَنَا)؛ أي: إن الجن والشياطين يرون بني آدم، (وَلَا نَرَى فِي الْخَارِجِ)؛ أي: لا نراهم نحن على ظاهر الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

(وَهُمْ يَمُوتُونَ، وَيَحْيَوْنَ)؛ أي: يموت بعضهم، ويحيى بعضهم؛ كالناس، وسائر الحيوانات. (كَمَا لَهُمْ تَنَاكُحٌ)؛ أي: كما ثبت لهم مناكحة، (وَنَسْلٌ)؛ أي: ذرّيّةٌ، (قَدْ نَمَا)؛ أي: كثر، صفة لـ«نسل».

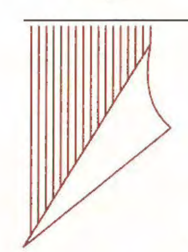
(مِنْهُمْ مَنَ امَنَ) بنقل حركة الهمزة إلى النون، ودَرْجها؛ أي: بعضهم مؤمن، (وَمِنْهُمْ مَن كَفَر)؛ أي: وبعضهم كافر (يَصْلَى جَهَنَّمَ)؛ أي: يموت كافراً، فيدخل جهنم (وَبِئْسَ الْمُسْتَقَرّ) جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].
والله تعالى أعلم.



---

(١) تفسير النسفيّ المعروف بـ«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ٣/ ٤١١.





الْفَصْلُ الثَّامِنَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ

٤٢٩ ـ إِيمَانُنَا بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّلَهْ رُكْنٌ عَظِيمٌ رَافِعٌ لِلْمَنزِلَهْ

٤٣٠ ـ أَنزَلَهَا اللَّهُ عَلَىٰ مَن فَضَّلَهْ كِتَابَةً، أَوْ سَمْعَ مَن قَدْ أَرْسَلَهْ=

٤٣١ ـ مِن مَلَكٍ، أَوْ مِن وَرَاءِ حُجُبِ كُلٌّ كَلَامُ اللَّهِ لَا تَسْتَغْرِبِ

٤٣٢ ـ لِلْعَالَمِينَ حُجَّةٌ وَعُرْوَةُ مَحَجَّةٌ لِلسَّالِكِينَ قُدْوَةُ

٤٣٣ ـ أَوَّلُهَا صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ، قَدْ تَبِعَهَا تَوْرَاةُ مُوسَىٰ إِذْ وَرَدْ

٤٣٤ ـ زَبُورُ دَاوُدَ، وَإِنجِيلُ عَلَىٰ عِيسَىٰ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ نَزَلَا

٤٣٥ ـ آخِرُهَا الْقُرْآنُ أُنزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خَيْرِ نَبِيٍّ أُرْسِلَا

٤٣٦ ـ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ نَذِيرُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً بَشِيرُ

٤٣٧ ـ وَجَحْدُ وَاحِدٍ كَجَحْدِ كُلِّهَا يَا وَيْلَ مَن جَحَدَ مِمَّن سَفِهَا

٤٣٨ ـ اتَّفَقَتْ لَدَىٰ أُصُولِ الدِّينِ وَاخْتَلَفَتْ فِي الْحُكْمِ وَالتَّبْيِينِ

٤٣٩ ـ وَيَنسَخُ اللَّاحِقُ مِنْهَا السَّابِقَا كُلِّيًّا اوْ فِي الْجُزْءِ، فَاقْبَلْ وَاثِقَا

٤٤٠ ـ وَفُقِدَتْ، أَوْ حُرِّفَتْ، غَيْرَ الَّذِي حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ فَاحْتَذِ

٤٤١ ـ هُوَ الْقُرَانُ النَّاسِخُ الْمُهَيْمِنُ الْحَاكِمُ النُّورُ الْمُبِينُ الْآمِنُ

٤٤٢ ـ وَكُلُّهَا وَاجِبَةُ احْتِرَامِ لَا تَقْرَأَن مَخَافَةَ اخْتِرَامِ

٤٤٣ ـ أَمَّا الْقُرَانُ قُلْ: كَلَامُ اللَّهِ لَفْظاً وَمَعْنًى دُونَ الِاشْتِبَاهِ

٤٤٤ ـ مِنْهُ بَدَا، ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، فَثِقْ تَنتَفِعُ

٤٤٥ ـ آمِن بِهِ، وَحَكِّمَنْهُ، وَاعْبُدِ بِهِ إِلَـٰهَكَ لَدَى التَّهَجُّدِ

٤٤٦ ـ رَتِّلْهُ، وَاحْفَظَن، تَدَبَّرْ، وَاعْمَلا بِهِ، وَعَلِّمَن لَهُ كُلَّ الْمَلا

٤٤٧ ـ وَلَيْسَ مُؤْمِناً بِهِ مَن كَذَّبَا شَيْئاً مِنَ اخْبَارِهِ، أَوْ تَجَنَّبَا

٤٤٨ ـ أَوِ اسْتَحَلَّ مِنْهُ مَا حَرَّمَ، أَوْ اِعْتَقَدَ التَّحْرِيفَ، أَوْ نَقْصاً رَأَوْا

❀ ❀ ❀

(إِيمَانُنَا) مبتدأ، خبره «ركنٌ»، (بِالْكُتُبِ الْمُنَزَّله) من عند الله تعالى، (رُكْنٌ عَظِيمٌ) من أركان الإيمان الستّة، (رَافِعٌ لِلْمَنْزِلَه)؛ أي: لدرجة المؤمن بها.

(أَنزَلَهَا اللهُ) تعالى (عَلَى مَن فَضَّلَه) من عباده (كِتَابَةً)؛ أي: حال كونها مكتوبة، كما أنزل الله تعالى التوراة على موسى عليه السلام، (أَوْ سَمْعَ) بالنصب عطفاً على «كتابةً»، وهو مضاف إلى (مَن قَدْ أَرْسَلَه)؛ أي: أو حال كونها مسموعة للرسول (مِن مَلَكٍ)؛ أي: من الملَك الذي جاء بها من عند الله عز وجل، (أَوْ) مسموعة من الله تعالى (مِن وَرَاءِ حُجُب) بضمّتين، جَمْع حجاب، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١].

(كُلٌّ)؛ أي: كل الكتب المنزّلة (كَلَامُ اللهِ) تعالى (لَا تَسْتَغْرِب)؛ أي: لا تجعل ذلك غريباً عليك، كما استغربه الضالّون، فقالوا: ما أنزل الله من شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام: ٩١ ـ ٩٢].

(لِلْعَالَمِينَ حُجَّةٌ) مبتدأ وخبر؛ يعني: أن كلام تعالى حجة للخلق إنسهم وجنّهم، (وَعُرْوَة)؛ أي: هو متمسَّك للخلق، (مَحَجَّةٌ) بالفتح، في الأصل: جادّة الطريق، والمراد هنا: الطريق الواضح الموصل إلى الجنة. (لِلسَّالِكِينَ)؛ أي: لمن يسلكون طريق الآخرة، (قُدْوَةُ) بالضمّ والكسر؛ أي: أُسوةٌ ومُقْتَدًى به، قال في «القاموس»: القُدوة ـ مثلّثةً، وكَعِدَةٍ ـ: ما تَسَنَّنتَ به، واقتديت به. انتهى(١).

وقال في «المصباح»: القُدوة: اسمٌ، مِنِ اقتدى به: إذا فَعل مثل فِعله تأسياً، وفلان قدوة؛ أي: يُقتَدَى به، والضم أكثر من الكسر. قال ابن فارس: ويقال: إن القدوة: الأصل الذي يُتشعب منه الفروع. انتهى(٢).

(أَوَّلُهَا)؛ أي: أول تلك الكتب المنزّلة: (صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ)؛ أي: الصحف التي نزلت على إبراهيم عليه السلام، (قَد تَبِعَهَا)؛ أي: في النُّزول، (تَوْرَاةُ مُوسَى) عليه السلام، و«التوراة» اسم للكتاب الذي نزل على موسى عليه السلام، قيل: مأخوذ من وَرَى الزندُ: إذا خرج ناره، فإنها نورٌ، وضياءٌ، وقيل: من التورية، وإنما قُلبت الياء ألفاً على لغة طيّء، وفيه نظرٌ؛ لأنها غير عربيّة. قاله في «المصباح»(٣).

وقال في «القاموس» و«شرحه»: و«التوراة»: تَفْعِلَة، عند أبي العباس ثعلب، وهو مذهب الكوفيين، من: وريت بك زِنادي؛ لأنه إضاءة؛ وعند الفارسيّ: فَوْعَلَة، قال: لقلّة تَفْعِلَة في الأسماء، وكثرة

---

(١) «القاموس المحيط» ص١٠٣٥. (٢) «المصباح المنير» ٢/ ٤٩٤.
(٣) «المصباح المنير» ٢/ ٦٥٧.

فَوْعَلَة؛ وتاؤها عن واو؛ لأنها من ورى الزند، إذ هي ضياء من الضلال، وهذا مذهب سيبويه والبصريين وعليه الجمهور؛ وقيل: من وَرَّى؛ أي: عَرَّض؛ لأن أكثرها رموز.

وقال الفراء في كتاب «المصادر»: التوراة من الفعل التفعلة؛ كأنها أُخذت من: أوريت الزناد ووريت، فتكون تَفْعِلة في لغة طيء؛ لأنهم يقولون في التوصية: توصاة، وللجارية: الجاراة، وللناصية: الناصاة.

ثم نقل المرتضى عن شيخه: أن المحقّقين تعقبوا ما سبق من الأقوال، وقالوا: هو لفظ غير عربيّ، بل هو عَبْرَانيّ اتفاقاً، وإذا لم يكن عربيّاً فلا يُعرف له أصل من غيره، إلا أن يقال: إنهم أجروه بعد التعريب مجرى الكلم العربية، وتصرفوا فيه بما تصرفوا فيها. والله أعلم. انتهى[1].

وقوله: (إِذْ وَرَدْ) ظرف لـ«تبعها»، **(زَبُورُ دَاوُدَ)** «الزَّبُور» بفتح الزاي: اسم للكتاب المنزّل على داود ﷺ، وهو مشتقّ من زَبَرتُ الكتابَ زَبْراً: إذا كتبته، فهو زَبُورٌ، فَعُولٌ بمعنى مَفْعول، ومثل: رَسُول، وجَمْعه: زُبُرٌ ـ بضمتين ـ[2].

(وَإِنجِيلُ) نزل **(عَلَى عِيسَى ﷺ نَزَلَا)** بالبناء للفاعل، خبر لـ«إنجيل»، و«ﷺ» معترض.

قال في «القاموس» و«شرحه»: «الإِنجيل» بالكسر؛ كإِكليل، ويُفتح، وبه قرأ الحسن قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾ [المائدة: ٤٧]،

---

(١) «تاج العروس» ٤٠/ ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) «المصباح المنير» ١/ ٢٥٠.

وليس هذا المثال في كلام العرب، قال الزجاج: ولقائل أن يقول: هو اسم أعجميّ، فلا يُنْكَر أن يقع بفتح الهمزة؛ لأن كثيراً من الأمثلة العجمية تخالف الأمثلة العربية، نحو: آجُر، وإبراهيم، وهابيل، وقابيل، يُذكَّر ويؤنّث، فمن أَنَّثَ أراد الصحيفة، ومن ذَكَّر أراد الكتاب، وهو: اسم كتاب الله المنَزل على عيسى ـ عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام ـ، والجمع: أناجيل.

واختُلف في لفظ الإنجيل، فقيل: اسم عبرانيّ، وقيل: سريانيّ، وقيل: عربّي، وعلى الأخير قيل: مشتق من النجل، وهو الأصل، أو مِن نجلت الشيء؛ أي: أظهرته، أو مِن نَجَله: إذا استخرجه، وقيل غير ذلك.

وحكى شَمِر عن الأصمعيّ: الإنجيل: كل كتاب مكتوب وافر السطور، وهو إفْعِيل من النجل، وقد أوسع الكلام فيه الخَفَاجِيّ في «شفاء الغليل»، وغيره. انتهى[1].

(آخِرُهَا)؛ أي: آخر الكتب المنَزّلة، وهو مبتدأ، خبره **قوله:** **(الْقُرْآنُ)** الكريم، حال كونه **(أُنْزِلَ)** بالبناء للمفعول، **(عَلَى مُحَمَّدٍ)** ﷺ **(خَيْرِ نَبِيٍّ أُرْسِلَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول. **وقوله:** **(لِلْعَالَمِينَ)** خبر مقدّم **لقوله:** «نذير». **وقوله:** **(كُلِّهِمْ)** بالجر على التوكيد، **(نَذِيرُ)**؛ أي: منذِر لهم بعذاب جهنم. **وقوله:** **(لِلْمُؤْمِنِينَ)** خبر مقدّم **لقوله:** «بشير». **وقوله:** **(خَاصَةً)** بتخفيف الصاد للوزن؛ أي: حال كونه مخصوصاً، **(بَشِيرُ)**؛ أي: مبشّر لهم بالجنّة.

---

(١) «تاج العروس» ٣٠/ ٤٥٨.

(وَجَحْدُ وَاحِدٍ)؛ أي: إنكار كتاب واحد من هذه الكتب المنَزّلة، وهو مبتدأ، خبره **قوله**: (كَجَحْدِ كُلِّهَا)؛ يعني: أنَّ من جَحَد بعضها كمن جَحَد كلها، فيكون كافراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

(يَا وَيْلَ)؛ أي: شدّة عذاب (مَن جَحَدَ) بالكتب المنَزّلة وغيرها مِمَّا يجب الإيمان به، (مِمَّن سَفِهَا) بكسر الفاء وضمها، من باب: تَعِبَ وكرُم، ويقال: سفه الحقَّ: بمعنى جهِلَهُ هو؛ أي: ممن كان ناقص العقل، أو جاهلاً للحقّ.

(اتَّفَقَتْ)؛ أي: الكتب المنَزّلة، (لَدَى أُصُولِ الدِّينِ)؛ أي: هي مُتَّحِدَة عند تَحْقِيقِ عقيدة التوحيد، (وَاخْتَلَفَتْ فِي الْحُكْمِ)؛ أي: بيان الحكم التشريعيّ الفرعيّ، (وَالتَّبْيِينِ)؛ أي: توضيح الأحكام، (وَيَنسَخُ) بفتح أوله، مبنيّاً للفاعل، والفاعل **قوله**: (اللَّاحِقُ)؛ أي: الكتاب المتأخّر، (مِنْهَا السَّابِقَا) بألف الإطلاق؛ أي: المتقدّم، (كُلِّيّاً)؛ أي: نسخاً كُلِّيّاً، (اوْ فِي الْجُزْءِ)؛ أي: نسخاً واقعاً في جزئه، (فَاقْبَلْ) أيها المسلم ذلك، حال كونك (وَاثِقَا) بذلك.

(وَفُقِدَتْ) بالبناء للمفعول، كلاحقه؛ أي: فُقِد بعضها، (أَوْ حُرِّفَتْ)؛ أي: حَرَّف الناس بعضها. **وقوله**: (غَيْرَ) منصوب على الاستثناء؛ أي: إلا (الَّذِي حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى)؛ أي: إلا الكتاب الذي تولى الله تعالى حِفظه، وتكفّل به. **وقوله**: (فَاحْتَذِ) تَمَّم به البيتين؛ أي: فَاتَّبع ذلك الكتاب المحفوظ، واعمل به.

ثُمَّ بَيَّن ذلك **بقوله:** (هُوَ الْقُرَانُ) بالنقل، كما هو في القراءة السبعيّة، (النَّاسِخُ) للكتب السابقة، (الْمُهَيْمِنُ)؛ أي: الشاهد لتلك بصحتها وثباتها، (الْحَاكِمُ) بين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، (النُّورُ الْمُبِينُ)؛ أي: الواضح، أو الْمُظْهِر للحقّ، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، (الآمِنُ) من النسخ، والتبديل، والتحريف، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

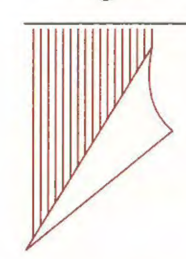
(وَكُلُّهَا)؛ أي: كلّ الكتب المنزّلة (وَاجِبَةُ احْتِرَام) بالحاء المهملة؛ أي: واجب احترامُها وتعظيمُها، (لَا تَقْرَأَن) الكتب السابقة؛ كالتوراة، والإنجيل، (مَخَافَةَ اخْتِرَامِ)؛ أي: خوفاً من نقص شيء منها؛ إذ بدّلوها وحَرَّفوها، فلا يَأْمَن من يقرؤها أن يُسْقِط منها شيئاً، أو يقرأ ما حرّفوه منها، فالواجب أن يحذر من قراءة شيء منها؛ حذراً من ذلك.

(أَمَّا الْقُرَانُ) بالنقل أيضاً، (قُلْ: كَلَامُ اللهِ) تعالى (لَفْظاً وَمَعْنًى دُونَ الِاشْتِبَاهِ)؛ أي: من غير أن يشتبه عليك هذا الحكم، (مِنْهُ بَدَا)؛ أي: من الله تعالى بَدَأ ونَزَل، (ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجِعُ)؛ أي: يعود إلى الله تعالى في آخر الزمان، (لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ) إنما هو صفة من صفات الله ﷻ، (فَثِقْ) أمْر مِن وَثِقَ يثِقُ ـ بالكسر فيهما ـ، يقال: وَثِقَ به يَثِقُ ثِقَةً، ووُثُوقاً: إذا ائتمنه، واعتَمَد عليه، (تَنتفِعُ) به.

(آمِن بِهِ)؛ أي: صدّق بالقرآن، والإيمان به: أن تعتقد أنه منزَّل من عند الله تعالى، وأنه كلامه، ليس بمخلوق، وأنه يجب التمسّك، والعمل به، (وَحَكِّمَنْهُ) بنون التوكيد الخفيفة؛ أي: اجعله حاكماً عليك في كلّ شؤونك، (وَاعْبُدِ بِهِ إِلهَكَ)؛ أي: اعبد الله تعالى بقراءة القرآن (لَدَى التَّهَجُّدِ)؛ أي: عند صلاتك في الليل، (رَتِّلْهُ) بحذف الصلة للوزن؛ أي: اقرأه بالترتيل (وَاحْفَظَنْـ)ـه عن ظهر القلب، (تَدَبَّرْ) معانيه (وَاعْمَلَا بِهِ) بالألف المنقلبة عن نون التوكيد الخفيفة؛ أي: اعمل بما في القرآن من الأحكام، (وَعَلِّمَن لَهُ)؛ أي: أقرئ القرآن (كُلَّ الْمَلَا)؛ أي: كلّ الناس رجالاً ونساء، حرّاً وعبداً، صغيراً وكبيراً.

(وَلَيْسَ مُؤْمِناً بِهِ)؛ أي: بالقرآن، (مَن كَذَّبَا) بألف الإطلاق، (شَيْئاً مِنَ اخْبَارِهِ) بنقل حركة الهمزة إلى النون، ودَرْجها؛ يعني: أنه لا يكون مؤمناً بالقرآن من كذّب شيئاً مما فيه من الأخبار، والقصص، وغير ذلك. (أَوْ تَجَنَّبَا) بألف الإطلاق أيضاً؛ أي: ابتعد عنه، (أَوِ اسْتَحَلَّ مِنْهُ)؛ أي: اعتقد حلّ شيء مـ(ـمَا حَرَّمَـ)ـه القرآن، (أَو اعْتَقَدَ التَّحْرِيفَ) لبعض ألفاظه، (أَو) اعتقد فيه (نَقْصاً) كما تزعم الرافضة ذلك، حيث يزعمون أن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا ما يدلّ على خلافة عليّ رضي الله عنه، وهذا زور وبهتان ممن لا يخاف الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

وقوله: (رَأَوْا)؛ أي: اعتقد العلماء من أهل السُّنَّة والجماعة هذا كلّه. والله تعالى أعلم.

الْفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ عليهم السلام

٤٤٩ ـ مِن جُمْلَةِ الْأَرْكَانِ لِلْإِيمَانِ ... إِيمَانُنَا بِرُسُلِ الدَّيَّانِ

٤٥٠ ـ وَالْأَنبِيَا صَفْوَةُ خَلْقِ اللَّهِ ... قَدْ أَرْشَدُوا الْعِبَادَ لِلْإِلَٰهِ

٤٥١ ـ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِالْإِجْمَالِ ... وَمَا أَتَى التَّفْصِيلُ فِي الْإِنزَالِ

٤٥٢ ـ نُؤْمِنُ بِالتَّفْصِيلِ، ثُمَّ مَن كَفَرْ ... بِبَعْضِهِمْ فَالْكُفْرُ بِالْجَمِيعِ قَرّ

٤٥٣ ـ نُبُوَّةٌ سَابِقَةُ الرِّسَالَةِ ... كِلْتَاهُمَا لَا كَسْبَ بَلْ بِالْهِبَةِ

٤٥٤ ـ كُلُّ رَسُولٍ قُلْ: نَبِيٌّ، وَهُمُ ... بِرَبِّهِمْ ـ جَلَّ وَعَزَّ ـ أَعْلَمُ

٤٥٥ ـ أَعْدَلُهُمْ طَرِيقَةً، وَأَكْمَلُ ... خُلْقاً، وَأَصْدَقُ لِمَا قَدْ نَقَلُوا

٤٥٦ ـ أَصْبَرُهُمْ فِي شِدَّةٍ، وَأَزْهَدُ ... فِي زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَنِعْمَ الْمَزْهَدُ

٤٥٧ ـ وَبَعْضُهُمْ أُوتِيَ مُلْكاً فَلَقَدْ ... ثَبَتَ فِي الْجُودِ وَزُهْدٍ وَالرَّشَدْ

٤٥٨ ـ أَجْرَى الْإِلَٰهُ لَهُمُ الْآيَاتِ ... مُعْجِزَةً تَهْدِي إِلَى الْخَيْرَاتِ

٤٥٩ ـ ثُمَّ انقَضَتْ بِمَوتِهِمْ سِوَى الَّذِي ... أُوتِيَهُ النَّبِيُّ ذُو الْعَرْفِ الشَّذِي

٤٦٠ ـ مُعْجِزَةٌ بَاقِيَةٌ طُولَ الْمَدَىٰ ... يَهْدِي بِهِ اللَّهُ جَمِيعَ السُّعَدَا

٤٦١ ـ قَدْ مَضَتِ الْقُرُونُ مُنذُ نَزَلَا ... فَلَمْ يَجِئْ بِمِثْلِهِ مَنْ حَاوَلَا

٤٦٢ ـ فَلَوْ يَكُونُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ غَدَوْا ... ظَهِيرَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مَا اهْتَدَوْا

٤٦٣ ـ لِمِثْلِهِ فَاللَّهُ حَقّاً رَفَعَهْ ... وَكُلُّ مَنْ عَارَضَهُ قَدْ وَضَعَهْ

قوله: (مِن جُمْلَةِ الأَرْكَانِ لِلإِيمَانِ) خبر مقدّم **لقوله:** (إِيمَانُنَا

بِرُسُلِ الدَّيَّانِ) بتشديد التحتانيّة؛ كشدّاد: هو القهّار، من الدِّين، وهو: القهر، والمُجازي الذي لا يُضيع عملاً بل يجزي بالخير والشر. قاله في «التاج»[1].

(وَالأَنْبِيَا) عليهم السلام **(صَفْوَةُ)**؛ أي: مختار **(خَلْقِ اللهِ)** سبحانه، **(قَدْ أَرْشَدُوا الْعِبَادَ لِلإِلهِ)**؛ أي: إلى دين الله عز وجل، **(فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِالإِجْمَالِ)**؛ أي: بمن ذُكروا على وجه الإجمال، من غير تفصيل، **(وَمَا أَتَى التَّفْصِيلُ)**؛ أي: تفصيل أسمائهم، **(فِي الإِنزَالِ)**؛ أي: في القرآن المنزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكذا فيما صحّ من حديثه صلى الله عليه وسلم، **(نُؤْمِنُ بِالتَّفْصِيلِ)**؛ أي: نؤمن بهم تفصيلاً.

(ثُمَّ) بعد أن عرفت بوجوب الإيمان بهم إجمالاً وتفصيلاً، فـ**(مَن كَفَرْ بِبَعْضِهِمْ)**؛ أي: ببعض الرسل، **(فَالْكُفْرُ بِالْجَمِيعِ)** متعلّق بـ**(قَرّ)**؛ أي: ثبت؛ يعني: أن من كفر ببعض الأنبياء فقد كفر بكلّهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(نُبُوَّةٌ سَابِقَةُ الرِّسَالَةِ)؛ يعني: أن النبوّة تتقدّم على الرسالة، كما تبيّن من حال النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقد نبّأه الله تعالى بقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ

---

(١) «تاج العروس» ٣٥/ ٥٧.

رَبِّكَ﴾ الآيات [العلق: ١]، ثم بعد فترة أرسله الله تعالى، وأمره بالإنذار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١، ٢].

(**كِلْتَاهُمَا**)؛ أي: النبوّة، والرسالة (**لَا كَسْبَ**)؛ أي: ليستا مكتسبين لأحد؛ فلا ينالهما أحد بالكسب والاجتهاد في العبادة، كما قال بعضهم:

وَلَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ مُكْتَسَبَهْ ... وَلَوْ رَقَى فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقَبَهْ

(**بَلْ**) هما (**بِالْهِبَةِ**)؛ أي: بهبة الله عز وجل لمن يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

(**كُلُّ رَسُولٍ قُلْ نَبِيٌّ**)؛ يعني: أن كلَّ رسول نبيٌّ، ولا عكس، (**وَهُمُ**)؛ أي: الأنبياء عليهم السلام (**بِرَبِّهِمْ**) متعلّق بـ«أعلم»، (**جَلَّ وَعَزَّ أَعْلَمُ**)؛ يعني: أن الرسل أعلم الناس فيما يتعلّق بالله تعالى، من معرفتهم به، وبأسمائه، وصفاته، وأحكامه، فلا أحد من الناس أعلم بالله عز وجل منهم، وكان في النسخة الأُولى بدل هذا الشطر:

.... أَعْلَمُ خَلْقِ اللَّهِ فِيمَا يُعْلَمُ

فغيّرته؛ لِمَا لا يخفى على من تأمله.

(**أَعْدَلُهُمْ**)؛ أي: أعدل الناس (**طَرِيقَةً، وَأَكْمَلُ خُلْقاً**) بضمّ فسكون، مخفّف خُلُق ـ بضمّتين ـ، وهو: السَّجِيَّة، (**وَأَصْدَقُ**)؛ أي: هم أصدق الناس (**لِمَا قَدْ نَقَلُوا**) اللام بمعنى «في»؛ أي: فيما نقلوه عن الله تعالى وبلّغوه للناس، (**أَصْبَرُهُمْ فِي شِدَّةٍ**)؛ أي: هم أشدّ الناس في حال الشدّة، (**وَأَزْهَدُ فِي زَهْرَةِ الدُّنْيَا**) بفتح الزاي وسكون الهاء: متاعها وزينتها، (**وَنِعْمَ الْمَزْهَدُ**)؛ أي: الزهد، فهو مصدر ميميّ.

(وَبَعْضُهُمْ)؛ أي: بعض الأنبياء (أُوتِيَ) بالبناء للمفعول؛ أي: أعطاه الله تعالى (مُلْكاً) مضافاً إلى نبوّته، فجمع الله تعالى له بينهما، كما قال الله تعالى في داود عليه السلام: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى في ولده سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٥ ـ ٤٠].

(فَلَقَدْ ثَبَتَ) ذلك النبيّ الذي جمع الله تعالى له النبوة والملك (فِي الْجُودِ)؛ أي: في السخاء، فلا يبخل بما أوتيه من الدنيا، (وَزُهْدٍ) في الدنيا، فلم يغترّ بزخارفها وزينتها، (وَالرَّشَد)؛ أي: الهداية والثبات على الطريق المستقيم.

(أَجْرَى الْإِلهُ لَهُمُ الآيَاتِ)؛ أي: العلامات الدالّة على نبوّتهم، حال كونها (مُعْجِزَةً) لا يستطيع أحد أن يعارضها، وحال كونها (تَهْدِي) بفتح أوله؛ أي: ترشد الخلق (إِلَى الْخَيْرَاتِ) هي طاعة الله عز وجل سرّاً وعلانيةً.

(ثُمَّ) إن تلك الآيات والمعجزات (انقَضَتْ)؛ أي: انقطعت (بِمَوتِهِمْ)؛ أي: بموت الأنبياء، (سِوَى) القرآن (الَّذِي أُوتِيَهُ) أعطيه (النَّبِيُّ) ﷺ، **وقوله:** (ذُو الْعَرْفِ الشَّذِي) صفة للموصول؛ أي: صاحب الريح الطيبة، كناية عن حلاوة لفظه، وبلاغة معناه. (مُعْجِزَةٌ بَاقِيَةٌ طُولَ الْمَدَى)؛ أي: بطول الزمن، وإلى أن تأتي الساعة،

(يَهْدِي بِهِ اللهُ جَمِيعَ السُّعَدَا)؛ أي: فجميع من اهتدى من السعداء لا يكون إلا بالإيمان به والعمل بما فيه، (قَدْ مَضَتِ الْقُرُونُ) هي إلى الآن أربعة عشر قرناً وزيادة، (مُنذُ نَزَلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: منذ أنزله الله ﷻ على النبيّ ﷺ، (فَلَمْ يَجِئْ بِمِثْلِهِ)؛ أي: بمثل القرآن، كله أو بعضه، (مَنْ حَاوَلَا) بألف الإطلاق أيضاً؛ أي: من رَامَ وقَصَد ذلك، (فَلَوْ يَكُونُ الْجِنُّ وَالإِنسُ غَدَوْا)؛ أي: صاروا (ظَهِيرَ)؛ أي: مُعِين (بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مَا اهْتَدَوْا لِمِثْلِهِ) كما قال الله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

(فَاللهُ) سبحانه (حَقّاً رَفَعَه)؛ أي: رفع قَدْرَ القرآن الكريم، وأَعْلَى رتبتَه ومكانتَه، (وَكُلُّ) بالرفع، والنصب، على طريقة الاشتغال، (مَنْ عَارَضَهُ)؛ أي: عارض القرآن، يقال: عارضته: إذا فعلتُ مثل فِعله، وعارضت الشيء بالشيء: قابلته به[1]، (قَدْ وَضَعَه)؛ أي: أَذَلَّه الله تعالى. والله تعالى أعلم.



(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٠٤.



الْفَصْلُ الْعِشْرُونَ

فِي بَيَانِ مَا يَجِبُ، وَمَا يَجُوزُ، وَمَا يَمْتَنِعُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ ـ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ

٤٦٤ ـ قَدْ حَفِظَ الْإِلَـٰهُ الَانبِيَاءَا أَوْلَاهُمُ الرِّفْعَةَ وَالثَّنَاءَا

٤٦٥ ـ عَصَمَهُمْ فِي بَاطِنٍ وَظَاهِرِ مِنِ ارْتِكَابِ وَسَخِ الْكَبَائِرِ

٤٦٦ ـ كَذَا مِنَ الصَّغَائِرِ الدَّنِيَّهْ كَلُقْمَةٍ تُسْرَقُ بَالرَّزِيَّهْ

٤٦٧ ـ وَإِن تَقَعْ مِنْهُمْ صَغَائِرُ فَقَدْ يُنَبَّهُونَ، نِعْمَ إِكْرَامُ الصَّمَدْ

٤٦٨ ـ وَيَسْتَحِيلُ مِنْهُمُ الْكَذِبُ، أَوْ خِيَانَةٌ، نِسْيَانُ مَا بِهِ أَتَوْا

٤٦٩ ـ مِمَّا بِتَبْلِيغٍ لَهُ قَدْ كُلِّفُوا فَإِنَّهُمْ مَا فَرَّطُوا أَوْ حَرَّفُوا

٤٧٠ ـ هُمْ بَشَرٌ يَجُوزُ مَا يَجُوزُ لَهُم مِنَ الْمِحَنِ كَي يَفُوزُوا=

٤٧١ ـ كَمَرَضٍ، وَصِحَّةٍ، وَفَقْرِ وَالْأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَنَوْمٍ يَسْرِي

٤٧٢ ـ وَكُلِّ مَا يُصِيبُ نَوْعَ الْبَشَرِ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي لَا تَزْدَرِي

٤٧٣ ـ أَوَّلُهُمْ آدَمُ فِي النُّبُوَّةِ ثُمَّتَ نُوحٌ سَابِقُ الرِّسَالَةِ

٤٧٤ ـ مُحَمَّدٌ خَاتِمُهُمْ وَأَعْلَىٰ جَمِيعِهِمْ قَدْراً وَفَخْراً نُبْلَا

٤٧٥ ـ مِنْهُمْ أُولُو الْعَزْمِ الْكِرَامُ ذُكِرُوا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، نِعْمَ الْخَبَرُ

٤٧٦ ـ وَكُلَّ تَفْضِيلٍ لِنَقْصٍ أَدَّىٰ فَاجْتَنِبَنَّهُ لِئَلَّا تَرْدَىٰ

٤٧٧ ـ قَدْ فَضَّلَ الْإِلَـٰهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَمَا بِهِ الْكِتَابُ نَزَلَا

٤٧٨ ـ إِخْوَةٌ عَلَّاتٍ بِدِينٍ وَاحِدِ وَشَرْعُهُمْ أَكْثَرُ ذُو تَعَدُّدِ

٤٧٩ ـ خَصَّهُمُ بِالْوَحْيِ دُونَ الْبَشَرِ عَصَمَهُم مِن كُلِّ سُوءٍ يَزْدَرِي

٤٨٠ ـ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُمْ، وَخُيِّرُوا عِندَ مَجِيءِ الْمَوْتِ لَمْ يُسَيَّرُوا

٤٨١ ـ وَيُدْفَنُونَ حَيْثُ مَوْتُهُمْ وَفَىٰ حَيَاتُهُمْ فِي الْقَبْرِ مَا فِيهَا خَفَا

٤٨٢ ـ أَجْسَادُهُمْ عَلَى الْأَرَاضِي حُرِّمَتْ وَحُجَّةُ اللَّهِ بِبَعْثِهِمْ ثَبَتْ

٤٨٣ ـ كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُو قَدْ بَشَّرَا بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ سَيِّدِ الْوَرَىٰ

٤٨٤ ـ وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ بِالْإِيمَانِ بِهِ عَلَىٰ تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ

٤٨٥ ـ صِفَتُهُ لَدَىٰ كِتَابِ مُوسَىٰ وَاضِحَةٌ كَذَا كِتَابُ عِيسَىٰ

٤٨٦ ـ بِأَنَّهُ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ كَذَا مِنَ الْأَغْلَالِ فَكَّ أَسْرَهُمْ

***

(قَدْ حَفِظَ الْإِلٰهُ الانبِيَاءَ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، ودَرْجها، (أَوْلَاهُمُ)؛ أي: أعطاهم (الرِّفْعَةَ)؛ أي: علوّ درجاتهم، (وَالثَّنَاءَ) الحسن بين عباده، (عَصَمَهُمْ)؛ أي: حَفِظَهم ومَنَعَهم (فِي بَاطِنٍ وَظَاهِرٍ مِنِ ارْتِكَابِ وَسَخٍ) الذنوب (الْكَبَائِرِ)؛ يعني: أنهم معصومون من فِعل الذنوب الكبار كلّها، و(كَذَا) عصمهم (مِن) ارتكاب الذنوب (الصَّغَائِرِ الدَّنِيَّه) بتشديد التحتانيّة، وأصله: الدنيئة، قُلبت الهمزة ياء وأُدغمت الياء فيها، ومعناها: الخسيسة، وذلك (كَلُقْمَةٍ تُسْرَقُ بَالرَّزِيَّه)؛ أي: بالمصيبة؛ يعني: أن سرقتها مصيبة، والمعنى: أن الأنبياء معصومون من ارتكاب الصغائر التي هي خسيسة، وذلك كسرقة لقمة، ونحو ذلك، (وَإِن تَقَعْ مِنْهُمْ صَغَائِرُ) من الذنوب (فَقَدْ يُنَبَّهُونَ) بالبناء للمفعول؛ أي: ينبّههم الله تعالى بالوحي، (نِعْمَ إِكْرَامُ الصَّمَد) لهم بذلك.

(وَيَسْتَحِيلُ مِنْهُمُ الْكَذِبُ، أَوْ) بمعنى الواو، (خِيَانَةٌ)؛ أي:

ويستحيل عليهم أن يخونوا أماناتهم، وكذا يستحيل عليهم (نِسْيَانُ مَا بِهِ أَتَوْا)؛ أي: نسيان الوحي الذي جاءوا به من عند الله تعالى، (مِمَّا بِتَبْلِيغ لَهُ قَدْ كُلِّفُوا)؛ أي: بالذي أُمروا بتبليغه للناس، (فَإِنَّهُمْ مَا فَرَّطُواْ)؛ أي: لم يُقَصِّرُوا في التبليغ، (أَوْ حَرَّفُوا)؛ أي: لم يحرّفوا الوحي إلى غيره.

(هُمْ بَشَرٌ) كسائر البشر (يَجُوزُ مَا يَجُوزُ لَهُمْ)؛ أي: للبشر، (مِنَ الْمِحَنِ) جمع محنة؛ أي: من الابتلاء، (كَي يَفُوزُوا) على ذلك من المثوبة والأجر العظيم، وتلك المحن (كَمَرَضٍ، وَصِحَّةٍ، وَفَقْر، وَالأَكْلِ، وَالشُّرْبِ، وَنَوْم). **وقوله:** (يَسْرِي) صفة لـ«نوم» يسري بروح الإنسان، ويعطّل حواسّه. **وقوله:** (وَكُلِّ مَا يُصِيبُ) تعميم بعد التخصيص، (نَوْعَ الْبَشَرِ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي لَا تَزْدَرِي)؛ أي: تعيب؛ يعني: أن كلّ شيء لا يعيب وينتقص مقام النبوّة، فهي جائزة عليهم.

(أَوَّلُهُمْ)؛ أي: أسبق الأنبياء عليهم السلام (آدَمُ) أبو البشر، (فِي النُّبُوَّةِ) فإنه أول من أوتي النبوّة من البشر. **وقوله:** (ثُمَّتَ) هي «ثمّ» العاطفة، زيدت عليها التاء لتأنيث اللفظ. (نُوحُ) عليه السلام (سَابِقُ الرِّسَالَةِ)؛ أي: سابق غيره في منصب الرسالة؛ إذ هو أول أرسل بالتحليل والتحريم، (مُحَمَّدٌ) ﷺ (خَاتِمُهُمْ)؛ أي: آخر الأنبياء عليهم السلام (وَأَعْلَى جَمِيعِهِمْ قَدْراً وَفَخْراً) و(نُبْلَا)؛ أي: شرفاً، فـ«قدراً» وما بعده منصوبات على التمييز.

(مِنْهُمْ)؛ أي: من الأنبياء عليهم السلام، وهو متعلّق بـ«ذُكرُوا»، (أُولُو الْعَزْمِ)؛ أي: أصحاب الجدّ والثبات والصبر، (الْكِرَامُ ذُكِرُوا) بالبناء للمفعول، (فِي سُورَةِ الأَحْزَابِ)؛ أي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ

ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، (نِعْمَ الْخَبَرُ) هذا؛ لأنه جاء من عند الله ﷻ.

(وَكُلَّ تَفْضِيلٍ) لبعض الأنبياء على بعض، (لِنَقْصٍ) متعلّق بـ(أَدَّى)؛ يعني: أن تفضيل بعض الأنبياء على بعضهم إذا أدّى إلى تنقيص المفضّل عليه (فَاجْتَنِبَنَّهُ)؛ أي: ابتعد منه (لِئَلَّا تَرْدَى) مضارع رَدِيَ؛ كرَضِيَ: إذا هلك؛ أي: لئلا تهلك؛ لأن هذا يؤدي إلى هلاك الدين، وهو سبب هلاك العبد.

ثم بيّن أن تفضيل بعضهم على بعض قد جاء من عند الله تعالى، فقال: (قَدْ فَضَّلَ الْإِلٰهُ) سبحانه (بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا بِهِ الْكِتَابُ نَزَلَا) بألف الإطلاق، وهو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

(إِخْوَةُ عَلَّاتٍ) خبر لمحذوف؛ أي: هم إخوة علّات؛ أي: إخوة من أب واحد، قال الفيّوميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهم بنو عَلّات: إذا كان أبوهم واحداً وأمهاتهم شتى، الواحدة: عَلَّةٌ، مثلُ: جنّات وجنّة، قيل: مأخوذ من الْعَلَل، وهو الشرب بعد الشرب؛ لأن الأب لما تزوج مرة بعد أخرى صار كأنه شَرِب مرّةً بعد أخرى، قال الشاعر [من الطويل]:

أَفِـي الْـوَلَائِـمِ أَوْلَاداً لِـوَاحِـدَةٍ ... وَفِـي الْـعِـبَـادَةِ أَوْلَاداً لِـعَـلَّاتِ

وأولاد الأعيان أولاد الأبوين، وأولاد الأخياف عكس العَلّات، قال: وقد جمعت ذلك، فقلت [من الكامل]:

وَمَتَى أَرَدتَّ تَمَيُّزَ الأَعْيَانِ ... فَهُمُ الَّذِينَ يَضُمُّهُمْ أَبَوَانِ

أَخْيَافُ أُمٌّ لَيْسَ يَجْمَعُهُمْ أَبٌ ... وَبِعَكْسِهِ الْعَلَّاتُ يَفْتَرِقَانِ[1]

ثم أشار إلى معنى كونهم «أولاد علّات» **بقوله: (بِدِينٍ وَاحِدٍ)**؛ يعني: أن دينهم واحد، وهو التوحيد، **(وَشَرْعُهُمْ)**؛ أي: فروع تشريعاتهم **(أَكْثَرُ ذُو تَعَدُّد)** كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الآية [المائدة: ٤٨].

(خَصَّهُمُ) الله ـ سبحانه ـ **(بِالْوَحْيِ دُونَ)** سائر **(الْبَشَرِ، عَصَمَهُمْ مِن كُلِّ سُوءٍ يَزْدَرِي)**؛ أي: يهينهم، ويُنقصهم من درجتهم العليّة، **(وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُمْ)** ولذا صار منامهم وحياً، فقد أقدم إبراهيم ﷺ على ذبح ولده، كما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ الآيات [الصافات: ١٠٢].

(وَخُيِّرُوا) بالبناء للمفعول؛ أي: خيّرهم الله تعالى بين البقاء في الدنيا وبين الموت **(عِندَ مَجِيءِ الْمَوْتِ)**؛ أي: الملَك الموكّل بقبض الأرواح، **(لَمْ يُسَيَّرُوا)** بالبناء للمفعول أيضاً؛ أي: لم يُرَحَّلُوا من الدنيا قهراً، وإنما تُقبض أرواحهم بعد التخيير، **(وَيُدْفَنُونَ)** بالبناء للمفعول أيضاً، **(حَيْثُ مَوْتُهُمْ وَفَى)**؛ أي: في المكان الذي وُجد فيه؛ يعني: أنهم يُدفنون في بيوتهم التي ماتوا فيها. **(حَيَاتُهُمْ)**؛ أي: كونهم أحياء **(فِي الْقَبْرِ مَا فِيهَا خَفَا)**؛ أي: استتار، بل هي مشهورة في الأحاديث الصحيحة، **(أَجْسَادُهُمْ عَلَى الأَرَاضِي حُرِّمَتْ)**؛ أي: حرّم الله تعالى على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، **(وَحُجَّةُ اللهِ)**

---

(١) «المصباح المنير» ٢/٤٢٦.

تعالى على الخلق **(بِبَعْثِهِمْ)**؛ أي: **(بإرسالهم إليهم ثَبت)** فيه تذكير ضمير المؤنث المجازيّ، وهو جائز في الشعر، قال في «الخلاصة»:

وَالْحَذْفُ قَدْ يَأْتِي بِلَا فَصْلٍ وَمَعْ ... ضَمِيرِ ذِي الْمَجَازِ فِي شِعْرٍ وَقَعْ

والمعنى: أن الله تعالى لمّا بعث الرسل إلى الناس قامت حجته عليهم، فلا عُذر لهم بعدها، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [النساء: ١٦٥].

(كُلُّ نَبِيٍّ قَوْمَهُ قَدْ بَشَّرَا) بألف الإطلاق، **(بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ)** محمد ﷺ **(سَيِّدِ الْوَرَى)**؛ يعني: أنه ما من نبيّ إلا وقد بَشَّر قومه بأن الله تعالى سيبعث محمداً ﷺ في آخر الزمان، **(وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ)**؛ أي: العهد **(بِالإِيمَانِ بِهِ)** ﷺ **(عَلَى تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ)**؛ أي: على مرّ الدهور من لدن آدم إلى عيسى ابن مريم عليهما السلام، وهذا هو الذي بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١] على أحد التفسيرين.

أخرج ابن جرير في «تفسيره» عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لم يبعث الله عز وجل نبيّاً ـ آدمَ فمن بعدَه ـ، إلا أخذ عليه العهدَ في محمد: لئن بُعث وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه، ويأمرُه فيأخذ العهدَ على قومه، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية.

وعن قتادة: قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ الآية: هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يُصدِّق بعضُهم بعضاً، وأن يبلّغوا كتاب الله ورسالاته، فبلّغت الأنبياء كتاب الله

ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم ـ فيما بلَّغتهم رُسلُهم ـ أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ويصدّقوه، وينصروه.

وعن السديّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الآية، قال: لم يبعث الله ﷻ نبيّاً قطُّ من لدُن نوح، إلا أخذ ميثاقه ليؤمننّ بمحمد، ولينصرنَّه إن خَرَج وهو حيّ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به، ولينصرُنَّه إن خَرَج وهم أحياء.

وقال آخرون: أخذ الله ميثاق النبيين أن يُصَدِّق بعضهم بعضاً[1]. والله تعالى أعلم.

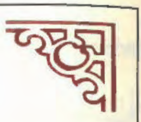
(صِفَتُهُ) ﷺ **(لَدَى كِتَابِ مُوسَى)** التوراة، **(وَاضِحَةٌ، كَذَا كِتَابُ عِيسَى)** الإنجيل. **وقوله: (بِأَنَّهُ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ)** هو الثِّقَل الذي يأصر صاحبه؛ أي: يحبسه عن الحراك لِثِقله، والمراد: التكاليف الصعبة؛ كقتل النفس في توبتهم، وقطع الأعضاء الخاطئة. **(كَذَا مِنَ الأَغْلَالِ)** بالفتح، هي: الأحكام الشاقة، نحو: بَتّ القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأً من غير شَرْع الدية، وقَرْض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت، وشُبّهت بالغُلّ للزومها لزوم الغُلّ[2].

(فَكَّ) النبيّ ﷺ **(أَسْرَهُمْ)** بفتح فسكون؛ أي: شَدَّهُم؛ يعني: أنه ﷺ أزال عنهم الشدّة، والعسر، والتكاليف الشاقّة، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. والله تعالى أعلم.

---

(١) جامع البيان المعروف بـ«تفسير الطبري» ٦/ ٥٥٦.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل المعروف بـ«تفسير النسفي» ١/ ٦٠٩.



الْفَصْلُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

فِي بَيَانِ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ، وَحُقُوقِهِ

٤٨٧ ـ قَدْ خَصَّ رَبُّنَا مُحَمَّداً بِأَنْ ... خَتَمَ رُسْلَهُ بِهِ، نِعْمَ الْمِنَنْ

٤٨٨ ـ أَرْسَلَهُ، لِسَائِرِ الْأَنَامِ ... وَرَحْمَةً لِلْخَلْقِ فِي الدَّوَامِ(١)

٤٨٩ ـ وَلَمْ يَمُتْ إِلَّا بُعَيْدَ مَا كَمَلْ ... الدِّينُ لَا نَقْصَ وَلَا فِيهِ خَلَلْ

٤٩٠ ـ أَتَمَّ رَبُّنَا عَلَيْهِ نِعْمَتَهْ ... بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ أَعْلَىٰ رُتْبَتَهْ

٤٩١ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾ قَدْ نَزَلَا ... بِشَارَةً عُظْمَىٰ وَفَخْراً قَدْ عَلَا

٤٩٢ ـ كَذَاكَ بِالْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ قَدْ ... اِخْتَصَّهُ، مِن بَيْنِ كُلِّ مَن سَجَدْ

٤٩٣ ـ شَقَّ لَهُ الْقَمَرَ، ثُمَّ الْبَرَكَهْ ... فِي رِيقِهِ الْمَيْمُونِ مَن شَا أَدْرَكَهْ

٤٩٤ ـ عَرَقُهُ، فَضْلُ وَضُوئِهِ انْتَفَعْ ... بِهِ الصَّحَابَةُ لِدَاءٍ فَنَفَعْ

٤٩٥ ـ وَبِدُعَائِهِ السَّحَابُ يُمْطِرُ، ... بِطَوْعِهِ انقَادَ إِلَيْهِ الشَّجَرُ،

٤٩٦ ـ قَدْ سَلَّمَ الْحَجَرُ، وَاشْتَكَى الْجَمَلْ ... نُصِرَ بِالرُّعْبِ لِشَهْرٍ مَا أَجَلّ

٤٩٧ ـ سَيِّدُ أَوْلَادِ أَبِينَا آدَمَا ... نَالَ شَفَاعَةً بِهَا قَدْ عُظِّمَا

٤٩٨ ـ بِيَدِهِ، لِوَاءُ حَمْدٍ جَهْرَا ... يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنِعْمَ فَخْرَا

---

(١) كان في النسخة الأولى هذا الشطر هكذا:

وَرَحْمَةً لأُسْرَةِ الإِسْلَامِ

فغَيَّرْتُه إلى ما هنا موافقة لمعنى الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنعام: ١٠٧].

٤٩٩ ـ يَحْمَدُهُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ، قَدْ ... اِعْتَرَفَ الْكُلُّ بِإِكْرَامِ الصَّمَدْ

٥٠٠ ـ زَادَتْ عَلَى الْحَدِّ الدَّلَائِلُ عَلَىٰ ... نُبُوَّةٍ لَهُ، وَأَكْرِمْ نَفَلَا

٥٠١ ـ لَا يَحْصُرُ الْحَدُّ شَمَائِلَهُ بَلْ ... نَوَّهَ مَوْلَاهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ

٥٠٢ ـ قَالَ: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يَلِيهِ ﴿لَعَلَىٰ﴾ ... وَأَكْمِلِ الْآيَةَ نِعْمَ مُنزَلَا

٥٠٣ ـ أَوَّلُ وَاجِبٍ لَهُ أَن تُؤْمِنَا ... بِهِ، وَأَن تُطِيعَهُ، مُسْتَيْقِنَا

٥٠٤ ـ وَاتَّبِعَنَّهُ، وَأَعْظِمْ، وَأَحِبّ ... وَمِلْ بِقَلْبِكَ إِلَيْهِ، وَاسْتَجِبْ

٥٠٥ ـ تَحَاكَمَنْ إِلَيْهِ، وَارْضَ شِرْعَتَهْ ... لَا تَغْلُوَن، وَأَنْزِلَن مَنزِلَتَهْ

٥٠٦ ـ لَا تَجْفُ عَنْهُ، صَلِّيَن وَسَلِّمِ ... عَلَيْهِ عِنْدَ ذِكْرِهِ تَغْتَنِمِ

***

(قَدْ خَصَّ رَبُّنَا) فِعل وفاعله، **(مُحَمَّداً)** ﷺ **(بِأَنْ خَتَمَ رُسْلَهُ بِهِ)** كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٠]، **(نِعْمَ الْمِنَن)** بالكسر، جمع مِنّة؛ أي: نِعْمَ العَطَايا، **(أَرْسَلَهُ لِسَائِرِ)**؛ أي: جميع **(الأَنَامِ)** الإنس والجنّ، وأصل سائر بمعنى: الباقي، ولكن يُستعمل بمعنى الجميع، وهو الموافق هنا، وقد ذكره في «القاموس»، وإن أنكره في «المصباح».

وعبارة المرتضى في «التاج» عند قول المجد: «والسائر: الباقي، لا الجميع، كما توهّم جماعات، أو قد يستعمل له»، قوله: «أو قد يستعمل له»، إشارة إلى أن في السائر قولين:

الأول ـ وهو قول الجمهور من أئمة اللغة، وأرباب الاشتقاق ـ: أنه بمعنى الباقي، ولا نزاع فيه بينهم، واشتقاقه من: السؤر، وهو: البقية.

والثاني: أنه بمعنى الجميع، وقد أثبته جماعة وصوّبوه، وإليه

ذهب الجوهريّ، والجواليقيّ، وحققه ابن بَرّيّ في حواشي «الدرة»، وأنشد عليه شواهد كثيرة، وأدلة ظاهرة، وانتصر لهم الشيخ النوويّ في مواضع من مصنَّفاته، وسبقهم إمام العربية أبو عليّ الفارسيّ، ونقله بعض عن تلميذه ابن جني. انتهى[(١)].

قال محمد: استعملته هنا بمعنى الجميع، على مذهب هؤلاء الذين أثبتوه، وذكروا له شواهد؛ إذ لا يخفى كونه صواباً. والله تعالى أعلم.

(وَرَحْمَةً)؛ أي: وأرسله الله تعالى حال كونه رحمةً **(لِلْخَلْقِ)** كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. **وقوله: (فِي الدَّوَام)**؛ أي: في استمرار الأوقات؛ يعني: دائماً، **(وَلَمْ يَمُتْ)** ﷺ **(إِلَّا بُعَيْدَ)** تصغير «بعد»، **(مَا كَمَل)** مثلّث الميم، يقال: كَمَل الشيء: إذا تمّ، وهو من باب قرُب، وضرَب، وتَعِبَ، لكن باب «تعِب» أردؤها. قاله الفيّوميّ. **وقوله: (الدِّينُ)** مرفوع على الفاعليّة. **وقوله: (لَا نَقْصَ)** فيه، وهو بيان لمعنى الكمال، **(وَلَا فِيهِ خَلَل)**؛ أي: لا عيب فيه، **(أَتَمَّ رَبُّنَا)** سبحانه **(عَلَيْهِ)**؛ أي: على النبيّ ﷺ، **(نِعْمَتَه بِالنَّصْرِ)** على أعدائه **(وَالتَّمْكِينِ)** في نشر الدين في الأرض، **(أَعْلَى)** الله تعالى **(رُتْبَتَه)** ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤].

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ مبتدأ محكيّ؛ لِقَصْد لفظه، وخبره **قوله: (قَدْ نَزَلَا)** بألف الإطلاق. **وقوله: (بِشَارَةً)** مفعول

(١) «تاج العروس» ١١/ ٤٨٦.

لأجله، **(عُظْمَى)** صفة لـ«بشارة»، **(وَفَخْراً قَدْ عَلَا)**؛ أي: ارتفع، **(كَذَاكَ بِالإِسْرَاءِ)**؛ أي: الذهاب ليلاً من مكة إلى بيت المقدس، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، **فقوله:** بـ«الإسراء» متعلّق بـ«اختصّه»، **(وَالْمِعْرَاجِ)** بكسر الميم؛ أي: الصعود في المصعد إلى السمٰوات العلى، كما ثبت في «الصحيحين»، وغيرهما من قصّة الإسراء والمعراج، **(قَد اخْتَصَّهُ)** الله تعالى **(مِن بَيْنِ كُلِّ مَن سَجَد)**؛ أي: من بين المؤمنين، والمراد: الأنبياء عليهم السلام.

قال الطحاويّ رحمه الله في «عقيدته»: «والمعراج حقّ، وقد أُسري بالنبيّ ﷺ، وعُرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العُلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى، فصلّى الله عليه في الآخرة والأُولى».

قال شارحها: «المعراج»: مِفعال، من العروج؛ أي: الآلة التي يُعرج فيها؛ أي: يُصعد، وهو بمنْزلة السُلّم، لكن لا يُعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من الْمُغَيَّبَات، نؤمن به، ولا نشتغل بِكَيْفِيَّتِهِ.

وقوله: «وقد أسري بالنبيّ ﷺ، وعُرج بشخصه في اليقظة»

اختلف الناس في الإسراء:

فقيل: كان الإسراء بروحه، ولم يُفْقَد جَسَدُه، نقله ابن إسحاق عن عائشة، ومعاوية رضي الله عنهما، ونُقل عن الحسن البصريّ نحوه، لكن ينبغي أن يُعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً، وبين أن

يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: أُسري بروحه، ولم يُفْقَد جَسَدُه، وفرق ما بين الأمرين؛ إذ ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عُرج به إلى السماء، وذُهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد، ولم تذهب، وإنما ملَك الرؤيا ضرب له المثال، فما أرادا أن الإسراء مناماً، وإنما أرادا أن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد، ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذاتُ روحه الصعودَ الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة، ومرة مناماً. وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: **«ثم استيقظت»**، وبين سائر الروايات.

وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي، ومرة بعده.

ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي، ومرتين بعده. وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة، للتوفيق! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البرّ.

قال شمس الدين ابن القيم: يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة تُفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً،

فيقول: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟! وقد غَلَّط الحفاظ شَريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسنَد منه، ثم قال: فَقَدَّم وأَخَّر وزَاد ونَقَص، ولم يسرد الحديث، وأجاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انتهى كلام الشيخ شمس الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وكان من حديث الإسراء: أنه ﷺ أُسري بجسده في اليقظة، على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكباً على البُراق، صُحْبَةَ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فنَزل هناك، وصلى بالأنبياء إماماً، وربط البُراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنه نزل بيت لحم وصلى فيه، ولا يصح عنه ذلك ألبتة. ثم عُرِج به من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتُح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر، فسلَّم عليه، فرحّب به وردّ عليه السلام، وأقرّ بنبوته، ثم عَرج به إلى السماء الثانية، فاستَفتَح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما، فسلّم عليهما، فردّا عليه السلام، ورحبا به، وأقرّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلّم عليه، فردّ عليه السلام، ورحّب به، وأقرّ بنبوّته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلّم عليه، ورحّب به، وأقرّ بنبوّته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلّم عليه، ورَحّب به، وأَقَرَّ بنبوّته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى، فسلّم عليه، ورحّب به، وأقرّ بنبوّته، فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر

مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلّم عليه، ورَحَّبَ به، وأقرّ بنبوّته، ثم رُفع إلى سدرة المنتهى، ثم رُفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جَلَّ جَلَالُهُ، وتَقَدَّسَتْ أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مر على موسى، فقال: بم أُمرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تُطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أن نَعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به إلى الجبار ـ تبارك وتعالى ـ وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في «صحيحه»، وفي بعض الطرق ـ فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى، حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أَرْضَى وَأُسَلِّم، فلما نفذ، نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي.

وقد اختلف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في رؤيته ﷺ ربه عَزَّ وَجَلَّ بعين رأسه، والصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١١، ١٣]، وصح عن النبيّ ﷺ أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين على صورته التي خُلِق عليها.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم: ٨]، فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء،

فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدلّيه، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٥ ـ ٨]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا الْمُعَلِّمِ الشَّدِيدِ القوى، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنوّ الرب تعالى وتدلّيه. وأما الذي في «سورة النجم»: أنه ﴿رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣، ١٤]، فهذا هو جبريل، رآه مرتين، مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

ومما يدل على أن الإسراء بجسده في اليقظة، قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ: أنه كان ذلك إظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نَعْتِ بيت المقدس، فنَعَتَه لهم، وأخبرهم عن عِيرِهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لَمَا حصل ذلك؛ إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لِمَن تدبره. وبالله التوفيق. انتهى[(١)].

(شَقَّ لَهُ الْقَمَرَ)؛ يعني: أن مما اختصّ الله تعالى به نبيَّه محمداً ﷺ أن شقّ له القمر، كما أخبر الله تعالى بذلك بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وأخرج الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبيّ ﷺ: **«اشْهَدُوا»**.

وفي رواية: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنًى إِذِ انفَلَق القمر فِلْقَتَيْن، فكانت فِلْقَةٌ وراء الجبل، وفِلْقَةٌ دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«اشْهَدُوا»**.

وفي رواية: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فِلْقَتَيْن، فسَتَر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهُمَّ اشْهَدْ»**.

وأخرجا عن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين.

(ثُمَّ الْبَرَكَه) مبتدأ، خبره **قوله: (فِي رِيقِهِ)** ﷺ **(الْمَيْمُونِ)**؛ أي: المبارك، **(مَن شَا)**؛ أي: من أراد أن ينال بركة ريقه ﷺ **(أَدْرَكَه)**؛ أي: ناله، **(عَرَقُهُ)** ﷺ، مبتدأ، خبره «انتفع». **وقوله: (فَضْلُ)** معطوف بعاطف مقدّر؛ أي: وفضلُ **(وَضُوئِهِ)** بفتح الواو؛ أي: الماء الذي يتوضّأ به، **(انتَفَعْ)** بالبناء للفاعل، **(بِهِ الصَّحَابَةُ)** رضي الله عنهم **(لِدَاءٍ)**؛ أي:

---

(١) «شرح الطحاوية» ص١٩٥ ـ ١٩٩.

لإزالة مرض، (فَنَفَع)؛ أي: فانتفعوا به، قال عروة بن مسعود الثقفيّ حين تفاوض مع النبيّ ﷺ في الحديبية، فرجع إلى قريش، فقال: والله لقد وَفدت على الملوك، ووَفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشيّ، والله إنْ رأيت مَلِكاً قط يُعَظِّمُهُ أصحابه ما يُعَظِّم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلا وَقَعَتْ في كف رجل منهم، فدَلَكَ بها وجهه وجِلْدَه، وإذا أمرهم ابْتَدَرُوا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له. . . الحديث.

(وَبِدُعَائِهِ) ﷺ متعلّق بـ«يُمطر»، (السَّحَابُ يُمْطِرُ) مبتدأ وخبر، أخرج الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً دخل يوم الجمعة من بابٍ كان وِجَاه المنبر، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسولَ الله ﷺ قائماً، فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب، ولا قَزَعة ولا شيئاً، وما بيننا وبين سَلْع[1] من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل التُّرْس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس ستاً. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: «**اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا**،

---

(١) بفتح فسكون: اسم جبل بالمدينة.

اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ» قال: فانقطعت.

(بِطَوْعِهِ) بفتح فسكون، مصدر طاع، يقال: طَاعَه طَوْعاً، من باب «قَالَ»؛ أي: انقاد له، وأطاعه إطاعة مثله؛ يعني: أن بسبب طاعة النبيّ ﷺ، متعلّقٌ بـ**(انقَادَ)**؛ أي: أذعن، واستجاب **(إِلَيْهِ)** ﷺ **(الشَّجَرُ)** أخرج مسلم في «صحيحه» من جابر الطويل، وفيه: قال جابر رضي الله عنه: سِرْنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أَفْيَح، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتّبعته بإِدَاوَة من ماء، فنظر رسول الله ﷺ، فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**» فانقادت معه كالبعير المخشوش، الذي يُصَانِع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالْمِنصَف مما بينهما لأم بينهما ـ يعني: جمعهما ـ فقال: «**الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**» فالْتَأَمَتَا، قال جابر: فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد ـ وقال محمد بن عباد: فيتبعّد ـ فجلست أحدث نفسي، فحانت مني لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلاً، وإذا الشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق، فرأيت رسول الله ﷺ وقف وقفة، فقال برأسه هكذا ـ وأشار أبو إسماعيل برأسه يميناً وشمالاً ـ ثم أقبل، فلما انتهى إليّ قال: «**يَا جَابِرُ، هَلْ رَأَيْتَ مَقَامِي؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال: «**فَانطَلِقْ إِلَى الشَّجَرَتَيْنِ فَاقْطَعْ مِن كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْناً، فَأَقْبِلْ بِهِمَا، حَتَّى إِذَا**

قُمْتَ مَقَامِي فَأَرْسِلْ غُصْناً عَن يَمِينِكَ وَغُصْناً عَن يَسَارِكَ»، قال جابر: فقمت فأخذت حجراً فكسرته وحسرته، فانذلق لي، فأتيت الشجرتين فقطعت من كل واحدة منهما غصناً، ثم أقبلت أجرّهما حتى قمت مقام رسول الله ﷺ، أرسلت غصناً عن يميني وغصناً عن يساري، ثم لحقته، فقلت: قد فعلت يا رسول الله، فعم ذاك؟ قال: «**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فَأَحْبَبْتُ بِشَفَاعَتِي أَن يُرَفَّهَ عَنْهُمَا مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ...**» الحديث.

(قَدْ سَلَّمَ الْحَجَرُ) على النبيّ ﷺ، أخرج مسلم في «صحيحه» عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ**».

(وَاشْتَكَى الْجَمَل) أخرج أبو داود في «سننه» عن عبد الله بن جعفر، قال: أَرْدَفَني رسول الله ﷺ خَلْفَه ذات يوم، فأَسَرَّ إليّ حديثاً لا أحدّث به أحداً من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدفاً، أو حائش نخل، قال: فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيّ ﷺ حنّ، وذرفت عيناه، فأتاه النبيّ ﷺ، فمسح ذِفْراه فسكت، فقال: «**مَن رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟**»، فجاء فتًى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: «**أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟، فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ، وَتُدْئِبُهُ**»(١).

(نُصِرَ) بالبناء للمفعول؛ أي: نصر الله ﷻ نبيّه ﷺ على أعدائه

---

(١) «سنن أبي داود» ٣/ ٢٣.

(لِشَهْرٍ)؛ أي: في مقدار مسافة شهر بينه وبين عدّوه، فيهابه كأنه حاضر بين يديه، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدِي...**» الحديث.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُوراً وَمَسْجِداً، فَأَيَّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**».

وقوله: (مَا أَجَلّ) تعجّب؛ أي: ما أجلّ هذا الإكرام والتشريف له ﷺ، (سَيِّدُ أَوْلَادِ أَبِينَا آدَمَا)؛ أي: هو سيد ولد آدم عليه السلام، أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَن يَنشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**».

(نَالَ شَفَاعَةً بِهَا قَدْ عُظِّمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، وهذا إشارة إلى قول الله عز وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. قال الإمام ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما: إن الناس يصيرون يوم

القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيّها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيّ ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً.

(بِيَدِهِ) ﷺ (لِوَاءُ حَمْدٍ جَهْرَا)؛ أي: علناً، (يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنِعْمَ فَخْرَا، يَحْمَدُهُ الأَوَّلُ وَالآخِرُ، قَد اعْتَرَفَ الْكُلُّ بِإِكْرَامِ الصَّمَد) له ﷺ بذلك، أخرج ابن حبّان في «صحيحه» عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَن تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَمُشَفَّعٍ، بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، تَحْتِي آدَمُ فَمَن دُونَهُ**»[(١)].

وقال ابن كثير: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويُبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فكل يقول: «**لست لها**»، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ، فيقول: «**أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا**».

ومن ذلك: أنه يشفع في أقوام قد أُمِرَ بهم إلى النار، فيُرَدُّون عنها.

وهو أول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط

---

(١) «صحيح ابن حبان» ١٤/ ٣٩٨.

بأمته، وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصُّور: إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منْزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شَفَع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. انتهى[(١)].

وأخرج الترمذيّ عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِن نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ ـ آدَمَ فَمَن سِوَاهُ ـ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَن تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، وَلَا فَخْرَ**». وقال: هذا حديث حسن.

(زَادَتْ عَلَى الْحَدِّ)؛ أي: الحصر بالعدد، (الدَّلَائِلُ) مرفوع على الفاعليّة لـ«زادت»، (عَلَى نُبُوَّةٍ لَهُ) ﷺ؛ يعني: أن دلائل نبوته ﷺ لا تُحصر بالعدد، (وَأَكْرِمْ نَفَلَا) بفتحتين؛ أي: ما أكرمها عطاء، (لَا يَحْصُرُ) بفتح أوله، مبنيّاً للفاعل، والفاعل **قوله**: (الْحَدُّ شَمَائِلَهُ) جمع «شِمَال» بالكسر، وهي الخُلُق والطبيعة؛ يعني: أنه لا حصر لأخلاقه ﷺ، (بَلْ نَوَّهَ)؛ أي: رفع (مَوْلَاهُ بِهِ)؛ أي: بالنبيّ ﷺ، (عَزَّ وَجَلَّ) حيث (قَالَ) في كتابه العزيز: (﴿وَإِنَّكَ﴾) يَلِيهِ (﴿لَعَلَىٰ﴾ وَأَكْمِلِ الآيَةَ)؛ أي: اقرأ الآية بتمامها، والآية هي: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٥/١٠٥.

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: ٤]. أخرج مسلم في «صحيحه» عن سعد بن هشام، سأل عائشة ﵂ عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلق رسول الله ﷺ كان القرآن.

قال الإمام ابن كثير ﵀: ومعنى هذا: أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سَجِيَّة له، وخُلُقاً تَطَبَّعَه، وتَرَكَ طَبْعه الجِبِلِيّ، فمهما أمره القرآن فَعله، ومهما نهاه عنه تَرَكه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخُلُق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خُلُق جميل، كما ثبت في «الصحيحين» عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: «أف» قط، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلته؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً، ولا مسست خزّاً، ولا حريراً، ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عَطِراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

وقال البخاريّ: حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله، حدّثنا إسحاق بن منصور، حدّثنا إبراهيم بن يوسف، عن أبيه، عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسن الناس خَلْقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.

والأحاديث في هذا كثيرة، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب «الشمائل».

(نِعْمَ مُنْزَلَا) بضم الميم وفتح الزاي.

(أَوَّلُ وَاجِبٍ لَهُ) ﷺ **(أَن تُؤْمِنَا بِهِ)**؛ أي: تُصَدِّق بأنه رسول الله تعالى، **(وَأَن تُطِيعَهُ)** فيما أمر به، حال كونك **(مُسْتَيْقِنَا)**؛ أي: عالِماً

به، (وَاتَّبِعَنَّهُ)؛ أي: اقتدِ بسنّته، (وَأَعْظِمْ) شأنه (وَأَحِبّـ)ـه ﷺ (وَمِلْ بِقَلْبِكَ إِلَيْهِ) ميلاً كلّيّاً بحيث لا يبقى فيك ميل إلى غيره، (وَاسْتَجِبْ) دعوته، (تَحَاكَمَنْ إِلَيْهِ)؛ أي: إلى شرعه، (وَارْضَ شِرْعَتَه)؛ أي: دينه، كما جاء في «صحيح مسلم» عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**».

(لَا تَغْلُوَنْ)؛ أي: لا تجاوز الحد فيه، فلا ترفعه فوق منزلته، فقد أخرج البخاريّ عن ابن عباس: أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**». (وَأَنْزِلَن مَنْزِلَته) وهي العبوديّة، (لَا تَجْفُ)؛ أي: لا تبتعد (عَنْهُ)؛ أي: عن هَدْيِه ﷺ، (صَلِّيَن وَسَلِّمِ عَلَيْهِ عِندَ ذِكْرِهِ) ﷺ، فقد ذُمّ من لا يصلي عليه عند ذِكره، فقد أخرج الترمذيّ عن حسين بن عليّ بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْبَخِيلُ الَّذِي مَن ذُكِرْتُ عِندَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ**»، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه ابن حبّان.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: لمّا بنى رسول الله ﷺ المنبر جعل له ثلاث عَتَبَات، فلما صعد رسول الله ﷺ العَتَبَة الأولى، قال: «**آمِين**»، ثم صعد العَتَبَةَ الثانية، فقال: «**آمِين**»، حتى إذا صعد العتبة الثالثة، قال: «**آمِين**»، فقال المسلمون: يا رسول الله، رأيناك تقول: آمين آمين آمين ولا نرى أحداً، فقال ﷺ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام صَعَدَ قَبْلِيَ الْعَتَبَةَ الأُولَى، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللهُ،**

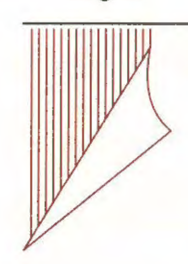
قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا صَعَدَ الْعَتَبَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَصَامَ نَهَارَهُ وَقَامَ لَيْلَهُ ثُمَّ مَاتَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، قُلْتُ: آمِينَ، فَلَمَّا صَعَدَ الْعَتَبَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: مَن ذُكِرْتَ عِندَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَمَاتَ وَلَمْ يُغْفَرَ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ، فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»[(١)].

وقوله: (تَغْتَنِم) مجزوم بالطلب قبله؛ أي: تَنَل المثوبة والأجر العظيم. والله تعالى أعلم بالصواب.



(١) «شُعَب الإيمان» للبيهقيّ ٥/ ٢٣٣.





الْفَصْلُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

«**اليوم الآخر**» هو: يوم القيامة الذي يُبعث فيه الخَلْق للحساب والجزاء.

وسمّي بذلك لأنه لا يوم بعده، حيث يستقرّ أهل الجنّة في منازلهم، وأهل النار في منازلهم.

ومعنى الإيمان باليوم الآخر: التصديق الجازم بإتيانه، وبجميع تفاصيله، فيشمل كل ما ورد في أخبار ذلك اليوم، وما يتعلّق به، فيدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة التي تكون قبلها، وبالموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، وبالنفخ بالصور، وخروج الخلائق من القبور، وبالجزاء والحساب، وما في موقف القيامة من الأهوال والأفزاع، وتفاصيل المحشر، ونَشْر الصُّحُف، ووضع الموازين، وبالصراط، والحوض، والشفاعة، وبالجنّة ونعيمها، وبالنار وعذابها، وغير ذلك.

٥٠٧ ـ ثُـمَّ مِـنَ الْأَرْكَـانِ أَن تُـصَـدِّقَـا   بِالْبَعْثِ وَالْـحَشْرِ لَدَىٰ دَارِ الْبَقَا

٥٠٨ ـ وَكُـلُّ مَـن مَـاتَ قِـيَـامَـتُـهُ قَـدْ   قَـامَـتْ عَـلَـيْـهِ فَـهُـنَـا أَخْـذٌ وَرَدّ

٥٠٩ ـ وَعِـنْـدَ الِاحْـتِـضَـارِ قَـد تَـنَـزَّلُ   مَلَائِكُ اللَّهِ بِبُشْرَىٰ تَحْصُلُ=

٥١٠ ـ لِـمُـؤْمِـنٍ يَلْقَى الرَّحِـيمَ، وَيَرَىٰ   مَقْعَدَهُ لَدَى الْـجِنَانِ اسْتَبْشَرَا

٥١١ ـ قَدْ يُفْتَنُ الْإِنسَانُ عِندَ الْـمَوْتِ   يَا رَبَّنَا أَحْسِنْ خِتَامَ الْفَوْتِ

٥١٢ ـ وَالْقَبْرُ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ لَدَىٰ آخِرَةٍ، نَرْجُو الأَمَانَ وَالْهُدَىٰ

٥١٣ ـ وَوَرَدَ الأَمْرُ بِالاِسْتِعَاذَةِ مِن فِتْنَةِ الْقُبُورِ وَالإِنَابَةِ

٥١٤ ـ نَعِيمُهُ، كَذَا الْعَذَابُ وَرَدَتْ بِهَا أَحَادِيثُ تَوَاتُراً غَدَتْ

٥١٥ ـ وَالْمُتَفَلْسِفَةُ وَالْمَلَاحِدَهْ وَأَهْلُ الاِعْتِزَالِ كُلٌّ جَحَدَهْ

٥١٦ ـ وَمِن ذَوِي الإِيمَانِ مَن يُؤَمَّنُ، مِن فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَنِعْمَ الْمَأْمَنُ،

٥١٧ ـ وَاعْلَم بِأَنَّ حُكْمَ دَارِ الْبَرْزَخِ يَجْرِي عَلَى الأَرْوَاحِ حَقّاً فَانتَخِ

٥١٨ ـ ثُمَّ لَهَا الأَبْدَانُ تَتْبَعُ، ....

***

(**ثُمَّ مِنَ الأَرْكَانِ**)؛ أي: أركان الإيمان الستة، وهو خبر مقدّم لقوله: (**أَن تُصَدِّقَا**) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، (**بِالْبَعْثِ**) من القبور (**وَالْحَشْرِ**)؛ أي: جَمْع الخلائق (**لَدَى دَارِ الْبَقَا**)؛ أي: في الدار الآخرة.

(**وَكُلُّ مَن مَاتَ قِيَامَتُهُ**) الصغرى الخاصّة به، (**قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ فَهُنَا**)؛ أي: عند موته، (**أَخْذٌ وَرَدّ**) المراد: مناقشته ومساءلته في قبره.

(**وَعِندَ الاحْتِضَارِ**)؛ أي: عند حضور أَجَلِ العبد، (**قَدْ تَنَزَّلُ**) أصله: تتنزّل، حُذفت إحدى التاءين تخفيفاً، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [القدر: ٤]، و﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤]، (**مَلَائِكُ اللهِ**) لغة في الملائكة، كما سبق بيانه. (**بِبُشْرَى**)؛ أي: ببشارة (**تَحْصُلُ**) تلك البشرى (**لِمُؤْمِنٍ**)، وذلك بأن (**يَلْقَى**) الله (**الرَّحِيمَ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ لَدَى الْجِنَانِ اسْتَبْشَرَا**) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: حال كونه مستبشراً.

(قَدْ يُفْتَنُ) بالبناء للمفعول، **(الإنسَانُ عِندَ الْمَوْتِ، يَا رَبَّنَا أَحْسِنْ خِتَامَ الْفَوْتِ)**؛ أي: الموت.

(وَالْقَبْرُ أَوَّلُ الْمَنَازِلِ لَدَى آخِرَةٍ)؛ يعني: أن القبر أول منازل الآخرة، **(نَرْجُو الأَمَانَ)** من عذاب القبر **(وَالْهُدَى)**؛ أي: الهداية إلى الصواب، بأن نُلهَم صواب الإجابة عند سؤال الملكين. **(وَوَرَدَ الأَمْرُ بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْ فِتْنَةِ الْقُبورِ)** أخرج البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها: أن النبيّ ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ، وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالْمَغْرَمِ، وَمِن فِتنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِن فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِن شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتُ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»[١].

وأخرج البخاريّ أيضاً عنها: أن رسول الله ﷺ كان يدعو في الصلاة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ الْمَحْيَا، وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ**»[٢].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُم مِنَ التَّشَهُّدِ الآخِرِ، فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ: مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِن فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِن شَرِّ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[٣].

---

(١) «صحيح البخاريّ» ٨/ ٧٩.
(٢) «صحيح البخاريّ» ١/ ١٦٦.
(٣) «صحيح مسلم» ١/ ٤١٢.

وأخرج مسلم أيضاً عن زيد بن ثابت، قال: بينما النبيّ ﷺ في حائط لبني النجار، على بَغْلَة له، ونحن معه، إذ حادت به، فكادت تُلقيه، وإذا أَقْبُرٌ ستة أو خمسة أو أربعة ـ قال: كذا كان يقول الجريريّ ـ فقال: «**مَن يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟**» فقال رجل: أنا، قال: «**فَمَتَى مَاتَ هَؤُلَاءِ؟**» قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَن لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَن يُسْمِعَكُم مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**». ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِن فِتْنَةِ الدَّجَّالِ**»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

وأخرج عن أنس رضي الله عنه؛ أن النبيّ ﷺ قال: «**لَوْلَا أَن لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَن يُسْمِعَكُم مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[1].

وقوله: (وَالإِنَابَةِ)؛ أي: الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة.

(نَعِيمُهُ)؛ أي: نعيم القبر، **(كَذَا الْعَذَابُ)**؛ أي: عذاب القبر، **(وَرَدَتْ بِهِ)**؛ أي: بالمذكور من النعيم والعذاب، **(أَحَادِيثُ)** عن النبيّ ﷺ، فمنها: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرْقَدِ، فأتانا النبيّ ﷺ، فقعد، وقعدنا حوله؛ كَأَنَّ على رؤوسنا الطير، وهو يُلحَد له، فقال: «**أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»

---

(١) «صحيح مسلم» ٤/ ٢٢٠٠.

ثلاث مرات، ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، وَانقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ؛ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِندَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفسُ الطَّيِّبَةُ، اخرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ»، قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ»، قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا ـ يعني: على ملأ من الملائكة ـ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِن كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَن صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ»، قال: «فَيَأْتِيهِ مِن رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»، قال: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ

حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي». قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِندَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ»، قال: «فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُهَا كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنتَنِ رِيحِ خَبِيثَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرِّيحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً»، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَن رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ، فَيَقُولُ: هَاه هَاه، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ:

أَن كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ». رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وروى النسائيّ وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم، وأبو عوانة الإسفرائيني في «صحيحيهما»، وابن حبان[1].

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السُّنَّة والحديث، وله شواهد من الصحيح.

فذكر البخاري رَحِمَهُ الله عن سعيد عن قتادة عن أنس رَضِيَ الله عَنْه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: انظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعاً». قال قتادة: وروي لنا: أنه يُفسح له في قبره، وذكر الحديث.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أن النبيّ ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فدعا بجريدة

(١) «شرح الطحاويّة» ص٩٢ ـ ٩٤.

رطبة، فشقَّها نصفين، وقال: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**».

وفي صحيح أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ، أَوِ الإِنسَانُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ**»، وذكر الحديث إلخ.

وقوله: (تَوَاتُراً غَدَتْ)؛ أي: صارت متواترة.

قال في «شرح الطحاويّة»: وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملَكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته؛ لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تُحِيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تُحَار فيه العقول، فإن عَوْد الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كليّاً بحيث لا يبقى لها إليه التفات ألبتة، فإنه وَرَد ردّها إليه وقت سلام المسلِّم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولّون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لِمَا قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً، فالنوم أخو الموت. فتأمل هذا يُزِح عنك إشكالات كثيرة.

وليس السؤال في القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح! والأحاديث الصحيحة تَرُدُّ القولين.

وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السُّنَّة والجماعة، تُنعَّم النفس وتعذَّب مفردة عن البدن ومتصلة به.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قُبِر أو لم يُقْبَر، أكلته السباع، أو احترق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء، أو صُلِبَ، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله تعالى ورسوله ﷺ أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد. والله المستعان.

فالحاصل أن الدُّور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار

القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها، ورُكِّبَ هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعاً لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبعاً لها، فإذا جاء يوم حَشْرِ الأجساد وقيام الناس من قبورهم صَار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يُعلم أن النار التي في القبر والنعيم، ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى تكون أعظم حرّاً من جمر الدنيا، ولو مسَّها أهل الدنيا لم يحسّوا بها.

بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه. وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تُحِط به علماً، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يُطْلِعَ على ذلك بعضَ عباده أَطْلَعَه وغَيَّبَهُ عن غيره، ولو أَطْلَعَ الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولَمَا تَدَافَنَ الناس، كما في الصحيح عنه ﷺ: **«لَوْلَا أَن لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَن يُسْمِعَكُم مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ»**. ولَمَّا كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سَمِعَتْ وأدركت.

وللناس في سؤال منكر ونكير ـ هل هو خاص بهذه الأمة أم لا؟ ـ ثلاثة أقوال:

الثالث: التوقف، وهو قول جماعة، منهم أبو عمر بن عبد البر، فقال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا**»، منهم من يرويه: «**تُسْأَلُ**»، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خُصَّت بذلك، وهذا أمر لا يُقْطَع به، ويظهر عدم الاختصاص. والله أعلم.

وكذلك اختُلف في سؤال الأطفال أيضاً، وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟

جوابه: أنه نوعان:

منه: ما هو دائم، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «**ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»، رواه الإمام أحمد في بعض طرقه.

والنوع الثاني: أنه مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خَفَّتْ جرائمهم، فيعذَّب بحَسَب جُرْمه، ثم يخفَّف عنه، كما تقدم ذِكره في الْمُمَحِّصَاتِ العشرة.

وقد اختُلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة:

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة، تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ، ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت!.

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس!.

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خَلْق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خُضْر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يوم تسلِّم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض. وهذا قول من يقول: إن النفس عَرَضٌ من أعراض البدن؛ كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسُّنَّة.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أُخَر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم. ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخص من أدلتها: أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت:

فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ، وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها: أرواح في حواصل طير خُضْر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة لِدَين عليه. كما في المسند عن عبد الله بن جحش: أن رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله: ما لي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: «**الْجَنَّةُ**»، فلما وَلَّى، قال: «**إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفاً**».

ومن الأرواح: من يكون محبوساً على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ صَاحِبَكُم مَحْبُوساً عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ**».

ومنهم: من يكون محبوساً في قبره.

ومنهم: من يكون محبوساً في الأرض.

ومنها: أرواح في تَنُّورِ الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتُلْقم الحجارة، كل ذلك تشهد له السُّنَّة. والله أعلم.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]، فهي: أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خُضْر، كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ** - يعني: يوم أُحد - **جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِن ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِن ذَهَبٍ مُظَلَّلَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ**»، الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود، وبمعناه في حديث ابن مسعود، رواه مسلم.

فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أَعَاضَهُم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعّم الأرواح المجردة عنها؛ ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير.

وتأمّل لفظ الحديثين، ففي «الموطأ» أن كعب بن مالك كان يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يُعَلَّقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**»؛ فقوله: «**نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ**» تَعُمَّ الشهيد وغيره، ثم خَصَّ الشهيد بأن قال: «**هِيَ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ**»، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على

فُرُشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم، فله نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه. والله أعلم.

وحَرَّمَ الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مُدد من دَفْنه كما هو لم يتغير، فيَحْتَمِل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويَحْتَمِل أنه يَبلى مع طول المدة. والله أعلم. وكأنه ـ والله أعلم ـ كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول[1].

(وَالْمُتَفَلْسِفَةُ وَالْمَلَاحِدَه وَأَهْلُ الاعْتِزَالِ كُلٌّ)؛ أي: كلّ هؤلاء الطوائف، **(جَحَدَه)**؛ أي: جحد عذاب القبر وأنكره.

(وَمِن ذَوِي)؛ أي: أهل **(الإِيمَانِ مَن يُؤَمَّنُ)** من التأمين؛ أي: ينجو **(مِن فِتْنَةِ الْقَبْرِ)** فلا يُفتن فيها، **(وَنِعْمَ الْمَأْمَنُ)**؛ أي: الأمن **(وَاعْلَمْ بِأَنَّ حُكْمَ دَارِ الْبَرْزَخِ يَجْرِي عَلَى الأَرْوَاحِ حَقّاً فَانتَخِ)**؛ أي: اختر هذا القول؛ لأنه الصواب. **(ثُمَّ لَهَا)**؛ أي: للأرواح، **(الأَبْدَانُ تَتْبَعُ)**؛ أي: تابعة لها؛ أي: فعذاب القبر ونعيمه للأرواح مع الأبدان.

وقد تقدّم عن شارح الطحاويّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: وليس السؤال في القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسدُ منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح! والأحاديث الصحيحة تردّ القولين، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السُّنَّة والجماعة، تُنعَّم النفس وتعذّب مفردة عن البدن ومتصلة به. انتهى.

---

(١) «شرح الطحاوية» ص٣٩٨ ـ ٤٠١.

٥١٩ - . . . . ، وَمِنْ   مَا يَنبَغِي الْإِيمَانُ عِندَ مَن فَطِنْ=

٥٢٠ - أَشْرَاطُ سَاعَةٍ، فَمِنْهَا: صُغْرَىٰ   كَبِعْثَةِ النَّبِيِّ، نِعْمَ فَخْرَا

٥٢١ - وَفَاتِهِ، كَذَا انشِقَاقُ الْقَمَرِ   وَغَيْرُهَا مِمَّا أَتَىٰ فِي الْخَبَرِ

٥٢٢ - مِن تِلْكَ: مَا يَقَعُ بِالتَّكْرَارِ   مِثْلُ: الدَّجَاجِلَةِ، وَالْأَشْرَارِ

٥٢٣ - وَالْخَسْفِ، وَالزِّلْزَالِ، وَالتَّدَاعِي   لِأُمَمِ الشُّرُورِ وَالْأَطْمَاعِ

٥٢٤ - مِن تِلْكَ: مَا يَكُونُ ذَا انتِظَارِ   كَمَثَلِ الْفُرَاتِ فِي انْحِسَارِ=

٥٢٥ - عَن جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ، وَعَوْدَةِ   جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ذَاتَ رَوْضَةِ

٥٢٦ - كَذَاكَ فَتْحُ الرُّومِ، مَعْ ظُهُورِ   الْبَطَلِ الْمَهْدِيِّ بِالسُّرُورِ

٥٢٧ - مِن تِلْكَ: كُبْرَىٰ، وَهْيَ: مَن سَيَظْهَرُ   الرَّجُلُ الدَّجَّالُ، بِئْسَ الْمَظْهَرُ

٥٢٨ - نُزُولُ عِيسَىٰ، ثُمَّ يَأْجُوجُ كَذَا   مَأْجُوجُ، وَالدُّخَانُ بَعْدُ فَخُذَا

٥٢٩ - ثُمَّ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا   لَا يَنفَعُ النُّفُوسَ طَوْعُ رَبِّهَا

٥٣٠ - وَتَخْرُجُ الدَّابَةُ، ثُمَّ النَّارُ   قَد تَحْشُرُ النَّاسَ لَهَا إِنذَارُ

٥٣١ - وَهِيَ آخِرُ الْعَلَامَاتِ الْكُبَرْ   أَوَّلُ مُؤْذِنِ الْقِيَامَةِ اسْتَقَرّ

٥٣٢ - وَبَعْدَهَا الْإِسْلَامُ قَدْ يَندَرِسُ   وَيُرْفَعُ الْقُرْآنُ نِعْمَ الْمُؤْنِسُ

٥٣٣ - وَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى الْأَوْثَانِ   وَهَدْمِ بَيْتِ اللَّهِ ذِي الْأَرْكَانِ

٥٣٤ - وَتَقْبِضُ الرِّيحُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ   يَبْقَى التَّهَارُجُ لِأَهْلِ الْفِتَنِ

***

(وَمِمَّا يَنبَغِي الإِيمَانُ) به **(عِندَ مَن فَطِن)** بتثليث الطاء، من باب: فَرِح، ونصر، وكرُم، والكسر أولى هنا؛ لئلا يلزم عيب السِّنَاد، والجارّ والمجرور خبر مقدّم **لقوله: (أَشْرَاطُ سَاعَةٍ)**؛ أي: علاماتها، وهي على قسمين:

(فَمِنْهَا صُغْرَى)؛ أي: علامات صغرى، وذلك (كَبِعْثَةِ النَّبِيِّ)؛ أي: رسالته ﷺ، (نِعْمَتْ فَخْرَا) وكـ(ـوَفَاتِهِ) ﷺ (كَذَا انشِقَاقُ الْقَمَرِ) قد تقدّم الكلام عليه. (وَغَيْرُهَا) من الأشراط (مِمَّا أَتَى فِي الْخَبَرِ)؛ أي: في آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة، (مِن تِلْكَ) الأشراط (مَا يَقَعُ بِالتَّكْرَارِ)؛ أي: وقوعاً مكرّراً، (مِثْلُ: الدَّجَاجِلَةِ) جمع: دجّال، وهو الكذاب، قال ثعلب: الدَّجَّال هو الْمُمَوِّه، يقال: سيف مُدَجَّلٌ: إذا طُلِي بذهب. وقال ابن دُريد: كل شيء غَطَّيْتَهُ فقد دَجَّلته، واشتقاق الدَّجَّال من هذا؛ لأنه يُغَطِّي الأرض بالجمع الكثير، وجَمْعه: دجّالون[1].

وهذا إشارة إلى ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَقْتَتِلَ فِئَتَانِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، دَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيباً مِن ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ».

وقوله: (وَالْأَشْرَارِ) من عطف الخاصّ على العامّ.

(وَالْخَسْفِ) أخرج البخاريّ رحمه الله في «صحيحه» عن عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعريّ، قال: حدّثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعريّ، والله ما كَذَبني: سمع النبيّ ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ، وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمْرَ، وَالْمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ إِلَى جَنبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِم بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يَأْتِيهِمْ - يعني: الفقير - لِحَاجَةٍ فَيَقُولُونَ: ارْجِعْ إِلَيْنَا غَداً، فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ، وَيَضَعُ الْعَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(١) «المصباح المنير» ١/ ١٨٩.

وأخرج مسلم في «صحيحه» عن حذيفة بن أَسِيد الغفاريّ، قال: اطلع النبيّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: **«مَا تَذَاكَرُونَ؟»** قالوا: نذكر الساعة، قال: **«إِنَّهَا لَن تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَم ؏، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»**.

(وَالزِّلْزَالِ) بكسر الزاي وفتحها؛ أي: تَحَرُّك الأرض واضطرابها، **(وَالتَّدَاعِي)**؛ أي: التَّأَلُّب والاجتماع، **(لأُمَمِ الشُّرُورِ)**؛ يعني: الكفّار من اليهود والنصارى وغيرهم. **وقوله:** **(وَالأَطْمَاعِ)** بالفتح، جمع: طمع؛ أي: الذين يطمعون في نهب أموال المسلمين وثرواتهم.

أخرج أبو داود في «سننه» عن ثوبان ؓ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُوشِكُ الأُمَمُ أَن تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»**، فقال قائل: ومن قِلَّةٍ نحن يومئذ؟ قال: **«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ»**، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهَن؟ قال: **«حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»**. حديث صحيح.

(مِنْ تِلْكَ) الأشراط، خبر مقدّم **لقوله:** **(مَا يَكُونُ ذَا انتِظَارِ)**؛ أي: صاحب انتظار في مستقبل الزمان، ولم يقع بعدُ، **(كَمَثَلِ الْفُرَاتِ)** بضم الفاء وتخفيف الراء، هو نهرٌ عظيمٌ مشهورٌ، يخرج من

حدود الروم، ثم يمرّ بأطراف الشام، ثم بالكوفة، ثم بالْحِلّة، ثم يلتقي مع دِجلة في البطائح، ويصيران نهراً واحداً، ثم يصبّ عند عَبّادان في بحر فارس، قاله الفيّوميّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

(فِي انْحِسَارِ)؛ أي: في انكشافه **(عَن جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ)** هذا إشارة إلى ما أخرجه الشيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَن يُحْسَرَ عَن كَنْزٍ مِن ذَهَبٍ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً»**، لفظ البخاريّ.

ولفظ مسلم: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُحْسَرَ الْفُرَاتُ عَن جَبَلٍ مِن ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِن كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ: لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنجُو»**.

(وَعَوْدَة)؛ أي: صيرورة **(جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)** «الْجَزِيرة» بفتح الجيم وكسر الزاي، من: جَزَرَ الماءُ جَزْراً، من بابَيْ: «ضرب، وقتل»: انحسر، وهو رجوعه إلى خلف، سُمّيت جَزِيرةً لانحسار الماء عنها. وأما جزيرة العرب فقال الأصمعيّ: هي ما بين عَدَن أَبْيَنَ إلى أطراف الشام طولاً، وأما العَرْض: فمن جُدَّة وما والاها من شاطئ البحر إلى رِيف العراق.

وقال أبو عبيدة: هي ما بين حَفَر أبي موسى إلى أقصى تِهامة طولاً، أما العَرْض: فما بين يَبْرِين إلى منقطع السَّماوة، والعالية: ما فوق نجد إلى أرض تهامة إلى ما وراء مكة، وما كان دون ذلك إلى أرض العراق فهو نَجْد.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٦٥.

ونقل البكريّ أن جزيرة العرب: مكة، والمدينة، واليمن، واليمامة.

وقال بعضهم: جزيرة العرب خمسة أقسام: تهامة، ونجد، وحجاز، وعَروض، ويَمَن، فأما تهامة فهي الناحية الجنوبية من الحجاز، وأما نجد فهي الناحية التي بين الحجاز والعراق، وأما الحجاز فهو جبل يُقبل من اليمن حتى يتصل بالشام، وفيه المدينة، وعُمَان، وسُمّي حجازاً لأنه حَجَز بين نجد وتهامة.

وأما العَرُوض فهو اليمامة إلى البحرين.

وأما اليمن فهو أعلى من تهامة، هذا قريب من قول الأصمعيّ، ذكره الفيّوميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

(ذَاتَ رَوْضَةِ) بفتح الراء وسكون الواو؛ أي: صاحبة بستان، قال الفيّوميّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والروضة: الموضع المعجب بالزهور، يقال: نزلنا أرضاً أَرِيضةً، قيل: سمِّيت بذلك لاستراضة المياه السائلة إليها؛ أي: لسكونها بها. وأَرَاضَ الوادي، واستَرَاضَ: إذا استَنقَعَ فيه الماءُ، واستراضَ: اتسع، وانبسط، ومنه يقال: افْعَل ما دامت النفس مُستريضةً، وجَمْع الروضة: رِياض، ورَوْضات ـ بسكون الواو للتخفيف ـ، وهُذيل تَفتح على القياس. انتهى[(٢)].

وقوله أيضاً: (ذَاتَ رَوْضَةِ) إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«لَا تَقُومُ**

(١) «المصباح المنير» ١/٩٨.

(٢) «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» ١/٢٤٥ ـ ٢٤٦.

السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ، وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلَا يَجِدُ أَحَداً يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجاً وَأَنْهَاراً».

(كَذَاكَ فَتْحُ الرُّومِ) بالضم، جِيل من وَلَدِ الروم بن عيصو بن إسحاق عليه السلام، سمُّوا بِاسْم جَدِّهم، واحد الروم: روميّ؛ كزنج وزنجيّ، ليس بين الواحد والجمع إلا الياء المشددة، كما قالوا: تمرة وتمر، ولم يكن بين الواحد والجمع إلا الهاء. أفاده في «التاج»[١].

وهذا إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي قتادة العدويّ، عن يُسَير بن جابر، قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرَى إلَّا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئاً، فقال: إن الساعة لا تقوم، حتى لا يُقْسَم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ـ ونحَّاها نحو الشأم ـ فقال: عدوّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شُرْطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يُمْسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع، نَهَدَ

---

(١) «تاج العروس» ٣٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدَّبَرَةَ عليهم، فيُقتلون مقتلة ـ إما قال: لا يُرى مثلها، وإما قال: لم يُرَ مثلها ـ حتى إن الطائر ليمرّ بجنباتهم، فما يخلفهم حتى يخر ميتاً، فيتعادّ بنو الأب، كانوا مائة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح؟ أو أي ميراث يقاسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذَرَاريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويُقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ، وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ** ـ أو: **مِنْ خَيْرِ فَوَارِسِ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ** ـ». قال ابن أبي شيبة في روايته: عن أسير بن جابر.

(مَعْ ظُهُورِ الْبَطَلِ) بفتحتين؛ أي: الشجاع، **(الْمَهْدِيِّ)** بصيغة اسم المفعول. **وقوله: (بِالسُّرُورِ)** متعلّق بـ«ظهور» يعني: أنه يأتي بالسرور والفرح، حيث إنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما مُلِئَت جوراً وظلماً، وإن المسلمين في عهده يتنعّمون بنِعَم لم يَروا مثلها، حيث يسود العدل، وتمطر السماء قَطْرها، وتُخرجُ الأرض نباتها، ويعطي المال بغير عدد.

والمهديّ هذا اسمه يوافق اسم النبيّ ﷺ، واسم أبيه، فهو: محمد بن عبد الله، وهو من آل البيت من ذرّيّة فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يخرج في آخر الزمان، يلي أمر هذه الأمة، ويملك سبع سنين، يكون ظهوره من قِبَل المشرق، كما صرّحت بذلك الأحاديث.

وقد وردت فيه أحاديث:

فمنها: ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كَيْفَ أَنتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ، وَإِمَامُكُمْ مِنكُمْ»**.

وأخرج الحاكم في «مستدركه»[(١)] عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ، يَسْقِيهِ اللهُ الْغَيْثَ، وَتُخْرِجُ الأَرْضُ نَبَاتَهَا، وَيُعْطِي الْمَالَ صِحَاحاً، وَتَكْثُرُ الْمَاشِيَةُ، وَتَعْظُمُ الأُمَّةُ، يَعِيشُ سَبْعاً، أَوْ ثَمَانِياً»**؛ يعني: حِجَجاً، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبيّ.

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أُبَشِّرُكُمْ بِالْمَهْدِيِّ، يُبْعَثُ فِي أُمَّتِي عَلَى اخْتِلَافٍ مِنَ النَّاسِ وَزَلَازِلَ، فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ جُوراً وَظُلْماً، يَرْضَى عَنْهُ سَاكِنُ السَّمَاءِ وَسَاكِنُ الأَرْضِ، يَقْسِمُ الْمَالَ صِحَاحاً»**، فقال له رجل: ما صحاحاً؟ قال: **«بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ»**. قال: **«وَيَمْلأُ اللهُ قُلُوبَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ غِنًى، وَيَسَعُهُمْ عَدْلُهُ، حَتَّى يَأْمُرَ مُنَادِياً فَيُنَادِي فَيَقُولُ: مَن لَهُ فِي مَالٍ حَاجَةٌ؟ فَمَا يَقُومُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلٌ فَيَقُولُ: أَنَا، فَيَقُولُ: ائْتِ السَّدَّانَ** ـ يعني: الخازن ـ **فَقُل لَهُ: إِنَّ الْمَهْدِيَّ يَأْمُرُكَ أَن تُعْطِيَنِي مَالاً، فَيَقُولُ لَهُ: احْثُ، حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ فِي حِجْرِهِ وَأَبْرَزَهُ نَدِمَ، فَيَقُولُ: كُنتُ أَجْشَعَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ نَفْساً، أَوَ عَجَزَ عَنِّي مَا وَسِعَهُمْ؟ قَالَ: فَيَرُدُّهُ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّا لَا نَأْخُذُ شَيْئاً أَعْطَيْنَاهُ، فَيَكُونُ كَذَلِكَ سَبْعَ سِنِينَ** ـ أو: **ثَمَانِ سِنِينَ**، أو: **تِسْعَ سِنِينَ** ـ

---

(١) «المستدرك على الصحيحين» ٤/ ٦٠١.

ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُ ـ أو قال: ثُمَّ لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَهُ ـ»[1].

وأخرج أحمد أيضاً عن عليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ، يُصْلِحُهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ»[2].

وأخرج أبو داود في «سننه» عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْمَهْدِيُّ مِنِّي، أَجْلَى الْجَبْهَةِ، أَقْنَى الأَنفِ، يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً، كَمَا مُلِئَتْ جُوراً وَظُلْماً، يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ»[3].

(مِن تِلْكَ) الأشراط، وهو خبر مقدّم **لقوله: (كُبْرَى)**؛ أي: عِظَامٌ، **(وَهْيَ)** الأشياء المذكورة بعدُ، فمنها: **(مَن سَيَظْهَرُ)** في المستقبل، وهو **(الرَّجُلُ الدَّجَّالُ)**؛ أي: الكذّاب، قال ثعلب: الدجال هو الْمُمَوِّه، يقال: سيف مُدَجَّل: إذا طُلي بذهب، وقال ابن دُريد: كلُّ شيء غَطّيته فقد دَجلته، واشتقاق الدجال من هذا؛ لأنه يغطي الأرض بالجمع الكثير، وجَمْعه: دجالون. قاله الفيّوميّ[4].

(بِئْسَ الْمَظْهَرُ)؛ أي: بئس الظهور ظهوره.

أخرج مسلم في «صحيحه» عن النوّاس بن سَمْعان، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفّض فيه ورفّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى

---

(١) «مسند أحمد» ١٧/ ٤٢٧.
(٢) «مسند أحمد» ١٧/ ٤٢٧.
(٣) «سنن أبي داود» ٤/ ١٠٧.
(٤) «المصباح المنير» ١/ ١٨٩.

ظنناه في طائفة النخل، فقال: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِن يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِن يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ؛ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِيناً، وَعَاثَ شِمَالاً، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا**». قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمْعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ**». قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ**». قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُراً، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمُ، فَيَدْعُوهُمْ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرْبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَاباً، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ...**» الحديث.

(**نُزُولُ عِيسَى**)؛ أي: ثُمَّ نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَن يَنزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً مُقْسِطاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**».

وأخرج البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَن يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»**، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

وفي حديث الدجال المذكور آنفاً من عند مسلم: قال: **«فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ...»** الحديث.

(ثُمَّ يَأْجُوجُ كَذَا مَأْجُوجُ) قيل: اسمان عربيان، وقيل: أعجميّان، وقد قرأ عاصم بالهمز، والباقون بغير همز.

قال القرطبيّ: وقرأ عاصم: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤] بالهمزة فيهما، وكذلك في الأنبياء [٩٦] على أنهما مشتقان من أَجّة الحرّ، وهي: شدته وتوقّده، ومنه: أجيج النار، ومنه قولهم: ملح أجاج؛ فيكونان عربيين من أجّ ومجّ، ولم يُصرفا لأنهما جُعلا اسمين فهما مؤنثتان معرَّفتان، والباقون بغير همز جعلوهما لقبيلتين أعجميتين، ولم يُصرَفا للعُجمة والتعريف.

وذكر القرطبيّ أيضاً: وهما أمّتان من ولد يافث بن نوح، مدّ الله لهما في العمر، وأكثر لهما في النسل، حتى ما يموت الرجل من يأجوج

ومأجوج حتى يولد له ألف ولد، فولدُ آدم كلهم عشرة أجزاء، يأجوج ومأجوج منهم تسعة أجزاء، وسائر ولده كلهم جزء واحد. انتهى[(١)].

وأدلة خروجهم من القرآن: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ۝٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ۝٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ۝٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ۝٩٧ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ۝٩٨ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ۝٩٩﴾ [الكهف: ٩٣ ـ ٩٩].

ومن السُّنَّة: ما أخرجه الشيخان عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش رضي الله عنها، أن النبيّ ﷺ دخل عليها فزِعاً يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ**» وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أَنَهْلِك وفينا الصالحون؟ قال: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**».

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» ص١٣٢٨.

وفي حديث النوّاس بن سمعان رضي الله عنه المتقدّم.... وفيه: **«فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عَيْسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي، لَا يُدَانُ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْراً مِن مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ»** الحديث.

وزاد في رواية بعد قوله: **«لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ»: «ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمْرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَن فِي الأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَن فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنِشَابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيْهِمْ نِشَابَهُم مَخْضُوبَةً دَماً»**.

(وَالدُّخَانُ)؛ أي: ومن الأشراط: ظهور الدخان في آخر الزمان، وقد دلّ عليه الكتاب والسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠، ١١].

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا الدخان على قولين:

أحدهما: أنه الدُّخان الذي أصاب قريشاً من شدّة الجوع عندما

دعا عليهم النبيّ ﷺ حين لم يستجيبوا له، فأصبحوا يرون في السماء كهيئة الدخان.

وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود رضي الله عنه، وتبعه جماعة من السلف.

والثاني: أن هذا الدخان من الآيات المنتظرة التي لم تجئْ بعدُ، وسيقع قرب قيام الساعة.

وإلى هذا ذهب ابن عبّاس، وبعض الصحابة والتابعين[(١)].

ومن السُّنَّة: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتّاً: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ**».

وأخرج أحمد عن حذيفة بن أسيد مرفوعاً: «**إِنَّهَا لَن تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ: الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ...**» الحديث.

وقوله: (**بَعْدُ**) من الظروف المبنيّة على الضمّ؛ لِقطعه عن الإضافة ونيّة معناها؛ أي: بعد يأجوج ومأجوج. **وقوله**: (**فَخُذَا**)؛ أي: خذ ما ذكرت لك من الأشراط، فإنها ثابتة بالنصوص الصحيحة.

(**ثُمَّ**) من الأشراط أيضاً: (**طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا**) خلاف عادتها المستمرّة، حيث كانت تطلع من مشرقها، (**لَا يَنفَعُ النُّفُوسَ طَوْعُ رَبِّهَا**)؛ أي: طاعة الله تعالى، يقال: طاعه طَوْعاً، من باب قال؛ كأطاعه: إذا انقاد له.

---

(١) راجع: «تفسير الطبريّ» ٥٢/١١٣، و«تفسير ابن كثير» ٤/١٤٠ ـ ١٤٣.

فطلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرى، وهو ثابت بالكتاب والسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقد دلّت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في الآية: طلوع الشمس من مغربها، وهو قول أكثر المفسّرين.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾** [الأنعام: ١٥٨]».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتّاً: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»**.

قال القرطبيّ رحمه الله: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانها عند طلوع الشمس من مغربها؛ لأنه خَلَص إلى قلوبهم من الفزع ما تخمد معه كلّ شهوة من شهوات النفس، وتفتُرُ كلّ قوّة من قُوى البدن، فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدنوّ القيامة في حال من حضره الموت من انقطاع الدواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم، فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت. انتهى[1].

---

(١) «التذكرة» ص٧٩٤.

(وَتَخْرُجُ الدَّابَةُ) بتخفيف الباء الموحّدة للوزن؛ أي: ومن أشراط الساعة الكبرى الثابتة بالكتاب والسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

فهذه الآية الكريمة صرّحت بخروج الدابّة، وأن ذلك يكون عند فساد الناس، وتَرْكهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحقّ، فيخرج الله لهم دابّة من الأرض تكلّمهم على ذلك.

قال القرطبيّ: قال العلماء: معنى ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وجب الوعيد عليهم؛ لتماديهم في العصيان، والعقوق، والطغيان، وإعراضهم من آيات الله، وتَرْكهم تدبّرها، والنُّزول على حكمها، وانتهى بهم في المعاصي إلى ما لا يَنجَعُ معه فيهم موعظة، ولا يَصْرِفهم عن غَيِّهم تَذْكرة، يقول ـ عَزَّ من قائل ـ: فإذا صاروا كذاك ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: دابَّة تعقل وتنطلق، وذلك ـ والله أعلم ـ ليقع لهم العلم بأنه آية من قِبَل الله تعالى ضرورة، فإن الدواب في العادة لا كلام لها، ولا عقل. انتهى[1].

والدليل من السُّنَّة على خروجها: ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِن مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ»**.

وأخرج أحمد في «مسنده» عن أبي أمامة رضي الله عنه، يرفعه إلى

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» ص١٣٣١.

النبيّ ﷺ، قال: «**تَخْرُجُ الدَّابَّةُ، فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ، حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ، فَيَقُولُ: مِمَّنِ اشْتَرَيْتَهُ؟ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ**» حديث صحيح.

قيل: إنها تخرج من مكة. وقيل: لها ثلاث خرجات، فمرّة تخرج في بعض البوادي، ومرّة في بعض القرى، ثم تظهر في المسجد الحرام. فإذا خرجت تَسِمُ المؤمن والكافر، فأما المؤمن فإنها تجلو وجهه حتى يُشرق، ويكون ذلك إيمانه، وأما الكافر فإنها تَخْطِمه على أنفه علامة على كفره[1]. والله تعالى أعلم.

(**ثُمَّ النَّارُ قَد تَحْشُرُ النَّاسَ لَهَا إِنذَار**)؛ أي: تخويف للناس؛ يعني: أن من أشراط الساعة الكبرى أيضاً خروج النار، وقد جاءت الروايات بأن خروجها يكون من اليمن من قعرة عدن، وفي رواية من بحر حضرموت.

وفي حديث حذيفة بن أَسِيد الغفاريّ رضي الله عنه في ذِكر أشراط الساعة: قوله ﷺ: «**وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ**».

وفي رواية: «**وَنَارٌ تَخْرُجُ مِن قَعْرَةِ عَدَنٍ، تُرَحِّلُ النَّاسَ**».

وعند ظهور هذه النار من اليمن تنتشر في الأرض، وتسوق الناس إلى أرض المحشر.

والذين يُحشَرون يكونون على أصناف ثلاثة: فقسم يحشرون طاعمين، كاسين، راكبين، وقسم يمشون تارة، ويركبون أخرى،

---

(١) «أشراط الساعة» ص٤١٥ ـ ٤١٦.

وهم يعتقبون على البعير الواحد، اثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وعشرة على بعير؛ يعني: يعتقبونه من قلة الظَّهر، وتَحشر بقيتهم النار، وهي التي تخرج من قعر عدن، فتحيط بالناس من ورائهم، تسوقهم من كل جانب، إلى أرض المحشر، ومن تَخَلَّف منهم أكلته النار[1].

(وَهِيَ)؛ أي: النار، (آخِرُ الْعَلَامَاتِ الْكُبَر) بضمّ ففتح، جمع: كُبْرى، (أَوَّلُ)؛ أي: هي أول (مُؤْذِنٍ) من الإيذان؛ أي: مُعْلِم، (الْقِيَامَةِ). **وقوله:** (اسْتَقَرّ) حال من «مؤذن»؛ أي: حال كونه ثابتاً في النصوص الصحيحة، كما سبق بيانه.

(وَبَعْدَهَا)؛ أي: بعد خروج هذه النار، (الإِسْلَامُ قَدْ يَندَرِسُ)؛ أي: يُمحى وتزول آثاره، (وَيُرْفَعُ الْقُرْآنُ) من الأرض، (نِعْمَ الْمُؤْنِسُ) لمن آمن به وحكّمه على حياته كلّها، (وَيَرْجِعُ النَّاسُ إِلَى الأَوْثَانِ)؛ أي: إلى عبادتها، (وَهَدْم بَيْتِ اللهِ)؛ أي: الكعبة (ذِي الأَرْكَانِ)؛ أي: صاحب الأركان الأربعة: ركن الحجر، والركن اليماني، والركن الشاميّ، والركن العراقيّ.

وهذا إشارة إلى ما أخرجه ابن ماجه في «سننه» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَدْرُسُ الإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلَا صَلَاةٌ، وَلَا نُسُكٌ، وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللهِ عز وجل فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا**

(١) «النهاية في الفتن والملاحم» لابن كثير ١/ ٢٨٧.

آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَنَحْنُ نَقُولُهَا»، فقال له صلة[(١)]: ما تغني عنهم «لا إلٰه إلا الله» وهم لا يدرون ما صلاة، ولا صيام، ولا نسك، ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردّها عليه ثلاثاً، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلة، تنجيهم من النار «ثلاثاً». حديث صحيح.

قال الحافظ البوصيريّ: إسناده صحيح، رجاله ثقات، رواه الحاكم وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم. انتهى[(٢)].

(وَتَقْبِضُ) بالبناء للفاعل. **وقوله:** (الرِّيحُ) مرفوع على الفاعليّة، (لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ)؛ يعني: أن بعد أشراط الساعة المتقدّمة يبعث الله ـ سبحانه ـ ريحاً ليِّنة، فتقبض روح كلّ مؤمن ومؤمنة.

(يَبْقَى التَّهَارُجُ)؛ أي: التَّسافُد، وهو جماع الرجال النساء في الطرقات، كما تفعل الحمير. (لأَهْلِ الْفِتَنِ)؛ أي: لأهل الشرور، وهم الكفار الذين تقوم عليهم الساعة.

وقد تقدّم في حديث النوّاس بن سمعان رضي الله عنه عند مسلم: **«فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحاً طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»**. والله تعالى أعلم.

٥٣٥ ـ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُدَكُّ الأَرْضُ، مَعْ ... تَفَطُّرِ السَّمَا، وَطَيُّهَا يَقَعْ

٥٣٦ ـ تُكَوَّرُ الشَّمْسُ، وَيُخْسَفُ الْقَمَرْ ... تَفَجُّرُ الْبِحَارُ، وَالنَّجْمُ انكَدَرْ

٥٣٧ ـ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ثَلَاثاً لِلْفَزَعْ ... ثُمَّتَ لِلْمَوْتِ سِوَىٰ مَنِ انتَزَعْ

(١) ابن زُفر التابعيّ الكوفيّ.

(٢) «سنن ابن ماجه» ٢/ ١٣٤٤.

٥٣٨ ـ ثَالِثَةٌ تَكُونُ لِلْقِيَامِ فَيَنظُرُونَ قُدْرَةَ الْعَلَّامِ

٥٣٩ ـ أَوَّلُ مَن تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ نَبِيُّنَا، لَهُ الْعَطَا وَالْحَوْضُ

٥٤٠ ـ وَيُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً غُرْلَا كَذَا عُرَاةً، مَا أَشَدَّ الْهَوْلَا

٥٤١ ـ أَوَّلُ مَن يُكْسَى الْخَلِيلُ مُكْرَمَا صَلَّىٰ عَلَيْهِ رَبُّنَا وَسَلَّمَا

٥٤٢ ـ وَالْمُتَّقُونَ يُحْشَرُونَ رُكَّبَا وَفْداً إِلَى الرَّحْمَنِ، نِعْمَ مَرْكَبَا

٥٤٣ ـ وَيُحْشَرُ الْكُفَّارُ عُمْياً بُكْمَا عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، وَوِرْداً صُمَّا

٥٤٤ ـ ثُمَّ لِيَوْمِ الْجَمْعِ كُلٌّ يُجْمَعُ لَا حَوْلَ لَا قُوَّةَ فِيهِمْ يَنفَعُ

٥٤٥ ـ وَجَاءَ رَبُّكَ، وَصَفَّ الْمَلَكُ وَيُعْرَضُونَ كُلُّهُمْ لَن يُتْرَكُوا

٥٤٦ ـ وَلِخُصُوصِ الْمُؤْمِنِينَ تُعْرَضُ عِصْيَانُهُمْ كَي يَعْرِفُوا مَا نَقَضُوا

٥٤٧ ـ ثُمَّتَ يَمْحُوهَا الْكَرِيمُ فَضْلَا أَكْرِمِ بِذَا الْحِسَابِ يُسْراً سَهْلَا

٥٤٨ ـ أَمَّا الْعَسِيرُ فَهْوَ: أَن يُنَاقَشَا مَن نَالَهُ عُذِّبَ إِلَّا أَن يَشَا

٥٤٩ ـ وَمِنْهُمُ مَن لَا حِسَابَ نَالَهُ بَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، نِعْمَ ذَا لَهُ

***

(يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متعلّق **بقوله:** (تُدَكُّ الأَرْضُ) كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، والدكّ: الكسر والدقّ، والمعنى: أنها زُلزلت، وحُركت تحريكاً بعد تحريك. قال ابن قتيبة: دُكت جبالها حتى استوت. (مَعْ تَفَطُّرِ)؛ أي: تشقّق (السَّمَا) كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]. **وقوله:** (وَطَيُّهَا) مبتدأ؛ أي: طيّ السماء، ولفّها كما تُلفّ الصحف. **وقوله:** (يَقَع) خبر المبتدأ؛ أي: سيقع، كما تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قالوا في تفسير الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي﴾ بنون العَظَمة؛ أي: اذكر يوم نطوي السماء ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، وقرئ: ﴿تُطوى﴾ بالفوقية ورفع ﴿السماءُ﴾، وبالتحتية على معنى: يطوي الله السماء، والأُولى أظهر وأوضح.

والطي في هذه الآية يَحْتَمِل معنيين:

أحدهما: الذي هو ضد النشر، ومنه قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

والثاني: الإخفاء والتعمية والمحو؛ لأن الله سبحانه يمحو ويطمس رسومها، ويكدّر نجومها، والمراد بالسماء: الجنس.

والسجلّ: الصحيفة؛ أي: طياً كطي الطومار للكتابة.

وقيل: السجل: الصك، وهو مشتق من المساجلة، وهي: المكاتبة، وأصلها: من السَّجْل، وهو: الدلو، يقال: ساجلت الرجل: إذا نزعت دلواً ونزع هو دلواً، ثم استعيرت للمكاتبة والمراجعة في الكلام.

وقرئ: ﴿السُّجُلّ﴾ بضم السين والجيم وتشديد اللام، وقرئ: ﴿السَّجْل﴾ بفتح السين وإسكان الجيم.

وقيل: السجل: اسم ملَك في السماء الثالثة، وهو الذي يطوي كُتُب بني آدم.

وقيل: هو اسم كاتب لرسول الله ﷺ. قاله ابن عباس، أخرجه أبو داود، والنسائيّ، وعن ابن عمر مثله، قال ابن كثير: هذا منكر جداً، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وإن كان في سنن أبي داود، منهم الحافظ المزيّ، وقد أفرد الشوكانيّ لهذا الحديث جزءاً

على حِدَة، وقد تصدى الإمام ابن جرير للإنكار على هذا الحديث وردَّه أتم ردّ، وقال: ولا نعرف في الصحابة أحداً اسمه «سجل»، وكُتَّاب رسول الله ﷺ كانوا معروفين، وليس فيهم أحد اسمه السجل. انتهى (١).

(تُكَوَّرُ الشَّمْسُ)؛ أي: تُلفّف ويُذهب بمائها، **(وَيُخْسَفُ الْقَمَر)**؛ أي: يُظلم ويذهب ضوؤه، **(تَفَجَّرُ الْبِحَارُ)** بحذف إحدى التاءين، وأصله: تتفجّر؛ أي: يُفْتَح بَعْضهَا فِي بَعْض، فَتصير بحراً واحداً، ويخْتَلطُ العَذْب بالْمِلْحِ، **(وَالنَّجْمُ انكَدَر)**؛ أي: انقَضَّت وتساقطت على الأرض.

(يُنفَخُ) بالبناء للمفعول، **(فِي الصُّورِ)** هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧]، **(ثَلَاثاً)**؛ أي: ثلاث مرّات، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: والنفخات في الصور ثلاث: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة البعث. وقيل: إنها نفختان، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق، أو إلى نفخة البعث، واختار هذا القشيريّ، والقرطبيّ، وغيرهما. وقال الماوردي: هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور.

(لِلْفَزَع)؛ أي: إحداهما لفزع الخلق، قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: خافوا وانزعجوا

---

(١) «فتح البيان في مقاصد القرآن» ٨/ ٣٧٧.

لشدة ما سمعوا، وقيل: المراد بالفزع هنا: الإسراع والإجابة إلى النداء، من قولهم: فزعت إليك في كذا: إذا أسرعت إلى إجابتك، والأول أولى بمعنى الآية.

وإنما عَبَّر بالماضي مع كونه معطوفاً على مضارع؛ للدلالة على تحقيق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان. وقال الفراء: هو محمول على المعنى لأن المعنى: إذا نفخ.

(ثُمَّتَ) النفخة الثانية (لِلْمَوْتِ)؛ أي: ليموت بها الخلق، (سِوَى مَنِ انتَزَعْ) بالبناء للفاعل؛ أي: سوى من استثناهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة.

واختُلف في تعيين من وقع الاستثناء له، فقيل: هم الشهداء، والأنبياء، وقيل: الملائكة، وقيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملَك الموت، وقيل: الحور العين، وقيل: هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل: ٨٩]، ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين(١)، فلا مانع من ذلك. والله تعالى أعلم.

(ثَالِثَةٌ) وتجيء نفخة ثالثة (تَكُونُ لِلْقِيَامِ)؛ أي: ليقوم الناس من محل صعقهم، (فَيَنظُرُونَ قُدْرَةَ الْعَلَّامِ) سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ أي: ثم نُفخ فيه نفخة أخرى فإذا هم قيام ينظرون؛ يعني: أن الخلق كلهم قائمون

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني ٤/١٧٨.

على أرجلهم، ينظرون ما يقال لهم، أو ينتظرون ذلك[1].

(أَوَّلُ مَن تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ نَبِيُّنَا) محمد ﷺ، أخرج البخاريّ عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه مرفوعاً، وفيه: «**فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَن تنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ...**» الحديث.

وأخرج الطيالسيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مطوّلاً، وفيه: «**أَلَا وَإِنِّي سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَوَّلُ مَن تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ، تَحْتَهُ آدَمُ فَمَن دُونَهُ، وَلَا فَخْرَ...**» الحديث، صحيح.

(لَهُ الْعَطَا) الجزيل من ربه ـ سبحانه ـ، كما وعده ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: ٥] قال ابن كثير رحمه الله: أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جُملته نهر الكوثر الذي حافتاه قِباب اللؤلؤ المجوَّف، وطينه مِسْكٌ أذفر. انتهى.

(وَ)له ﷺ **(الْحَوْضُ)** أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: قال النبيّ ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَن شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبداً**».

ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبداً**».

---

(١) المصدر السابق.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ قَدرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ**». قالوا: يا رسول الله، أتعرفنا يومئذ؟ قال: «**نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**».

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ حَوْضِي لأَبْعَدَ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لأَذُودُ عَنْهُ الرِّجَالَ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ الإِبِلَ الْغَرِيبَةَ عَنْ حَوْضِهِ**». قالوا: يا رسول الله، وتعرفنا؟ قال: «**نَعَمْ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ**». وغير ذلك من الأحاديث، فأحاديث الحوض متواترة.

(وَيُحْشَرُ) بالبناء للمفعول، **(النَّاسُ)** حال كونهم **(حُفَاةً)** بالضمّ، جمع: حافٍ، وهو: الذي ليس له نَعل ولا خُفّ، **(غُرْلاً)** بضم فسكون، جمع: أغرل، وهو: الأقلف الذي لم يُختن، **(كَذَا عُرَاةً)** بالضمّ، جمع: عارٍ، وهو: الذي ليس عليه لباس، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبيّ ﷺ قال: «**إِنَّكُم مَحْشُورُونَ حُفاةً عُرَاةً غُرْلاً**»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ

نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، «وَأَوَّلُ مَن يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أُنَاساً مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِم مُنذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]».

ولفظ مسلم: قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ ﵇، أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]» قال: «فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِم مُنذُ فَارَقْتَهُمْ».

وقوله: (مَا أَشَدَّ الْهَوْلَا) تعجّب من شدّة هول ذلك، وتعظيم لشأنه، أخرج الشيخان عن عائشة ﵂، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً». قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَن يُهِمَّهُمْ ذَاكَ»، ولفظ مسلم: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَن يَنظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ».

(أَوَّلُ مَن يُكْسَى) بالبناء للمفعول، (الْخَلِيلُ) إبراهيم عليه السلام، حال كونه (مُكْرَمَا) بذلك؛ حيث أهانه قومه، وألقوه في النار مجرّداً من ثيابه، فجازاه الله تعالى بأن جعله أول من يُكسى يوم القيامة، جزاءً وفاقاً، فما أجلّ الإكرام، وأكرمه، وأنبله، وأعظمه، (صَلَّى عَلَيْهِ)؛ أي: على الخليل عليه السلام، (رَبُّنَا وَسَلَّمَا) بألف الإطلاق.

وقوله: (وَالْمُتَّقُونَ يُحْشَرُونَ) مبتدأ وخبره، حال كونهم (رُكَّبَا) بضم الراء وتشديد الكاف، جمع: راكب، وحال كونهم (وَفْداً)؛ أي: وافدين (إِلَى الرَّحْمَنِ) عز وجل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم: ٨٥].

والوَفْدُ: الجماعة الوافِدُون. يُقال: وَفَدَ يَفِدُ وَفْداً وَوُفُوداً ووِفادَةً؛ أي: قَدِمَ على سبيل التَّكرِمة، فهو في الأصل مصدرٌ، ثم أُطْلِق على الأشخاصِ كالصَّفِّ. وقال أبو البقاء: وَفْدٌ جَمعُ وافِد، مثل: راكِب ورَكْب، وصاحِب وصَحْب(١).

وقوله: (نِعْمَ مَرْكَبَا)؛ أي: ركوباً، مَدْح لحالهم.

(وَيُحْشَرُ الْكُفَّارُ عُمْياً) بضمّ فسكون، جمع: أعمى، (بُكْمَا) بضم فسكون، جمع: أبكم، (عَلَى وُجُوهِهِمْ وِرْداً) بكسر فسكون؛ أي: عطاشاً، (صُمَّا) بالضم، جمع: أصمّ، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

(ثُمَّ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) متعلّق بـ«يُجمع»، (كُلٌّ)؛ أي: الخلائق، وهو مبتدأ، خبره قوله: (يُجْمَعُ) بالبناء للمفعول، قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ

---

(١) «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» للسمين الحلبيّ ٧/ ٦٤٢.

أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦]، وقال: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩].

(لَا حَوْلَ) لهم ولا حيلة للتخلّف من ذلك اليوم، (لَا قُوَّةَ فِيهِمْ يَنفَعُ) لدفع ذلك اليوم، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء (وَصَفُّ الْمَلَكْ) كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، (وَيُعْرَضُونَ كُلُّهُمْ) ببناء الفعل للمفعول؛ أي: يُعرض كل الخلائق على ربهم، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ۝٤٨﴾ [الكهف: ٤٨].

(لَن يُتْرَكُوا)؛ أي: لن يُترك أحد منهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٧].

(وَلِخُصُوصِ الْمُؤْمِنِينَ تُعْرَضُ عِصْيَانُهُمْ كَي يَعْرِفُوا)؛ أي: لأجل أن يعرفوا (مَا نَقَضُوا) من العهد، ووقعوا في المعاصي، (ثُمَّتَ يَمْحُوهَا الْكَرِيمُ) ﷻ (فَضْلَا) منه تعالى. **وقوله: (أَكْرِم بَذَا الْحِسَابِ)** «أكرم» فعل تعجّب، صيغته صيغة أمْر ومعناه الماضي؛ أي: ما أكْرَم هذا الحساب؛ حيث كان (يُسْراً سَهْلَا) أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ:** ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]».

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**لَا يَسْتُرُ اللهُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

(أَمَّا الْعَسِيرُ)؛ أي: الحساب الشديد، **(فَهْوَ أَن يُنَاقَشَا)** بألف الإطلاق مبنيّاً للمفعول، **(مَن نَالَهُ)**؛ أي: من أصابه هذا النوع من الحساب، **(عُذِّبَ)** بالبناء للمفعول؛ أي: عذّبه الله **(إِلَّا أَن يَشَا)** الله عدم تعذيبه، أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»، فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: «**لَيْسَ ذَاكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكَ الْعَرْضُ، مَن نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**».

(وَمِنْهُمُ مَن لَا حِسَابَ نَالَهُ)؛ أي: لا يصيبه الحساب، **(بَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ)** دون أن يحاسب، **(نِعْمَ ذَا لَهُ)** أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: خرج علينا النبيّ ﷺ يوماً فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَن تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَاداً كَثِيراً سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فتفرّق الناس ولم يبيّن لهم، فتذاكر أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا: أما نحن فوُلدنا في الشرك، ولكنا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا، فبلغ النبيّ ﷺ، فقال: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، فقام

عُكَاشَةُ بن مِحْصَنٍ فقال: أَمِنْهُمْ أنا يا رسول الله؟ قال: «**نَعَمْ**»، فقام آخر فقال: أمِنْهُم أنا؟ فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ**».

٥٥٠ ـ ثُمَّ يُجَاءُ بِكِتَابِ الْعَمَلِ ... فِيهِ الْحَقِيرُ وَالْجَلِيلُ الْمُعْتَلِي

٥٥١ ـ يُؤْتَىٰ بِمَن يَشْهَدُ مِن مَلَائِكِ ... أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ الْمَهَالِكِ

٥٥٢ ـ يُقْتَصُّ لِلْمَظْلُومِ مِمَّن ظَلَمَهْ ... بِئْسَ الْجَزَاءُ حَيْثُ تُقْضَى الْمَظْلَمَهْ

٥٥٣ ـ تَطَايَرُ الْكُتْبُ، وَتُنشَرُ الصُّحُفْ ... فَمِنْهُمُ الآخِذُ بِالْيُمْنَىٰ شَرُفْ

٥٥٤ ـ وَمِنْهُمُ الآخِذُ بِالْيُسْرَىٰ وَمِنْ ... وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَبِئْسَ مَن فُتِنْ

٥٥٥ ـ ثُمَّتَ تُنصَبُ الْمَوَازِينُ فَمَنْ ... قَدْ ثَقُلَتْ لَهُ فَبِالْفَوْزِ قَمَنْ

٥٥٦ ـ وَإِن تَكُنْ خَفَّتْ فَيَا خُسْرَانَهُ ... نَسْأَلُ مَوْلَانَا غَداً أَمَانَهُ

٥٥٧ ـ يَنصَرِفُ النَّاسُ لِتِلْكَ الظُّلْمَةِ ... دُونَ صِرَاطِ اللَّهِ قَدْ أَظْلَمَتِ

٥٥٨ ـ يُفَرَّقُ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَبَيْنَ مَنْ ... نَافَقَ مِنْ أَهْلِ الشِّقَاقِ وَالْفِتَنْ

٥٥٩ ـ وَلِنَبِيِّنَا أَتَانَا الْخَبَرُ ... فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الْكَوْثَرُ

٥٦٠ ـ يُمِدُّ حَوْضَهُ مُكَثِّراً فَمَنْ ... شَرِبَ لَا يَظْمَأُ يَنجُو مِنْ مِحَنْ

٥٦١ ـ أَبْرَدُ مِن ثَلْجٍ، وَأَحْلَىٰ مِنْ عَسَلْ ... مِن لَبَنٍ أَبْيَضُ، أَوْصَافٌ حُلَلْ

٥٦٢ ـ أَطْيَبُ مِن مِسْكٍ، لَهُ أَوَانِي ... كَأَنجُمِ السَّمَاءِ، نِعْمَ الْهَانِي

٥٦٣ ـ ثُمَّ الصِّرَاطُ بَعْدُ يُضْرَبُ عَلَىٰ ... مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ مَنزِلَا

٥٦٤ ـ يَرِدُهُ النَّاسُ بِقَدْرِ الْعَمَلِ ... نَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ يَلِي

٥٦٥ ـ وَالْآخَرُ الْمَكْدُوسُ فِي جَهَنَّمِ ... وَالْأَنبِيَا تَقُولُ: سَلِّمْ سَلِّمِ

٥٦٦ ـ كَذَا الْمَلَائِكَةُ، وَالْقِصَاصُ ... مِن بَعْدِ ذَا لَيْسَ لَهُو مَنَاصُ

٥٦٧ ـ فِيمَا جَرَىٰ مِنَ الْمَظَالِمِ الَّتِي ... قَدْ سَبَقَتْ مَا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

(ثُمَّ يُجَاءُ بِكِتَابِ الْعَمَلِ)؛ أي: الكتاب الذي كُتب فيه أعمال العباد. **وقوله: (فِيهِ الْحَقِيرُ)** جملة حاليّة؛ أي: والحال أن ذلك الكتاب فيه العمل الصغير، **(وَالْجَلِيلُ الْمُعْتَلِي)**؛ أي: والعمل الكبير، هذا البيت إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

(يُؤْتَى) بالبناء للمفعول، **(بِمَن يَشْهَدُ مِن مَلَائِكِ)** عليهم السلام **(أَعَاذَنَا اللهُ مِنَ الْمَهَالِكِ)** هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: ٦٩، ٧٠].

(يُقْتَصُّ) بالبناء للمفعول، **(لِلْمَظْلُومِ مِمَّن ظَلَمَه بِئْسَ الْجَزَاءُ حَيْثُ تُقْضَى الْمَظْلَمَه)** بأخذ حسنات الظالم لمظلومه، وهذا إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**».

وقوله: (تَطَايَرُ) بحذف إحدى التاءين، **(الْكُتْبُ)**؛ أي:

الدواوين التي كُتبت فيها أعمال العباد، **(وَتُنشَرُ الصُّحُف)** جمع صحيفة، ومعنى نَشْرها: إظهارها يوم القيامة، وتوزيعها بين العباد، **(فَمِنْهُمُ الآخِذُ بِالْيُمْنَى)**؛ أي: بيده اليمنى، حال كونه **(شَرُف)** بضمّ الراء؛ أي: مُشرّفاً ومُكَرَّماً بذلك، **(وَمِنْهُمُ الآخِذُ بِالْيُسْرَى)**؛ أي: بيده اليسرى، **(وَمِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ)**؛ أي: ومنهم الآخذ من وراء ظهره، **(وَبِئْسَ مَن فُتِن)** بالبناء للمفعول؛ أي: بئس المفتون هو، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٢٥].

وعن عائشة رضي الله عنها: أنها سألت النبيّ ﷺ: هل تذكرون أهليكم؟ قال: «**أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَداً: عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَمْ يَثْقُلُ؟ وَعِندَ تَطَايُرِ الصُّحُف حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ فِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ وَرَاءَ ظَهْرِهِ؟ وَعِندَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَانَي جَهَنَّمَ حَتَّى يَجُوزَ**». رواه أبو داود والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما.

وأجمع المسلمون على ثبوت ذلك.

وفي السنن عن عائشة رضي الله عنها: أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيكِ؟**» قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ فَلَا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَداً: عِندَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ؟ وَعِندَ الْكِتَابِ حِينَ يَقُولُ:** ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] **حَتَّى**

يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ، أَفِي يَمِينِهِ، أَوْ فِي شِمَالِهِ، أَم مِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ؟ وَعِندَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهْنَّمَ».

وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: المؤمن يعطى كتابه بيمينه في سِتر من الله، فيقرأ سيئاته، فكلما قرأ سيئاته تغيَّر لونه، حتى يمرّ بحسناته فيقرأها، فيرجع إليه لونه، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بُدِّلت حسنات، قال فعند ذلك يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾.

وله عن عبد الله بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة قال: إن الله يوقِف عبده يوم القيامة فيُبْدِي ـ؛ أي: يُظْهِر ـ سيئاته في ظهر صحيفته، فيقول له: أنت عملت هذا؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول له: إني لم أفضحك به، وإني قد غفرت لك، فيقول عند ذلك: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠].

(ثُمَّتَ تُنصَبُ الْمَوَازِينُ) جمع ميزان، وهو في اللغة: اسم للآلة التي تقدّر بها الأشياء خفّة وثقلاً، وفي الشرع: اسم لِمَا يضعه الله تعالى يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

(فَمَن قَدْ ثَقُلَتْ لَهُ)؛ أي: رَجُحَتْ حسناته على سيئاته، **(فَبِالْفَوْزِ قَمَن)** بفتحتين؛ أي: حقيق بأن يفوز بالجنّة، **(وَإِن تَكُنْ خَفَّت)** الموازين بأن كانت سيئاته أكثر من حسناته، **(فَيَا خُسْرَانَهُ)**؛ أي: خسر صاحبها، **(نَسْأَلُ مَوْلَانَا)** ﷻ، **(غَداً)**؛ أي: في يوم القيامة **(أَمَانَهُ)**؛ أي: يؤمّننا من عذابه.

والحاصل: أن مما يجب الإيمان به من أمور الآخرة نصبَ الموازين لأعمال العباد، وقد دلّ على ذلك الكتاب، والسُّنَّة، والإجماع.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

ومن السُّنَّة: قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» متّفقٌ عليه.

وقد أجمع السلف على ثبوت ذلك.

قال شارح الطحاويّة رَحِمَهُ اللهُ: ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. قال: وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَحْتَمِل أن يكون ثَمَّ موازين متعددة توزَن فيها الأعمال، ويَحْتَمِل أن يكون المراد: الموزونات، فجمع باعتبار تنوّع الأعمال الموزونة. والله أعلم.

والذي دلَّت عليه السُّنَّة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان.

روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمٰن الحبليّ، قال: سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلّاً، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَبُهِتَ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِندَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ. فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، قَالَ: فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مَعَ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»**».

وهكذا رواه الترمذيّ، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، من حديث الليث، زاد الترمذيّ: «**وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**». وفي سياق آخر: «**تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ...**» الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي: أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ، قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِندَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**». قال: «اقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]».

وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه كان يجني سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**».

وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها، كما في «صحيح مسلم»، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطَّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ**».

وفي الصحيح، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**».

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ، قال: «**يُؤْتَى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتَي الْمِيزَانِ، وَيُوكَلُ بِهِ مَلَكٌ، فَإِنْ ثَقُلَ مِيزَانُهُ نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: سَعِدَ فُلَانٌ سَعَادَةً لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَداً. وَإِنْ خَفَّ مِيزَانُهُ نَادَى الْمَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الْخَلَائِقَ: شَقِيَ فُلَانٌ شَقَاوَةً لَا يَسْعَدُ بَعْدَهَا أَبَداً**».

فلا يُلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام!! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ـ كما تقدم ـ، وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَبْشاً أَغْثَرَ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنظُرُونَ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ**

النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنظُرُونَ، وَيَرَوْنَ أَن قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ، فَيُذْبَحُ، وَيُقَالُ: خُلُودٌ لَا مَوْتٌ». ورواه البخاري بمعناه.

فثبت وَزْن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات، فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان.

ويا خيبة من ينفي وَضْع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البَقَّال والفَوَّال!! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً.

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحِكَم ما لا اطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة، لمّا قال الله لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله: أن الحوض قَبْل الميزان، والصراط بعد الميزان. ففي الصحيحين: **«أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»**.

وجعل القرطبي في «التذكرة» هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار. والله تعالى أعلم[1].

(يَنصَرِفُ النَّاسُ لِتِلْكَ الظُّلْمَةِ) هي ظلمة كائنة **(دُونَ صِرَاطِ اللهِ قَدْ أَظْلَمَت)** هذا إشارة إلى ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ، فجاء حَبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يُصْرَع منها، فقال: لِمَ تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهوديّ: إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَيَنفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «**سَلْ**»، فقال اليهوديُّ: أين يكون الناس يوم تبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ...**» الحديث.

(يُفْرَقُ) بالبناء للمفعول، من الفَرْق، **(بَيْنَ مُؤْمِنٍ وَبَيْنَ مَن نَافَقَ)**؛ أي: وبين الشخص الذي نافق، حال كونه كائناً **(مِنْ أَهْلِ الشِّقَاقِ وَالْفِتَن)** أخرج الطبرانيّ عن ابن عباس ﵄، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَدْعُو النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأُمَّهَاتِهِمْ سَتْراً مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَأَمَّا عِنْدَ الصِّرَاطِ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُعْطِي كُلَّ مُؤْمِنٍ نُوراً، وَكُلَّ مُؤْمِنَةٍ نُوراً، وَكُلَّ مُنَافِقٍ نُوراً، فَإِذَا اسْتَوَوْا عَلَى الصِّرَاطِ سَلَبَ اللهُ**

---

(١) «شرح العقيدة الطحاويّة» ص٤١٦ ـ ٤٢٠.

نُورَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، **وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ:** ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [التحريم: ٨] **فَلَا يَذْكُرُ عِندَ ذَلِكَ أَحَدٌ أَحَداً»**(١).

وأخرج عبد الرَّزَّاق، وعبد بن حميد، وابن الْمُنذر عن قَتَادَة في الآية قال: ذُكِر لنا أن نبي الله ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ كَمَا بَيْنَ الْمَدِينَةِ إِلَى عَدَنِ أَبْيَنَ إِلَى صَنْعَاءَ فَدُونَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَن لَا يُضِيءُ لَهُ نُورُهُ إِلَّا مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ، وَالنَّاسُ مَنَازِلُ بِأَعْمَالِهِمْ**».

وأخرج ابن أبي شيبة، وابن الْمُنذر، وابن أبي حاتم، وابن مرْدَوَيْه، والحاكم، وصححه، عن ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: ١٢] قال: يُؤْتونَ نورهم على قدر أَعْمَالهم، يَمرون على الصِّرَاط، منهم من نوره مثل الجَبَل، ومنهم من نوره مثل النَّخْلَة، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يَطْفَأ مرّة ويَتَّقِد أُخْرَى.

وَأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، عَن أبي فَاخِتَة قال: يجمع الله الخلائق يوم القيامة، ويرسل الله على الناس ظلمة، فَيَسْتَغِيثُونَ ربهم، فيؤتي الله كلَّ مؤمن يَوْمئِذٍ نوراً، ويؤتي المنافِقين نوراً، فينطلقون جميعاً متوجهين إلى الجنة معهم نورهم، فَبَيْنَمَا هم كذلك إذ طفأ الله نور المنافقين، فيترددون في الظُّلْمة، ويسبقهم المؤمنون بنورهم بين أيديهم، فينادونهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ فَضُرِب بَينهم بسور له بَاب، بَاطِنه حَيْثُ ذهب المؤمنون فيه

(١) «المعجم الكبير» للطبراني ١١/ ١٢٢.

الرَّحْمَة ومِن قِبَلِه الجنة، ويناديهم المنافقون: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤][(١)].

(وَلِنَبِيِّنَا) محمد ﷺ، وهو خبر مقدّم **لقوله:** «الكوثر»، (**أَتَانَا الْخَبَرُ**) الصحيح من الكتاب والسُّنَّة.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١].

وأما السُّنَّة: فما أخرجه البخاريّ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ ـ أَوْ طِيبُهُ ـ مِسْكٌ أَذْفَرُ**».

وأخرج مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أُنزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ**» فقرأ: **بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]، ثم قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فَإِنَّهُ نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** عز وجل، **عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ**».

---

(١) «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ٨/ ٥٤.

(فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ)؛ أي: يوم القيامة. **وقوله: (الْكَوْثَرُ)** مبتدأ مؤخّر.

قال القرطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسيره»: الكَوْثَر: فَوْعَل من الكثرة، مثل: النَّوْفل من النفل، والجَوْهر من الجهر. والعرب تسمي كل شي كثير في العدد والقدر والخطر كوثراً. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بِمَ آبَ ابنك؟ قالت: بكوثر؛ أي: بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكُمَيْتُ [من الطويل]:

وَأَنتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرَا

والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياع. والكَوْثر من الغبار: الكثير. وقد تكَوْثَر إذا كَثُر، قال الشاعر [من الطويل]:

أَبَوْا أَن يُبِيحُوا جَارَهُمْ لِعَدُوِّهِمْ وَقَدْ ثَارَ نَقْعُ الْمَوْتِ حَتَّى تَكَوْثَرَا

قال: واختَلَف أهل التأويل في الكوثر الذي أُعطيه النبيّ ﷺ على ستة عشر قولاً:

الأول: أنه نهر في الجنة، رواه البخاريّ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والترمذيّ أيضاً. وروى الترمذيّ أيضاً عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْكَوْثَرُ: نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِن ذَهَب، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ**»، هذا حديث حسن صحيح.

الثاني: أنه حوض النبيّ ﷺ في الموقف، قاله عطاء. وفي صحيح مسلم عن أنس قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال:

«**نَزَلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ**» فقرأ: **بسم الله الرحمٰن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣] ثم قال: «**أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فَإِنَّهُ نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** ﷻ**، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ**».

ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثراً؛ لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد ﷺ هناك، ويسمى به لِمَا فيه من الخير الكثير والماء الكثير. ثم ذكر بقيّة الأقوال.

ثم قال: أصح هذه الأقوال الأول والثاني؛ لأنه ثابت عن النبيّ ﷺ نص في الكوثر. وسمع أنس قوماً يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمَارَوْن في الحوض، لقد تركت عَجَائِزَ خلفي، ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبيّ ﷺ، وفي حوضه يقول الشاعر [من البسيط]:

يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ مَن يُدَانِيكَا ... وَأَنتَ حَقّاً حَبِيبُ بَارِيكَا[1]

وقوله: (يُمِدُّ) بضمّ أوله، من الإمداد، جملة حاليّة؛ أي: حال كونه يُمدّ؛ أي: يزيد **(حَوْضَهُ)** ﷺ، حال كونه، **(مُكَثِّراً)** لحوضه، **(فَمَن شَرِبَ)** منه **(لَا يَظْمَأُ)** بعد شُربه أبداً، **(يَنجُو مِن مِحَن)** بكسر ففتح، جمع: محنة؛ أي: من فتنة النار.

---

(١) تفسير القرطبيّ (٢٠/٢١٦ ـ ٢١٨).

(أَبْرَدُ مِن ثَلْجٍ، وَأَحْلَى مِنْ عَسَلٍ، مِن لَبَنٍ) «من لبن» متعلّق بـ(أَبْيَضُ)، هذه الأوصاف (أَوْصَافُ حُلَلٍ) بضمّ ففتح، جمع: حلّة؛ أي: مثل الْحُلّة، وهي: ما يُتزيّن به من الثياب، ولا تكون إلا من ثوبين؛ كإزار ورداء، ونحو ذلك. (أَطْيَبُ مِن مِسْكٍ)؛ أي: ريحه أطيب من ريح المسك، (لَهُ أَوَانِي) جمع: إناء، (كَأَنجُمِ السَّمَاءِ)؛ أي: كثرتها ككثرة النجوم التي في السماء، (نِعْمَ الْهَانِي)؛ أي: نعم السارّ هو.

أخرج الترمذيّ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الْكَوْثَرُ: نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِن ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(ثُمَّ الصِّرَاطُ بَعْدُ)؛ أي: بعد الحوض (يُضْرَبُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يُنصب (عَلَى مَتْنِ)؛ أي: ظَهْرِ (جَهَنَّمَ، وَبِئْسَ مَنْزِلَا) جهنم، (يَرِدُهُ)؛ أي: الصراط، (النَّاسُ)؛ أي: كلهم، (بِقَدْرِ الْعَمَلِ)؛ أي: يتفاوتون فيه على حسب أعمالهم، فمنهم (نَاجٍ) من الكَلَالِيب والسقوط في نار جهنّم، (مُسَلَّمٌ) من اختطاف الكَلَالِيب، (وَمَخْدُوشٌ)؛ أي: مجروح تجرحه الكلاليب، (يَلِي) ما قبله، (وَالآخَرُ الْمَكْدُوسُ)؛ أي: المجموع مع أصحابه (فِي) نار (جَهَنَّمِ) أعاذنا الله تعالى منها، (وَالأَنْبِيَا) عليهم السلام (تَقُولُ: سَلِّمْ)؛ أي: يا رب، سلِّم الناس من أن يقعوا في جهنم. **وقوله:** (سَلِّم) كُرّر للتأكيد. (كَذَا الْمَلَائِكَةُ) تقول: سَلِّم سَلِّم.

وهذه الأبيات إشارة إلى ما أخرجه الشيخان عن أبي سعيد

الخدريّ ﷺ في حديثه الطويل: وفيه: «ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ». قيل: يا رسول الله، وما الجِسْر؟ قال: «دَحْضٌ مَزَلَّةٌ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...» الحديث.

(وَالْقِصَاصُ)؛ أي: المقاصّة بين العباد **(مِن بَعْدِ)** هـ**(ـذَا)** من ضَرْب الصراط على متن جهنم، ومرور الناس عليه على قدر أعمالهم، **(لَيْسَ لَهُ)**؛ أي: منه، **(مَنَاص)**؛ أي: مفرّ. **وقوله: (فِيمَا جَرَى)** متعلّق بـ«القصاص». **وقوله: (مِنَ الْمَظَالِم)** بيان لـ«ما جرى»، **(الَّتِي قَدْ سَبَقَتْ)** لهم في دار الدنيا فيـ**(ـمَا بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ)** هذا إشارة إلى ما أخرجه البخاريّ في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدريّ ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**». والله تعالى أعلم.

٥٦٨ ـ وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِالشَّفَاعَةِ لِكُلِّ مَن قَصَّرَ بِالْإِسَاءَةِ

٥٦٩ ـ ثُمَّ لَهَا شَرْطَانِ: إِذْنُ رَبِّنَا لِشَافِعٍ، كَذَا رِضَاهُ عَلَنَا=

٥٧٠ ـ عَن شَافِعٍ وَمَن لَهُ قَدْ يَشْفَعُ فَإِن يَفُتْ شَرْطٌ فَلَيْسَت تَنفَعُ

٥٧١ ـ مِنْهَا الشَّفَاعَةُ وَتُدْعَى الْعُظْمَى خُصَّ بِهَا نَبِيُّنَا ذُو الرُّحْمَى

٥٧٢ ـ كَذَا شَفَاعَتُهُ فِي اسْتِفْتَاحِ مَا أُغْلِقَ مِن بَابِ الْجِنَانِ فَاعْلَمَا

٥٧٣ ـ كَذَا الشَّفَاعَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ عَصَىٰ، وَهَـٰذِهِ اشْتِرَاكُهَا عُنِي=

٥٧٤ ـ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالنَّبِيِّينَ كَذَا مَلَائِكٌ وَالصَّالِحُونَ حَبَّذَا

٥٧٥ ـ وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِذِي الشَّفَاعَةِ مَنْ أَخْلَصَ التَّوْحِيدَ حِلْفَ الطَّاعَةِ

٥٧٦ ـ وَبِشَفَاعَةِ الْإِلَـٰهِ يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِذَنبٍ دُحْرِجُوا

(وَيَجِبُ الإِيمَانُ بِالشَّفَاعَةِ)؛ أي: شفاعة النبيّ ﷺ، (لِكُلِّ مَن قَصَّرَ) في عبادة الله تعالى (بِـ)سبب (الإِسَاءَةِ)؛ أي: إساءة العمل بالمخالفة، فيُجْبَر خلله بالشفاعة له عند الله ﷻ، (ثُمَّ لَهَا)؛ أي: للشفاعة حتى تُقبل (شَرْطَانِ): أحدهما (إِذْنُ رَبِّنَا) ﷻ (لِشَافِعِ) أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، (كَذَا رِضَاهُ)؛ أي: رضا الله تعالى (عَلَنَا)؛ أي: جهراً، (عَن شَافِعٍ، وَمَن لَهُ قَدْ يَشْفَعُ)؛ أي: للمشفوع له، (فَإِن يَفُتْ شَرْطٌ) واحد من هذين الشرطين (فَلَيْسَت) الشفاعة (تَنفَعُ) صاحبها، بل هي مردودة، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

(مِنْهَا)؛ أي: الشفاعة، (الشَّفَاعَةُ) المشهورة (وَتُدْعَى الْعُظْمَى)؛ أي: تسمّى بالشفاعة الكبرى، (خُصَّ بِهَا نَبِيُّنَا) محمد ﷺ (ذُو الرُّحْمَى) بضم الراء مقصوراً، اسم من الرحمة، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهذا البيت إشارة إلى ما أخرجه الشيخان عن قتادة، عن

أنس رضي الله عنه: أن النبيّ ﷺ قال: «يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِن مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، لِتَشْفَعْ لَنَا عِندَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِن مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ: فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، قَالَ: وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحاً أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَ نُوحاً فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى: عَبْداً آتَاهُ اللهُ التَّوْرَاةَ، وَكَلَّمَهُ، وَقَرَّبَهُ نَجِيّاً، قَالَ: فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ: قَتْلَهُ النَّفْسَ، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، قَالَ: فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّداً ﷺ: عَبْداً غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحِدُّ لِي حَدّاً، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ـ قال قتادة: وسمعته أيضاً يقول: فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُم مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ـ ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ:

فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدّاً، فَأَخْرُجُ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قال قتادة، وسمعته يقول: فَأَخْرُجُ، فَأُخْرِجُهُم مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَن يَدَعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ، وَسَلْ تُعْطَهْ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدّاً، فَأَخْرُجُ، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - قال قتادة: وقد سمعته يقول: فَأَخْرُجُ، فَأُخْرِجُهُم مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ - حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ»؛ أي: وجب عليه الخلود، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال: «وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْم، فَدُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَت تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ عز وجل الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنتُمْ فِيهِ؟! أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟! أَلَا تَنظُرُونَ مَن يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ عز وجل؟! فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَأْتُونَ آدَمَ ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ عليه السلام: إِنَّ رَبِّي عز وجل قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ

غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَن يَغضَب بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ. فَيَأْتُونَ نُوحاً ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْداً شَكُوراً، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّك، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَن يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّك، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَن يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ـ فَذَكَرَ كَذِبَاتِهِ ـ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى عليه السلام. فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنتَ رَسُولُ اللهِ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّك، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ لَهُم مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَن يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ـ قال: هكذا هو ـ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّك، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَد غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَن يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ

ـ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنباً ـ اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. فَيَأْتُونِي، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأَنبِيَاءِ، غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنبَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ؛ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَأَقُومُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِداً لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ، وَيُلْهِمُنِي مِن مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَن لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَبْوَابِ». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِن مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

أخرجاه في «الصحيحين» بمعناه، واللفظ للإمام أحمد[1].

قال ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللهُ: والعجب كل العجب، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه، لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى، في مَأْتَى الرب ـ سبحانه ـ لفصل القضاء، كما ورد هذا في حديث الصُّور، فإنه المقصود في هذا المقام، ومقتضى سياق أول الحديث، فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم، كما دلَّت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة

(١) حديث صحيح، وهو في «المسند» ٢/ ٤٣٥، قاله الشيخ الألباني.

وإخراجهم من النار، وكان مقصود السلف ـ في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث ـ هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة، الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها، فيذكرون هذا القَدْر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث.

وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصُّور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن من مضمونه: أنهم يأتون آدم ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون رسول الله محمداً ﷺ، فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: الفحص، فيقول الله: «**ما شأنك؟**» وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ: «**فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فشفّعني، في خلقك، فاقض بينهم، فيقول ـ سبحانه ـ: شفّعتك، أنا آتيكم فأقضي بينهم، قال: فأرجع فأقف مع الناس**»، ثم ذكر انشقاق السماوات، وتَنزل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب ﷻ لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح، قال: «**فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أَنْصَتّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع أقوالكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تُقْرَأُ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه**»، إلى أن قال: «**فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة؟ فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم، إنه خلقه الله بيده، ونفخ فيه روحه، وكلّمه قُبُلاً، فيأتون آدم، فيطلبون ذلك إليه**»، وذكر نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم

عيسى، ثم محمداً... إلى أن قال: قال رسول الله ﷺ: «فآتي الجنة، فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح، فيفتح لي، فأحيَّى ويُرَحَّب بي، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي ﷻ خررت له ساجداً، فيأذن لي مِن حَمْده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد، واشفع تشفع، وسل تعطه، فإذا رفعت رأسي، قال الله ـ وهو أعلم ـ: ما شأنك؟ فأقول: يا رب، وعدتني الشفاعة، فشفّعني في أهل الجنة يدخلون الجنة، فيقول الله ﷻ: قد شفّعتك، وأذنت لهم في دخول الجنة»... الحديث[1]. رواه الأئمة: ابن جرير في تفسيره، والطبرانيّ، وأبو يعلى الموصليّ، والبيهقيّ، وغيرهم.

(كَذَا شَفَاعَتُهُ) ﷺ (فِي اسْتِفْتَاحِ مَا أُغْلِقَ) بالبناء للمفعول، (مِن بَابِ الْجِنَانِ فَاعْلَمَا) كما تقدّم في الحديث الماضي، وفي «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ».

(كَذَا الشَّفَاعَةُ لِكُلِّ مُؤْمِن عَصَى، وَهَذِهِ) الشفاعة (اشْتِرَاكُهَا عُنِي) بالبناء للمفعول؛ أي: قُصد، (بَيْنَ النَّبِيِّ) ﷺ (وَ)سائر (النَّبِيِّينَ) عليهم السلام، (كَذَا) تشفع (مَلَائِكٌ) لغة في الملائكة عليهم السلام، (وَ)يشفع (الصَّالِحُونَ) من عباد الله المؤمنين، (حَبَّذَا) هذه الشفاعة.

(وَأَسْعَدُ النَّاسِ بِذِي الشَّفَاعَةِ)؛ أي: بشفاعة النبيّ ﷺ، (مَنْ أَخْلَصَ التَّوْحِيدَ) لله تعالى، (حِلْفَ) بكسر الحاء المهملة وسكون اللام؛ أي: ملازم (الطَّاعَةِ) لله ﷻ، وهذا إشارة إلى ما أخرجه

---

(١) ضعيف، في سنده إسماعيل بن رافع عن ابن أبي زياد، وكلاهما ضعيف، قاله الشيخ الألبانيّ.

البخاريّ في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنتُ ـ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ـ أَن لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» خَالِصاً مِن نَفْسِهِ».

(وَبِشَفَاعَةِ الْإِلهِ) ﷻ (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِذَنبٍ) متعلّق بـ(دُخْرِجُوا) بالبناء للمفعول؛ أي: أُسقطوا في نار جهنم.

قلت: هذه الأبيات إشارة إلى ما في حديث أبي سعيد الخدريّ الطويل في الشفاعة، وفيه: «... حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا، وَيُصَلُّونَ، وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ. فَيَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَن وَجَدْتُم فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا، لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَداً مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَن وَجَدْتُم فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا: لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَداً. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَن وَجَدْتُم فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقاً كَثِيراً، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْراً». وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِن لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَاقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]. «فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْراً قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَماً، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: «نَهْرُ الْحَيَاةِ»، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ؟! وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟!». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ كَأَنَّكَ كُنتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ؟ قَالَ: «فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا، أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ. فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا. فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا؛ أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

٥٧٧ - وَيَجِبُ الْإِيمَانُ حَقّاً أَن يَرَىٰ ... الْمُؤْمِنُونَ رَبَّهُم مَا أَكْبَرَا=

٥٧٨ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَجْبِ الْكَفَرَهْ ... عَن رَبِّهِمْ تَغْشَى الْوُجُوهَ الْقَتَرَهْ

٥٧٩ - إِيمَانُنَا بِالنَّارِ دَارِ الْكَفَرَهْ ... حَتْمٌ، وَبِالْجَنَّةِ دَارِ الْبَرَرَهْ

٥٨٠ - مَخْلُوقَتَانِ الْآنَ، لَا فَنَاءَا ... خِلَافَ مَن كَذَّبَهُ افْتِرَاءَا

٥٨١ - فَجَنَّةٌ فِي دَرَجَاتٍ تُرْقَىٰ ... وَالنَّارُ فِيهَا دَرَكَاتٌ تُلْقَىٰ

٥٨٢ - كِلْتَاهُمَا مَحْرُوسَةٌ بِخَزَنَهْ ... نَسْأَلُ مَوْلَانَا الْكَرِيمَ مَأْمَنَهْ

٥٨٣ - أَبْوَابُ جَنَّةٍ تُرَىٰ ثَمَانِيَهْ ... لِلنَّارِ سَبْعَةٌ، وَلَيْسَتْ فَانِيَهْ

٥٨٤ ـ أَوَّلُ دَاخِلِ الْجِنَانِ مُطْلَقَا نَبِيُّنَا الْحَبِيبُ صَاحِبُ التُّقَىٰ

٥٨٥ ـ أُمَّتُهُ الْهُدَاةُ سُبَّاقُ الْأُمَمْ لِجَنَّةِ النَّعِيمِ، مَا أَحْلَى الْكَرَمْ

٥٨٦ ـ هُمْ نِصْفُ أَهْلِهَا، وَثُلْثَانِ وَرَدْ مَا أَوْسَعَ الْعَطَا لِرَبِّنَا الصَّمَدْ

٥٨٧ ـ آخِرُهُمْ دُخُولاً الْعُصَاةُ مَنْ نَجَا مِنَ النَّارِ بِفَضْلِ ذِي الْمِنَنْ

٥٨٨ ـ أَكْثَرُ أَهْلِهَا أُولُو الْفَقْرِ، كَذَا اَلضُّعَفَاءُ، هُمْ خِيَارُ مَنْ حَذَا

٥٨٩ ـ وَكُلُّ مَن يَدْخُلُ جَنَّةَ الْعُلَىٰ بِرَحْمَةِ الْإِلَٰهِ جَلَّ وَعَلَا

٥٩٠ ـ أَكْثَرُ مَن يَدْخُلُ فِي النَّارِ غَدَا مِنْ غَيْرِ أُمَّةِ النَّبِيِّ الْمُقْتَدَىٰ

٥٩١ ـ وَمَن يَمُتْ غَيْرَ مُوَحِّدٍ فَقَدْ أُبِّدَ فِي النَّارِ بِضِيقٍ وَنَكَدْ

٥٩٢ ـ وَلَا يُخَلَّدُ الْعُصَاةُ، بَلْ إِذَا عَذَّبَهُمْ حِيناً نَجَوْا مِن بَعْدِ ذَا

٥٩٣ ـ ثُمَّ إِذَا اسْتَقَرَّ كُلُّهُمْ لَدَىٰ دَارٍ لَهُ، فَالْمَوْتُ يُذْبَحُ فِدَا

٥٩٤ ـ نَتِيجَةُ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ أَن يَبْعَثَ الْأُمَّةَ لِلْإِنَابَةِ

٥٩٥ ـ وَالزُّهْدِ، وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَشَقَّةِ وَالْجِدِّ فِي الْخَيْرِ، وَالِاسْتِقَامَةِ

* * *

(وَيَجِبُ الإِيمَانُ حَقّاً)؛ أي: إيماناً مُحقّقاً لا شكّ فيه، **(أَن يَرَى)** بالبناء للفاعل، والفاعل **قوله: (الْمُؤْمِنُونَ)**؛ أي: برؤيتهم **(رَبَّهُمْ)** ﷻ، **(مَا أَكْبَرَا)** «ما» تعجّبيّة؛ أي: ما أعظم هذه النعمة. **وقوله: (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** ظرف متعلّق بـ«يرى»، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وقد أخرج الشيخان عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا عند النبيّ ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة ـ يعني: البدر ـ، فقال: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن لَا**

تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسَ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، قال إسماعيل: «افْعَلُوا لَا تَفُوتَنَّكُمْ».

(وَحَجْبِ) بفتح فسكون؛ أي: ونؤمن بحجب؛ أي: منع (الْكَفَرَه) جمع كافر، (عَن) رؤية (رَبِّهِمْ) ﷻ، (تَغْشَى)؛ أي: تغطي (الْوُجُوهَ)؛ أي: وجوه الكفرة، (الْقَتَرَه)؛ أي: غبار وسواد، كما قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين: ١٥]، وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤٢].

(إِيمَانُنَا بِالنَّارِ) مبتدأ؛ أي: بوجودها، والنار تقال للّهيب الذي يبدو للحاسّة، وللحرارة المجرّدة، ولنار جهنم، ولنار الحرب، وفي الشرع هي: دار العذاب التي أعدها الله تعالى في الآخرة للكفار والعصاة. **وقوله:** (دَارِ الْكَفَرَه) بالجرّ صفة «النار». **وقوله:** (حَتْمٌ)؛ أي: واجب، خبر المبتدأ، (وَ)كذا إيماننا (بِالْجَنَّةِ) هي في اللغة: البستان الكثير الأشجار، وفي الشرع: هي دار النعيم التي أعدّها الله تعالى في الآخرة للمؤمنين، قال الراغب الأصبهانيّ: سمّيت الجنّة إما تشبيهاً بالجنّة في الأرض، وإن كان بينهما بَوْن، وإما لِستر نِعَمها عَنَّا المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧]. **وقوله:** (دَارِ الْبَرَرَه)؛ أي: المؤمنين، صفة لـ«الجنّة»؛ يعني: أن إيماننا بوجود الجنة واجب. **وقوله:** (مَخْلُوقَتَانِ) خبر لمحذوف؛ أي: هما مخلوقتان (الآنَ)؛ أي: في الدنيا.

قال ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند قول الطحاويّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «والجنة والنار مخلوقتان»: اتفق أهل السُّنَّة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السُّنَّة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقَدَرية فأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة!! وحَمَلهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لِمَا يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خَلقْه في أفعالهم، فهم مشبّهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة! وقالوا: خَلْق الجنة قبل الجزاء عبث؛ لأنها تصير معطلة مُدداً متطاولة!! فردُّوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرَّفوا النصوص عن مواضعها، وضلّلوا وبدّعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ - ١٥]. وقد رأى النبيّ ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى، كما في «الصحيحين»، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة الإسراء، وفي آخره: «**ثُمَّ انطَلَقَ بِي جِبْرَائِيلُ، حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ**». قال: «**ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا هِيَ جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**».

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِن كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِن كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وتقدم حديث البراء بن عازب، وفيه: «**يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَن صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِن رَوْحِهَا وَطِيبِهَا**».

وفي «صحيح مسلم»، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ» فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ: «**رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدتُمْ بِهِ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي آخُذُ قِطْفاً مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضاً حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ**».

وفي «الصحيحين»، واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عباس، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، وَتَنَاوَلْتُ عُنقُوداً، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلْتُم مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**»، قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «**بِكُفْرِهِنَّ**»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنكَ شَيْئاً، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ خَيْراً قَطُّ!!**».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: «**وَايْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،**

لَوْ رَأَيْتُم مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً»، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ**».

وفي «الموطأ» و«السنن»، من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ تَعَلَّقَ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهَا اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرَائِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدتُ لأَهْلِهَا فِيهَا. فَذَهَبَ فَنظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِك، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِك، لَقَدْ خَشِيتُ أَن لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ، قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدتُ لأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِك، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا، فَأُمِرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَى مَا أَعْدَدتَ لأَهْلِهَا فِيهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِك، لَقَدْ خَشِيتُ أَن لَا يَنجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا**».

ونظائر ذلك في السُّنَّة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي

كان فيها آدم ثم أُخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنها لم تُخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة، وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد روى الترمذي في «جامعه»، من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»، قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضاً من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مَن قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ**»، قال: هذا حديث حسن صحيح.

قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغاً منها لم تكن قيعاناً، ولم يكن لهذا الغراس معنى. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم: «إنها الآن معدومة» بمنْزلة النفخ في الصُّور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يردّه ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يُذكر، وإن أردتم أنها لم يَكْمل خَلْق جميع ما أعدّ الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يُحْدِث فيها شيئاً بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً

أخر، فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القَدْر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فأثبتُّم سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ـ نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما!! فلم توفَّقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وُفِّق لذلك أئمة الإسلام.

فمن كلامهم: أن المراد ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ مما كتب الله عليه الفناء والهلاك ﴿هَالِكٌ﴾ والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد: إلا مُلكه. وقيل: إلا ما أُريدَ به وجهُه. وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضاً، على ما يُذكر عن قريب ـ إن شاء الله تعالى ـ. انتهى كلام ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقوله: (لَا فَنَاءَ)؛ أي: لا يفنيان دائماً، **(خِلَافَ مَن كَذَّبَهُ)**؛ أي: أقول ذلك مخالفاً لمن كذَّب من الفرق الضالة؛ كالجهم بن

(١) «شرح الطحاويّة» ص٤٢٠ ـ ٤٢٤.

صفوان، ومن تبعه. **وقوله:** (افْتِرَاءَ)؛ أي: لأجل افترائه، أو حال كونه مفترياً على الله بأنه ما خلق الجنّة والنار.

أما أدلّة الكتاب في تأبيد خلود الجنة فكثيرة، وأما خلود النار فذكر في ثلاثة مواضع:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

حاصل ما أشار إليه: هو ما قاله شارح الطحاويّة رحمه الله: القول بعدم فناء الجنّة والنار قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.

وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سَلَف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السُّنَّة، وأنكره عليه عامة أهل السُّنَّة، وكفَّروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث!، وهو عمدة أهل الكلام المذموم التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يَخْلُ من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا

أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي!! وأبو الْهُذَيل العَلَّاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة!!.

وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربّاً قادراً فعّالاً لِمَا يريد، فإنه لم يزل حيّاً عليماً قديراً، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنِعاً عليه، فهذا القول تصوّره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يُعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]؛ أي: غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء:

فقيل: معناه: إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أُخرج منها، لا لكلهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف.

وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء استثناه الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. ومنهم من يجعل ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»، فيكون الاستثناء منقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خُلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولاً إلا ما شئت؛ أي: سوى ما شئت، أو لكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم، بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله؛ لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ [الإسرا: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]، ونظائره كثيرة، يُخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن ﴿مَا﴾ بمعنى «من»؛ أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء. وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تبيَّن أن المراد من الآيتين: استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود؛ كاستثناء الموتة الأُولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذاك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السُّنَّة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله ﷺ: **«مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ»**.

وقوله: **«يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ أَن تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبداً، وَأَن تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبداً، وَأَن تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبداً»**.

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: **«يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ»**.

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذَّبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي!!.

الثالث: أن أهلها يعذَّبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبيّ ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال ـ عزَّ مِن قائل ـ: ﴿وَقَالُوا لَن

تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨٠، ٨١].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها؛ لأنها حادثة، وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه!! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً، لا يحسُّون بألم، وهذا قول أبي الهذيل ـ كما تقدم ـ.

السابع: أن الله يُخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يُبقيها شيئاً، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يُخرج منها من شاء، كما ورد في السُّنَّة، ويُبقي فيها الكفار بقاءً لا انقضاء له.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان لأهل السُّنَّة ينظر في أدلتهما:

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]، ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣﴾ [النبأ: ٢٣].

وهذا القول ـ أعني: القول بفناء النار دون الجنة ـ منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر رضي الله عنه، أنه قال: «**لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ، لَكَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَقْتٌ يُخْرَجُونَ فِيهِ**»، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۝٢٣﴾ [النبأ: ٢٣].

قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: «**لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَاباً، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**». وفي رواية: «**تَغْلِبُ غَضَبِي**». رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥]، و﴿أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٦]، و﴿عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم.

وقد قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، فلا بد أن تسع رحمتُه هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تَسَعْهم رحمته.

وقد ثبت في الصحيح: تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذَّبون فيها متفاوتون في مدة لُبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له، وأما أنه يخلق خلقاً

يُنعم عليهم، ويُحسن إليهم نعيماً سرمداً فمن مقتضى الحكمة، والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعَرَض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام كله حق مُسَلَّم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففَرْق بين من يخرج من الحبس وهو حَبْس على حاله، وبين من يبطل حَبْسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]؛ أي: مقيماً لازماً.

وقد دلَّت السُّنَّة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: «لا إلٰه إلا الله»، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنْزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان.

وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما. انتهى كلام ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللهُ بطوله[(١)].

---

(١) «شرح الطحاوية» ص٤٢٥ ـ ٤٣١.

(فَجَنَّةٌ) مبتدأ، سوَّغه التقسيم، أو عَطْف المعرفة عليه، وخبره قوله: (فِي دَرَجَاتٍ)؛ أي: مراقي (تُرْقَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تُرقى درجاتها إلى أعلى، (وَالنَّارُ فِيهَا دَرَكَاتٌ تُلْقَى) بالبناء للمفعول أيضاً؛ أي: يلقاها أصحابُها.

(كِلْتَاهُمَا)؛ أي: كلتا الجنة والنار (مَحْرُوسَةٌ)؛ أي: محفوظتان (بِخَزَنَه) بفتحات، جمع: خازن، والمراد به: الملائكة الموكلون بحفظ الجنة والنار، (نَسْأَلُ مَوْلَانَا الْكَرِيمَ مَأْمَنَه)؛ أي: أمانه من النار.

(أَبْوَابُ جَنَّةٍ تُرَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تُعلم، (ثَمَانِيَه) أبواب، (لِلنَّارِ سَبْعَةٌ)؛ أي: سبعة أبواب.

(وَلَيْسَتْ) كلّ واحدة منهما (فَانِيَه) بل تبقى أبد الآبدين.

(أَوَّلُ دَاخِلِ الْجِنَانِ مُطْلَقَا)؛ أي: على الإطلاق قبل جميع الأنبياء وأممهم، (نَبِيُّنَا) محمد ﷺ (الْحَبِيبُ)؛ أي: المحبوب عند الله وعند الخلق، (صَاحِبُ التُّقَى) بل هو أفضل من اتقى الله ـ سبحانه ـ، كما قال ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُم بِاللهِ أَنَا»، رواه البخاريّ.

(أُمَّتُهُ الْهُدَاةُ) جمع: هادٍ؛ أي: الذين يهدون الناس إلى الصراط المستقيم، فـ«أمته» مبتدأ، خبره قوله: (سُبَّاقُ) جمع سابق، (الأُمَم) الماضية، (لِجَنَّةِ النَّعِيم مَا) تعجبيّة، (أَحْلَى الْكَرَمْ)؛ أي: كرم الله تعالى، (هُمْ)؛ أي: أمته ﷺ، (نِصْفُ أَهْلِهَا)؛ أي: نصف أهل الجنّة، (وَثُلْثَانِ وَرَدْ)؛ أي: جاء في الحديث أنهم ثلثا أهل الجنة، فقد أخرج الشيخان عن عبد الله[1] رضي الله عنه، قال: كنا مع النبيّ ﷺ في قُبَّةٍ،

---

(١) هو: ابن مسعود رضي الله عنه.

فقال: «أَتَرْضَوْنَ أَن تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قلنا: نعم، قال: «أَتَرْضَوْنَ أَن تكونوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قلنا: نعم، قال: «أَتَرْضَوْنَ أَن تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قلنا: نعم، قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لأَرْجُو أَن تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ».

وأخرج ابن أبي شيبة في «مسنده» عن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنتُمْ وَرُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟، لَكُمْ رُبُعُهَا وَالنَّاسُ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهَا؟»، قال: فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَكَيْفَ أَنتُم وَثُلُثَهَا؟» قالوا: فذاك الخير، قال: «كَيْفَ أَنتُمْ وَالشَّطْرَ؟» قالوا: فذاك أكثر، قالوا: فقال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفّاً، أَنتم مِنْهَا ثَمَانُونَ صَفّاً»[1].

وأخرج الطبرانيّ في «المعجم الكبير» عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبيّ ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ صَفّاً، أَنتُمْ ثَمَانُونَ صَفّاً، وَالنَّاسُ سَائِرَ ذَلِكَ، وَأَنتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنتُم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ عز وجل»[2].

(مَا أَوْسَعَ الْعَطَا لِرَبِّنَا الصَّمَد) حيث امتنّ على هذه الأمة، فجعلها ثلثي أهل الجنّة، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) «مسند ابن أبي شيبة» ١/ ٢٥٤.

(٢) «المعجم الكبير» للطبرانيّ ١٩/ ٤١٩.

(آخِرُهُمْ)؛ أي: آخر هذه الأمة **(دُخُولاً)** الجنة هم **(الْعُصَاةُ)** **وقوله: (مَن نَجَا مِنَ النَّارِ)** بدل من «العصاة»، **(بِفَضْلِ ذِي الْمِنَنِ)**؛ أي: بفضل الله تعالى ذي المنن العظيمة، والعطاء الجسيمة.

(أَكْثَرُ أَهْلِهَا)؛ أي: أكثر أهل الجنة هم **(أُولُو)**؛ أي: أصحاب **(الْفَقْرِ، كَذَا الضُّعَفَاءُ هُمْ خِيَارُ مَنْ حَذَا)** بالحاء المهملة؛ أي: من اتَّبع دينَ الإسلام.

روى البخاريّ ومسلم عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُم بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» قالوا: بلى، قال: «**كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**».

قال النووي في شرحه للحديث: «ومعناه: يستضعفه الناس، ويحتقرونه، ويَتَجَبَّرُون عليه؛ لِضَعف حاله في الدنيا، والمراد: أن أغلب أهل الجنة هؤلاء، وليس المراد الاستيعاب».

وفي «الصحيحين»، و«مسند أحمد» عن أسامة بن زيد، قال: رسول الله ﷺ: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةُ مَن دَخَلَهَا الْمَسَاكِينَ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَن دَخَلَهَا النِّسَاءُ**».

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**».

(وَكُلُّ مَن يَدْخُلُ جَنَّةَ الْعُلَى بِرَحْمَةِ الْإِلَهِ جَلَّ وَعَلَا)؛ يعني: أن كلّ من يدخل الجنة لا يدخلها إلا برحمة الله ﷻ.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «**لَن يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُم الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ أَن يَزْدَادَ خَيْراً، وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ أَن يَسْتَعْتِبَ**».

وأخرجا عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيّ ﷺ قال: «**سَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَداً الْجَنَّةَ عَمَلُهُ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ**».

فإن قلت: كيف يُجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]؟.

قلت: أجاب بعض المحقّقين بأنه لا تعارض بينهما ـ بحمد الله تعالى ـ، فإن الباء المثبَتة في الآية هي باء السببية؛ لأن الأعمال الصالحة سببٌ في دخول الجنة، لا يحصل إلا بها؛ إذ المسبَّب وجوده بوجود سببه، والمنفي في الحديث هي باء الثَّمَنِيَّة، فإن العبد لو عُمِّر عمُر الدنيا، وهو يصوم النهار، ويقوم الليل، ويجتنب المعاصي كلها لم يقابل كلّ عمله عُشْر معشار أصغر نِعم الله عليه الظاهرة والباطنة، فكيف تكون ثمناً لدخول الجنة.

وقوله: (**أَكْثَرُ مَن يَدْخُلُ فِي النَّارِ**) مبتدأ، خبره جملة **قوله:** (**غَدَا**)؛ أي: صار (**مِنْ غَيرِ أُمَّةِ النَّبِيِّ**) ﷺ (**الْمُقْتَدَى**) صفة لـ«النبيّ»؛ أي: المتّبَع.

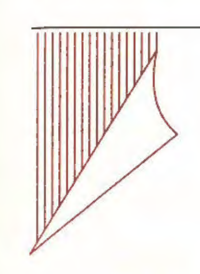
وقوله: (**وَمَن يَمُتْ**) مبتدأ، حال كونه (**غَيْرَ مُوَحِّدٍ**). **وقوله:** (**فَقَدْ أُبِّدَ فِي النَّارِ**) بتشديد الموحّدة، مبنيّاً للمفعول، (**بِضِيقٍ**) بكسر الضاد؛ أي: مع التضييق عليه، (**وَنَكَد**) بفتحتين؛ أي: مع الشدّة،

(وَلَا يُخَلَّدُ) بالبناء للمفعول، **(الْعُصَاةُ)** بالضمّ، جمع: عاصٍ، **(بَلْ إِذَا عَذَّبَهُم)** الله تعالى **(حِيناً)**؛ أي: زمناً محدوداً، **(نَجَوْا مِن بَعْدِ ذَا)**؛ أي: من بعد التعذيب.

(ثُمَّ إِذَا اسْتَقَرَّ كُلُّهُم)؛ أي: من أهل الجنّة وأهل النار، **(لَدَى دَارٍ لَهُمْ)**؛ يعني: الجنّة والنار، **(فَالْمَوْتُ يُذْبَحُ)** بالبناء للمفعول، حال كونه **(فِدَا)** بكسر الفاء، وتُفتح، مقصوراً؛ أي: فدى للناس.

أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدريّ ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يَا أَهْلَ النَّارِ. فَيَشْرَئِبُّونَ، وَيَنظُرُونَ، فيقول: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فيقولون: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وكلهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتٌ**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلة، أهل الدنيا، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وقوله: (نَتِيجَةُ)؛ أي: الفائدة المترتّبة على **(الإِيمَانِ بِالآخِرَةِ)**؛ أي: القيامة، فـ«نتيجة» مبتدأ، خبره **قوله: (أَن يَبْعَثَ)** بالبناء للفاعل؛ أي: يَحمل ويحثّ **(الأُمَّةَ لِلإِنَابَةِ)**؛ أي: إلى الرجوع إلى الله ﷻ بالطاعة، **(وَالزُّهْدِ)** في الدنيا، **(وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَشَقَّةِ)** التي تواجههم في سبيل الطاعة، **(وَالْجِدِّ)** بالكسر؛ أي: الاجتهاد **(فِي)** أعمال **(الْخَيْرِ، و)**على **(الاسْتِقَامَةِ)** في الدين حتى الممات. والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ

فِي بَيَانِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ

٥٩٦ - إِيمَانُنَا بِمَا قَضَىٰ وَقَدَّرَا ... إِلَٰهُنَا رُكْناً عَظِيماً قَدْ يُرَىٰ

٥٩٧ - بِخَيْرِهِۦ وَشَرِّهِۦ وَمُرِّهِۦ ... وَحُلْوِهِۦ، فَالْكُلُّ مِن تَقْدِيرِهِۦ

٥٩٨ - وَالْأَصْلُ فِي الْقَدَرِ سِرٌّ قَدْ كُتِمْ ... طُوِيَ عِلْمُهُ عَنِ الْخَلْقِ حُرِمْ

٥٩٩ - وَالْخَوْضُ فِيهِ بَاطِلٌ فَسَلِّمِۦ ... لِمَن لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَسْلَمِۦ

(إِيمَانُنَا) مبتدأ، خبره جملة **قوله:** «قد يُرى»، **(بِمَا قَضَى وَقَدَّرَا)** بألف الإطلاق. **وقوله: (إِلهُنَا)** مرفوع على الفاعليّة تنازعاه الفعلان قبله. **وقوله: (رُكْناً عَظِيماً)** مفعول ثان لـ**(قَدْ يُرَى)** بالبناء للمفعول. **وقوله: (بِخَيْرِهِ...)** إلخ، بدل من «بما قضى»؛ أي: خير القضاء **(وَشَرِّهِ، وَمُرِّهِ، وَحُلْوِهِ، فَالْكُلُّ مِنْ تَقْدِيرِهِ)** سبحانه.

حاصل ما أشار إليه: أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستّة، وهو التصديق بما قضاه الله تعالى من خير وشرّ، وحلو ومرّ.

وقد اختلف الناس في مسألة القدر، والذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وأن الله تعالى يريد الكفرَ من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه دِيناً.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمانَ من الكافر، ولكن الكافرَ شاء الكفر، فرُّوا إلى هذا لِئَلا يقولوا: شاء الكفرَ من الكافر، وعذّبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار!؛ فإنهم هربوا من شيء، فوقعوا فيما هو شر منه!؛ فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئةَ الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!!، وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالَكَائِي، من حديث بقية، عن الأوزاعيّ، حدّثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكيّ، قال: قيل لابن عباس: إن رجلاً قَدِم علينا يُكَذِّب بالقدر، فقال: دلوني عليه. وهو يومئذ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن اسْتَمْكَنتُ منه لأعُضَّنَّ أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدُقَّنَّها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فِهْرٍ يَطُفْنَ بِالْخَزْرَجِ، تَصْطَفِقُ أَلْيَاتُهُنَّ مُشْرِكَاتٍ**»، وهذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوءُ رأيهم حتى يُخْرِجوا الله من أن يقدّر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر.

قوله: «وهذا أول شرك في الإسلام» إلى آخره، من كلام ابن عباس. وهذا يوافق قوله: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله وكذّب بالقدر نقض تكذيبه توحيده».

وروى عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصَحِبَنَا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري: إن الله يريد، ولكن الشيطان لا

يريد! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!!.

ووَقَفَ أعرابيٌّ على حَلَقَة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سُرقت، فادعوا الله أن يردّها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللَّهُمَّ إنك لم تُرِدْ أن تُسرَق ناقته فسُرقت، فارددها عليه! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال: ولِمَ؟ قال: أخاف ـ كما أراد أن لا تسرق فسرقت ـ أن يريد ردَّها فلا تُرَد!!.

وقال رجل لأبي عصام القَسْطَلَّانِيّ: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبني؛ أيكون: منصفاً؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له، فله أن يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسُّنَّة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوَّى بينهما الجبرية والقدرية.

ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدَّرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة: الكتاب، والسُّنَّة، والفطرة الصحيحة.

فإن قيل: كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟.

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فِرَقاً، وتباينت طرقهم وأقوالهم، فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصوداً لِمَا يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من جهة قضائه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه إذا عَلِم المتناوِل له أن فيه شفاءه، وقَطْع العضو المتآكل إذا عَلِم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فَوْته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملِهم بما يُغضب الرب ـ سبحانه تبارك وتعالى ـ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى تَرَتَّبَتْ على خلقه، ووجودُها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب ـ تعالى ـ على خلق المتضادات المتقابلات، فخَلَق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خَلَق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدبيره، فخُلُوُّ الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود مُتَعَلَّقِها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه، وعفوه، ومغفرته،

وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خَلْق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبيّ ﷺ إلى هذا بقوله: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ**».

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منْزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة له لتعطلت حِكَمٌ كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة.

ولو عطِّلت تلك الأسباب لِمَا فيها من الشر، لتعطَّل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خَلْق إبليس لَمَا حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه ـ سبحانه ـ، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها؛ من الموالاة لله ﷻ، والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه. إلى غير ذلك من الحِكَم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحِكَم بدون هذه الأسباب؟.

فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه؛ كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادةً لِمَا تُفْضِي إليه من الحكم، فهل تكون مَرْضِيَّة محبوبة من هذا الوجه؟، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟.

قيل: هذا السؤال يَرِد على وجهين:

فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى يُنسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلّا أمده إذا أوجده؟.

قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما اقتضت إيجاده وتَرْك إمداده، فإيجاده خير، والشر من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلّا أمَدَّ الموجوداتِ كلَّها؟.

فهذا سؤال فاسد، يظن مُورِدُه أن التسوية بين الموجودات أبلغُ في الحكمة! وهذا عين الجهل! بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خَلْق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع

منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عَدَمِيَّة لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت.

فإن اعْتَاصَ عليك هذا، ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل [من الوافر]:

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئاً، ولا يُعِينُه عليه؟.

قيل: لأن إعانتَه عليه قد تستلزم فواتَ محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رَضِيَها له، وقد يكون وقوعُ تلك الطاعة منه يتضمن مفسدةً هي أكرهُ إليه ـ سبحانه ـ من محبته لتلك الطاعة. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ الآيتين [التوبة: ٤٦، ٤٧]، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعته، فلمَّا كرهه منهم ثَبَّطهم عنه، ثم ذكر ـ سبحانه ـ بعض المفاسد التي تَتَرَتَّب على خروجهم مع رسوله، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾؛ أي: فساداً وشرّاً، ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾؛ أي: سَعَوْا بينكم بالفساد والشر، ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقَبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلاً، وقِسْ عليه.

وأما الوجه الثاني، وهو الذي من جهة العبد: فهو أيضاً ممكن، بل واقع، فإن العبد يَسْخَطُ الفسوقَ والمعاصيَ ويكرهها، من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى

بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكوني، فيرضى بما مِنَ الله ويسخط ما هو منه، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان.

وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هذا القول؛ لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابته ومشيئته.

وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها.

قيل: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدريُّ المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري، وأهل السُّنَّة المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعدُ بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟.

قيل: هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عَصَيْتُ أمرَه فقد أطعت إرادته! وفي ذلك قيل:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلاً لِمَا يَخْتَارُهُ مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

وهؤلاء أعمى الخلقِ بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة القدر طاعةً لكان إبليس من أعظم

المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين!، وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبدُ عجزَ نفسه، ونفوذَ الأقدار فيه، وكمالَ فقره إلى ربه، وعدمَ استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين، كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة، فإن عليه حصناً حصيناً: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي**»، فلا يُتَصَوَّرُ منه الذنبُ في هذه الحالة.

فإذا حُجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه استولى عليه حُكْم النفس، فهنالك نُصبت عليه الشباك والأشراك، وأُرسلت عليه الصيادون، فإذا انتفى عنه ضبابُ ذلك الوجود الطَّبَعِي، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوباً بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه.

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟!.

فالجواب: أن يقال:

أولاً: نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يَرِد بذلك كتاب ولا سُنَّة، بل من المقضي ما يُرْضى به، ومنه ما يُسخط ويُمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته ـ سبحانه ـ، بل من القضاء ما يُسْخَط، كما أن من الأعيان المقضية ما يُغْضَب عليه ويُمْقَت ويُلْعَن ويُذَمّ.

ويقال ثانياً: هنا أمران: قضاء الله؛ وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه.

فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله.

والمقضي قسمان: منه ما يُرضى به، ومنه ما لا يُرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، فمن هذا الوجه ونِسبته إليه يُرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونِسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يُرضى به، وإلى ما لا يُرضى به.

مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قَدَّرَه الله وقَضَاه وكَتَبَه وشَاءَه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره، يُرضى به، ومن حيث صَدَرَ من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله، نسخطه ولا نرضى به. انتهى[1].

(وَالأَصْلُ فِي الْقَدَرِ سِرٌّ) من الأسرار الإلٰهيةِ (قَدْ كُتِم) بالبناء للمفعول؛ أي: مُنِع علمُه عن الخلق، **فقوله:** (طُوِيَ عِلْمُهُ) بالبناء للمفعول أيضاً تفسير لـ«كُتم»، (عَنِ الْخَلْقِ) متعلّق بـ«طُوي». **وقوله:** (حُرِمْ) أيضاً مؤكّد لِمَا مضى. (وَالْخَوْضُ فِيهِ)؛ أي: البحث عن حقائقه (بَاطِلٌ) لعدم وصول علم الخلق إليه، (فَسَلِّم) الأمور (لِمَن لَهُ الْخَلْقُ والَامْرُ) بالنقل والحذف، (تَسْلَم) مجزوم بالطلب قبله.

قال الإمام الطحاويّ: «وأصل القدر: سِرُّ الله تعالى في خلقه، لم يطَّلِع على ذلك ملَك مقرب، ولا نبيّ مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل

---

(١) هذا الكلام بطوله منقول من «شرح الطحاويّة» لابن أبي العزّ رحمه الله، ص٢٤٩ ـ ٢٥٨.

الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مَرَامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردَّ حُكم الكتاب، ومن رَدَّ حُكم الكتاب كان من الكافرين».

وقال الشارح: أصل القدر سرّ الله في خَلْقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي رضي الله عنه: القدر سر الله فلا نكشفه.

والنِّزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور، والذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فَرُّوا إلى هذا، لِئَلَّا يقولوا: شاء الكفر من الكافر، وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار!. فإنهم هربوا من شيء، فوقعوا فيما هو شر منه! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

«والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان» يعني: أن المبالغة

في طلب القدر والغوص في الكلام فيه وسيلة الخذلان.

قال: «فالحذرَ كلَّ الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة». عن أبي هريرة ﵁، قال: جاء ناس من أصحاب النبيّ ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فسألوه: إنا نَجِد في أنفسنا ما يَتَعَاظَمُ أحدُنا أن يتكلم به؟ قال: **«وَقَدْ وَجَدتُمُوهُ؟»**، قالوا: نعم، قال: **«ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»**. رواه مسلم.

قال الشارح: والإشارة بقوله: **«ذَلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»** إلى تَعَاظُمِ أن يتكلموا به.

ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﵁، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوَسْوَسَة؟ فقال: **«تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ»**، وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنْزلة المحادَثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان، هذه طريقة الصحابة ﵃ والتابعين لهم بإحسان، ثم خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ، سَوَّدوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوك وشُبَهٌ، بل وسَوَّدُوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ(١) في ذَمِّ الخَوْضِ في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة ﵂ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ»**.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي

---

(١) يعني: الطحاويّ ﵀.

هند، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقّأ في وجهه حَبّ الرُّمّان من الغضب، قال: فقال لهم: **«مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ؟ بِهَذَا هَلَكَ مَن كَانَ قَبْلَكُمْ»**. قال: فما غَبَطت نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ لم أشهده بما غَبَطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده. ورواه ابن ماجه أيضاً.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]؛ أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج، أو الصنف، أو الجيل الذي خاضوا.

وجَمَع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل، وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات.

وروى البخاريّ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبيّ ﷺ قال: **«لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَآخِذَ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ»**، قالوا: فارس والروم؟ قال: **«فَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ؟!»**.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِن كَانَ مِنْهُم مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً كَانَ مِنْ أُمَّتِي مَن يَصْنَعُ ذَلِك، وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقُوا عَلَى اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»**. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **«مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**. رواه الترمذيّ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«تَفَرَّقَتِ الْيَهُودُ**

عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلُ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً». رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذيّ، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً** - يعني: الأهواء - **كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ»**.

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة: مسألة القدر. وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع. انتهى[1].

٦٠٠ - مَرَاتِبُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ جَا	أَرْبَعَةً، أَوَّلُ تِلْكَ مَنْهَجَا
٦٠١ - تُؤْمِنُ بِاللَّهِ بِأَنَّ عِلْمَهُ	يُحِيطُ كُلَّ الْكَوْنِ، مَا أَعْلَمَهُ
٦٠٢ - وَثَانِهَا: الْإِيمَانُ أَن قَدْ كَتَبَا	مَقَادِرَ الْخَلْقِ بِعِلْمٍ صَاحَبَا
٦٠٣ - ثَالِثُهَا: الْإِيمَانُ بِالْمَشِيئَةِ	فِي كُلِّ مَا أَرَادَهُ نَفَذَتِ
٦٠٤ - مَا شَاءَ كَانَ، لَمْ يَكُن مَا لَمْ يَشَا	فَضْلُهُ وَالْعَدْلُ لِخَلْقِهِ فَشَا
٦٠٥ - أَضَلَّ مَن شَاءَ، وَمَن شَاءَ هَدَىٰ	وَلَا مُعَقِّبَ لِمَا مِنْهُ بَدَا
٦٠٦ - وَلِلْعِبَادِ ثَبَتَتْ مَشِيئَةُ	مَن شَاءَ مِنْهُمْ لَهُ اسْتِقَامَةُ=
٦٠٧ - عَلَى الْهِدَايَةِ، وَمَن شَاءَ غَوَىٰ	وَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ، بِئْسَمَا هَوَىٰ
٦٠٨ - مَشِيئَةُ الْإِلَٰهِ قَبْلَ أَن يَشَا	كَذَا الْإِرَادَةُ قُبَيْلَ مَا نَشَا
٦٠٩ - قَامَتْ مَشِيئَةُ إِلَٰهِنَا عَلَىٰ	عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، فَجَلَّ مَنْ عَلَا

(١) «شرح الطحاوية» ص٢٣٧.

٦١٠ ـ رَابِعُهَا: الْإِيمَانُ أَنَّهُ عَلَا خَالِقُ كُلِّ شَيْ كَمَا قَدْ أُنزِلَا

(مَرَاتِبُ الإيمَانِ بِالْقَدَرِ جَا أَرْبَعَةً) أقسام: (أَوَّلُ تِلْكَ) الأقسام (مَنْهَجًا) منصوب على التمييز. **فقوله:** «أولُ» مبتدأ. **وقوله:** (تُؤْمِنُ بِاللهِ) خبره، بتقدير حرف مصدريّ؛ أي: أن تؤمن بالله تعالى. **وقوله:** (بِأَنَّ عِلْمَهُ) بدل اشتمال مما قبله، (يُحِيطُ كُلَّ الْكَوْنِ)؛ أي: كل ما كان وما يكون. **وقوله:** (مَا أَعْلَمَهُ) تعجُّب من إحاطة علمه ـ سبحانه ـ.

حاصل معنى البيتين: أن أول مراتب الإيمان بالقدر هو الإيمان بعلم الله تعالى المحيط بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، يعلم ما تكنّ صدور خَلْقه، وما يُعلنون، وأحوالهم، وأعمالهم، ومآلهم الذي إليه يصيرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار، فأمَرَهم، ونهاهم، وابتلاهم، حتى ظهر فيهم سابق علمه، وبالغ حكمته: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، موصوف بكمال العلم، فلا يلحقه نسيان، ولا وهم. والله تعالى أعلم.

(وَثَانِهَا:) أصله: ثانيها، حذفت الياء للوزن؛ أي: ثاني المراتب: (الإِيمَانُ) بـ(أَن قَدْ كَتَبَا) بألف الإطلاق مبنيّاً للفاعل؛ أي: بكتابة الله تعالى (مَقَادِرَ الْخَلْقِ بِعِلْـم)؛ أي: مع علم، (صَاحِبَا) بألف الإطلاق أيضاً؛ أي: صَاحِبَ الكتابة.

حاصل معنى البيت: أن ثانيَ مراتب الإيمان بالقدر هو الإيمان بكتابة مقادير الخلائق وفقاً للعلم السابق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، فما من كائن إلا وهو مكتوب مرقوم فيه قبل أن يخلق الله تعالى السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة، ثم كتب السعداء والأشقياء، وأرزاقهم، وأعمالهم، وآجالهم، وهم في بطون أمهاتهم، وهو تقدير دهريٌّ عمريٌّ، وفي ليلة القدر تقدير حوليٌّ، وإنفاذ المقدور على العبد في وقته المحدود تقدير يوميّ، و﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٧].

(ثَالِثُهَا:)؛ أي: ثالث المراتب: (الإيمَانُ بِالْمَشِيئَةِ فِي كُلِّ مَا أَرَادَهُ) تعالى (نَفَذَت)؛ أي: ثبتت، (مَا شَاءَ) الله ﷻ (كَانَ)؛ أي: وُجد وحصل، (لَمْ يَكُن مَا لَمْ يَشَا).

(فَضْلُهُ وَالْعَدْلُ)؛ أي: فضل الله تعالى وعدله، (لِخَلْقِهِ)؛ أي: في خلقه، فاللام بمنى «في»، (فَشَا)؛ أي: شاع وانتشر، (أَضَلَّ) الله تعالى (مَن شَاءَ) من خلقه، (وَمَن شَاءَ) منهم (هَدَى) إلى الصراط المستقيم، (وَلَا مُعَقِّبَ لِمَا مِنْهُ بَدَا)؛ أي: ظهر؛ يعني: أنه لا تعقيب على ما فعله الله ـ سبحانه ـ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: ٤١]؛ أي: لا رادَّ لحكمه، والمعقّب هو الذي يَكُرُّ على الشيء فيُبطله.

(وَلِلْعِبَادِ ثَبَتَتْ مَشِيئَةُ مَن شَاءَ مِنْهُمُ)؛ أي: من العباد، (لَهُ اسْتِقَامَةُ عَلَى الْهِدَايَةِ، وَمَن شَاءَ غَوَى) من باب ضَرَب؛ أي: خاب وضلّ، أو انهمك في الجهل، وهو خلاف الرَّشَد[1]. (وَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٦٥٧.

بِئْسَمَا هَوَى) من باب ضرب؛ أي: سقط في مَهْوَاة، وهي الحفرة، والمراد: حفرة الشيطان التي يُلقي فيها الناس.

(مَشِيئَةُ الْإِلهِ) ﷻ، وهو مبتدأ، خبره **قوله: (قَبْلَ أَن يَشَا)** العبد؛ يعني: مشيئة الله تعالى قبل مشيئة العباد، و**(كَذَا الإِرَادَةُ)**؛ أي: إرادة الله تعالى **(قُبَيْلَ مَا نَشَا)**؛ أي: قبل إرادتنا، **(قَامَتْ مَشِيئَةُ إِلٰهِنَا)** سبحانه **(عَلَى عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ، فَجَلَّ مَنْ عَلَا)**؛ أي: ارتفع على خلقه.

وحاصل المعنى: أن الثالث من مراتب الإيمان بالقدر: هو الإيمان بمشيئة الله تعالى النافذة في خلقه، فما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء فضلاً، ويُضلّ من يشاء عدلاً، لا رادّ لفضله، ولا مُعَقِّب لحكمه، ولا غالب لأمره، وللعباد أيضاً مشيئة، فمن شاء منهم الاستقامة اتّخذ إلى ربه سبيلاً، ومن شاء منهم الْغوَاية اتّخذ الشيطان دليلاً، فمن شاء فمشيئة الله تعالى قبل مشيئته، وإرادته تعالى قبل إرادته، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، ومشيئته تعالى قبلُ قائمة على علمه وحكمته. والله تعالى أعلم.

(رَابِعُهَا:)؛ أي: رابع المراتب، **(الإِيمَانُ)** بـ**(أَنَّهُ عَلَا خَالِقُ كُلِّ شَيْ)** بتخفيف الهمزة، **(كَمَا قَدْ أُنزِلَا)** بالبناء للمفعول؛ أي: كما قد أنزل الله تعالى ذلك في كتابه حيث قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فهو تعالى خالق العبادِ وأفعالِهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافّات: ٩٦].

٦١١ - وَلْتَعْلَمَنْ أَنَّ تَوَكُّلَكَ لَا يُنَافِي الِاكْتِسَابَ؛ فَاجْهَدْ عَمَلَا

٦١٢ ـ ثُمَّ التَّوَكُّلُ عَلَى الْأَسْبَابِ ... شِرْكٌ بِتَوْحِيدِكَ لِلْوَهَّابِ

٦١٣ ـ إِهْدَارُكَ الْأَسْبَابَ أَيْضاً نَقْصُ ... فِي الْعَقْلِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنْهَا وَقْصُ

٦١٤ ـ إِن تُعْرِضَنْ عَنْهَا قَدَحْتَ النَّقْلَا ... لَا تَتْرُكِ الْأَسْبَابَ تَلْقَ فَضْلَا

٦١٥ ـ وَمَا أَصَابَ الْعَبْدَ لَا يُخْطِئُهُ ... مَا لَمْ يُصِبْهُ لَمْ يَكُن يَطَؤُهُ

٦١٦ ـ وَمَا قَضَى الْإِلَـٰهُ لَا مَحَالَهْ ... يَكُونُ وَاقِعاً فَلَا إِحَالَهْ

٦١٧ ـ وَاحْتَجَّ بِالْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ ... لَا فِي الْمُخَالَفَاتِ وَالْمَعَايِبِ

٦١٨ ـ لَا يُنسَبُ الشَّرُّ إِلَى اللَّهِ الْأَحَدْ ... إِلَّا لِخَلْقِهِ لَهُ، فَلَا نَكَدْ

٦١٩ ـ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ أَنْ ... يَعْتَمِدَ الْقَلْبُ عَلَىٰ مَن لَهُ مَنّ

٦٢٠ ـ كَذَا الرِّضَا بِالْمُرِّ، وَاحْتِسَابُ ... بِالصَّبْرِ، وَالشُّكْرِ إِذَا تُصَابُ

(وَلْتَعْلَمَنْ أَنَّ تَوَكُّلَكَ) على الله تعالى (لَا يُنَافِي الاكْتِسَابَ). وقوله: (فَاجْهَدْ) أمْر من جَهَد، من باب نَفَع: إذا طلب حتى بلغ غايته في الطلب[1]. وقوله: (عَمَلَا) منصوب على التمييز.

(ثُمَّ التَّوَكُّلُ)؛ أي: الاعتماد (عَلَى الأَسْبَابِ شِرْكٌ بِتَوْحِيدِكَ لِلْوَهَّابِ) سبحانه، و(إِهْدَارُكَ)؛ أي: تركك (الأَسْبَابَ أَيْضاً نَقْص فِي الْعَقْلِ)؛ لأن العقل الكامل يقتضي التمسّك بها، (وَالإِعْرَاضُ عَنْهَا)؛ أي: عن الأسباب، (وَقْص) بفتح الواو وسكون القاف آخره صاد مهملة؛ أي: عيب ونقص، (إِن تُعْرِضَنْ عَنْهَا قَدَحْتَ النَّقْلَا)؛ أي: ما نُقل في الكتاب والسُّنَّة من الأمْر بالاكتساب، والأخذ بالأسباب

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ١١٢.

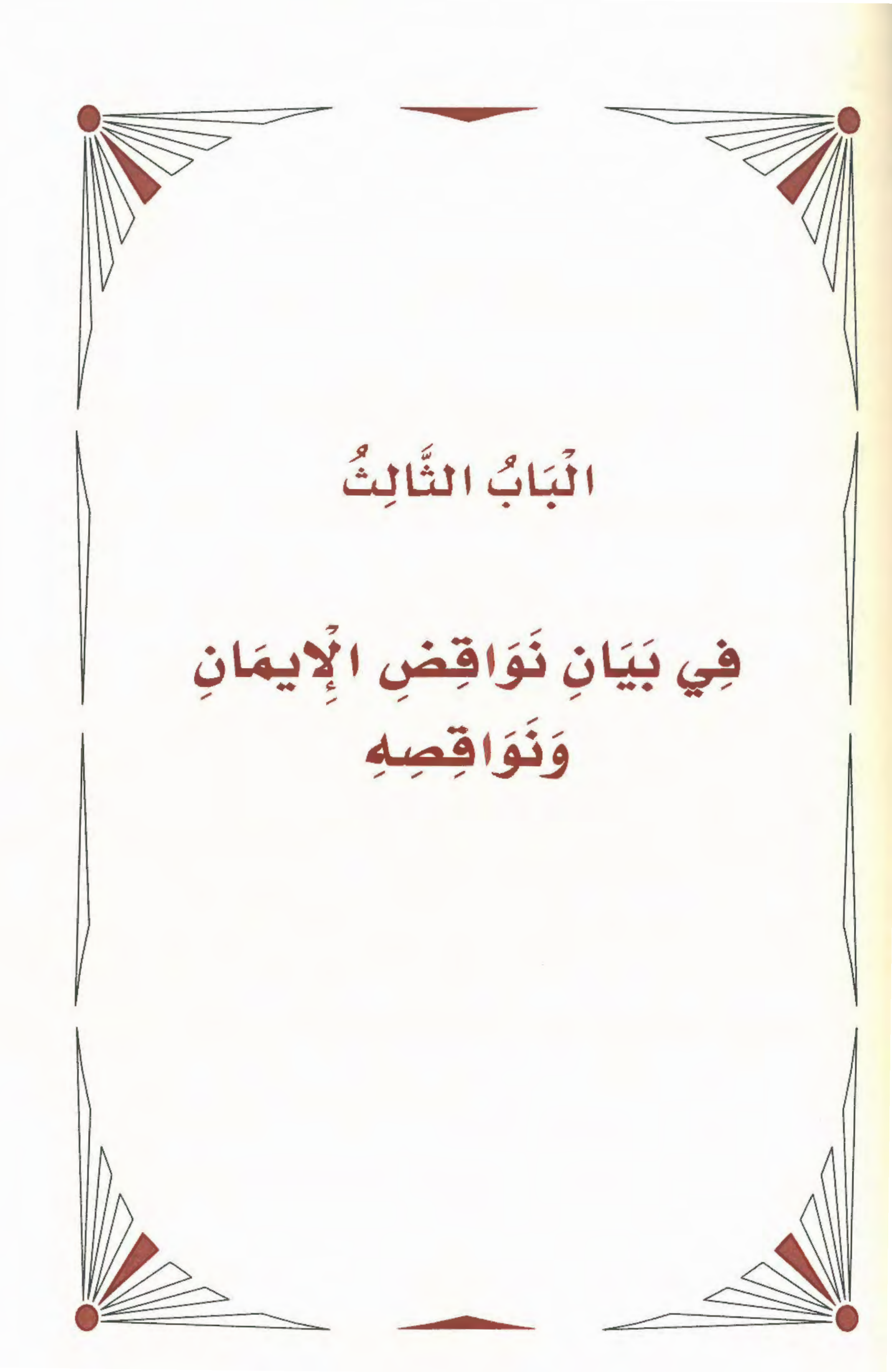
(لَا تَتْرُكِ الأَسْبَابَ تَلْقَ فَضْلَا)؛ أي: رزق ربك ـ سبحانه ـ.

(وَمَا أَصَابَ الْعَبْدَ) من الخير والشرّ (لَا يُخْطِئُهُ)؛ أي: لا يمكن أن يُخطئه، و(مَا لَمْ يُصِبْهُ لَمْ يَكُن يَطَؤُهُ)؛ أي: يصيبه ويقع عليه، (وَمَا قَضَى الْإِلهُ) ﷻ (لَا مَحَالَه) بفتح الميم؛ أي: لا بُدَّ منه، (يَكُونُ وَاقِعاً فَلَا إِحَالَه)؛ أي: لا تحويل منه إلى غيره، ولا تغيير.

وقوله: (وَاحْتَجَّ) فِعل أمر من الاحتجاج، (بِالْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ)؛ أي: في حال نزول المصائب عليك حتى يسهل عليك الصبر، (لَا فِي الْمُخَالَفَاتِ)؛ أي: لا تحتجّ بالقدر في مخالفات أمر الله تعالى. **وقوله:** (وَالْمَعَايِبِ) عَطْف تفسير لِمَا قبله؛ يعني: أنه لا يجوز لأحد أن يحتجّ بالقدر في وقوع المعاصي منه؛ لأن ذلك يؤدّي إلى الإعراض عن التوبة والاستغفار، بل الواجب أن يبادر بالرجوع إلى الله ﷻ.

(لَا يُنسَبُ الشَّرُّ إِلَى اللهِ الأَحَد) لتمام رحمته وحكمته، (إِلَّا لِخَلْقِهِ) سبحانه (لَهُ)؛ أي: لذلك الشرّ، (فَلَا نَكَد)؛ أي: فلا ضُرَّ في نسبة الشرّ إليه تعالى من حيث خَلْقه له؛ لأنه لا خالق سواه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

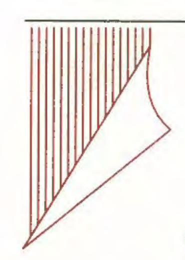
وقوله: (ثَمَرَةُ الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ) مبتدأ، خبره **قوله:** (أَن يَعْتَمِدَ الْقَلْبُ عَلَى مَن لَهُ مَنّ)؛ أي: على الله تعالى الذي مَنَّ بفضله على عباده، (كَذَا) من ثمرات الإيمان بالقدر: (الرِّضَا)؛ أي: أن يرضى العبد (بِالْمُرِّ)؛ أي: بالقضاء المكروه، (وَاحْتِسَابُ) الأجر (بِالصَّبْرِ) على البلاء، (وَ)بـ(الشُّكْر) على السَّرَّاءِ (إِذَا تُصَابُ)؛ أي: إذا أصاب كلّ منهما. والله تعالى أعلم.



الْبَابُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ نَوَاقِضِ الْإِيمَانِ وَنَوَاقِصِهِ





الْبَابُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ نَوَاقِضِ الْإِيمَانِ، وَنَوَاقِصِهِ

«النواقض» بالضاد المعجمة: جمع ناقض، من نَقَض البناء: إذا هدمه.

قال الفيّوميّ رَحِمَهُ اللَّهُ: نقضتُ البناء نقضاً، من باب قَتَل، قال: ونقضت الحَبْل نقضاً أيضاً: حَلَلْت بَرمْهَ، ومنه يقال: نقضت ما أبرمه: إذا أبطلته، وانتقض هو بنفسه، وانتقضت الطهارة: بطَلَت، وانتقض الجرح بعد بُرئه، والأمر بعد التئامه: فَسَدَ. انتهى(١).

و«النواقص» بالصاد المهملة: جمع ناقص، من نَقَص الشيءَ: إذا أذهبت بعضه.

قال الفيّوميّ رَحِمَهُ اللَّهُ: نَقَص نقصاً، من باب قتل، ونُقصاناً، وانتقص: ذهب منه شيء بعد تمامه، ونَقَصْتُهُ يتعدى، ولا يتعدى، هذه اللغة الفصيحة، وبها جاء القرآن في قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، و﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]، وفي لغة ضعيفة يتعدى بالهمزة والتضعيف، ولم يأتِ في كلام فصيح، ويتعدى أيضاً بنفسه إلى مفعولين، فيقال: نقصت زيداً حقَّه، وانتقصته مثله، ودرهم ناقص غير تامّ الوزن. انتهى(٢).

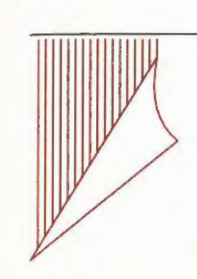
فـ«نواقص»: جمع لـ«ناقص» المتعدي، لا اللازم، فإضافة «نواقص» إلى ضمير الإيمان يكون من إضافة الصفة إلى مفعولها، فتنبّه. والله تعالى أعلم.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٦٢١.

(٢) المرجع السابق.





الْفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي بَيَانِ مَعْنَى الْكُفْرِ، وَأَقْسَامِهِ

٦٢١ ـ وَقَدْ يَكُونُ الْكُفْرُ بِارْتِكَابِ مَا ... يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ مِمَّا حُرِّمَا

٦٢٢ ـ وَهْيَ: الْمُكَفِّرَاتُ مِنْ أَقْوَالٍ، اوْ ... أَفْعَالِهِ، اوِ اعْتِقَادَاتٍ رَأَوْا

٦٢٣ ـ قَدْ حَكَمَ الشَّارِعُ أَن قَدْ تُبْطِلُ ... إِيمَانَهُ، وَالنَّارَ أَيْضاً تُدْخِلُ

٦٢٤ ـ وَسَائِرُ الْعِصْيَانِ تَنقُصُهُ لَا ... تَنقُضُهُ، فَاجْتَنِبَنَّ الْخَلَلَا

٦٢٥ ـ كَمَا يَكُونُ الْكُفْرُ بِاعْتِقَادٍ، اوْ ... بِالْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ، كَذَاكَ قَدْ رَأَوْا

٦٢٦ ـ بِالتَّرْكِ، وَالشَّكِّ، وَالِامْتِنَاعِ ... فَاجْتَنِبِ الْكُلَّ بِلَا نِزَاعِ

٦٢٧ ـ وَالْكُفْرُ، وَالشِّرْكُ، وَفِسْقٌ، ظُلْمُ ... تُطْلَقُ فِي الشَّرْعِ ـ عَدَاكَ الضَّيْمُ ـ =

٦٢٨ ـ لِمَا هُوَ الْأَكْبَرُ، وَهْوَ: مَا غَدَا ... يُخْرِجُ صَاحِبَهُ عَن شَرْعِ الْهُدَىٰ

٦٢٩ ـ وَيَرْفَعُ الْعِصْمَةَ عَنْهُ، وَجَرَتْ ... عَلَيْهِ أَحْكَامُ الطُّغَاةِ انطَبَقَتْ

٦٣٠ ـ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ لَا تَنْفَعُهُ ... شَفَاعَةُ الشُّفَّاعِ لَا تَمْنَعُهُ

٦٣١ ـ وَمَا هُوَ الْأَصْغَرُ، وَهْوَ: مَا غَدَا ... صَاحِبُهُ مِن صِنفِ مَن قَدِ اهْتَدَىٰ

٦٣٢ ـ وَأَمْرُهُ غَداً لِرَبِّهِ؛ فَإِنْ ... شَاءَ يُعَذِّبُ، وَيَغْفِرُ بِمَنّ

٦٣٣ ـ وَيُطْلَقُ الْأَصْغَرُ لِلَّذِي جَحَدْ ... نِعْمَةَ رَبِّهِ الرَّحِيمِ مَنْ عَبَدْ

٦٣٤ ـ أَوْ كَانَ كُفْراً دُونَ كُفْرٍ فَيُرَىٰ ... يُجَامِعُ الْإِيمَانَ كُفْرٌ فَاخْبُرَا

***

(وَقَدْ يَكُونُ الْكُفْرُ بِارْتِكَابِ)؛ أي: بفعل **(مَا يُنَاقِضُ الإِيمَانَ)**.

وقوله: (مِمَّا حُرِّمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، بيان لـ«ما يناقض»؛ أي: من الشيء الذي حرمه الله على العباد، (وَهْيَ الْمُكَفِّرَاتُ)؛ أي: الذنوب التي تنقل فاعلها إلى الكفر، فيُطلق عليه أنه كافر، سواء كانت (مِنْ أَقْوَالٍ اوْ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام، وَدْرجها، (أَفْعَالِهِ) الضمير للمرتكب المفهوم من «ارتكاب»، (أَوِ اعْتِقَادَاتٍ رَأَوْا)؛ أي: رأى العلماء كلّ هذا من المكفّرات.

(قَدْ حَكَمَ الشَّارِعُ أَنْ) مخفّفة من الثقيلة؛ أي: أنها (قَد تُبْطِلُ) بضمّ أوله، من الإبطال، مبنيّاً للفاعل، (إِيمَانَهُ) بالنصب على المفعوليّة؛ أي: تُبطل إيمان المرتكب، (وَالنَّارَ أَيْضاً تُدْخِلُ) بالبناء للفاعل أيضاً، من الإدخال؛ أي: تُدخل صاحبها النارَ.

(وَسَائِرُ الْعِصْيَانِ)؛ أي: بقيّة المعاصي (تَنقُصُهُ)؛ أي: تجعل الإيمان ناقصاً، (لَا تَنقُضُهُ)؛ أي: لا تُبطله، (فَاجْتَنِبَنَّ الْخَلَلَا)؛ أي: ابتعد عن النقص والعيب.

(كَمَا يَكُونُ الْكُفْرُ بِاعْتِقَادٍ، اوْ) بدرج الهمزة، (بِالْقَوْلِ، وَالْفِعْلِ كَذَاكَ قَدْ رَأَوْا)؛ أي: اعتقد العلماء بأنه يكون أيضاً (بِالتَّرْكِ)؛ أي: ترك المأمورات الشرعيّة، (وَالشَّكِّ) في أمر الدين، (وَالِامْتِنَاعِ) عن قبول ما شرعه الله تعالى، (فَاجْتَنِبِ الْكُلَّ)؛ أي: ابتعد عن هذه الأشياء (بِلَا نِزَاعِ)؛ أي: دون منازعة لربك، ولِمَا شَرَعه لعباده ـ سبحانه ـ.

(وَالْكُفْرُ، وَالشِّرْكُ، وَفِسْقٌ، ظُلْمُ تُطْلَقُ فِي الشَّرْعِ)، **وقوله:** (عَدَاكَ الضَّيْمُ) جملة دعائيّة، و«الضَّيْم» الظلم، والجملة معترضة بين العامل، وهو «تُطلق»، ومعموله، وهو **قوله:** (لِمَا)، اللام بمعنى «على»؛ أي: على ما (هُوَ الأَكْبَرُ، وَهْوَ)؛ أي: الأكبر، (مَا غَدَا)؛ أي: صار (يُخْرِجُ صَاحِبَهُ عَن شَرْعِ الْهُدَى)؛ أي: عن دين الإسلام

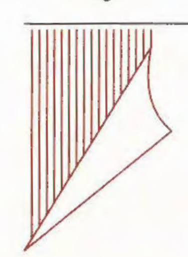
الذي شُرع لهداية الخلق، **(وَيَرْفَعُ الْعِصْمَةَ)**؛ أي: كونه معصوم الدم والمال، **(عَنْهُ)**؛ أي: عن مرتكبه، **(وَجَرَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الطُّغَاةِ)** بالضمّ، جمع: طاغ، والمراد به: الكفّار. **وقوله: (انطَبَقَتْ)** مؤكّد **لقوله:** «جرت»، **(مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ لَا تَنفَعُهُ شَفَاعَةُ الشُّفَّاعِ)** بضمّ الشين المعجمة، وتشديد الفاء، جمع: شافع، كما قال في «الخلاصة»:

وَفُـعَّـلٌ لِـفَـاعِـلٍ وَفَـاعِـلَـهْ   وَصْـفَـيْـنِ نَـحْـوُ عَـاذِلٍ وَعَـاذِلَـهْ
وَمِـثْـلُـهُ الْـفُـعَّـالُ فِـيـمَـا ذُكِّـرَا   وَذَانِ فِـي الْـمُـعَـلِّ لَامـاً نَـدَرَا

فقوله: «شفاعةُ» مبتدأ، خبره **قوله: (لَا تَمْنَعُهُ)** كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨].

(وَ)تطلق أيضاً على **(مَا هُوَ الأَصْغَرُ، وَهْوَ مَا غَدَا)**؛ أي: صار **(صَاحِبُهُ مِن صِنفِ مَن قَدِ اهْتَدَى)**؛ أي: من صنف المؤمنين لإيمانه، **(وَأَمْرُهُ غَداً)**؛ أي: يوم القيامة، **(لِرَبِّهِ)**؛ أي: موكولاً إلى ربه ـ سبحانه ـ **(فَإِن شَاءَ يُعَذِّبُـ)**ـه، **(وَ)**إن شاء **(يَغْفِرُ)** له **(بِمَنِّـ)**ـه ﷻ.

(وَيُطْلَقُ) أيضاً الكفر **(الأَصْغَرُ لِلَّذِي)** اللام بمعنى «على»؛ أي: على الذي **(جَحَدْ نِعْمَةَ رَبِّهِ)** سبحانه **(الرَّحِيمِ)** بالجر، صفة لـ«ربه». **وقوله: (مَنْ عَبَد)** في محل نصب على المفعوليّة لـ«الرحيم»؛ أي: الذي يرحم من عبده، **(أَوْ)** بمعنى الواو؛ أي: وعلى ما **(كَانَ كُفْراً دُونَ كُفْرٍ)** ككفران العشير، **(فَيُرَى)** بالبناء للمفعول؛ أي: يُعتقد أنه **(يُجَامِعُ الإِيمَانَ كُفْرٌ)**؛ أي: يُوجدان في شخص واحد، **(فَاخْبُرَا)** أمْر من خَبَرت الشيء، من باب نصر: إذا علمته، والألف منقلبة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: فاعلمن ذلك. والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي بَيَانِ ضَوَابِطِ إِجْرَاءِ الْأَحْكَامِ

٦٣٥ ـ الْكُفْرُ وَالتَّكْفِيرُ حُكْمٌ شَرْعِي ... فَالْحُكْمُ فِيهِمَا عَظِيمُ الْوَقْعِ

٦٣٦ ـ لِأَنَّهُ، خَالِصُ حَقِّ اللَّهِ ... فَلَيْسَ حُكْمُ غَيْرِهِ يُضَاهِي

٦٣٧ ـ فَمَن يَكُنْ إِسْلَامُهُ، قَدْ ثَبَتَا ... فَالشَّكُّ لَا يُزِيلُهُ، إِذَا أَتَىٰ

٦٣٨ ـ وَلَمْ يُزِلْ صَرِيحَ الِاسْلَامِ سِوَىٰ ... صَرِيحِ كُفْرٍ نَاقِضٍ لِمَا حَوَىٰ

٦٣٩ ـ فَخَطَأٌ فِي نَفْيِ تَكْفِيرٍ غَدَا ... أَهْوَنَ مِنْ إِثْبَاتِهِ فَابْتَعِدَا

٦٤٠ ـ كَذَاكَ فِي التَّفْسِيقِ وَالتَّبْدِيعِ ... فَلْتَحْذَرِ السُّرْعَةَ فِي الْجَمِيعِ

٦٤١ ـ وَالْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّوَاهِرِ ... وَرَبُّنَا يَحْكُمُ بِالسَّرَائِرِ

٦٤٢ ـ لَيْسَ لَنَا الْقَطْعُ لِمُسْلِمٍ بِأَنْ ... يَنجُوَ مِن نَارٍ، خِلَافَ ذِي الْفِتَنْ=

٦٤٣ ـ مِن كَافِرٍ يَمُوتُ بِالْكُفْرِ فَقَدْ ... نَقْضِي عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ فِي النَّكَدْ

٦٤٤ ـ كُلُّ وَعِيدٍ جَاءَ بِارْتِكَابِ مَا ... نُهِيَ عَنْهُ لَمْ يَكُن مُسْتَلْزِمَا

٦٤٥ ـ تَعْيِينَ فَاعِلِهِ أَوْ مُرْتَكِبِهْ ... بِالْحُكْمِ قَوْلاً أَوْ سِوَاهُ فَانتَبِهْ

٦٤٦ ـ لَا تُجْرَى الَاحْكَامُ عَلَى الْأَعْيَانِ ... إِلَّا إِذَا ثَبَتَ بِالْبُرْهَانِ

٦٤٧ ـ بِشَرْطِ: عِلْمٍ، وَاخْتِيَارٍ، وَانتِفَا ... مَوَانِعٍ، وَالْقَصْدُ مَعْهَا قَدْ وَفَىٰ

٦٤٨ ـ فَمَنْ غَدَا لَمْ يَفْهَمِ الدَّعْوَةَ لَمْ ... تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ فَلَمْ يُلَمْ

٦٤٩ ـ وَالْعُذْرُ جَاءَ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَوْ ... فُرُوعِهِ عَلَى السَّوَاءِ قَدْ رَأَوْا

٦٥٠ ـ وَكُلُّ تَأْوِيلٍ غَدَا مُنطَوِيَا ... تَكْذِيبَ خَيْرِ الرُّسْلِ ـ نِعْمَ هَادِيَا ـ

٦٥١ - أَوْ جَحْدَ أَصْلٍ لَا يَقُومُ الدِّينُ ... إِلَّا بِهِ فَعُذْرُهُ مَهِينُ

٦٥٢ - كَبَاطِنِيَّةٍ وَكَالْفَلَاسِفَهْ ... أَهْلُ ضَلَالَةٍ وَزَيْغٍ وَسَفَهْ

٦٥٣ - صَاحِبُهُ يُكْفَرُ لَا عُذْرَ لَهُ ... يُقْبَلُ مُطْلَقاً وَلَوْ قَدْ قَالَهُ

٦٥٤ - مَن لَمْ يَكُنْ كَذَا: فَإِمَّا يَأْثَمُ ... صَاحِبُهُ لَيْسَ بِكُفْرٍ يُوسَمُ

٦٥٥ - كَسَائِرِ الْمُرْجِئَةِ الضُّلَّالِ ... وَشِبْهِهِم مِنْ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ

٦٥٦ - أَوْ لَا يُؤَثَّمُ، وَلَا يُبَدَّعُ ... وَلَا يُكَفَّرُ الْمَجَالُ أَوْسَعُ

٦٥٧ - وَذَاكَ كَالْمُجْتَهِدِينَ إِذْ بَدَا ... تَأْوِيلُهُمْ عَنِ اجْتِهَادِ ذِي هُدَىٰ

٦٥٨ - يُعْذَرُ بِالْإِكْرَاهِ، لَا تُكَفِّرِ ... بِلَازِمِ الْمَذْهَبِ إِن لَمْ يَظْهَرِ

٦٥٩ - خُلَاصَةُ الْقَوْلِ: لَدَى الْحُكْمِ عَلَى ... مُعَيَّنٍ يُخَصُّ قَوْمٌ فُضَلَا

٦٦٠ - الْعُلَمَاءُ الرَّاسِخُونَ حَقَّقُوا ... عِلْمَ الشَّرِيعَةِ بِبَحْثٍ دَقَّقُوا

٦٦١ - أَمَّا سِوَاهُمُ فَحُكْمُهُمْ عَلَى ... شَخْصٍ مُعَيَّنٍ فَقُل: لَن يُقْبَلَا

***

(الْكُفْرُ)؛ أي: كون الشيء كفراً، (وَالتَّكْفِيرُ)؛ أي: نسبة الشخص إلى الكفر، (حُكْمٌ شَرْعِي)؛ أي: منسوب إلى الشرع، فهو الذي يَحكم بهما، فلا يحقّ لأحد أن يتكلم بأن هذا الشيء كفر، ولا بأن هذا الشخص كافر إلا بحجة شرعيّة. (فَالْحُكْمُ فِيهِمَا)؛ أي: في الكفر والتكفير، (عَظِيمُ الْوَقْعِ)؛ أي: الشأن؛ (لأَنَّهُ خَالِصُ حَقِّ اللهِ) سبحانه، (فَلَيْسَ حُكْمُ غَيْرِهِ) تعالى (يُضَاهِي)؛ أي: يُشَابِه حكم الله ﷻ؛ يعني: أن حُكم غيره تعالى باجتهاد نفسه ليس كحكم الله تعالى في نصّ كتابه، أو نصّ ما صحّ عن رسوله ﷺ.

(فَمَن يَكُنْ إِسْلَامُهُ قَدْ ثَبَتَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أن الشخص

الذي ثبت إيمانه باليقين، **(فَالشَّكُّ)** في إيمانه **(لَا يُزِيلُهُ إِذَا أَتَى)**؛ أي: وقع الشك وحصل. **وقوله: (وَلَمْ يُزِلْ)** بضمّ أوله وكسر ثالثه، من الإزالة؛ أي: لا يَرْفَع **(صَرِيحَ الِاسْلَامِ)** بنقل حركة الهمزة، ودَرْجها، **(سِوَى صَرِيحِ كُفْرٍ)** تأكيد **لقوله:** «فالشكّ لا يزيله». **وقوله: (نَاقِضٍ)** بالجرّ، صفة لـ«كفرٍ». **وقوله: (لِمَا حَوَى)** متعلّق بـ«ناقضٍ»؛ أي: لِمَا جمعه في قلبه من الإيمان.

(فَخَطَأٌ فِي نَفْيِ تَكْفِيرٍ غَدَا)؛ أي: صار **(أَهْوَنَ مِنْ إِثْبَاتِهِ)**؛ أي: من إثبات التكفير، **(فَابْتَعِدَا)**؛ أي: فإذا كان الأمر كذلك فابتعد ـ أيها المشفق على نفسه وعلى دينه ـ عن تكفير أيّ أحد دون حجة شرعيّة. **(كَذَاكَ فِي التَّفْسِيقِ)**؛ أي: نسبة الشخص إلى الفسق **(وَالتَّبْدِيعِ)**؛ أي: نسبته إلى البدعة، **(فَلْتَحْذَرِ السُّرْعَةَ)**؛ أي: الإسراع **(فِي الْجَمِيعِ)**؛ أي: في جميع هذه الأشياء، من التكفير، والتفسيق، والتبديع، فإنها خطر، ومهواة في النار، فقد أخرج الشيخان في «صحيحيهما» عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن النبيّ ﷺ قال: «**إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»، وفي رواية: قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيهِ: «يَا كَافِرُ» فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**».

(وَالْحُكْمُ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّوَاهِرِ)؛ يعني: أن الأحكام في الدنيا تجري على الظاهر، **(وَرَبُّنَا)** سبحانه **(يَحْكُمُ بِالسَّرَائِرِ)** المعنى: أن من كان ظاهره الإيمان حُكم له به، ومن كان ظاهره خلافه حُكم عليه به، والاطلاع على القلوب موكول إلى علام الغيوب.

(لَيْسَ لَنَا الْقَطْعُ لِمُسْلِمٍ بِأَنْ يَنجُوَ مِن نَارٍ)؛ يعني: أنه لا ينبغي لنا القطع لشخص معيّن بأنه ناج من الخلود في النار، وإنما نقطع على العموم لموتى المسلمين بالنجاة من الخلود فيها. **وقوله: (خِلَافَ**

ذِي الْفِتَنِ)؛ أي: إلا صاحب الفتن، وهو من مات على الكفر، كما بيّنه **بقوله: (مِن كَافِرٍ يَمُوتُ بِالْكُفْرِ، فَقَدْ نَقْضِي عَلَيْهِ بِالْخُلُودِ فِي النَّكَدِ)**؛ أي: في مقاساة شدّة جهنم ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ.

(كُلُّ وَعِيدٍ جَاءَ بِارْتِكَابِ مَا نُهِيَ عَنْهُ) بالبناء للمفعول، **(لَمْ يَكُن)** ذلك الوعيد **(مُسْتَلْزِمًا تَعْيِينَ فَاعِلِهِ، أَوْ مُرْتَكِبِه بِالْحُكْمِ)** بذلك الوعيد، وسواء أكان المنهيّ عنه **(قَوْلاً، أَوْ)** كان **(سِوَاهُ)**؛ أي: سوى القول، وهو: الفعل، والاعتقاد، **(فَانْتَبِه)** لهذا الأمر الدقيق، فلا تتهوّر فيه دون تحقيق.

(لَا تُجْرَى) بالبناء للمفعول، **(الَاحْكَامُ)** بنقل حركة الهمزة، ودَرْجها، **(عَلَى الأَعْيَانِ)**؛ أي: على الأشخاص المعيّنين **(إِلَّا إِذَا ثَبَتَ)** الحكم **(بِالْبُرْهَانِ)**؛ أي: بالحجة الشرعيّة، **(بِشَرْطِ عِلْم)**؛ أي: بتحقّق أن المرتكب فَعَله عالِماً بحكمه، **(وَاخْتِيَارِ)**؛ أي: وفَعله أيضاً مختاراً، لا مُكْرهاً، **(وَانتِفَا مَوَانِعِ، وَالْقَصْدُ)** مبتدأ؛ أي: فَعَله قاصداً له، لا سهواً وخطأً، **(مَعْهَا)**؛ أي: مع العلم، والاختيار، وانتفاء الموانع. **وقوله: (قَدْ وَفَى)**؛ أي: تمّ، و«وُجد» خبر المبتدأ.

وحاصل المعنى: أنه لا تُجرى الأحكام على الأعيان إلا بعد قيام الحجة بتحقّق الشروط، وهي: العلم، والاختيار، والقصد، وانتفاء الموانع.

(فَمَنْ غَدَا)؛ أي: من صار **(لَمْ يَفْهَمِ الدَّعْوَةَ)** الإسلاميّة، **(لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ)** شرعيّة حتى نحكم عليه بشيء، **(فَلَمْ يُلَمْ)**؛ أي: ليس عليه لَوْمٌ من جهة الشرع، **(وَالْعُذْرُ جَاءَ فِي أُصُولِ الدِّينِ أَوْ)** بمعنى الواو، **(فُرُوعِهِ)**. **وقوله: (عَلَى السَّوَاءِ)** متعلّق بـ**(قَدْ رَأَوْا)**؛ أي: اعتقد العلماء ذلك.

والحاصل: أن العذر جارٍ في أصول الدين وفروعه، ومواطن الإجماع والخلاف على حدّ سواء.

وبالجملة: فحيث أمكن الجهل فالأصل العذر حتى تقوم الحجة، وتتبيّن المحجة.

(وَكُلُّ تَأْوِيلٍ) مبتدأ، خبره جملة «صاحبه يُكفر»، **(غَدَا)**؛ أي: صار **(مُنطَوِيَا)**؛ أي: مشتملاً **(تَكْذِيبَ خَيْرِ الرُّسْلِ)** بنصب «تكذيب» على نزع الخافض؛ أي: على تكذيب النبيّ ﷺ. **وقوله: (نِعْمَ هَادِيَا)** جملة جيء بها مدحاً له ﷺ.

وقوله: (أَوْ جَحْدَ أَصْلٍ) عطف على «تكذيبَ»، **(لَا يَقُومُ الدِّينُ إِلَّا بِهِ)**؛ أي: بذلك الأصل. **وقوله: (وَعُذْرُهُ مَهِين)**؛ أي: ضعيف، جملة حاليّة؛ أي: حال كون صاحبه ضعيف العذر، **(كَالْبَاطِنِيَّةِ)** هي فرقة متسترّة بالتشيّع وحبّ آل البيت، مع إبطان الكفر المحض، وسمِّيت بذلك لأنها ترى أن لكل ظاهر باطناً، والظاهر محمد ﷺ، والباطن هو علم التأويل الذي لا يعرفونه إلا هم.

وفي «المصباح» ما ملخّصه: الباطنيّة هم الذين يدّعون أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأنهم يعلمون الباطن، فأحالوا بذلك الشريعة؛ لأنهم تأوّلوا بما يخالف العربيّة التي نزل بها القرآن. انتهى[1].

(وَكَالْفَلَاسِفَه) هي فرقة ملحدة خارجة عن جميع الأديان، فلا يؤمنون بالله، ولا بالملائكة، ولا باليوم الآخر. و«الفلسفة» كلمة يونانيّة تعني الحكمة، ويعرّفها أصحابها بأنها: النظر العقليّ المتحرّر

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٥٥٠.

من كل قيد وسُلطة تَفرض عليه. فهم **(أَهْلُ ضَلَالَةٍ)** خلاف الرُّشد، **(وَزَيْغٍ)**؛ أي: مَيْلٍ عن الحقّ، **(وَسَفَه)**؛ أي: جهل وحماقة.

(صَاحِبُهُ يُكْفَرُ) يَحْتَمِل أن يكون بفتح أوله وضمّ الفاء؛ أي: يصير صاحب هذا المذهب كافراً، ويَحْتَمَل أن يكون بضمّ أوله وفتح ثالثه، مبنيّاً للمفعول، من الإكفار؛ أي: يُنسب صاحبه إلى الكفر، ويحكم عليه بالكفر. **(لَا عُذْرَ لَهُ يُقْبَلُ)**؛ أي: ليس له عذر مقبول، **(دَائِماً، وَلَوْ قَدْ قَالَهُ)**؛ أي: ولو ذكر ذلك العذر.

وأما **(مَن لَمْ يَكُن كَذَا)**؛ أي: كما ذُكر من تكذيب الرسول، أو جحد أصل من أصول الدين، **(فَإِمَّا يَأْثُمُ)** بتقدير «أن»؛ أي: أن يأثم **(صَاحِبُهُ)**؛ أي: يُنسب إلى الإثم، **(لَيْسَ بِكُفْرٍ يُوسَمُ)**؛ أي: ليس يوصف بالكفر، وهؤلاء **(كَسَائِرِ)** تقدّم عن «القاموس» أن «سائر» يستعمل بمعنى الجميع؛ أي: جميع الطائفة **(الْمُرْجِئَةِ)** اسم فاعل من «أرجأته» بالهمزة: إذا أخّرته؛ سمُّوا بذلك لأنهم أرجئوا الأعمال عن مسمّى الإيمان.

وقوله: (الضُّلَّالِ) بالضمّ، جمع: ضالّ، صفة للمرجئة، **(وَشِبْهِهِم مِنْ أَهْلِ الِاعْتِزَالِ، أَوْ لَا يُؤَثَّمُ)**؛ أي: لا يُنسَب إلى الإثم أصلاً، **(وَلَا يُبَدَّعُ)**؛ أي: لا يُنسَب إلى البدعة، **(وَلَا يُكَفَّرُ)**؛ أي: لا يُنسَب إلى الكفر، **(الْمَجَالُ أَوْسَعُ)**؛ أي: فيعامل كلّ أحد بما اقتضاه حاله، **(وَذَاكَ)**؛ أي: هذا القسم الذي لا يؤثّم، ولا يبدّع، ولا يكفّر، **(كَالْمُجْتَهِدِينَ)** الذين وُجدت فيهم شرائط الاجتهاد، **(إِذْ بَدَا)**؛ أي: ظهر **(تَأْوِيلُهُمْ عَنِ اجْتِهَادٍ ذِي)**؛ أي: صاحب **(هُدَى)** حيث وُجدت فيه شرائط الاجتهاد. **وقوله: (يُعْذَرُ بِالإِكْرَاهِ)**؛ يعني:

أن الشخص يُعذر بالإكراه، فالإكراه عذر معتَبر يمنع إجراء الأحكام، وقد قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

و(**لَا تُكَفِّرِ بِلَازِمِ الْمَذْهَبِ**)؛ يعني: أنه لا ينبغي أيضاً أن تكفّر أو تبدّع شخصاً بلازم مذهبه، (**إِن لَمْ يَظْهَر**) ذلك اللازم عليه، فإنَّ لازمَ المذهب ليس بمذهب، إلا إن تَبَنَّاهُ صاحبُه.

(**خُلَاصَةُ الْقَوْلِ: لَدَى الْحُكْمِ عَلَى**) شخص (**مُعَيَّنِ**) بالكفر، أو الفسق، أو البدعة، (**يُخَصُّ**) بالبناء للمفعول، ونائب فاعله **قوله:** (**قَوْمٌ فُضَلَا**). **وقوله:** (**الْعُلَمَاءُ**) بدل من «قومٌ»، (**الرَّاسِخُون حَقَّقُوا**)؛ أي: الذين رَسَخت أقدامهم في معرفة الله ﷻ، ومعرفة أسرار شريعته، كما وصفهم **بقوله:** (**عِلْمَ الشَّرِيعَةِ بِبَحْثٍ دَقَّقُوا**)؛ أي: دقّقوا علم الشريعة بالبحث فيه، فعرفوا المنطوق، والمفهوم، والدلالة، والإشارة، وغير ذلك، حتى فهموا مقاصد الشرع، فحكموا على معيَّن بما يقتضيه حاله.

و(**أَمَّا سِوَاهُمُ**)؛ أي: غير الراسخين في العلم، (**فَحُكْمُهُمْ عَلَى شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، فَقُل: لَنْ يُقْبَلَا**) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: ليس حُكمهم مقبولاً؛ لعدم أهليّتهم لذلك. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ أَنْوَاعِ النَّوَاقِضِ ـ بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ ـ، وَأَقْسَامِهَا

٦٦٢ ـ ثُمَّ النَّوَاقِضُ تَجِي قَلْبِيَّهْ ... أَوْ عَمَلِيَّةً، أَوِ الْقَوْلِيَّهْ

٦٦٣ ـ تَأْتِي نَوَاقِضُ لَدَى التَّوْحِيدِ ... وَفِي الْإِلَٰهِيَّاتِ خُذْ تَعْدِيدِي

٦٦٤ ـ وَفِي النُّبُوَّاتِ، وَغَيْبِيَّاتِ ... وَفِي مَسَائِلَ مُفَرَّقَاتِ

٦٦٥ ـ أَمَّا نَوَاقِضُ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ: أَنْ ... تُشْرِكَ بِاللَّهِ فِي وَصْفِهِ الْقَمَنْ

٦٦٦ ـ كَالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، أَوِ اعْتِقَادِ ... لِوَحْدَةِ الْوُجُودِ ذِي الْإِلْحَادِ

٦٦٧ ـ أَوِ الْحُلُولِ، أَوْ يُؤَلِّهُ السِّوَىٰ ... سُبْحَانَهُ، جَلَّ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ

٦٦٨ ـ أَوْ تَعْبُدُ الْأَنْدَادَ دُونَهُ كَذَا ... مَعَهُ فَالْكُلُّ اعْتِدَاءٌ وَأَذَىٰ

٦٦٩ ـ وَالشَّكُّ فِيهِ، أَوْ رَسُولِ اللَّهِ، أَوْ ... كِتَابِهِ، أَوْ حُكْمٍ، اوْ شَرْعٍ رَأَوْا

٦٧٠ ـ كَذَٰلِكَ الْإِلْحَادُ فِي الْأَسْمَاءِ ... صِفَاتِهِ بِالْجَحْدِ وَالْإِبَاءِ

٦٧١ ـ تَسْمِيَةُ الْأَصْنَامِ بِاسْمِهِ كَذَا ... وَصْفُهُ بِالنَّقْصِ وَقُبْحٍ بِالْبَذَا

٦٧٢ ـ تَشْبِيهُهُ بِخَلْقِهِ تَعَالَىٰ ... فَكُلُّ هَٰذِهِ تُرَىٰ ضَلَالَا

***

(ثُمَّ النَّوَاقِضُ تَجِي) حال كونها (قَلْبِيَّه، أَوْ) هنا للتنويع، (عَمَلِيَّةً، أَو) للتنويع أيضاً، (الْقَوْلِيَّه)؛ يعني: أن النواقض تأتي على ثلاثة أقسام: قلبيّة، وقوليّة، وعمليّة.

(تَأْتِي نَوَاقِضُ) أيضاً على أربعة أقسام: أولها (لَدَى التَّوْحِيدِ)؛

أي: أولها: تكون في التوحيد، (وَ)أيضاً (فِي الإِلهِيَّاتِ). **وقوله:** (خُذْ تَعْدِيدِي) تكميل للبيت؛ أي: احفظ تعديدي لها. (وَ)ثانيها: (فِي النُّبُوَّاتِ، وَ)ثالثها: في أمور (غَيْبِيَّاتِ، وَ)رابعها: (فِي مَسَائِلَ مُفَرَّقَاتِ)؛ أي: في أبواب متفرّقات.

(أَمَّا نَوَاقِضُ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ) فـ(أَن تُشْرِكَ بِاللهِ فِي وَصْفِهِ الْقَمَن) بفتحتين؛ أي: الحقيق والخليق به ﷻ، والمراد: وصف الربوبيّة، وذلك (كَالْخَلْقِ، وَالرَّزْقِ) بالفتح، (أَوِ اعْتِقَادِ)؛ أي: وكالاعتقاد (لِوَحْدَةِ الْوُجُودِ ذِي)؛ أي: صاحب (الإِلْحَادِ، أَوِ الْحُلُولِ)؛ أي: حلوله تعالى في مخلوقاته، (أَوْ يُؤَلِّهُ)؛ أي: يعتقد ألوهيّة (السِّوَى)؛ أي: غير الله (سُبْحَانَهُ جَلَّ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)؛ أي: علا وارتفع استواءً يليق بجلاله، (أَوْ تَعْبُدُ الأَنْدَادَ) بالفتح، جمع: نِدّ ـ بالكسر ـ، وهو المِثل، والمراد: به الأصنام، (دُونَهُ)؛ أي: دون الله تعالى، (كَذَا مَعَهُ)؛ أي: كذا عبادتها مع الله تعالى، (فَالْكُلُّ اعْتِدَاءٌ)؛ أي: ظلم (وَأَذَى) لله ـ سبحانه ـ، وهذا الأذى هو كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، قال الله ﷻ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

(وَالشَّكُّ فِيهِ)؛ أي: في الله ﷻ، (أَو) الشكّ في (رَسُولِ اللهِ) ﷺ، (أَو) الشكّ في (كِتَابِهِ) ﷻ، (أَو) الشك في (حُكْمِ) لله ﷻ، (اوْ) بوصل الهمزة، (شَرْعِ)؛ أي: شَرْع الله ـ سبحانه ـ. **وقوله:** (رَأَوْا)؛ أي: اعتقد العلماء كلَّ هذه الأشياء نواقضَ لِاعْتِقَاد القلب.

(كَذَلِكَ) من نواقض الإيمان، (الإِلْحَادُ)؛ أي: المَيل عن الحقّ والصواب (فِي الأَسْمَاءِ)؛ أي: أسمائه تعالى، و(صِفَاتِهِ) تعالى، وذلك (بِالْجَحْدِ)؛ أي: بإنكارها، (وَالإِبَاءِ)؛ أي: الامتناع عن

تسميته ووَصْفه بها، ومن الإلحاد أيضاً (تَسْمِيَةُ الأَصْنَامِ بِاسْمِهِ) تعالى، و(كَذَا وَصْفُهُ) تعالى (بِالنَّقْصِ)؛ أي: بصفة النقص، (وَقُبْحِ)؛ أي: ووصفه بوصف قبيح، (بِالْبَذَا) متعلّق بـ«وصفه»، و«البذاء» ـ بالفتح والمدّ ـ مصدر بَذَا يَبْذُو: إذا أفحش في قوله.

ومن الإلحاد أيضاً: (تَشْبِيهُهُ)؛ أي: تشبيه الله ﷻ (بِخَلْقِهِ، تَعَالَى) الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً، (فَكُلُّ هَذِهِ) الإلحادات (تُرَى) بالبناء للمفعول؛ أي: تُعتقد (ضَلَالَا) وقد حذّر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وتهدّد الله تعالى الملحدين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: ٤٠].

٦٧٣ ـ أَمَّا الَّتِي تُنَاقِضُ الْأَعْمَالَا لِلْقَلْبِ كَاسْتِكْبَارِهِ خَبَالَا

٦٧٤ ـ ذَا كُفْرُ إِبْلِيسَ ـ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ـ عَدَمُ الِانقِيَادِ، بِئْسَ الْفِتْنَةُ

٦٧٥ ـ مِن تِلْكَ: شِرْكُ الْقَصْدِ، مِنْهُ أَكْبَرُ وَمِنْهُ أَصْغَرُ، وَكُلٌّ ضَرَرُ

٦٧٦ ـ شِرْكُ الْمَحَبَّةِ كَأَن يُحِبَّا عَبْداً كَحُبِّ اللَّهِ، بِئْسَ ذَنبَا

❊ ❊ ❊

(أَمَّا) الأشياء (الَّتِي تُنَاقِضُ الأَعْمَالَا لِلْقَلْبِ؛ كَاسْتِكْبَارِهِ)؛ أي: استكبار الشخص (خَبَالَا)؛ أي: لأجل خباله؛ أي: جنونه، (ذَا)؛ أي: هذا الاستكبار (كُفْرُ إِبْلِيسَ ـ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ ـ) كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وحقيقة الاستكبار: (عَدَمُ الِانقِيَادِ) لأمر الله ـ سبحانه ـ (بِئْسَ الْفِتْنَةُ) هذه.

(مِن تِلْكَ)؛ أي: من نواقض عمل القلب: (شِرْكُ الْقَصْدِ)؛ أي: النيّة، (مِنْهُ) بعضه، (أَكْبَرُ، وَمِنْهُ)؛ أي: بعضه (أَصْغَرُ، وَكُلٌّ) من النوعين (ضَرَر) في الدين، فيجب اجتنابه.

ومنها أيضاً: (شِرْكُ الْمَحَبَّةِ) وذلك (كَأَن يُحِبَّا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، (عَبْداً كَحُبِّ اللهِ)؛ أي: مثل محبة الله ـ سبحانه ـ (بِئْسَ ذَنبَا) هذا الذنب، وقد أنكر الله تعالى هذا النوع من الحبّ، وذمَّه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

٦٧٧ ـ أَمَّا النَّوَاقِضُ بِقَوْلٍ: كَالَّذِي ... يَسُبُّ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ الْبَذِي

٦٧٨ ـ كَذَاكَ الِاسْتِهْزَا بِهِ، وَسَبُّ مَا ... أَنزَلَ مِن كُتُبٍ أَتَتْ مِنَ السَّمَا

٦٧٩ ـ نَوَاقِضُ الْعَمَلِ فِي التَّوْحِيدِ: أَنْ ... يُشْرِكَ فِي الطَّاعَةِ نِدّاً أَو وَثَنْ

٦٨٠ ـ كَالذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ، طَوَافٍ، أَوْ دَعَا ... غَيْرَ إِلَٰهِهِ فَلِلشِّرْكِ سَعَىٰ

٦٨١ ـ وَلَيْسَ يُشْتَرَطُ أَن يَعْتَقِدَا ... وَصْفَ الرُّبُوبِيَّةِ فِيمَنْ عَبَدَا

(أَمَّا النَّوَاقِضُ بِقَوْلٍ: كَالَّذِي يَسُبُّ رَبَّهُ) سبحانه (بِقَوْلِهِ الْبَذِي)؛ أي: القبيح، (كَذَاكَ الاسْتِهْزَا بِهِ) تعالى، (وَسَبُّ مَا أَنزَلَ مِنْ كُتُبٍ أَتَتْ مِنَ السَّمَا)؛ أي: الكتب المنزّلة من عند الله ـ تعالى ـ.

(نَوَاقِضُ الْعَمَلِ فِي التَّوْحِيدِ: أَنْ يُشْرِكَ) الشخص (فِي الطَّاعَةِ)؛ أي: في عبادة الله تعالى، (نِدّاً)؛ أي: شريكاً. **وقوله:** (أَو وَثَنْ) منصوب، وُقف عليه بالسكون على لغة ربيعة الذين يرسمون المنصوب المنوّن بصورتي الرفع والجرّ، ويقفون عليه بالسكون. (كَالذَّبْحِ، وَالنَّذْرِ) و(طَوَافٍ، أَوْ دَعَا غَيْرَ إِلَٰهِهِ) **فقوله:** «أو دعا» يَحْتَمِل

أن يكون مضافاً إلى «غير»، ويَحْتَمِل أن يكون منوّناً، و«غير» منصوب على المفعوليّة له. (فـ)من فعل شيئاً من ذلك فـ(لِلشِّرْكِ سَعَى)؛ أي: فعل الشرك، (وَلَيْسَ يُشْتَرَطُ) بالبناء للمفعول؛ يعني: أنه لا يشترط في كون هذه الأشياء شركاً، (أَن يَعْتَقِدَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، (وَصْفَ الرُّبُوبِيَّةِ فِيمَنْ عَبَدَا) بألف الإطلاق أيضاً مبنيّاً للفاعل، أو المفعول، والمعنى: أنه لا يُشترط اعتقاد الشخص في معبوده صفات الربوبيّة.

٦٨٢ ـ كَذَٰلِكَ الْـحُكْمُ بِغَيْرِ مَا نَزَلْ ... فَمِنْهُ: أَكْبَرُ، وَضِدُّهُ حَصَلْ

٦٨٣ ـ إِذَا أَتَىٰ بِغَيْرِ مَا أُنْزِلَ فِي ... وَاقِعَةٍ، أَوْ رِشْوَةٍ لَهُ تَفِي

٦٨٤ ـ أَوْ خَوْفٍ، اوْ مَصْلَحَةٍ، وَيَعْتَرِفْ ... بِجُرْمِهِۦ وَذَنْبِهِ الَّذِي اقْتَرَفْ

٦٨٥ ـ فَهُوَ أَصْغَرُ، وَإِن تَرَكَهُۥ ... وَهْوَ يَرَى اسْتِحْلَالَ مَا سَلَكَهُۥ

٦٨٦ ـ أَوْ جَحْداً، اوْ تَشْرِيعاً، اوْ لِرُؤْيَتِهْ ... تَخْيِيرَهُۥ، أَوْ نَحْوِ ذَا مِن فِرْيَتِهْ

٦٨٧ ـ فَإِنَّهُۥ يَكُونُ كَافِراً خَرَجْ ... عَن مِلَّةِ الْإِسْلَامِ بِئْسَمَا نَهَجْ

٦٨٨ ـ وَذَاكَ إِن قَامَتْ عَلَيْهِ الْـحُجَّةُ، ... وَعَرَفَ الْـحَقَّ وَزَالَ الشُّبْهَةُ،

(كَذَٰلِكَ) من النواقض العمليّة في باب التوحيد: (الْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا نَزَل) من عند الله تعالى، (فَمِنْهُ)؛ أي: من الحكم بغير ما أنزل الله ما هو (أَكْبَرُ) يُخرج صاحبه من الإسلام، (وَضِدُّهُ)؛ أي: ضدّ الأكبر، وهو الأصغر الذي لا يُخرج صاحبه من الإسلام، وهو مبتدأ، خبره **قوله:** (حَصَلْ).

ثم فَصَّل النوعَ الثاني **بقوله:** (إِذَا أَتَى)؛ أي: فَعَل الشخص؛

أي: حَكَم (بِغَيْرِ مَا أُنزِلَ) بالبناء للمفعول، (فِي وَاقِعَةٍ) معيّنة، أو وقائعَ لهوى، (أَوْ) حكم بذلك لأجل (رِشْوَةٍ) بكسر الراء: ما يعطيه الشخص الحاكمَ وغيرَه ليَحْكُم له، أو يحمله على ما يريد، وجَمْعها: رِشاً، مثل: سِدْرة وسِدَر، والضم لغة، وجمعها: رُشاً - بالضم أيضاً -، ورَشوَته رَشْواً، من باب قتل: أعطيته رِشوة، فارتشى؛ أي: أخذ. قاله في «المصباح»[1].

وقوله: (لَهُ تَفِي) صفة لـ«رِشوة»؛ أي: تحصل له، (أَوْ خَوْفٍ)؛ أي: حَكَم بذلك لأجل خوفه من الناس، (اوْ) بوصل الهمزة، (مَصْلَحَةٍ)؛ أي: لأجل مصلحة تحصل له، (وَيَعْتَرِف)؛ أي: ومع هذا كله يعترف الشخص (بِجُرْمِهِ) بضمّ الجيم؛ أي: ذنبه. **فقوله:** (وَذَنبِهِ) عطف تفسير، (الَّذِي اقْتُرِف) بالبناء للمفعول؛ أي: اكتسبه، (فَهُوَ)؛ أي: هذا القسم (أَصْغَرُ) لا يؤدّي إلى الخروج من الإسلام، وإنما هو من كبائر الذنوب.

ثم فَصَّل النوع الأول **بقوله:** (وَإِن تَرَكَهُ)؛ أي: ترك الحكم بما أنزل الله، بأن حكم بضدّه (وَهْوَ يَرَى)؛ أي: والحال أنه يعتقد (اسْتِحْلَالَ)؛ أي: حِلّ (مَا سَلَكَهُ)؛ أي: فَعَله، بأن اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله حلال له، (أَوْ جَحْداً)؛ أي: أو فعل ذلك لأجل جحوده حكم الله تعالى، (اوْ) بوصل الهمزة (تَشرِيعاً)؛ أي: لأجل أن يشرّع للناس ما لم يشرعه الله ﷻ، (اوْ) بوصل الهمزة أيضاً؛ أي: أو فعل ذلك (لِرُؤْيَتِه)؛ أي: لاعتقاده (تَخْيِيرَهُ)؛ أي: كونه مخيّراً في الحكم بما أنزل الله وبغيره، (أَوْ نَحْوِ ذَا مِن فِرْيَتِه) بكسر

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٢٨.

فسكون؛ أي: كَذِبه، وذلك كأن يعتقد أن حُكم الله تعالى لا يصلح لأهل هذا العصر المثقّف المتحضّر المتقدّم، نعم تقدّموا إلى جهنم، وبئس المهاد. (فَإِنَّهُ)؛ أي: فإن هذا الشخص (يَكُونُ كَافِراً خَرَجْ عَن مِلَّةِ الإِسْلَامِ بِئْسَمَا نَهَج)؛ أي: سلك، يقال: نَهج الطريق، من باب نَفَع: سلكه[1]؛ أي: بئس طريقاً الطريق الذي سلكه؛ لأنه يؤدي إلى جهنّم، وبئس المصير. (وَذَاكَ)؛ أي: الحكم عليه بخروجه عن الإسلام، (إِن قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ) ببيان الحقّ والصواب له، (وَعَرَفَ الْحَقَّ) بذلك البيان، (وَزَالَ الشُّبْهَةُ) عنه، فعند ذلك يُحكم عليه بكفره، وخروجه من الإسلام.

٦٨٩ ـ وَالسَّعْيُ فِي إِقَامَةِ السُّلْطَانِ ... لِكَي يَسُوسَ النَّاسَ بَالْأَمَانِ=

٦٩٠ ـ فَرْضٌ عَلَى الْأُمَّةِ كَيْ تَنتَظِمَا ... أَحْوَالُهُمْ دُونَ شِقَاقٍ أَظْلَمَا

٦٩١ ـ وَالِاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَنْ ... بِفَهْمِ مَن سَلَفَ يُنجِي مِن فِتَنْ

٦٩٢ ـ تَصْفِيَةُ الْعَقَائِدِ الْمَرْضِيَّهْ ... بِهِ مِنَ الشَّوَائِبِ الرَّدِيَّهْ

٦٩٣ ـ كَذَا بِهِ تَرْبِيَةُ النَّاسِ عَلَىٰ ... مَنْهَجِ أَهْلِ الْحَقِّ نِعْمَ مَنْهَلَا

(وَالسَّعْيُ) مبتدأ، خبره **قوله**: «فرض»، (فِي إِقَامَةِ السُّلْطَانِ لِكَي يَسُوسَ النَّاسَ)؛ أي: يُدَبِّرَ أمورَهم (بَالأَمَانِ فَرْضٌ عَلَى الأُمَّةِ كَيْ تَنتَظِمَا) بألف الإطلاق، (أَحْوَالُهُمْ دُونَ شِقَاقٍ أَظْلَمَا) بألف الإطلاق أيضاً.

(وَالاعْتِصَامُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَن بِفَهْمِ مِن سَلَفَ يُنْجِي مِن فِتَن)؛

(١) قاله في «القاموس».

أي: من الوقوع فيها، (تَصْفِيَةُ الْعَقَائِدِ الْمَرْضِيَّه بِهِ)؛ أي: بالاعتصام. **وقوله:** (مِنَ الشَّوَائِبِ) متعلّق بـ«تصفية»، (الرَّدِيَّه)؛ أي: الخسيسة، (كَذَا بِهِ)؛ أي: بالاعتصام، (تَرْبِيَةُ النَّاسِ عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ الْحَقِّ، نِعْمَ مَنْهَلَا) بفتح الميم والهاء: المورد، وهو عَيْنُ ماءٍ تَرِدُهُ الإبل[1].

٦٩٤ ـ ثُمَّ الَّذِي اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ ... مُكَفِّرِينَ الشَّخْصَ بِالسَّيِّئَةِ

٦٩٥ ـ حَيْثُ اسْتَحَلَّ تَارَةً بِعُدْمِ أَنْ ... يَعْتَقِدَ الْحُكْمَ لِشَرْعٍ مُؤْتَمَنْ

٦٩٦ ـ وَذَا إِلَى التَّكْذِيبِ آئِلٌ نَقَضْ ... لِرُكْنِ تَصْدِيقٍ كَمَا الشَّرْعُ فَرَضْ

٦٩٧ ـ وَتَارَةً بِرَدِّ حُكْمٍ حَصَلَا ... وَعَدَمِ الْتِزَامٍ، أَوْ أَن يَقْبَلَا

٦٩٨ ـ وَذَا إِلَىٰ كُفْرِ الْإِبَاءِ آئِلُ ... يَنقُضُ رُكْنَ الِانقِيَادِ زَائِلُ

٦٩٩ ـ ثُمَّ التَّحَاكُمُ لِغَيْرِ مَا نَزَلْ ... رِضاً وَمُخْتَاراً نِفَاقٌ قَدْ خَذَلْ

٧٠٠ ـ وَكُلُّ مَا أُحْدِثَ مِنْ أَقْوَالِ ... أَوْ فِعْلٍ، أَوْ مَنْهَجِ حُكْمٍ عَالِ=

٧٠١ ـ عَلَىٰ خِلَافِ الشَّرْعِ فَهْوَ رَدُّ ... عَلَى الَّذِي أَحْدَثَهُ مِن بَعْدُ

(ثُمَّ الَّذِي اتَّفَقَ) عليه (أَهْلُ السُّنَّةِ) والجماعة، حال كونهم (مُكَفِّرِينَ الشَّخْصَ بِالسَّيِّئَةِ)؛ أي: بالخصلة السيّئة، (حَيْثُ اسْتَحَلَّ) عدم الحكم بما أنزل الله تعالى، (تَارَةً بِعُدْمِ) بضم فسكون، اسم من «العَدَم» بفتحتين، وهو مضاف إلى (أَن يَعْتَقِدَ الْحُكْمَ)؛ أي: فَقَدَ اعتقاد الحكم الكائن (لِشَرْعٍ مُؤْتَمَن) اسم مفعول صفة لـ«شرع»، (وَذَا)؛ أي: وهذا النوع (إِلَى التَّكْذِيبِ) متعلّق بـ(آئِلٌ)؛ أي: راجع، فهو (نَقَض لِرُكْنِ تَصْدِيقٍ كَمَا الشَّرْعُ فَرَض)؛ أي: كما فرضه الله تعالى في شرعه.

---

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٦٢٨.

وحاصل المعنى: أن الاستحلال الذي اتّفق أهل السُّنَّة على تكفير صاحبه تارة يكون بعدم اعتقاد الحكم الشرعيّ، وهذا يَؤُول إلى كفر التكذيب، وهو ناقض لركن التصديق في الإيمان. والله تعالى أعلم.

(وَتَارَةً) يكون (بِرَدِّ حُكْمٍ حَصَلَا)؛ أي: وُجد ذلك الحكم من الله تعالى ورسوله ﷺ، (وَعَدَمِ الْتِزَام) لهذا الحكم، (اوْ أَن يَقْبَلَا) بألف الإطلاق مبنيّاً للفاعل؛ أي: أو عدم قبول ذلك الحكم، (وَذَا)؛ أي: وهذا النوع (إِلَى كُفْرِ الإِبَاءِ)؛ أي: الامتناع، (آئِلُ)؛ أي: راجع، فهو (يَنقُضُ رُكْنَ الانقِيَادِ) لأمر الله ﷻ. **وقوله:** (زَائِلُ)؛ أي: فرُكْنُ الانقياد زائل به.

وحاصل المعنى: أن الاستحلال المذكور تارة يكون بردّ الحكم على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، وعدم التزامه، أو قبوله، وهذا يَؤُول إلى كفر الإباء والاستكبار، فهو ناقض لركن الانقياد. والله تعالى أعلم.

(ثُمَّ التَّحَاكُمُ لِغَيْرِ مَا نَزَل)؛ أي: إلى غير ما نزل من عند الله تعالى، (رِضاً)؛ أي: حال كونه راضياً به (وَمُخْتَاراً) له. **فقوله:** «التحاكم» مبتدأ، خبره **قوله:** (نِفَاقٌ)؛ أي: فلا يجتمع مع الإيمان، كما قال: (قَدْ خذَل) بالبناء للفاعل؛ أي: خَذَل صاحبَه بسَلْبِ الإيمان عنه.

(وَكُلُّ مَا أُحْدِثَ) بالبناء للمفعول؛ أي: كل أمر أَحْدَثَه الْمُحْدِثُون بعد كمال الدين، كما بيّنه الله ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾

[المائدة: ٣]، (مِنْ أَقْوَالٍ، أَوْ فِعْلٍ، اوْ) بوصل الهمزة، (مَنْهَجِ حُكْمٍ عَالٍ) صفة لـ«حكم»؛ أي: مُرْتَفِعِ القدر، (عَلَى خِلَافِ الشَّرْعِ) متعلّق بـ«أُحْدِثَ»، (فَهْوَ رَدٌّ)؛ أي: مَرْدُود (عَلَى) صاحبه (الَّذِي أَحْدَثَهُ مِن بَعْدُ)؛ أي: بعد كمال الدين، فمن حَكَم بالقوانين والأنظمة المستحدَثة فهو باطل مردود عليه، غير نافذ على أحد، وهذا معنى ما أخرجه الشيخان في «صحيحيهما» عن عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وفي رواية: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». والله تعالى أعلم.

٧٠٢ ـ مِنَ النَّوَاقِضِ لِمَا فِي الْقَلْبِهِ ... لَدَى النُّبُوَّاتِ بِغَيْرِ رَيْبِهِ

٧٠٣ ـ مِثْلُ: اعْتِقَادِهِ طَرِيقاً يُوصِلُهْ ... إِلَى الرِّضَا أَوْ رَحْمَةٍ قَد تَحْصُلُهْ=

٧٠٤ ـ غَيْرَ مُتَابَعَةِ سُنَّةِ النَّبِي ... أَوْ لَا يَرَى اتِّبَاعَهُ بِالْوَاجِبِهِ

٧٠٥ ـ أَوِ ادَّعَىٰ نُبُوَّةً، أَوِ اعْتَقَدْ ... لِغَيْرِهِ، أَوْ خَتْمَهَا بِهِ جَحَدْ

٧٠٦ ـ كَذَاكَ نُكْرُ كُتُبٍ مُنَزَّلَهْ ... أَوْ بَعْضِهَا، كُلٌّ بِهَـٰذِي الْمَنزِلَهْ

٧٠٧ ـ كَذَاكَ بُغْضُ مَا بِهِ الرَّسُولُ جَا ... يُنَاقِضُ الْحُبَّ، وَبِئْسَ مَنْهَجَا

٧٠٨ ـ كَذَاكَ سَبُّ الْأَنبِيَا، أَوِ اسْتَخَفّ ... بِهِمْ، أَوِ الْبَعْضِ، فَبِئْسَمَا اقْتَرَفْ

٧٠٩ ـ كَذَا اسْتِهَانَةٌ بِمُصْحَفٍ؛ كَأَنْ ... يَدُوسَهُ بِرِجْلِهِ قَدِ امْتَهَنْ

٧١٠ ـ كَذَٰلِكَ التَّبْدِيلُ، أَوْ يُغَيِّرُهْ ... بِزَيْدٍ، اوْ نَقْصٍ، فَكُلٌّ مُنكَرُهْ

٧١١ ـ كَذَاكَ إِنكَارُ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ ... جِنٌّ، أَوِ الْبَعْثِ، أَوِ الْوَعْدِ رَأَوْا

٧١٢ ـ كَذَٰلِكَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِمَا مَضَىٰ ... فَالْكُلُّ نَاقِضٌ لِإِيمَانِ الرِّضَا

(مِنَ النَّوَاقِضِ لِمَا فِي الْقَلْبِ) من الإيمان، (لَدَى النُّبُوَّاتِ)؛ أي: في باب النبوّات، (بِغَيْرِ رَيْبِ)؛ أي: بغير شكّ، (مِثْلُ: اعْتِقَادِهِ)؛ أي: مثل أن يعتقد الشخص (طَرِيقاً يُوصِلُ إِلَى الرِّضَا)؛ أي: إلى رضا الله ﷻ، (أَوْ رَحْمَةٍ)؛ أي: يوصل إلى رحمة (قَد تَحْصُلُ) للشخص، (غَيْرَ مُتَابَعَةِ سُنَّةِ النَّبِي) ﷺ، (أَوْ لَا يَرَى)؛ أي: لا يعتقد (اتِّبَاعَهُ) ﷺ (بِالْوَاجِبِ)؛ أي: واجباً عليه، (أَوِ ادَّعَى) شخص (نُبُوَّةً) لنفسه، (أَوِ اعْتَقَد) النبوة (لِغَيْرِهِ)؛ أي: في غير نفسه، (أَوْ خَتْمَهَا)؛ أي: ختم النبوّة (بِهِ)؛ أي: بالنبيّ ﷺ، (جَحَد)؛ أي: أنكر؛ يعني: أنه أنكر ختم النبوّة بالنبيّ ﷺ، بعدما أخبر الله تعالى بذلك، حيث قال: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(كَذَاكَ نُكْرُ) بضمّ فسكون؛ أي: إنكار (كُتُبٍ مُنَزَّلَه) من عند الله تعالى، (أَوْ) نُكْر (بَعْضِهَا كُلٌّ بِهَذِي الْمَنْزِلَه)؛ أي: في مرتبة ما يناقض قول القلب، (كَذَاكَ بُغْضُ مَا بِهِ الرَّسُولُ جَا)؛ يعني: أنَّ بغض ما جاء به النبيّ ﷺ من عند الله تعالى يناقض العمل القلبيّ، و(يُنَاقِضُ الْحُبَّ) لله ﷻ، ولنبيّه ﷺ، (وَبِئْسَ) هذا المنهج (مَنْهَجَا).

(كَذَاكَ) مما يناقض القوليّة في باب النبوات: (سَبُّ الأَنْبِيَا) عليهم السلام عامّة، أو نبيّنا ﷺ خاصّة، (أَوِ اسْتَخَفَّ بِهِمْ) جميعاً، (أَوِ الْبَعْضِ)؛ أي: أو استخفّ ببعضهم، (فَبِئْسَمَا اقْتَرَف)؛ أي: اكتسبه من الكفر.

(كَذَا) من النواقض العمليّة: (اسْتِهَانَةٌ)؛ أي: اسْتِخْفَافٌ (بِمُصْحَفٍ)؛ أي: القرآن الكريم، وذلك (كَأَن يَدُوسَهُ)؛ أي: يَطَؤه (بِرِجْلِهِ)، والحال أنه (قَدِ امْتَهَن) بالبناء للفاعل؛ أي: ابْتَذَلَهُ واسْتَخَفَّ به، وكذا إلقاؤه في القاذورات.

(كَذَلِكَ التَّبْدِيلُ)؛ أي: تغييرُه بغيره، (أَوْ يُغَيَّرُ بِزَيْدٍ) شيء فيه، (اوْ) بوصل الهمزة، (نَقْصٍ)؛ أي: نقص شيء منه، (فَكُلٌّ)؛ أي: كلّ هذه الأشياء (مُنكَرُ) من المنكرات التي تناقض الإيمان.

(كَذَاكَ) من النواقض القلبيّة والقوليّة: (إِنكَارُ الْمَلَائِكَةِ)؛ أي: وجودهم، (أَوْ جِنٍّ)؛ أي: وجودهم، (أَو) إنكار (الْبَعْثِ) في الآخرة، (أَو) إنكار (الْوَعْدِ)؛ أي: وعد الله تعالى، وكذا وعيده. **وقوله:** (رَأَوْا)؛ أي: اعتقد العلماء كل ذلك مناقضاً للإيمان، (كَذَلِكَ اسْتِهْزَاؤُهُ بِمَا مَضَى)؛ أي: بشيء مما سبق ذِكره، (فَالْكُلُّ نَاقِضٌ لِإِيمَانِ الرِّضَا)؛ أي: المرضيّ عند الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣].

نَوَاقِضُ[1] أُخْرَى

أي: هذا مبحث نواقض أخرى غير ما سبق بيانه، وهو على نوعين: متّفق عليه، ومختلَف فيه.

فالأول ما ذكره **بقوله:**

٧١٣ ـ مِمَّا عَلَيْهِ اتَّفَقُوا: إِنكَارُ مَا ... هُوَ مِنَ الدِّينِ ضَرُورَةً سَمَا

٧١٤ ـ كَذَا النِّفَاقُ، وَهْوَ: قَوْلٌ، أَوْ عَمَلْ ... خِلَافُ مَا فِي الْقَلْبِ نَقْضُهُ حَصَلْ

٧١٥ ـ مِمَّا يُنَاقِضُ: وَلَاءُ الْكَافِرِ ... حُبّاً لِكُفْرِهِ الضَّلَالِ الظَّاهِرِ

٧١٦ ـ كَذَاكَ بَيْعَتُهُ لِلتَّشْرِيعِ ... تَشَبُّهٌ بِدِينِهِ الشَّنِيعِ

٧١٧ ـ ثُمَّ مُظَاهَرَةُ كُفَّارٍ عَلَى ... الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاتِبَ انجَلَى

---

(١) بِالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ.

٧١٨ ـ مِنْهَا: الَّذِي يُنَاقِضُ الْإِيمَانَا ... وَدُونَ ذَلِكَ، فَرُمْ بَيَانَا

٧١٩ ـ وَدَعْوَةٌ لِوَحْدَةِ الْأَدْيَانِ ... مُهَدِّمُ الْبِنْيَةِ وَالْأَرْكَانِ

٧٢٠ ـ أَوْ دَعْوَةٌ لِصِحَّةِ التَّدَيُّنِ ... بِهَا جَمِيعاً، أَوْ بِبَعْضٍ يَعْتَنِي

٧٢١ ـ أَوِ التَّحَوُّلِ مِنَ الْإِسْلَامِ ... لَهَا، فَكُلٌّ هَادِمُ السَّلَامِ

٧٢٢ ـ وَالْمَنْهَجُ الْمَعْرُوفُ بِالْعَلْمَانِي ... شَرٌّ عَظِيمٌ نَاقِضُ الْإِيمَانِ

٧٢٣ ـ عَزْلُهُمُ الدِّينَ عَنِ الْحَيَاةِ ... يَا وَيْلَ أَصْحَابِ التَّحَدِّيَاتِ

٧٢٤ ـ فَفِيهِ رَدُّ مَا أَتَىٰ بِهِ الْهُدَىٰ ... مِنْ عِندِ رَبِّنَا، فَبِئْسَ الِاعْتِدَا

***

(مِمَّا عَلَيْهِ اتَّفَقُوا)؛ أي: اتفق العلماء أنه مما يناقض قول القلب: (إِنكَارُ مَا هُوَ) معلوم (مِنَ الدِّينِ ضَرُورَةً)؛ أي: بالضرورة، (سَمَا)؛ أي: ارتفع علمه.

(كَذَا) مما يناقض اعتقاد القلب وعمله: (النِّفَاقُ، وَهْوَ قَوْلٌ أَوْ عَمَل خِلَافُ مَا فِي الْقَلْبِ)؛ أي: مخالف لِمَا في القلب. **وقوله:** (نَقْضُهُ) مبتدأ؛ أي: كونه مناقضاً لِمَا في القلب. **وقوله:** (حَصَلْ) خبر المبتدأ.

(مِمَّا يُنَاقِضُ) عمل القلب: (وَلَاءُ الْكَافِرِ حُبّاً)؛ أي: لأجل الحبّ. (لِكُفْرِهِ الضَّلَالِ الظَّاهِرِ، كَذَاكَ بَيْعَتُهُ)؛ أي: مبايعة الكافر (لِلتَّشْرِيع)؛ أي: لأجل أن يشرّع بالتحليل والتحريم؛ فإنه نَقْض لأصل الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وكذا مما يناقض: (تَشَبُّهٌ بِدِينِهِ الشَّنِيعِ)؛ أي: تشبّه الشخص بالكافر في أمور دينه الكريه البغيض.

(ثُمَّ) مما يُنَاقِضُ أيضاً: (مُظَاهَرَةُ كُفَّارٍ)؛ أي: معاونتهم حتى ينتصروا (عَلَى الْمُسْلِمِينَ)، وهو (فِي مَرَاتِبَ انجَلَى)؛ أي: انكشف

(مِنْهَا الَّذِي يُنَاقِضُ الإِيمَانَا) بألف الإطلاق؛ كأن يظاهرهم حبّاً في غلبتهم على المسلمين، (وَدُونَ ذَلِكَ)؛ أي: أقل منه؛ كأن يظاهرهم لأجل ما كان بينه وبين المسلمين من العداوة، ولا يريد غلبة أهل الكفر، وإنما يريد أن يلحق الضرر بأعدائه من هذا الوجه، (فَرُمْ)؛ أي: اقصد (بَيَانَا)؛ أي: توضيح المسألة على الوجه المذكور.

(وَ)مِمَّا يُناقِض أيضاً: (دَعْوَةٌ)؛ أي: دعوة الناس (لِوَحْدَةِ الأَدْيَانِ) السماويّة، من الإسلام، واليهوديّة، والنصرانيّة، وغيرها، فيعتقد أنها كلها دين واحد لا فَضْل لبعضها على بعض، فإن هذا (مُهَدِّمُ الْبِنْيَةِ وَالأَرْكَانِ)؛ أي: بناء التوحيد وأركانه، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، (أَوْ) بمعنى الواو؛ أي: وكذلك مما يناقض الإيمان: (دَعْوَةٌ لِصِحَّةِ)؛ أي: إلى جواز (التَّدَيُّنِ بِهَا جَمِيعاً)؛ أي: اعتقاد أن كلها دين صحيح جائز التعبّد بها، (أَوْ بِبَعْضٍ) متعلّق بـ(يَعْتَنِي)؛ أي: يقصد ويهتمّ ببعضها، (أَوِ التَّحَوُّلِ) بالجرّ عطفاً على «صحة التديّن»، (مِنَ الإِسْلَامِ لَهَا)؛ أي: إلى هذه الأديان، أو إلى بعضها، (فَكُلٌّ)؛ أي: كلّ هذه الأمور (هَادِمُ السَّلَامِ)؛ أي: الإيمان، من إطلاق المسبَّب وإرادة السبب؛ إذ الإيمان سبب للسلام والأمان في الدنيا والآخرة.

(وَالْمَنْهَجُ الْمَعْرُوفُ بِالْعَلْمَانِي) عَرَّف بعضُهم الْعَلْمَانِيَّة بأنها: حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام

بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها. وعَرَّفَها بعضُهم بأنها: حركة اجتماعية تهدف إلى القضاء على الدين، وإقامة المجتمع اللَّادِينِيّ[1].

وفي «معجم المناهي اللفظية»: العَلْمَانِيَّة: مصدر صناعيّ، وكقولهم: عَلْمَانيّ، ورَوْحَانِيّ، ونحوهما، وهو مُوَلَّد معناه: «اللَّادِينِيَّة»، ويعني: «فَصْلَ الدِّين عن الدَّوْلَة»، وقيام الدولة في الحكم، والإدارة، والسياسة على غير الدين. وغايته: فصل الدين عن الحياة، وهي غايةٌ إِلْحَادِيَّةٌ؛ فهو مصطلح فاسد لغةً ومعنًى[2].

(شَرٌّ عَظِيمٌ) لأنه (نَاقِضُ الإِيمَانِ) ومزيل له، وهو (عَزْلُهُمُ)؛ أي: إبعادهم (الدِّينَ)؛ أي: شَرْع الله تعالى الذي ارتضاه للناس ديناً، (عَنِ الْحَيَاةِ)؛ أي: عن حياة الناس، فلا يعيشون تحت نظر الإسلام، ولا يحكّمونه في أمورهم، (يَا وَيْلَ أَصْحَابِ التَّحَدِّيَاتِ)؛ أي: الذين يتحدّون شرع الله ﷻ، ويَعْزِلُونه عن حياتهم، (فَفِيهِ)؛ أي: في هذا المذهب العَلْمَانِيّ (رَدُّ مَا أَتَى بِهِ الْهُدَى)؛ أي: القرآن الكريم الذي جعله الله تعالى هُدًى للمتّقين، (مِنْ عِندِ رَبِّنَا) سبحانه، (فَبِئْسَ الاعْتِدَا) هذا.

ثم أشار إلى القسم الثاني، وهو المختلَف فيه **بقوله:**

٧٢٥ ـ مِمَّا بِهِ اخْتِلَافُهُمْ نَوَاقِضَا ... سَبُّ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمُ الرِّضَا

٧٢٦ ـ ثُمَّ الصَّحِيحُ أَنَّ مَن سَبَّهُمُ ... مُكَفِّراً كَفَرَ فَهْوَ الْمُجْرِمُ

٧٢٧ ـ أَمَّا الَّذِي يَسُبُّ بَعْضَهُمْ وَلَا ... يَطْعَنُ فِي الدِّينِ بِفِسْقٍ خُذِلَا

---

(١) «موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية» ١٠/ ٤٩٣.

(٢) «معجم المناهي اللفظية» ص٣٨٦ ـ ٣٨٧.

٧٢٨ ـ وَالسِّحْرُ فِيهِ الْخُلْفُ، وَالصَّحِيحُ إِنْ ... تَضَمَّنَ الْكُفْرَ فَكُفْرٌ، فَاسْتَبِنْ

٧٢٩ ـ أَوْ لَا فَيَحْرُمُ، كَذَا التَّعَلُّمُ، ... تَعْلِيمُهُ،؛ فَكُلُّهُ، مُحَرَّمُ،

٧٣٠ ـ كَذَٰلِكَ التَّنجِيمُ إِن تَضَمَّنَا ... عِبَادَةَ النُّجُومِ كُفْرٌ عَلَنَا

٧٣١ ـ تَرْكُ الصَّلَاةِ بِالتَّكَاسُلِ بِلَا ... جَحْدٍ فَفِيهِ جَا اخْتِلَافُ الْفُضَلَا

٧٣٢ ـ وَعِنْدِيَ الصَّوَابُ أَن يُكَفَّرَا ... كَمَا بِهِ النَّصُّ الصَّحِيحُ صَدَرَا

٧٣٣ ـ لَٰكِنَّ كُفْرَهُ يُفَصَّلُ كَمَا ... بَيَّنتُهُ، فِيمَا شَرَحْتُ مُسْلِمَا

***

(مِمَّا بِهِ اخْتِلَافُهُمْ)؛ أي: العلماء، حال كونه (نَوَاقِضَا) بالصرف للضرورة، (سَبُّ الصَّحَابَةِ ـ عَلَيْهِمُ الرِّضَا ـ) من الله ﷻ، (ثُمَّ الصَّحِيحُ) من الأقوال في سبهم ﷺ (أَنَّ مَنْ سَبَّهُمُ) حال كونه (مُكَفِّراً) لهم (كَفَرَ) لقوله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**»، متّفق عليه.

(فَهْوَ)؛ أي: هذا السابّ المكفّر لهم ﷺ، (الْمُجْرِمُ)؛ أي: الكامل في الْجُرم، وهو: الإثم، (أَمَّا الَّذِي يَسُبُّ بَعْضَهُمْ)؛ أي: بعض الصحابة ﷺ (وَلَا يَطْعَنُ فِي الدِّينِ)؛ أي: لا يطعن بهم في دينهم، ولا يكفّرهم (بِفِسْقٍ) متعلّق بـ(خُذِلَا) بألف الإطلاق، مَبْنيّاً للمفعول؛ أي: هو فاسق مخذول بفسقه، ولا يكفر بذلك.

وقوله: (وَالسِّحْرُ فِيهِ الْخُلْف)؛ يعني: من المختلَف فيه أيضاً: السحر، (وَالصَّحِيحُ) أن السحر (إِن تَضَمَّنَ الْكُفْرَ)؛ أي: إن اشتمل السحر فعلاً، أو قولاً، أو اعتقاداً يقتضي الكفر، (فَكُفْرٌ)؛ أي: فالسحر كفر، (فَاسْتَبِن)؛ أي: اطلب البيان لهذه المسألة، وتحقّق فيها.

(أَوْ لَا) يتضمّن شيئاً من ذلك، (فَيَحْرُمُ) لأنه من الكبائر الموبقات، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ».

(كَذَا التَّعَلُّمُ)؛ أي: كذا يحرم تعلّم السحر، و(تَعْلِيمُهُ) للناس، (فَكُلُّهُ)؛ أي: كلّ ما ذُكر من عمل السحر، وتعلّمه، وتعليمه (مُحَرَّم) قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)﴾ [البقرة: ١٠٢].

(كَذَلِكَ) مما اخْتُلِف فيه: (التَّنْجِيمُ) قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفَلَكية على الحوادث الأرضية.

وقال الخطابيّ رحمه الله: علم النجوم المنهي عنه هو ما يَدَّعِيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان؛ كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغيّر الأسعار، وما كان في معناها من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويَدَّعُونَ أن لها تأثيراً في السُّفْلِيَّات، وأنها تجري على

قضايا موجباتها، وهذا منهم تَحَكُّم على الغيب، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به لا يعلم الغيب سواه.

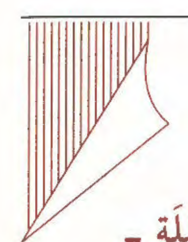
(إِن تَضَمَّنَا) بألف الإطلاق؛ أي: تضمّن التنجيم **(عِبَادَةَ النُّجُومِ كُفْرٌ عَلَنَا)**؛ أي: ظاهراً، وذلك كالقول بأن الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والرَّوْحَانِيَّات، وأن الكواكب فَاعِلَةٌ مختارة، وهذا كفر صريح، وهذا قول الصَّابِئَة الْمُنَجِّمِين الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل، كما جاء في «سورة الأنعام»، ولهذا كانوا يُعَظِّمُون الشمس والقمر والكواكب تعظيماً، يسجدون لها، ويتذللون لها، ويسبِّحونها تسابيح معروفة في كُتُبهم، ويَدْعونها دعوات لا تنبغي إلا لخالقها وفاطرها وحده لا شريك له، ويبنون لكل كوكب هَيْكَلاً؛ أي: مَوْضِعاً لعبادته، ويُصَوِّرُونَ فيه ذلك الكوكب، ويتخذونه لعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن رَوْحَانِيَّةَ ذلك الكوكب تَنْزِل عليهم، وتخاطبهم، وتقضي حوائجهم، وتلك الروحانيات هي الشياطين تَنَزَّلَتْ عليهم، وخاطبتهم، وقضت حوائجهم[1].

ومن المختلَف فيه: **(تَرْكُ الصَّلَاةِ بِالتَّكَاسُلِ بِلَا جَحْدٍ)**؛ أي: بلا إنكار وجوبها، **(فَفِيهِ جَا اخْتِلَافُ الْفُضَلَا وَعِنْدِيَ الصَّوَابُ أَن يُكَفَّرَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، **(كَمَا بِهِ النَّصُّ الصَّحِيحُ صَدَرَا)** بألف الإطلاق أيضاً، مبنيّاً للفاعل، إشارة إلى الحديث الصحيح: **«مَن تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ»**. **(لَكِنَّ كُفْرَهُ يُفَصَّلُ)** فمنه ما هو مخرج عن الملّة، ومنه ما هو كفر دون كفر، **(كَمَا بَيَّنْتُهُ فِيمَا شَرَحْتُ مُسْلِمَا)**؛ أي: «البحر المحيط»، فراجعه تستفد. وبالله تعالى التوفيق.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.





الْفَصْلُ الرَّابِعُ

فِي بَيَانِ نَوَاقِصِ الْإِيمَانِ - بِالصَّادِ الْمُهْمَلَةِ -

٧٣٤ - نَوَاقِصُ الْإِيمَانِ: قَوْلٌ، وَعَمَلْ ... كَذَا اعْتِقَادٌ؛ كُلُّهَا يَأْتِي الْخَلَلْ

٧٣٥ - مِن جُمْلَةِ النَّوَاقِصِ: الْكَبَائِرُ ... مِنَ الذُّنُوبِ، وَكَذَا الصَّغَائِرُ

٧٣٦ - كَذَاكَ يَنقُصُهُ شِرْكٌ أَصْغَرُ ... وَهْوَ: الَّذِي فِي النَّصِّ شِرْكاً يُذْكَرُ=

٧٣٧ - وَلَيْسَ يَبْلُغُ لِحَدِّ الْأَكْبَرِ ... لَـٰكِنَّهُ وَسِيلَةٌ فَلْتَحْذَرِ

٧٣٨ - يُحْبِطُ مَا قَارَنَهُ مِنْ عَمَلِ ... كَمَحْوِ الَاكْبَرِ جَمِيعَ الْعَمَلِ

٧٣٩ - وَفَرِّقَن بَيْنَهُمَا بِمَا يَلِي ... تَنصِيصُ لَفْظِهِ لَدَى النَّصِّ الْجَلِي

٧٤٠ - كَذَاكَ مَا فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ ... مِنَ النُّصُوصِ فَبِهِ الْإِصَابَةُ

٧٤١ - كَذَاكَ أَيْضاً أَن يَجِي مُنَكَّرَا ... ثُمَّ الْكَبَائِرُ هِيَ: الَّتِي يُرَىٰ=

٧٤٢ - وَمَعَهَا لَعْنٌ، أَوِ الْحَدُّ وَفَا ... فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا، وَفِي الْأُخْرَىٰ قَفَا=

٧٤٣ - عُقُوبَةٌ؛ كَقَتْلِ نَفْسٍ، أَوْ رِبَا ... وَالْقَذْفِ، وَالزِّنَا، التَّوَلِّي صَحِبَا

٧٤٤ - أَمَّا الصَّغَائِرُ: الَّتِي لَمْ تَصِلِ ... حَدَّ الْكَبَائِرِ، فَمَحْوُهَا جَلِي=

٧٤٥ - عِندَ اجْتِنَابِكَ الْكَبَائِرَ كَمَا ... أَتَىٰ بِهِ نَصُّ الْقُرَانِ مُحْكَمَا

٧٤٦ - مِنَ النَّوَاقِصِ: الرِّيَاءُ، وَكَذَا ... تَصْوِيرُ ذَاتِ الرُّوحِ، فِعْلٌ ذُو بَذَا

٧٤٧ - صَلَاتُهُ تَبَرُّكاً فِي الْقَبْرِ ... كَذَا إِلَيْهَا، أَوْ عَلَيْهَا فَادْرِ

٧٤٨ - كَذَا اتِّخَاذُهَا مَسَاجِدَ، وَأَنْ ... يُبْنَىٰ عَلَيْهَا؛ كُلُّ ذَا مِنَ الْفِتَنْ

٧٤٩ - وَحَلِفٌ بِغَيْرِهِ تَعَالَىٰ ... كَذَاكَ الِاسْتِشْفَاعُ - جَا وَبَالَا - =

٧٥٠ ـ عَلَىٰ إِلَـٰهِنَا بِخَلْقِهِ، فَلَا تَرْضَ لِنَفْسِكَ بِفِعْلِ الْجُهَلَا
٧٥١ ـ تَسْمِيَةٌ بِمَا يَخُصُّ اللَّهَ مِنْ اِسْمِهِ أَوْ صِفَتِهِ، فَلْتَسْتَبِنْ
٧٥٢ ـ وَلَا تُعَبِّدَن لِغَيْرِ اللَّهِ، بَلِ اقْتَصِرْ عَلَى اسْمِهِ الْإِلَـٰهِي
٧٥٣ ـ وَاجْتَنِبِ الرُّقَىٰ بِمَا يُبْتَدَعُ، كَذَا التَّمَائِمُ فَهِيْ لَا تَنفَعُ،
٧٥٤ ـ لَا تَذْهَبَن لِكَاهِنٍ، وَاجْتَنِبِ، تَشَاؤُماً، وَلِلْإِلَـٰهِ أَنِبِ،
٧٥٥ ـ وَلَا تَكُن مِن فِرْقَةٍ حِزْبِيَّهْ قَوْمِيَّةٍ؛ فَكُلُّهَا رَزِيَّهْ
٧٥٦ ـ لَا تَتَشَبَّهَن بِأَصْحَابِ الْمِلَلْ فِيمَا يَخُصُّهُمْ؛ فَإِنَّ ذَا خَلَلْ
٧٥٧ ـ فَهَـٰذِهِ الْأُمُورُ مِنْهَا مَا يُرَىٰ وَسِيلَةً لِلشِّرْكِ، فَافْهَمْ وَاحْذَرَا

(نَوَاقِصُ) بالصاد المهملة، (الإِيمَانِ)؛ أي: الأمور التي تنقص الإيمان، وتقدح فيه، ولا تُزيله بالكُلِّيَّة، (قَوْلٌ، وَعَمَل، كَذَا اعْتِقَادٌ)؛ يعني: أن نواقص الإيمان تكون أقوالاً، وأفعالاً، واعتقادات، و(كُلُّهَا يَأْتِي الْخَلَل) بها، حيث إنها تنقص الإيمان.

وقوله: (مِن جُمْلَةِ النَّوَاقِصِ) خبر مقدّم **لقوله:** (الْكَبَائِرُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَكَذَا الصَّغَائِرُ) منها.

(كَذَاكَ يَنقُصُه)؛ أي: الإيمانُ، (شِرْكٌ أَصْغَرُ، وَهْوَ)؛ أي: الشرك الأصغر، (الَّذِي) ورد (فِي النَّصِّ شِرْكاً يُذْكَرُ) بالبناء للمفعول؛ أي: سَمَّاه الشرعُ شِرْكاً وَنَصَّ عليه، (وَلَيْسَ يَبْلُغُ لِحَدِّ) الشرك (الأَكْبَرِ، لَكِنَّهُ وَسِيلَةٌ) إلى الشرك الأكبر، (فَلْتَحْذَرِ) منه (يُحْبِطُ) بضم أوله، من الإحباط؛ أي: يُزيل (مَا قَارَنَهُ مِنْ عَمَل)؛ أي: العمل الذي اقترن به، (كَمَحْوِ الاكْبَرِ) بدرج الهمزة للوزن، (جَمِيعَ الْعَمَلِ)؛ أي: كما يُحبط الشرك الأكبر جميع العمل.

(وَفَرِّقَن بَيْنَهُمَا)؛ أي: بين الشرك الأصغر والأكبر **(بِمَا يَلِي)**: منها **(تَنصِيصُ لَفْظِهِ)**؛ أي: كونه منصوصاً عليه بلفظ الشرك، **(لَدَى النَّصِّ الْجَلِي)**؛ أي: الواضح؛ كقوله ﷺ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»، فسئل عنه، فقال: «**الرِّيَاءُ**». رواه أحمد، والطبرانيّ، والبيهقيّ.

ومنها: ما أشار إليه **بقوله: (كَذَاكَ مَا فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ)** ﷺ **(مِنَ النُّصُوصِ)**؛ أي: من نصوص الوحي، **(فَبِهِ الإِصَابَةُ)**؛ أي: إصابة الحقّ؛ لأن الصحابة ﷺ أعلم بمقاصد الشريعة، وذلك كقوله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ**»، وقوله ﷺ: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**».

(كَذَاكَ أَيْضاً) مما يدل على أنه من الصغائر، **(أَن يَجِي مُنَكَّرًا)**؛ أي: غير مُعَرَّفٍ.

(ثُمَّ) الذنوب **(الْكَبَائِرُ هِيَ الَّتِي تُرَى)**؛ أي: تُعْلَم، **(وَ)**الحال أن يكون **(مَعَهَا لَعْنٌ)**؛ أي: لَعْن فاعلها، **(أَوِ الْحَدُّ)**؛ أي: حَدّ فاعلها، **(وَفَا)**؛ أي: تَمَّ وحَصَل **(فِي هَذِهِ الدُّنْيَا)** بأن يقاد عليه الحدّ الشرعيّ، **(وَفِي الأُخْرَى قَفَا)**؛ أي: تبع **(عُقُوبَةٌ)**، وأمثلتها: **(كَقَتْلِ نَفْسٍ)** ظلماً **(أَوْ رِبَا)**؛ أي: التعامل بالربا، **(وَالْقَذْفِ)**؛ أي: رمي المُحْصَنات بالزنا، **(وَالزِّنَا)**. **وقوله: (التَّوَلِّي)**؛ أي: الفرار من الزحف، وهو مبتدأ، خبره **قوله: (صَحِبَا)** بألف الإطلاق؛ أي: صَحِبَ ما قبله.

(أَمَّا الصَّغَائِرُ الَّتِي لَمْ تَصِلِ حَدَّ الْكَبَائِرِ فَمَحْوُهَا جَلِي)؛ أي: ظاهر **(عِنْدَ اجْتِنَابِكَ الْكَبَائِرَ، كَمَا أَتَى بِهِ نَصُّ الْقُرَانِ)** بنقل حركة الهمزة إلى الراء، ودَرْجها، وهو لغة، قُرئ به في السبعة، حال كونه

(مُحْكَمَا) هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٣١].

(مِنَ النَّوَاقِصِ: الرِّيَاءُ)؛ أي: مراءاة الناس في العبادة، ولو يسيراً، (وَكَذَا تَصْوِيرُ ذَاتِ الرُّوحِ) من الحيوانات، فهو (فِعْلٌ ذُو بَذَا) بالفتح والمدّ؛ أي: صاحب فُحْشٍ، لا يجوز لمسلم أن يفعله.

(صَلَاتُهُ تَبَرُّكاً فِي الْقَبْرِ)؛ أي: بينها، (كَذَا) صلاته متوجّهاً (إِلَيْهَا، أَوْ) بمعنى الواو؛ أي: وصلاته (عَلَيْهَا)؛ أي: على القبر، (فَادْرِ)؛ أي: فاعلم خطورة هذه الأمور، فابتعد عنها.

(كَذَا اتِّخَاذُهَا)؛ أي: القبور (مَسَاجِدَ، وَأَن يُبْنَى عَلَيْهَا)؛ أي: والبناء على القبور، (كُلُّ ذَا مِنَ الْفِتَنِ) التي يلقيها الشيطان إلى أوليائه، ويزيّنها لهم.

(وَحَلِفٌ) بفتح فكسر، (بِغَيْرِهِ تَعَالَى) كالنبيّ، والوليّ، والأصنام، لقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»، صححه ابن حبّان، والحاكم. (كَذَاكَ الِاسْتِشْفَاعُ جَا وَبَالَا)؛ أي: هلاكاً للدِّين. **وقوله:** (عَلَى إِلَهِنَا) متعلّق بـ«الاستشفاع»، (بِخَلْقِهِ، فَلَا تَرْضَ لِنَفْسِكَ بِفِعْلِ الْجُهَلَا)؛ أي: فإن هذا من أفعال الجهلاء لا ينبغي لمسلم أن يفعله.

ومن نواقص الإيمان أيضاً: (تَسْمِيَة) شيء (بِمَا يَخُصُّ اللهَ) تعالى (مِنِ اسْمِهِ، أَوْ صِفَتِهِ). **وقوله:** (فَلْتَسْتَبِنْ)؛ أي: اطلب بيان ذلك، فقد توعّد الله ﷻ من يفعل ذلك بقوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

(وَلَا تُعَبِّدَنْ)؛ أي: لا تجعل أحداً عبداً (لِغَيْرِ اللهِ) تعالى، فلا

تقل: عبد النبيّ، أو عبد الرسول، أو عبد الوليّ، **(بَلِ اقْتَصِرْ عَلَى اسْمِهِ الإِلٰهِي)** فقل: عبد الله، أو عبد الرحمٰن، أو نحو ذلك.

(وَاجْتَنِبِ الرُّقَى) بالضمّ، جمع: رقية، وهي: التعويذ، يقال: رَقَيته أَرْقِيه رَقْياً، من باب رَمَى: عَوّذته بالله، والاسم: الرُّقيا، على «فُعْلَى»، والمرّة: رُقية، والجمع: رُقًى، مثل: مُدية ومُدًى، قاله في «المصباح»[(١)]. **وقوله: (بِمَا يُبْتَدَعُ)** بالبناء للمفعول، متعلّق بـ«الرُّقى».

والمعنى: أن الرُّقَى التي تكون بالألفاظ الشركيّة ـ كأسماء الجن والشياطين والملائكة ـ من نواقض الإيمان.

أخرج أحمد في «مسنده»، وصححه ابن حبّان من طريق فضيل بن عمرو، عن يحيى بن الجزار، قال: دخل عبد الله على امرأة، وفي عنقها شيء معوّذ، فجذبه، فقطعه، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»**. قالوا: يا أبا عبد الرحمٰن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء يَتَحَبَّبْنَ إلى أزواجهن.

(كَذَا التَّمَائِمُ) أخرج ابن حبّان في «صحيحه» عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ عَلَّقَ وَدَعَةً فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»**[(٢)].

(فَهِيْ) بسكون الياء، لغة في فَتْحها، **(لَا تَنفَعُ)** أصحابها، بل تزيدهم مرضاً، فقد أخرج ابن حبّان في «صحيحه» عن عمران بن

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٣٦.

(٢) «صحيح ابن حبان» ١٣/ ٤٥٠.

حصين رضي الله عنه: أن النبيّ ﷺ رأى في يد رجل حلقة، فقال: «**مَا هَذَا؟**» قال: من الوَاهِنَة، قال: «**مَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْناً، انبِذْهَا عَنكَ، فَإِنَّكَ إِن تَمُتْ وَهِيَ عَلَيْكَ وُكِلْتَ إِلَيْهَا**».

و«الوَاهِنَة» قال صاحب «النهاية»: عِرق يأخذ في المنكب، وفي اليد كلها فيرقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وربما علّق عليها جنس من الخرز، يقال لها: خرز الواهنة، وهي تأخذ الرجال دون النساء، وإنما نهاه عنها؛ لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، فكان عنده في معنى التمائم المنهيّ عنها[1].

(لَا تَذْهَبَن لِكَاهِنٍ) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال: «**مَنْ أَتَى كَاهِناً، أَوْ عَرَّافاً، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ**»، حديث حسن.

(وَاجْتَنِب تَشَاؤُماً)؛ أي: التطيّر؛ لِمَا أخرجه الترمذيّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**»، وقال: حديث حسن صحيح.

(وَلِلإِلهِ أَنِبِ)؛ أي: ارجع إلى الله تعالى، كما أمرك الله بذلك حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية [التحريم: ٨].

(وَلَا تَكُن مِن فِرْقَةٍ حِزْبِيَّه) جاهليّة، ومن **(قَوْمِيَّةٍ)** عنصريّة،

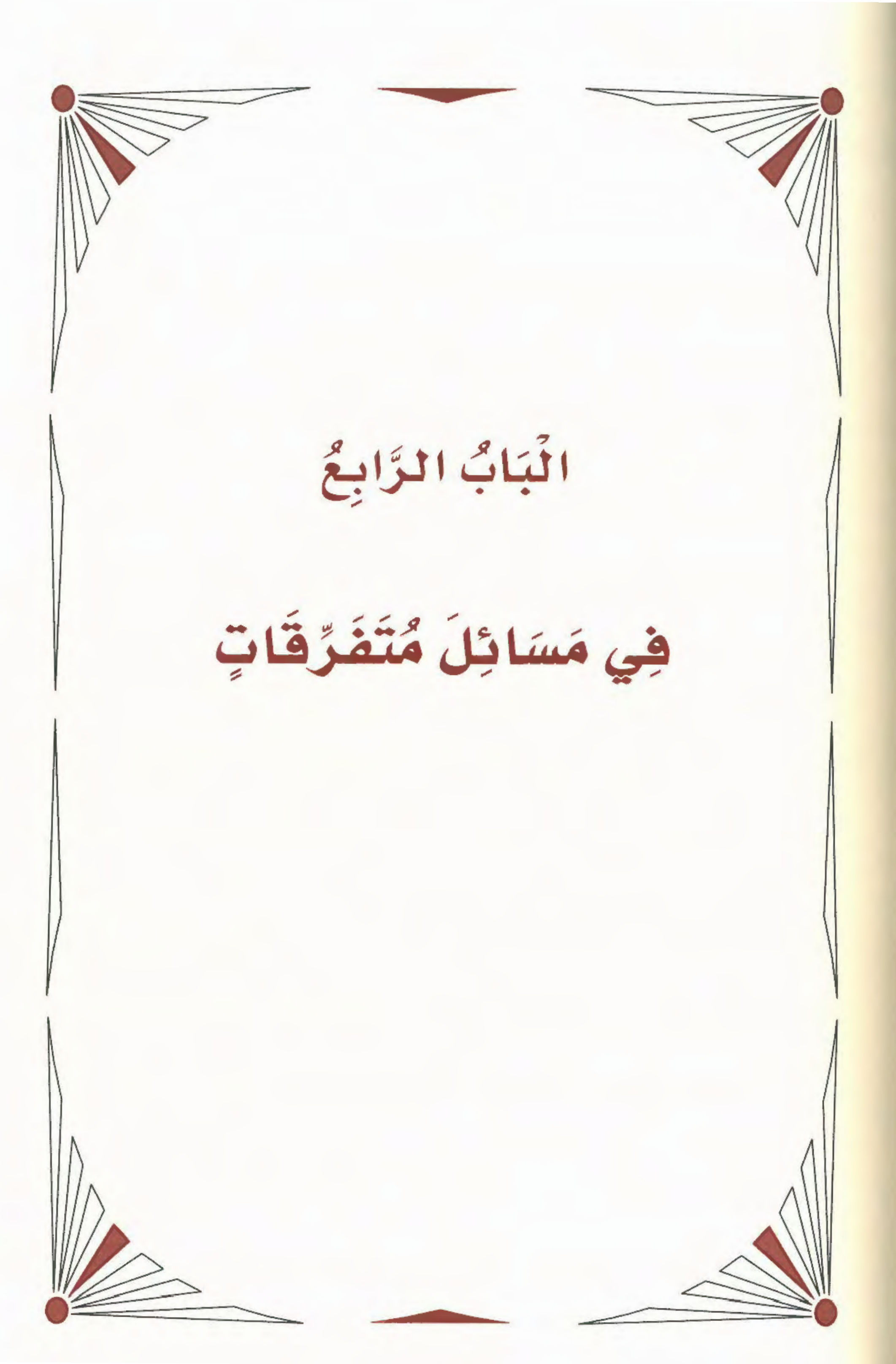
---

(١) «النهاية» ٥/ ٢٣٤.

(فَكُلُّهَا رَزِيَّه)؛ أي: مصيبة في الدين، **(لَا تَتَشَبَّهَن بِأَصْحَابِ الْمِلَل)** المنحرفة، **(فِيمَا يَخُصُّهُم)** من الأمور، **(فَإِنَّ ذَا خَلَل)**؛ أي: نقص في الدين.

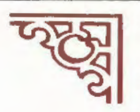
(فَهَذِهِ الأُمُورُ) التي ذكرناها، **(مِنْهَا مَا يُرَى وَسِيلَةً)**؛ أي: طريقاً **(لِلشِّرْكِ)**؛ أي: ومنها دون ذلك، **(فَافْهَمْ)** دقائق هذه الأمور، **(وَاحْذَرَا)** بالألف المنقلبة من نون التوكيد الخفيفة للوقف؛ أي: اجتنب أن تقع فيها. والله تعالى أعلم.





الْبَابُ الرَّابِعُ

فِي مَسَائِلَ مُتَفَرِّقَاتٍ



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

فِي بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي آلِ الْبَيْتِ

٧٥٨ ـ ثُمَّتَ آلُ الْبَيْتِ هُم: مَنْ حَرُمَتْ ... صَدَقَةٌ عَلَيْهِمُ، وَاخْتُرِمَتْ

٧٥٩ ـ أَوْلَادُ جَعْفَرٍ، عَقِيلٍ، وَعَلِي ... عَبَّاسٍ، الْحَارِثِ، أَهْلِ الْحُلَلِ

٧٦٠ ـ زَوْجَاتُهُ، مِنْ آلِ بَيْتِهِ، وَهُنّ ... زَوْجَاتُهُ هُنَا وَفِي دَارِ الْمِنَنْ

٧٦١ ـ وَأُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَذْهَبَا ... الرِّجْسَ عَنْهُنَّ الْإِلَـٰهُ، وَاجْتَبَىٰ

٧٦٢ ـ نَزَّهَهُنَّ عَن جَمِيعِ الدَّنَسِ ... لَا سِيَّمَا عَائِشَةٌ فَقَدِّسِ

٧٦٣ ـ بَرَّأَهَا بِعَشْرِ آيَاتٍ غُرَرْ ... فِي «سُورَةِ النُّورِ»، فَنِعْمَ ذَا الْفَخَرْ

٧٦٤ ـ مِنْ آلِ بَيْتِهِ: الَّذِينَ جَلَّلَا ... بِهِمْ كِسَاءَهُ، الرَّسُولُ بَجَّلَا

٧٦٥ ـ وَهُمْ: عَلِيٌّ، وَالْحُسَيْنُ، وَالْحَسَنْ ... فَاطِمَةٌ، وَنَسْلُهُمْ أُولُو الْحَسَنْ

٧٦٦ ـ أَشْرَفُ بَيْتٍ حَسَباً وَنَسَبَا ... عَلَيْهِمُ الرِّضَا، فَكُلٌّ نُجَبَا

٧٦٧ ـ وَنَتَقَرَّبُ بِحُبِّهِمْ إِلَىٰ ... إِلَـٰهِنَا الْكَرِيمِ نَرْجُو الْأَمَلَا

٧٦٨ ـ نَذُبُّ عَنْ أَعْرَاضِهِمْ، وَنُبْغِضُ ... مُبْغِضَهُمْ، وَقَادِحاً قَدْ نَرْفِضُ

٧٦٩ ـ أَوْصَىٰ بِهِمْ نَبِيُّنَا وَشَدَّدَا ... فَمَنْ أَحَبَّهُمْ يَنَالُ رَشَدَا

٧٧٠ ـ وَنَتَبَرَّأُ مِنَ النَّوَاصِبِ ... وَكُلِّ شَانِئٍ ذَوِي الْمَنَاصِبِ

٧٧١ ـ كَذَاكَ لَا نَغْلُو بِهِمْ؛ فَنَدَّعِي ... عِصْمَتَهُمْ؛ كَدِينِ أَهْلِ الْبِدَعِ=

٧٧٢ ـ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الْغَوِيَّهْ ... الْحَاقِدِينَ فَاسِدِي الطَّوِيَّهْ

٧٧٣ ـ نَرْفَعُ مُحْسِنَهُمُ، وَمَنْ أَسَا ... نَرْوِي بِهِ قَوْلَ النَّبِيِّ الْمُؤْتَسَىٰ

٧٧٤ ـ إِذْ قَالَ ـ مَا مَعْنَاهُ ـ: مَن بَطَّأَ بِهْ عَمَلُهُ لَمْ يَنتَفِعْ بِنَسَبِهْ

٧٧٥ ـ وَمَن لَهُ اجْتَمَعَ طِيبُ النَّسَبِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَقّاً اجْتُبِي

(ثُمَّتَ آلُ الْبَيْتِ هُمْ مَنْ حَرُمَتْ) بفتح أوله وضم ثانيه، من باب «كَرُم»، وهو مبنيّ للفاعل، أو المفعول، ويَحْتَمِل أن يكون من التحريم مبنيّاً للمفعول؛ أي: من حرّم الله تعالى (صَدَقَةٌ عَلَيْهِمُ) فلا يحلّ لهم أخذها. **وقوله:** (وَاخْتُرِمَتْ) بالخاء المعجمة؛ أي: قُطعت، وهو مؤكّد لمعنى «حرمت»، وهم: (أَوْلَادُ جَعْفَرٍ)؛ أي: آل جعفر بن أبي طالب، وآل (عَقِيل) بن أبي طالب، (وَ)آل (عَلِي) بن أبي طالب، وآل (عَبَّاس) بن عبد المطلب، عم النبيّ ﷺ، وآل (الْحَارِثِ) بن عبد المطلب، عمه ﷺ أيضاً. **وقوله:** (أَهْلِ الْحُلَلِ) بالضم، جمع: حُلّة؛ أي: أصحاب الصفات العالية، (زَوْجَاتُهُ) ﷺ (مِنْ آلِ بَيْتِهِ) ﷺ.

(وَهُنّ زَوْجَاتُهُ هُنَا)؛ أي: في هذه الدنيا (وَفِي دَارِ الْمِنَن)؛ أي: في الآخرة التي هي دار العطاء والنعم، (وَ)هنّ أيضاً (أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ) كما قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، (أَذْهَبَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، وفاعله «الإله»، (الرِّجْسَ)؛ أي: الإثم والذنب الْمُدَنِّسَيْنِ للأعراض، الحاصلين بسبب تَرْك ما أمر الله به، وفِعل ما نهى عنه، فيدخل تحت ذلك كل ما ليس فيه لله رضاً، قاله الشوكانيّ رحمه الله[1]. (عَنْهُنَّ الْإِلٰهُ) سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]،

---

(١) «فتح القدير» ٤/ ٣٢٠.

(وَاجْتَبَى)؛ أي: اصطفاهنّ الله تعالى أزواجاً له ﷺ من بين النساء، (نَزَّهَهُنَّ) الله ﷻ (عَن جَمِيعِ الدَّنَسِ)؛ أي: الذنوب التي تُدَنِّسُ الأعراض، (لَا سِيَّمَا عَائِشَةٌ) بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ، وبنت حبيبه رضي الله عنه، (فَقَدِّسِ)؛ أي: بَرِّأْها ـ أيها المسلم ـ عن كلّ ما لا يليق بجنابها العليّ، ومقامها الرضيّ، فقد (بَرَّأَهَا) الله ﷻ (بِعَشْرِ آيَاتٍ غُرَرٍ)؛ أي: مختارات (فِي «سُورَةِ النُّورِ»، فَنِعْمَ ذَا الْفَخَر) بفتحتين، لغة في سكونها؛ أي: نِعْم هذا الفَخْر العظيم.

(مِنْ آلِ بَيْتِهِ) ﷺ، خبر مقدّم لقوله: (الَّذِينَ جَلَّلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، وفاعله «الرسول»، (بِهِمْ كِسَاءَهُ الرَّسُولُ) ﷺ، حال كونه (بَجَّلَا)؛ أي: مبجّلاً لهم، (وَهُمْ عَلِيٌّ) بن أبي طالب (وَالْحُسَيْنُ) بن عليّ (وَالْحَسَن) بن عليّ، و(فَاطِمَةٌ) بنت النبيّ ﷺ، (وَ)كذلك (نَسْلُهُمْ)؛ أي: ذريّتهم، فكلهم (أُولُو الْحَسَنِ)؛ أي: أصحاب المقام الحسن، وهم (أَشْرَفُ بَيْتٍ حَسَباً)؛ أي: من حيث الحسب، وهو بفتحتين: ما يُعدّ من المآثر، وهو مصدر حَسُب، وِزَانُ: شَرُف شَرَفاً، وكَرُم كَرَماً، قال ابن السِّكِّيت: الحَسَب، والكرم يكونان في الإنسان، وإن لم يكن لآبائه شرف، ورجلٌ حسيب كريم بنفسه، قال: وأما المجد والشرف فلا يوصف بهما الشخص إلا إذا كانا فيه، وفي آبائه. وقال الأزهريّ: الحَسَب: الشرف الثابت له ولآبائه. انتهى[1].

(وَنَسَبَا)؛ أي: من حيث النَّسب، (عَلَيْهِمُ الرِّضَا)؛ أي: من الله ـ تعالى ـ (فَكُلٌّ نُجَبَا) جمع: نجيب؛ أي: مختارون.

(١) «المصباح المنير» ١/ ١٣٤.

(وَنَتَقَرَّبُ بِحُبِّهِمْ إِلَى إِلَهِنَا الْكَرِيمِ) سبحانه، حال كوننا (نَرْجُو الأَمَلَا)؛ أي: حصول المأمول، وهو دخول الجنة، (نَذُبُّ)؛ أي: نُدَافِع (عَنْ أَعْرَاضِهِم) بالفتح، جمع: عِرْضٍ، النفس والحسب، (وَنُبْغِضُ مُبْغِضَهُمْ، وَقَادِحاً) مفعول مقدّم **لقوله:** (قَدْ نَرْفِضُ) من باب «ضرب»؛ أي: نتركه ونقطع الصلة به، (أَوْصَى بِهِمْ نَبِيُّنَا) ﷺ (وَشَدَّدَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: شدّد في شأنهم، وأكّد الأمر في تعظيمهم، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ، وذكّر، ثم قال: **«أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَن يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»**، فحثّ على كتاب الله، ورغّبَ فيه، ثم قال: **«وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»**. فقال له حصين[1]: ومَنْ أهل بيته؟ يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِم الصدقة؟ قال: نعم. انتهى[2].

(فَمَنْ أَحَبَّهُمْ)؛ أي: من أحبّ أهل بيته ﷺ (يَنَالُ رَشَدَا)؛ أي: صلاحاً، وهدًى، ونوراً.

---

(١) هو: حصين بن سبرة، أحد رجال السند.

(٢) «صحيح مسلم» ٤/ ١٨٧٣.

(وَنَتَبَرَّأُ مِنَ النَّوَاصِبِ) قال في «القاموس» و«شرحه»: النواصب، والناصبية، وأهل النصب: هم المتدينون ببغضة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سُمّوا به لأنهم نصبوا له؛ أي: عادَوْه، وأظهروا له الخلاف، وهم طائفة من الخوارج. انتهى[1].

(وَ)عن (كُلِّ شَانِئٍ)؛ أي: مُبْغِضٍ (ذَوِي الْمَنَاصِبِ) من أهل البيت وغيرهم.

(كَذَاكَ لَا نَغْلُو بِهِم)؛ أي: لا نتجاوز الحدّ في أهل البيت، (فَنَدَّعِي عِصْمَتَهُمْ) كعصمة الأنبياء، (كَدِينِ أَهْلِ الْبِدَعِ)؛ أي: كما يتديّن أهل البدع بهذا. **وقوله:** (طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ) بالجرّ بدل من «دين». **وقوله:** (الْغَوِيَّه)؛ أي: الضالّة (الْحَاقِدِينَ)؛ أي: الذين انطَوَت بَوَاطِنُهُم على بُغْضِ أهل السُّنَّة، (فَاسِدِي الطَّوِيَّه)؛ أي: خبيثي القلب. (نَرْفَعُ مُحْسِنَهُمُ)؛ أي: نُعْلِي قَدْر من أحسن من أهل البيت، (وَمَنْ أَسَا) منهم (نَرْوِي بِهِ)؛ أي: في حقّه (قَوْلَ النَّبِيِّ) ﷺ (الْمُؤْتَسَى)؛ أي: المقتدى به، (إِذْ قَالَ مَا)؛ أي: كلاماً (مَعْنَاهُ مَن بَطَّأَ بِه)؛ أي: أخّره (عَمَلُهُ لَمْ يَنتَفِعْ بِنَسَبِهِ) هذا إشارة إلى حديث مسلم الطويل في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن نَفَّسَ عَن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...**» الحديث، وفيه: «**وَمَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**».

(وَمَن لَهُ اجْتَمَعَ طِيبُ النَّسَبِ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ حَقّاً اجْتُبِي)؛ أي: اختير، وصار من خيار عباد الله تعالى. والله تعالى أعلم.

---

(١) «تاج العروس» ٤/ ٢٧٧.



الْفَصْلُ الثَّانِي

فِي بَيَانِ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم

٧٧٦ ـ أَصْحَابُ خَيْرِ الْخَلْقِ أَرْضَى الْخَلْقِ ... لِلَّهِ بَعْدَ الْأَنبِيَا بِالْحَقِّ

٧٧٧ ـ السَّابِقُونَ، السَّلَفُ، الْأَخْيَارُ ... أَهْلُ الرِّضَا، وَالْعُصْبَةُ الْأَبْرَارُ

٧٧٨ ـ حُبُّهُمُ الطَّاعَةُ وَالإِيمَانُ ... بُغْضُهُمُ النِّفَاقُ وَالطُّغْيَانُ

٧٧٩ ـ أَبَرُّ الأُمَّةِ قُلُوباً، أَعْمَقُ ... عِلْماً، وَأَرْسَخُ اقْتِدَاءً، أَصْدَقُ

٧٨٠ ـ أَقَلُّهُمْ تَكَلُّفاً، قَدْ سَبَقُوا ... بِصُحْبَةٍ، وَنُصْرَةٍ؛ فَحَقَّقُوا

٧٨١ ـ زَكَّاهُمُ اللَّهُ؛ فَشَأْنُهُمْ عَلَا ... وَزَادَ فَضْلُهُمْ عَلَىٰ جُلِّ الْمَلَا

٧٨٢ ـ أَعْلَاهُمُ قَدْراً وَأَجْراً أَثْقَلُ ... مِيزَاناً: الصِّدِّيقُ، وَهْوَ الْأَكْبَرُ

٧٨٣ ـ فَارُوقُهُمْ يَلِي، وَهَٰذَا الْمُجْمَعُ ... لَدَىٰ أُولِي السُّنَّةِ لَا يُنَازَعُ

٧٨٤ ـ يَلِيهِ عُثْمَانُ، عَلِيْ مِن بَعْدِهِ ... أَوَّلُ مَنْ آمَنَ قَبْلَ رُشْدِهِ

٧٨٥ ـ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الْأَرْبَعَهْ ... أُولُو الْفَضَائِلِ فَقُلْ مَا أَوْسَعَهْ

٧٨٦ ـ يَتْبَعُهُمْ فِي الْفَضْلِ بَاقِي الْعَشَرَهْ ... قَدْ بُشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الْمُحَبَّرَهْ

٧٨٧ ـ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ بَعْدُ ... قَدْ نَصَرُوا النَّبِيَّ، نِعْمَ السَّعْدُ

٧٨٨ ـ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ... عَلَيْهِمُ الرِّضَا وَعَفْوُ الْبَارِي

٧٨٩ ـ فَأَهْلُ بَدْرٍ مَن لَهُمْ وَعْدٌ صَدَرْ ... مَا شِئْتُمُ اعْمَلُوا فَذَاكَ يُغْتَفَرْ

٧٩٠ ـ فَأُحُدٌ قَدْ وُصِفُوا الْوَصْفَ الْجَلِي ... حَيْثُ اسْتَجَابُوا بَعْدُ لِلَّهِ الْعَلِي

٧٩١ ـ ثُمَّتَ أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ ... قَدْ حُرِّمُوا قَطْعاً عَلَى النِّيْرَانِ

٧٩٢ ـ ثُمَّتَ مَنْ آمَنَ قَبْلَ الْفَتْحِ ... مُهَاجِراً مُجَاهِداً لِلْفَتْحِ

٧٩٣ ـ ثُمَّتَ مَنْ آمَنَ بَعْدُ مُنفِقَا ... فَكُلُّهُمْ لِوَعْدِ حُسْنَىٰ وُفِّقَا

٧٩٤ ـ فَحُبُّهُمْ فَرْضٌ عَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَا ... وَيَتَرَضَّىٰ عَنْهُمُ مُعَظِّمَا

٧٩٥ ـ يُبْغِضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ، وَيُكْرِمُ ... مُكْرِمَهُمْ، فَكُلُّ هَذَا يَلْزَمُ

٧٩٦ ـ تَفَاضَلُوا فِي الْفَضْلِ، فَالْحُبُّ تَبَعْ ... فَلَا تَكُن مِنْ أَهْلِ زَيْغٍ وَبِدَعْ

٧٩٧ ـ وَاقْتَدِ وَاهْتَدِ بِهِمْ دُونَ غُلُوّ ... فِي قَدْرِهِمْ فَإِنَّ ذَا هُوَ الْعُتُوّ

٧٩٨ ـ لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ، أَوْ كَأَحَدِ ... مِن سَائِرِ النَّاسِ بِهِمْ؛ فَلْتَقْتَدِ

٧٩٩ ـ كُفَّ عَنِ الَّذِي لَدَيْهِمْ شَجَرَا ... مُؤَوِّلاً، لَا تَنتَقِصْ فَتَفْجُرَا

٨٠٠ ـ لَا يُذْكَرُونَ بِسِوَى الْجَمِيلِ ... فَمَنْ أَبَى اقْتَدَىٰ سِوَى السَّبِيلِ

٨٠١ ـ قَدْ آذَنَ الإِلَـٰهَ بِالْحَرْبِ، وَمَنْ ... حَارَبَ مَوْلَاهُ فَبِالْهُلْكِ قَمَنْ

* * *

(أَصْحَابُ خَيْرِ الْخَلْقِ) ﷺ، وهو مبتدأ، خبره **قوله:** (أَرْضَى الْخَلْقِ لِلَّهِ) تعالى (بَعْدَ الأَنبِيَا) عليهم السلام (بِالْحَقِّ) متعلّق بـ«أرضى»، وهم (السَّابِقُونَ) إلى الخيرات، (السَّلَفُ الأَخْيَارُ، أَهْلُ الرِّضَا، وَالْعُصْبَةُ)؛ أي: الجماعة (الأَبْرَارُ)؛ أي: المطيعون لله ـ سبحانه ـ.

(حُبُّهُمُ الطَّاعَةُ) لله تعالى، (وَالإِيمَانُ)؛ يعني: أن حبّ الصحابة رضي الله عنهم هو طاعة لله تعالى، وهو الإيمان، و(بُغْضُهُمُ) هو (النِّفَاقُ، وَالطُّغْيَانُ)؛ أي: مجاوزة الحد في العصيان.

(أَبَرُّ الامَّةِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها؛ أي: أطوع الأمة (قُلُوباً) و(أَعْمَقُ)؛ أي: أرسخها (عِلْماً، وَأَرْسَخُ)؛ أي: أثبت

(اقْتِدَاءً)؛ أي: اتّباعاً بالنبيّ ﷺ، و(أَصْدَقُ) لهجةً، و(أَقَلُّهُمْ تَكَلُّفاً)؛ أي: ما يتكلفون ما ليس عندهم، ولا يتصنّعون للناس، كما قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦]؛ أي: من الذين يَتَصَنَّعون ويَتَحَيَّلون بما ليسوا من أهله.

(قَدْ سَبَقُوا)؛ أي: سبق الصحابة ﷺ الناسَ (بِصُحْبَةٍ وَنُصْرَةٍ)؛ أي: بصحبة رسول الله ﷺ، ونصرة دينه، (فَحَقَّقُوا) مقصودهم، وهو نيل رضا الله ﷻ.

(زَكَّاهُمُ اللهُ)؛ أي: أَثْنَى الله تعالى عليهم في آيات من كتابه العزيز؛ كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠]. وغير ذلك من الآيات.

(فَشَأْنُهُمْ عَلَا)؛ أي: ارتفع على من سواهم، (وَزَادَ فَضْلُهُمْ عَلَى جُلِّ الْمَلَا)؛ أي: معظم الخلق، فليس يَفْضُلهم أحد إلا الأنبياء ﷺ.

وقوله: (أَعْلَاهُمُ) مبتدأ، أو خبر مقدّم، (قَدْراً وَأَجْراً)؛ أي: من حيث القدر والأجر. **وقوله:** (أَثْقَلُ) عطف بعاطف مقدّر؛ أي: وأثقلهم (مِيزَاناً). **وقوله:** (الصِّدِّيقُ) خبر، أو مبتدأ مؤخّر، (وَهْوَ الأَكْبَرُ) وهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن

سعد بن تيم بن مرة التيميّ، أبو بكر بن أبي قحافة، وقيل: اسمه عتيق، خليفة رسول الله ﷺ، مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنةً رضي الله عنه[1].

(فَارُوقُهُمْ يَلِي) مبتدأ وخبره؛ أي: يَتْبَعُ الفاروقُ أبا بكر في الفَضْل، وهو: عمر بن الخطاب بن نُفيل ـ بنون، وفاء، مصغراً ـ ابن عبد العزى بن رياح ـ بتحتانية ـ ابن عبد الله بن قُرْط ـ بضم القاف ـ ابن رَزاح ـ بِرَاءٍ، ثم زاي خفيفة ـ ابن عديّ بن كعب القرشيّ العدويّ، أمير المؤمنين، مشهور، جَمّ المناقب، استُشهِد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ووَلِيَ الخلافة عشر سنين ونصفاً.

(وَهَذَا) الذي قلناه من تفضيل أبي بكر، ثم عمر رضي الله عنهما هو (الْمُجْمَعُ) عليه (لَدَى)؛ أي: عند (أُولِي)؛ أي: أهل (السُّنَّةِ) والجماعة، (لَا يُنَازَعُ)؛ أي: ليس فيه خلاف بينهم.

(يَلِيهِ)؛ أي: يَتْبَع الفاروق في الفضل: (عُثْمَانُ) بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس الأمويّ، أبو ليلى، أمير المؤمنين، ذو النورين، أحد السابقين الأولين، والخلفاء الأربعة، والعشرة المبشرين بالجنّة، استُشهِد في ذي الحجة بعد عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين، فكانت خلافته اثنتي عشرة سنة، وعمره ثمانون، وقيل: أكثر، وقيل: أقل من ذلك.

(عَلِيْ) بسكون الياء للوزن، وهو عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشميّ، أبو تراب، وأبو الحسنين، ابن عم

---

(١) «تقريب التهذيب» ص٣١٣.

رسول الله ﷺ، وزوج ابنته، من السابقين الأولين، ورَجَّحَ جَمْعٌ أنه أَوَّلُ من أسلم، فهو سابق العرب، وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، مات في رمضان سنة أربعين، وهو يومئذ أفضل الأحياء من بني آدم بالأرض بإجماع أهل السُّنَّة، وله ثلاث وستون سنة، على الأرجح.

وقوله: «علي» مبتدأ، خبره **قوله:** (مِن بَعْدِهِ)؛ أي: من بعد عثمان رضي الله عنهما.

(أَوَّلُ مَنْ آمَنَ قَبْلَ رُشْدِهِ)؛ أي: إنّ علياً رضي الله عنه أول مَن آمن قبل بلوغه.

فهؤلاء هم (الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الأَرْبَعَه أُولُو الْفَضَائِلِ، فَقُلْ: مَا أَوْسَعَه)؛ أي: ما أوسع الفضل الذي أوتوه. (يَتْبَعُهُمْ فِي الْفَضْلِ بَاقِي الْعَشَرَه) وهم: طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقّاص، وسعيد بن زيد بن نُفيل، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنهم، وهم الذين (قَدْ بُشِّرُوا) بالبناء للمفعول، (بِالْجَنَّةِ الْمُحَبَّرَه)؛ أي: الْمُزَيَّنَة.

أخرج ابن حبّان في «صحيحه» عن عبد الرحمٰن بن عوف، قال: قال النبيّ ﷺ: **«عَشَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ: أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَابْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ»**[1].

---

(١) «صحيح ابن حبان» ١٥/ ٤٦٣.

(وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ بَعْدُ)؛ أي: بعد العشرة؛ أي: يَلُونَهم في الفضل، (قَدْ نَصَرُوا النَّبِيَّ) ﷺ (نِعْمَ السَّعْدُ)؛ أي: نعم السعادة سعادتهم ﭫ، (مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالأَنْصَارِ ـ عَلَيْهِمُ الرِّضَا ـ)؛ أي: رِضَا الله ـ تعالى ـ عليهم، (وَعَفْوُ الْبَارِي) كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

(فَأَهْلُ بَدْرٍ)؛ أي: ثم يلي هؤلاء الصحابة الذين غَزَوْا غزوة بدر، وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، (مَن لَهُمْ وَعْدٌ) مِنَ الله تعالى (صَدَر). **وقوله:** (مَا شِئْتُمُ) مفعول مقدّم **لقوله:** (اعْمَلُوا فَذَاكَ يُغْتَفَر) وهذا إشارة إلى ما أخرجه الشيخان في قصّة حاطب بن أبي بلتعة ﭬ لمّا أراد عمر ﭬ أن يضرب عنقه، وقال: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال ﷺ: «**أَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟**»، فقال: «**لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمُ الْجَنَّةُ، أَوْ: فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، فدمعت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

(فَأُحُدٌ) بضمّتين، الجبل المعروف في المدينة؛ أي: ثم يلي أهلُ غزوة أُحد في الفضل، (قَدْ وُصِفُوا) بالبناء للمفعول، (الْوَصْفَ الْجَلِي)؛ أي: الظاهر، (حَيْثُ اسْتَجَابُوا بَعْدُ)؛ أي: بعدما أصابهم القرح، (لِلَّهِ الْعَلِي) أشار به إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢].

(ثُمَّتَ) يلي في الفضل: (أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ)؛ أي: الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

(قَدْ حُرِّمُوا) بتخفيف الراء، وتشديدها، مبنيّاً للمفعول؛ أي: قد حرّمهم الله ﷻ (قَطْعاً)؛ أي: حال كونه مقطوعاً به؛ لصحّة الحديث بذلك، (عَلَى النِّيْرَانِ) فقد أخرج النسائيّ في «سننه» عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»، وهو حديث صحيح.

(ثُمَّتَ) يلي في الفضل: (مَنْ آمَنَ قَبْلَ الْفَتْحِ)؛ أي: قبل فتح مكة، حال كونه (مُهَاجِراً) إلى المدينة، (مُجَاهِداً) في سبيل الله، (لِلْفَتحِ)؛ أي: لأجل أن يفتح الله تعالى على المؤمنين بلاد الكفّار.

(ثُمَّتَ) يلي (مَنْ آمَنَ بَعْدُ)؛ أي: بعد فتح مكة، حال كونه (مُنفِقَا) أموالَه في سبيل الله، (فَكُلُّهُمْ لِوَعْدِ حُسْنَى)؛ أي: للوعد بالجنة (وُفِّقَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، وهذا إشارة إلى قول الله ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣].

(فَحُبُّهُمْ)؛ أي: حب الصحابة ﷺ بجميع طبقاتهم (فَرْضٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل؛ أي: مَفْرُوضٌ على كلّ مسلم، (وَيَتَرَضَّى عَنْهُمُ) بلسانه، حال كونه (مُعَظِّمَا) لهم بقلبه، (يُبْغِضُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ، وَيُكْرِمُ مُكْرِمَهُمْ، فَكُلُّ هَذَا) الذي ذكرناه (يَلْزَمُ) كلّ مسلم.

(تَفَاضَلُوا فِي الْفَضْلِ)؛ يعني: أن الصحابة ﷺ متفاضلون في الفضل، كما نصّت الآية السابقة، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ الآية [الحديد: ١٠]، (فَالْحُبُّ تَبَع) لفضلهم، فكما أن كلهم له فضل عند الله ﷻ، فتجب محبّته تبعاً لذلك الفضل، لا لأمر آخر، كما أشار إليه **بقوله:** (فَلَا تَكُن مِنْ أَهْلِ زَيْغٍ وَبِدَع) حيث إنهم يحبون بعضهم، ويبغضون بعضهم تبعاً لهواهم، لا للفضل الذي فضّلهم به، فمحبة الصحابة ﷺ تَابِعَة من محبّة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ، أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن مغفل المزنيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَصْحَابِي لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضاً بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ أَوْشَكَ أَنْ يَأْخُذَهُ»**(١).

(وَاقْتَدِ وَاهْتَدِ بِهِمْ دُونَ غُلُوّ)؛ أي: دون أن تُجَاوِزَ الحدّ (فِي قَدْرِهِمْ، فَإِنَّ ذَا)؛ أي: الغلوّ، (هُوَ الْعُتُوّ)؛ أي: الاستكبار والبَغْيُ. (لَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ) كالأنبياء، (أَوْ) بمعنى الواو؛ أي: وليسوا أيضاً

---

(١) «مسند أحمد» ٢٧/ ٣٥٨، وفي إسناده عبد الله بن عبد الرحمن: مجهول.

(كَأَحَدٍ مِن سَائِرِ النَّاسِ) بل هم أفضل من سائر الناس، (بِهِمْ فَلْتَقْتَدِ)؛ أي: اتَّبع آثارهم، واسْلُكْ سبيلهم.

(كُفَّ)؛ أي: امْتَنِع، ولا تَذْكُر (عَنِ الَّذِي لَدَيْهِمْ شَجَرَا) من الحروب والمقاتلة، حال كونك (مُؤَوِّلاً) لذلك بأن تقول: إنهم إما مجتهدون مصيبون، فيؤجرون أجرين، وإما مجتهدون مخطئون، فيؤجَرون أجراً واحداً على اجتهادهم. (لَا تَنتَقِصْ) أحداً منهم (فَتَفْجُرَا) بألف الإطلاق؛ أي: فتصير بذلك فاجراً فاسقاً. (لَا يُذْكَرُونَ) بالبناء للمفعول؛ أي: لا يجوز ذكر الصحابة ﷺ (بِسِوَى الْجَمِيلِ) من أفعالهم، (فَمَنْ أَبَى)؛ أي: امتنع من ذلك، فذَكرهم بالسوء (اقْتَدَى)؛ أي: اتَّبَع (سِوَى السَّبِيلِ)؛ أي: غير الطريق المستقيم، (قَدْ آذَنَ الْإِلَهَ) سبحانه (بِالْحَرْبِ، وَمَنْ حَارَبَ مَوْلَاهُ) سبحانه (فَبِالْهُلْكِ) بضمّ فسكون؛ أي: الهلاك (قَمَن) بفتحتين؛ أي: حَقِيق وخَلِيق. والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

فِي بَيَانِ مَا يَجِبُ لِلْعُلَمَاءِ - رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ -

٨٠٢ - الْعُلَمَاءُ هُمْ رُعَاةُ الْأُمَمِ ... دُعَاةُ إِصْلَاحٍ وَرَفْعِ الْهِمَمِ

٨٠٣ - لِلَّهِ أَخْشَىٰ، وَبِهِ هُمْ أَعْرَفُ ... وَرَثَةُ الرُّسْلِ بِذَا قَدْ وُصِفُوا

٨٠٤ - أَهْلُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَالْأَثَرْ ... وَأَهْلُ فِقْهٍ، وَهُمُ أَهْلُ النَّظَرْ

٨٠٥ - وَأَهْلُ الِاتِّبَاعِ، أَهْلُ الذِّكْرِ ... وَهُمْ أُولُو الْأَمْرِ كَمَا فِي الذِّكْرِ

٨٠٦ - هُمْ خُلَفَاءُ الْمُصْطَفَىٰ، يُحْيُونَا ... سُنَّتَهُ، وَضِدَّهَا يَمْحُونَا

٨٠٧ - يَدْعُونَ مَن ضَلَّ، وَإِنْ أُوذُوا فَقَدْ ... يُقَابِلُونَهُ بِصَبْرٍ وَرَشَدْ

٨٠٨ - قَامَ الْكِتَابُ بِهِمُ، وَقَامُوا ... بِهِ، وَبِالنُّطْقِ بِهِ اسْتَقَامُوا

٨٠٩ - قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَدَى الْمَعْرُوفِ ... طَاعَتَهُم بِالْحُبِّ وَالتَّشْرِيفِ

٨١٠ - إِلَيْهِمُ يُرْجَعُ فِي الْمُلِمَّةِ ... أَكْرِم بِفَتْوَاهُمْ لَدَى الْمُهِمَّةِ

٨١١ - فَحَسَنَاتُهُمْ وُجُوباً تُنشَرُ ... وَهَفَوَاتُهُمْ لُزُوماً تُسْتَرُ

٨١٢ - لُحُومُهُم فِي النَّاسِ قُلْ: مَسْمُومَهْ ... وَسُنَّةُ اللَّهِ لَهُم مَعْلُومَهْ=

٨١٣ - بِهَتْكِ مَنْ غَدَا لَهُم مُنتَقِصَا ... فَلْتَتَأَدَّبْ مَعْهُمُ، كَيْ تَخْلُصَا

٨١٤ - فَمِنْهُمُ السَّلَفُ أَفْضَلُ، وَهُمْ ... صَحْبُ الرَّسُولِ، ثُمَّ مَن تَبِعَهُمْ

٨١٥ - أَهْلُ الْقُرُونِ الدُّرَرِ الْمُفَضَّلَهْ ... لَا سِيَّمَا الْأَئِمَّةُ الْمُبَجَّلَهْ

٨١٦ - الْفُقَهَاءُ الْفُهَمَاءُ الْأَرْبَعَهْ ... أَعْلَى الْإِلَٰهُ قَدْرَهُمْ وَرَفَعَهْ

٨١٧ ـ وَأَجْمَعُوا عَلَى اتِّحَادِ الْكِلْمَةِ   فِي بَابِ الِاعْتِقَادِ دُونَ فُرْقَةِ

٨١٨ ـ وَإِنَّمَا اخْتِلَافُهُمْ يَجِي لَدَىٰ   مَسَائِلِ الْفُرُوعِ حَسْبَ الْمُقْتَدَىٰ

٨١٩ ـ وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِن تَتَبُّعِ   زَلَّاتِهِمْ فَذَا مِنَ التَّنَطُّعِ

٨٢٠ ـ لَا تُسْقِطَنَّ قَدْرَهُم بِذَا، وَلَا   تَقْتَدِيَن فِيهَا بِهِمْ فَتُخْذَلَا

٨٢١ ـ وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِمَّنْ أَخَذَا   اَلدِّينَ حِرْفَةً وَصَنْعَةً بَذَا

٨٢٢ ـ يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا يَأْتَمِرُ   يَنْهَىٰ عَنِ الْمُنكَرِ لَا يَنزَجِرُ

٨٢٣ ـ يُزَيِّنُ الْبَاطِلَ، وَالْحَقَّ كَتَمْ   إِيَّاكَ أَن تَصْحَبَ كُلَّ مَن ظَلَمْ

***

(الْعُلَمَاءُ هُمْ رُعَاةُ الأُمَمِ) جمع: راعٍ، شَبَّهَهم برعاة المواشي بجامع الرعاية والعناية، فإنهم يرشدون الناس إلى ما فيه صلاحهم، وينهونهم عما فيه هلاكهم، وهم **(دُعَاةُ إِصْلَاحٍ)**؛ أي: يَدْعون الناس إلى أن يصلحوا أحوالهم، **(وَ)**يدعونهم أيضاً إلى **(رَفْعِ الْهِمَمِ)**؛ أي: إلى أن يرفعوا هِمَمَ الناس عن سَفَاسِف الأمور إلى معاليها، وهم **(لِلَّهِ أَخْشَى)** كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، **(وَبِهِ هُمْ أَعْرَفُ)**؛ أي: هم أعرف الناس بالله ﷻ، **(وَرَثَةُ الرُّسْلِ بِذَا قَدْ وُصِفُوا)** بالبناء للمفعول؛ أي: وصفهم النبيّ ﷺ، أخرج ابن أبي شيبة في «مسنده» عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً، سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْبَحْرِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً**

وَلَا دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[١].

وهم (أَهْلُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَالأَثَر) من عطف الع
الخاصّ، (وَ)هم (أَهْلُ فِقْهٍ، وَهُمُ أَهْلُ النَّظَر) لأن عقولهم
فنظرهم مصيب، (وَ)هم (أَهْلُ الاتِّبَاعِ) لسُنَّة النبيّ ﷺ، وه
الذِّكْرِ) كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا
[النحل: ٤٣]، (وَهُمْ أُولُو الأَمْرِ كَمَا فِي الذِّكْرِ)؛ أي: جاء وَص
في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ
[النساء: ٥٩]، فقد فسّر كثير من أهل العلم أولي الأمر بالعلم
نُقِل ذلك عن ابن عبّاس، ومجاهد، وعطاء، والحسن ال
وأبي العالية، كما في تفسير ابن كثير.

و(هُمْ خُلَفَاءُ الْمُصْطَفَى) ﷺ (يُحْيُونَا) بألف الإط
الموضعين، (سُنَّتَهُ) ﷺ (وَضِدَّهَا)؛ أي: ضدّ السُّنَّة، وهي:
(يَمْحُونَا)؛ أي: يزيلونها، (يَدْعُونَ مَن ضَلَّ) عن الصراط ا
(وَإِنْ أُوذُوا)؛ أي: وإن آذاهم من يدعونه، (فَقَدْ يُقَابِلُونَ
وَرَشَد)؛ أي: صلاح.

(قَامَ الْكِتَابُ بِهِمُ) حيث إنهم يقومون به تِلاوَةً، و
وتعليماً، وعملاً، (وَقَامُوا بِهِ) حيث إنه مرجعهم في م
الدنيويّة، والدينيّة، والأخلاقيّة، والسلوكيّة، (وَبِالنُّطْقِ بِهِ ا
فلا ينطقون إلا بما دلّ عليه الكتاب منطوقاً أو مفهوماً.

---

(١) «مسند ابن أبي شيبة» ١/ ٥٥، وهو حديث حسن لغيره، كما قال الشيخ الأ

وَلَا دِرْهَماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

وهم (أَهْلُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَالأَثَر) من عطف العام على الخاصّ، (وَ)هم (أَهْلُ فِقْهٍ، وَهُمْ أَهْلُ النَّظَر) لأن عقولهم صافية، فنظرهم مصيب، (وَ)هم (أَهْلُ الاتِّبَاعِ) لسُنَّة النبيّ ﷺ، وهم (أَهْلُ الذِّكْرِ) كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، (وَهُمْ أُولُو الأَمْرِ كَمَا فِي الذِّكْرِ)؛ أي: جاء وَصْفهم به في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فقد فسّر كثير من أهل العلم أولي الأمر بالعلماء، فقد نُقِل ذلك عن ابن عبّاس، ومجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبي العالية، كما في تفسير ابن كثير.

و(هُمْ خُلَفَاءُ الْمُصْطَفَى) ﷺ (يُحْيُونَا) بألف الإطلاق في الموضعين، (سُنَّتَهُ) ﷺ (وَضِدَّهَا)؛ أي: ضدّ السُّنَّة، وهي: البدعة، (يَمْحُونَا)؛ أي: يزيلونها، (يَدْعُونَ مَن ضَلَّ) عن الصراط المستقيم (وَإِنْ أُوذُوا)؛ أي: وإن آذاهم من يدعونه، (فَقَدْ يُقَابِلُونَهُ بِصَبْرٍ وَرَشَد)؛ أي: صلاح.

(قَامَ الْكِتَابُ بِهِمُ) حيث إنهم يقومون به تِلاوَةً، وتعلّماً، وتعليماً، وعملاً، (وَقَامُوا بِهِ) حيث إنه مرجعهم في مهماتهم الدنيويّة، والدينيّة، والأخلاقيّة، والسلوكيّة، (وَبِالنُّطْقِ بِهِ اسْتَقَامُوا) فلا ينطقون إلا بما دلّ عليه الكتاب منطوقاً أو مفهوماً.

---

(١) «مسند ابن أبي شيبة» ١/ ٥٥، وهو حديث حسن لغيره، كما قال الشيخ الألبانيّ رحمه الله.

(قَدْ فَرَضَ اللهُ) ﷻ (لَدَى الْمَعْرُوفِ طَاعَتَهُمْ) كما دلَّت عليه الآية السابقة. **وقوله:** (بِالْحُبِّ وَالتَّشْرِيفِ) متعلّق بـ«طاعتهم»؛ أي: يطيعونهم مع حبهم وتشريفهم لهم، (إِلَيْهِمُ يُرْجَعُ) بالبناء للمفعول، (فِي الْمُلِمَّةِ)؛ أي: في الأمور التي تَنْزِل بالناس، (أَكْرِم بِفَتْوَاهُمْ لَدَى الْمُهِمَّةِ)؛ أي: عند نزول المسائل المهمّة.

(فَحَسَنَاتُهُمْ وُجُوباً تُنشَرُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يجب نشر حساتهم وإشاعتها بين الناس؛ ليعرفوا قَدْرَهم، ويَتَبَيَّنوا فضلهم. (وَهَفَوَاتُهُمْ)؛ أي: سَقَطَاتُهم وأخطاؤهم (لُزُوماً تُسْتَرُ) بالبناء للمفعول أيضاً؛ أي: يجب سَترها، وعدم إشهارها بين الناس؛ لئلا يَنتَقِصُوهم ويحتقروهم. (لُحُومُهُم فِي النَّاسِ قُلْ مَسْمُومَه)؛ أي: ذات سمّ، فمن تناولها بالغيبة والطعن فيهم أهلكته، (وَسُنَّةُ اللهِ لَهُمْ)؛ أي: طريقة الله تعالى تِجاه العلماء (مَعْلُومَه)، وذلك (بِهَتْكِ) بفتح الهاء وسكون التاء؛ أي: فضيحة (مَنْ غَدَا)؛ أي: صار (لَهُم مُنتَقِصَا)؛ أي: عائباً، (فَلْتَتَأَدَّبْ) أيها المسلم الناصح لنفسه (مَعْهُمُ كَيْ تَخْلُصَا) بألف الإطلاق؛ أي: تنجو من الهلاك.

(فَمِنْهُمُ)؛ أي: من العلماء: (السَّلَفُ) الصالح، وهم (أَفْضَلُ) الأمم، (وَهُمْ صَحْبُ الرَّسُولِ) ﷺ (ثُمَّ مَن تَبِعَهُمْ)، وهم (أَهْلُ الْقُرُونِ الدُّرَرِ) جمع: دُرَّة، (الْمُفَضَّلَه) التي وَرَدَ فضلها فيما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: **«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»**.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله ﷺ:

«خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ـ قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً ـ ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

(لَا سِيَّمَا الأَئِمَّةُ الْمُبَجَّلَه الْفُقَهَاءُ الْفُهَمَاءُ الأَرْبَعَه) أبو حنيفة، ومالك، والشافعيّ، وأحمد، (أَعْلَى الإِلَهُ) سبحانه (قَدْرَهُمْ، وَرَفَعَه) فانتشرت مذاهبهم في مشارق الأرض ومغاربها، وانتفع الناس بعلومهم.

(وَأَجْمَعُوا) الأئمة المذكورون وغيرهم، (عَلَى اتِّحَادِ الْكِلْمَةِ فِي بَابِ الاعْتِقَادِ)؛ يعني: أنهم متفقون في مسائل الإيمان والعقيدة، فيُثْبتون ما أثبت الله تعالى لنفسه، وينفون ما نفاه (دُونَ فُرْقَةٍ)؛ أي: دون تفرّق فيما بينهم في ذلك الباب، (وَإِنَّمَا اخْتِلَافُهُمْ يَجِي لَدَى مَسَائِلِ الْفُرُوعِ)؛ أي: في المسائل الفرعيّة، (حَسْبَ الْمُقْتَدَى) بصيغة المفعول؛ أي: حسب الدليل الذي يستنبطون منه.

(وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ) منصوب على التحذير؛ أي: أحذّرك كلّ التحذير (مِن تَتَبُّعِ زَلَّاتِهِمْ)؛ أي: زَلّات الأئمة، (فَذَا مِنَ التَّنَطُّعِ) يقال: تنطّع في الكلام: إذا تعمّق وغالَى، كما في «القاموس». (لَا تُسْقِطَنَّ قَدْرَهُمْ بِذَا)؛ أي: بِزَلَّاتِهم، (وَلَا تَقْتَدِيَن فِيهَا)؛ أي: في تلك الزلّات (بِهِمْ فَتُخْذَلَا)؛ أي: فتَذِلّ بسببها.

(وَالْحَذَرَ الْحَذَرَ) أن تكون (مِمَّنْ أَخَذَا الدِّينَ حِرْفَةً) يحترف به، (وَصَنْعَةً) مؤكّد لِمَا قبله. **وقوله:** (بَذَا) بالقصر للضرورة، نَعت لـ«صنعة»؛ أي: فُحْشاً، يقال: بذا يبذو بذاءً ـ بالمد ـ: إذا أفحش في منطقه، وإن كان كلامه صدقاً.

ثم بيّن معنى اتخاذ الدين حرفة **بقوله**: (**يَأْمُرُ**) الناس (**بِالْخَيْرِ، وَلَا يَأْتَمِرُ**) هو بنفسه، و(**يَنْهَى**) الناس (**عَنِ الْمُنْكَرِ**) و(**لَا يَنزَجِرُ**) بنفسه، (**يُزَيِّنُ الْبَاطِلَ، وَالْحَقَّ كَتَمْ**)؛ أي: ويكتم الحقّ، (**إِيَّاكَ**)؛ أي: أحذّرك (**أَن تَصْحَبَ كُلَّ مَن ظَلَم**) نفسه باتّباع هواها، وأعرض عن الهدى والرشاد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]. والله تعالى أعلم.

[تنبيهٌ]
كَيْفَ يُعْتَذَرُ عَنِ الْأَئِمَّةِ إِذَا خَالَفَ اجْتِهَادُهُمُ النَّصَّ

٨٢٤ ـ ثُمَّ اعْلَمَن بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ ... مِنَ الْأَئِمَّةِ إِمَامٌ يُلْحِدُ=

٨٢٥ ـ بِخُلْفِهِ الرَّسُولَ مُطْلَقاً لِذَا ... يَلْزَمُنَا إِعْذَارُهُمْ، يَا حَبَّذَا

٨٢٦ ـ وَهَـٰذَا الِاعْذَارُ ثَلَاثَةٌ يُرَىٰ ... أَحَدُهَا: أَلَّا يَكُونَ قَدْ يَرَىٰ=

٨٢٧ ـ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَهُ، وَالثَّانِي ... عَدَمُ الِاعْتِقَادِ فِي ذَا الشَّانِ

٨٢٨ ـ أَيْ: بِإِرَادَةِ النَّبِيْ، وَالثَّالِثُ ... تَوَهُّمُ النَّسْخِ فَمَا هُوْ لَابِثُ

٨٢٩ ـ وَهَـٰذِهِ الْأَصْنَافُ قَد تَفَرَّعَتْ ... لِعِدَّةِ الْأَسْبَابِ، فَاضْبِطْ مَا حَوَتْ

٨٣٠ ـ أَوَّلُهَا: أَلَّا يَكُونَ الْخَبَرُ ... وَصَلَهُ؛ فَذَا بِجَهْلٍ يُعْذَرُ

٨٣١ ـ وَالثَّانِ: أَن يَكُونَ قَدْ وَصَلَهُ ... لَكِن لِضَعْفِهِ أَبَىٰ قَبُولَهُ

٨٣٢ ـ ثَالِثُهَا: اعْتِقَادُ ضَعْفٍ خَالَفَهْ ... سِوَاهُ فِيهِ لِاجْتِهَادٍ حَالَفَهْ

٨٣٣ ـ رَابِعُهَا: اشْتِرَاطُهُ فِي الْخَبَرِ ... شَرْطاً يُخَالِفُهُ أَهْلُ النَّظَرِ

٨٣٤ ـ خَامِسُهَا: أَنَّ الْحَدِيثَ ثَبَتَا ... لَدَيْهِ لَـٰكِن نَاسِياً قَدْ فَوَّتَا

٨٣٥ ـ سَادِسُهَا: عَدَمُ فَهْمِ مَا يَدُلّ ... لَهُ الْحَدِيثُ؛ أَيْ: لِأَسْبَابٍ تُخِلّ

٨٣٦ ـ سَابِعُهَا: اعْتِقَادُهُ أَن لَيْسَ فِي هَـٰذَا الْـحَدِيثِ مِن دَلَالَةٍ تَفِي

٨٣٧ ـ ثَامِنُهَا: اعْتِقَادُهُ أَنْ عَارَضَا تِلْكَ الدَّلَالَةَ دَلِيلٌ نَاقَضَا

٨٣٨ ـ تَاسِعُهَا: اعْتِقَادُ أَن قَدْ وُجِدَا مُعَارِضُ الْحَدِيثِ مِمَّا أَفْسَدَا=

٨٣٩ ـ مِن ضَعْفٍ، اوْ نَسْخٍ، أَوِ التَّأْوِيلِ مِمَّا يَصُدُّهُ عَنِ التَّعْوِيلِ

٨٤٠ ـ عَاشِرُهَا: إِثْبَاتُهُ مُعَارِضَا لَهُ بِمَا لَيْسَ دَلِيلاً يُرْتَضَىٰ

٨٤١ ـ كَرَدِّ بَعْضِهِمْ صَحِيحاً خَالَفَا لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ قَد تَجَانَفَا

٨٤٢ ـ فَهَـٰذِهِ الْعَشَرَةُ الْأَسْبَابُ ظَاهِرَةٌ يَأْتِي بِهَا احْتِجَابُ

٨٤٣ ـ لِعَالِمٍ عَنِ اقْتِفَاءِ النَّصِّ فَاعْذِرْ لَهُ، وَلَا تَلُم بِالنَّقْصِ

***

(ثُمَّ اعْلَمَن بِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مِنَ الأَئِمَّةِ إِمَامٌ يُلْحِدُ) بضم أوله، من الإلحاد؛ أي: يَنتَهِك حرمة الدين (بِخُلْفِهِ)؛ أي: بمخالفته (الرَّسُولَ) ﷺ (مُطْلَقاً)؛ أي: سواء كان في القول، أو الفعل، أو الاعتقاد، (لِذَا يَلْزَمُنَا إِعْذَارُهُمْ)؛ أي: إقامة العذر لهم إذا وقع منهم المخالفة لِمَا صحّ عن رسول الله ﷺ، (يَا حَبَّذَا) هذا الإعذار؛ أي: ما أحسنه، (وَهَذَا الِاعْذَارُ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها، (ثَلَاثَةٌ يُرَى).

(أَحَدُهَا: أَلَّا يَكُونَ) ذلك الإمام المخالف للنصّ (قَدْ يَرَى)؛ أي: يعتقد (أَنَّ النَّبِيَّ) ﷺ (قَالَهُ)؛ أي: قال ذلك النصّ، والمعنى: أنه لم يعلم بأنه ﷺ قال ذلك النصّ، ولذا خالفه جهلاً.

(وَالثَّانِي: عَدَمُ الِاعْتِقَادِ)؛ أي: عدم اعتقاد ذلك الإمام (فِي ذَا الشَّانِ) الذي خالف فيه، (أَيْ: بِإِرَادَةِ النَّبِي) ﷺ، والمعنى: أنه علم

بالنصّ، ولكنه ظن عدم إرادته ﷺ ذلك المعنى، ولذا خالفه.

(وَالثَّالِثُ: تَوَهُّمُ النَّسْخِ)؛ يعني: أنه وإن علم النصّ، وعلم إرادته ﷺ ذلك المعنى، لكنه ظنه منسوخاً. **وقوله:** (فَمَا) نافية، (هُوْ لَابِثُ)؛ أي: لم يبق معمولاً به، بل هو منسوخ.

(وَهَذِهِ الأَصْنَافُ) الثلاثة المذكورة، (قَدْ تَفَرَّعَتْ لِعِدَّةِ الأَسْبَابِ) من إضافة الصفة للموصوف؛ أي: لأسباب متعدّدة، (فَاضْبِطْ مَا حَوَتْ)؛ أي: ما جَمَعْته من بيان تلك الأسباب.

(أَوَّلُهَا:)؛ أي: أول تلك الأسباب: (أَلَّا يَكُونَ الْخَبَرُ وَصَلَهُ)؛ أي: ذلك الإمام؛ يعني: أنه لم يعلم بذلك النصّ، (فَذَا بِجَهْلٍ يُعْذَرُ)؛ أي: يقام له العذر عند مخالفته بالجهل، حيث لم يعلم بذلك النصّ.

(وَالثَّانِ: أَن يَكُونَ قَدْ وَصَلَهُ) ذلك النصّ، (لَكِن لِضُعْفِهِ) بفتح الضاد وضمها؛ أي: لضعف إسناده (أَبَى قَبُولَهُ) بأن كان السند الذي وصله ضعيفاً، فأعرض عنه لذلك، مع أنه مَرْوِيٌّ بإسناد آخر صحيح.

(ثَالِثُهَا: اعْتِقَادُ ضُعْفٍ)؛ أي: اعتقاد ذلك الإمام ضَعف ذلك النصّ، وقد (خَالَفَه سِوَاهُ)؛ أي: غيره (فِيهِ)؛ أي: في ضعف ذلك النصّ، وذلك (لاجْتِهَادٍ حَالَفَه) بالحاء المهملة؛ أي: اقترن به.

والمعنى: أنه إنما خالف النصّ لأجل اعتقاده ضعفَه، مع أن غيره من العلماء يخالفونه في ذلك، والاجتهاد بابه مفتوح، يجوز للعالم أن يجتهد، فإن وُفّق فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وعلى كلّ حال فإذا خالف النصّ بالاجتهاد يكون عذراً له.

(رَابِعُهَا: اشْتِرَاطُهُ)؛ أي: اشتراط ذلك العالم (فِي الْخَبَرِ شَرْطاً يَخَالِفُهُ أَهْلُ النَّظَرِ)؛ يعني: أنه اشترط في قبوله شرطاً لا يوافقه غيره عليه، فبسبب ذلك وقع في مخالفة النصّ.

(خَامِسُهَا: أَنَّ الْحَدِيثَ ثَبَتَا) بألف الإطلاق، (لَدَيْهِ)؛ أي: عند ذلك المخالف، (لَكِن نَاسِياً قَدْ فَوَّتَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أنه ترك العمل به لأجل نسيانه للنصّ، فيكون معذوراً بذلك.

(سَادِسُهَا: عَدَمُ فَهْمِ مَا يَدُلّ لَهُ الْحَدِيثُ)؛ يعني: أن النصّ وصل إليه، ولكنه لم يفهم المراد منه، (أَيْ: لأَسْبَابٍ تُخِلّ) بالفهم؛ كأن تكون دلالته خفيّة، لا تظهر إلا بصعوبة.

(سَابِعُهَا: اعْتِقَادُهُ أَن) مخفّفة من الثقيلة؛ أي: أنه (لَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِن دَلَالَةٍ تَفِي) بالغرض؛ يعني: أنه وإن وصل إليه النصّ إلا أنه اعتقد أنه لا يدلّ على المسألة.

(ثَامِنُهَا: اعْتِقَادُهُ أَنْ عَارَضَا) بألف الإطلاق، (تِلْكَ الدَّلَالَةَ دَلِيلٌ نَاقَضَا)؛ أي: معارض لها؛ يعني: أنه وإن دلّ على المسألة، إلا أن له دليلاً معارضاً في تلك الدلالة.

(تَاسِعُهَا: اعْتِقَادُ أَن قَدْ وُجِدَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، (مُعَارِضُ الْحَدِيثِ مِمَّا أَفْسَدَا) بألف الإطلاق أيضاً، (مِن ضَعْفٍ اوْ) بدرج الهمزة، (نَسْخٍ، أَوِ التَّأْوِيلِ مِمَّا يَصُدُّهُ)؛ أي: يمنع ذلك العالم (عَنِ التَّعْوِيلِ)؛ أي: الاعتماد عليه، والمعنى: أنه وإن علم بالنصّ، إلا أنه ظنّ وجود معارض له، من ضعف، أو نَسْخ، أو نحو ذلك، فوقع في المخالفة.

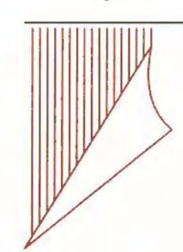
(عَاشِرُهَا: إِثْبَاتُهُ)؛ أي: إثبات ذلك العالم المخالف

(مُعَارِضًا لَهُ)؛ أي: لذلك النصّ الذي خالفه، (بِمَا لَيْسَ دَلِيلاً يُرْتَضَى) بالبناء للمفعول؛ أي: بدليل غير مقبول عند المحقّقين، وذلك (كَرَدِّ بَعْضِهِمْ صَحِيحاً)؛ أي: حديثاً صحيحاً (خَالَفَا) بألف الإطلاق؛ أي: خالف ذلك الصحيح (لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ) اللام زائدة، و«ظاهر» مفعول «خالف». **وقوله:** (قَدْ تَجَانَفَا) بألف الإطلاق؛ أي: مَالَ، والجملة حال مؤكّدة لـ«خالف».

ومثال ذلك: ردّ الحنفيّة حديث الْمُصَرَّاة المتّفق عليه؛ لمخالفته لظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

(فَهَذِهِ الْعَشَرَةُ الأَسْبَابُ ظَاهِرَةٌ يَأْتِي بِهَا احْتِجَابُ لِعَالِمٍ عَنِ اقْتِفَاءِ)؛ أي: اتِّبَاع (النَّصِّ، فَاعْذِرْ) من باب «ضَرَبَ»، (لَهُ)؛ أي: اقبل عذره في مخالفته النصّ، (وَلَا تَلُمْ)؛ أي: لا تَعِبْهُ (بِالنَّقْصِ)؛ أي: بنقص منْزلته ودرجته. والله تعالى أعلم.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

فِي بَيَانِ حُكْمِ الْإِمَامَةِ

٨٤٤ ـ وَوَاجِبٌ نَصْبُ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ ... لِكَي يَكُونَ حَامِياً لِلْأُمَمِ
٨٤٥ ـ وَنَصْبُهُ يَكُونُ: بِالْإِجْمَاعِ، أَوْ ... بَيْعَةِ أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ رَأَوْا
٨٤٦ ـ كَذَاكَ بِالْعَهْدِ، وَمَن تَغَلَّبَا ... فَضَبَطَ الْأُمُورَ ضَبْطاً غَلَبَا
٨٤٧ ـ قَدْ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ إِذَا أَمَرْ ... بِمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي الشَّرْعِ الْأَغَرّ
٨٤٨ ـ ثُمَّ لِلْأُمَّةِ عَلَى الْأَئِمَّةِ ... تَحْكِيمُهُمْ لِلشِّرْعَةِ اللَّازِمَةِ
٨٤٩ ـ حِيَاطَةُ الْعَقِيدَةِ السَّنِيَّهْ ... وَحِفْظُهُمْ لِلْوَحْدَةِ الْمَرْضِيَّهْ
٨٥٠ ـ وَالْأَمْرُ، وَالنَّهْيُ، كَذَا الْجِهَادُ ... وَكُلُّ مَا يُرَىٰ بِهِ الرَّشَادُ
٨٥١ ـ وَلِلْأَئِمَّةِ حُقُوقٌ تُتَّبَعْ ... السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَيْثُمَا وَقَعْ
٨٥٢ ـ فِي مَنشَطٍ وَمَكْرَهٍ فِي الطَّاعَةِ ... أَوْ مَا يُبَاحُ، لَا لَدَى الْمَعْصِيَةِ
٨٥٣ ـ وَنُصْحُهُمْ إِنْ أَخْطَأُوا، أَمَّا لَدَىٰ ... إِصَابَةٍ فَعَوْنُهُمْ وَالِاقْتِدَا
٨٥٤ ـ عَوْرَاتُهُمْ تُسْتَرُ، ثُمَّ لَا طَمَعْ ... فِي مَالِهِمْ وَعَوْنِهِمْ، وَلَا جَشَعْ
٨٥٥ ـ وَيَحْرُمُ الْخُرُوجُ مَا دَامُوا عَلَىٰ ... مِلَّةِ الِاسْلَامِ اعْتِقَاداً عَمَلَا
٨٥٦ ـ مُسْتَمْسِكِينَ بِالْكِتَابِ، يُصْبَرُ ... لَهُمْ وَإِن جَارُوا وَفِسْقاً أَظْهَرُوا
٨٥٧ ـ صُلِّيَ خَلْفَهُمْ، وَيُغْزَىٰ، وَيُحَجّ ... طَاعَتُهُمْ وَاجِبَةٌ بِلَا عِوَجْ
٨٥٨ ـ عَقْدُ الْإِمَامَةِ تَزُولُ إِن يُجَنّ ... أَوْ يَمُتَ، اوْ يَرْتَدَّ عن هَدْيِ السَّنَنْ
٨٥٩ ـ وَإِنْ خَلَا مَكَانٌ اوْ زَمَانُ ... عَنِ الْإِمَامِ الْحَقِّ فَالْأَعْيَانُ=

٨٦٠ ـ وَهُمْ أُولُو الْحَلِّ وَعَقْدٍ، نَظَرُوا   مَصْلَحَةَ الْأُمَّةِ، ثُمَّ دَبَّرُوا

٨٦١ ـ مُتَّبِعِينَ سُنَّةَ النَّبِيِّ   لَا يَتْرُكُونَ الْأَمْرَ لِلْغَوِيِّ

٨٦٢ ـ لَا تَسْقُطُ الْجُمْعَةُ وَالْجَمَاعَةُ   فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ، وَالْعِنَايَةُ=

٨٦٣ ـ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، نَهْيِ الْمُنكَرِ   كَذَاكَ تَحْرُمُ حُقُوقُ الْبَشَرِ

٨٦٤ ـ مُسْلِمٍ، اوْ ذِمِّيٍّ، أَوْ مُسْتَأْمِنِ   مُعَاهَدٍ حُقُوق كُلِّ أَمِنِ

٨٦٥ ـ مِن نَفْسٍ، أَوْ مَالٍ، وَعِرْضٍ مُطْلَقَا   إِلَّا بِحَقِّهَا بِشَرْعٍ يُنْتَقَىٰ

(وَوَاجِبٌ) بالكتاب، والسُّنَّة، وإجماع أهل السُّنَّة، وهو واجب كفائيّ، (نَصْبُ الإِمَامِ الأَعْظَمِ؛ لِكَي يَكُونَ حَامِياً)؛ أي: حافظاً وحارساً (لِلأُمَمِ) الإسلاميّة، والإمامة عقد بين الأمة والأئمة، موضوع لخلافة النبوّة في حراسة الدين، وسياسة الدنيا.

(وَنَصْبُهُ يَكُونُ بِالإِجْمَاعِ)؛ أي: إجماع الناس، (أَوْ) بـ(بَيْعَةِ)؛ أي: مبايعة (أَهْلِ الْعَقْدِ وَالْحَلِّ) وهم: الذين يثق بهم الناس لدينهم، وعلمهم، وأمانتهم، ونصحهم للأمة. (رَأَوْا)؛ يعني: أن هذه الأمور رآها العلماء طريقاً لنصب الإمام الأعظم، (كَذَاكَ) يكون نصبه أيضاً (بِالْعَهْدِ) من الإمام السابق قبله، كما فعل أبو بكر في عمر ﵄.

(وَمَن تَغَلَّبَا) بألف الإطلاق؛ أي: من صار غالباً على الناس بقوّته، (فَضَبَطَ الأُمُورَ)؛ أي: أمورَ الرَّعِيَّة (ضَبْطاً غَلَبَا) بألف الإطلاق؛ أي: ضَبْطاً قَوِيّاً حَتَّى استقامت أمور الرعيّة به، (قَدْ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ)؛ أي: طاعة ذلك المتغلّب، (إِذَا أَمَر) الناس (بِمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي الشَّرْعِ الأَغَرّ) صفة للشرع.

والمعنى: أن من تغلّب على الناس حتى اجتمعت عليه الكلمة

انعقدت إمامته، ووجبت طاعته في المعروف؛ لأن المقصود من نَصْب الأئمة ضَبْطُ أمور الرعيّة، وبَسْط العدل في الناس، وحِفظ أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم، فإذا حصل ذلك بهذا الْمُتَغَلِّب، فقد حصل المطلوب.

(ثُمَّ لِلُأمَّةِ) بنقل حركة الهمزة إلى اللام ودَرْجها؛ أي: ثم يَجب للأمة (عَلَى الأَئِمَّةِ) الْمَنصُوبِين (تَحْكِيمُهُمْ لِلشِّرْعَةِ اللَّازِمَةِ)؛ أي: الواجب اتِّبَاعها، وعليهم (حِيَاطَةُ الْعَقِيدَةِ السَّنِيَّه)؛ أي: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، (وَحِفْظُهُمْ لِلْوَحْدَةِ)؛ أي: وحدة كلمة المسلمين (الْمَرْضِيَّه، وَ)عليهم أيضاً (الأَمْرُ) بالمعروف (وَالنَّهْيُ) عن المنكر (كَذَا الْجِهَادُ)؛ أي: كذا عليهم إقامة الجهاد في سبيل الله ـ تعالى ـ (وَ)عليهم (كُلُّ مَا يُرَى) بالبناء للمفعول؛ أي: يُعلم (بِهِ الرَّشَادُ)؛ أي: الصَّلَاح للرَّعِيَّة.

(وَلِلأَئِمَّةِ حُقُوقٌ تُتَّبَع) بالبناء للمفعول؛ أي: يجب اتِّباعها، والعمل بها، وهي (السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ) لهم (حَيْثُمَا وَقَعْ)؛ أي: في أي حال وُجد، كما بيّنه **بقوله:** (فِي مَنشَطٍ وَمَكْرَهٍ)؛ أي: في حال نشاط الشخص وكراهته، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن عُبَادَة بن الصامت رضي الله عنه، قال: دَعَانا رسول الله ﷺ، فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بَايَعَنَا على السمع، والطاعة، في مَنشَطِنا، ومَكْرَهِنا، وعُسْرِنا، ويُسْرِنا، وأَثَرَة علينا، وأن لا نُنَازِع الأمرَ أهلَه، قال: «**إِلَّا أَن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً، عِندَكُم مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[1].

---

(١) «صحيح مسلم» ٣/ ١٤٧٠.

(فِي الطَّاعَةِ)؛ أي: السمع والطاعة لهم إنما يكون فيما إذا كان في طاعة الله ﷻ، (أَوْ مَا يُبَاحُ)؛ أي: أو في الأمور المباحة، فإذا أَمَر الأمير في الأشياء المباحة وجب طاعته فيها (لَا لَدَى الْمَعْصِيَةِ)؛ أي: لا تجوز طاعتهم في المعاصي، (وَنُصْحُهُمْ)؛ أي: يجب نُصْح الأئمة (إِنْ أَخْطَأُوا)؛ أي: إن وقعوا في الخطأ، (أَمَّا لَدَى إِصَابَةٍ)؛ أي: أما إذا أصابوا (فَـ)الواجب (عَوْنُهُمْ) على ذلك، (وَالِاقْتِدَا) بهم في ذلك.

(عَوْرَاتُهُمْ تُسْتَرُ)؛ أي: يجب سَتر عيوبهم، فلا يجوز نشرها بين الناس، (ثُمَّ لَا طَمَع فِي مَالِهِمْ وَعَوْنِهِمْ)؛ يعني: أنه لا ينبغي الطمع في أموالهم، وإعانتهم بها؛ لأن ذلك يُقَلِّل قيمة الشخص عندهم، فلا يقبلون نصيحته، ويَسْتَخِفُّون به.

(وَلَا جَشَع)؛ أي: لا ينبغي الحرص في ذلك، قال في «القاموس»: الجَشَعُ، محركةً: أشَدُّ الحِرْصِ، وأَسْوَأُهُ، أو أن تأخذ نصيبك، وتطمع في نصيب غيرك. وقد جَشِعَ؛ كَفرِحَ، فهو جَشِع. انتهى[1].

(وَيَحْرُمُ الْخُرُوجُ) على الأئمة (مَا دَامُوا)؛ أي: ما ثَبَتُوا (عَلَى مِلَّةِ الِاسْلَامِ اعْتِقَاداً) و(عَمَلَا)، حال كونهم (مُسْتَمْسِكِينَ بِالْكِتَابِ) والسُّنَّة، (يُصْبَرُ) بالبناء للمفعول، (لَهُمْ)؛ أي: يجب الصبر عليهم (وَإِن جَارُوا)؛ أي: ظلموا الناس، (وَفِسْقاً أَظْهَرُوا) لأن هذا لا يكون سبباً في الخروج عليهم، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»، عن أم

(١) «القاموس المحيط» ص٧٠٩.

سلمة رضي الله عنها؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «سَتَكُونُ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ، وَتُنكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنكَرَ سَلِمَ، وَلَكِن مَن رَضِيَ وَتَابَعَ»، قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «لَا، مَا صَلَّوْا»[1].

وأخرج أيضاً عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، قلت: يا رسول الله، إنا كنا بِشَرٍّ، فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: «نَعَمْ»، قلت: هل وراء ذلك الشَّرِّ خير؟ قال: «نَعَمْ»، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: «نَعَمْ»، قلت: كيف؟ قال: «يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنسٍ»، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أَدْرَكْتُ ذلك؟ قال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ، وَإِن ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[2].

(صُلِّيَ) بالبناء للمفعول في الأفعال الثلاثة، (خَلْفَهُمْ)؛ أي: يُصَلَّى خلف الأئمة اقتداء بهم، (وَيُغْزَى)؛ أي: في سبيل الله تحت رايتهم، (وَيُحَجّ) ويُعتَمَر تحت إمرتهم، (طَاعَتُهُمْ) في المعروف (وَاجِبَةٌ بِلَا عِوَج) بكسر العين، وفتحها، والواو مفتوحة فيهما، قال في «المصباح»: الْعَوَج - بفتحتين - في الأجساد: خلاف الاعتدال، وهو مصدر، من باب «تَعِب»، يقال: عَوِج العودُ ونحوه، فهو أَعْوَج، والأنثى عَوْجَاء، قال: والْعِوَج - بكسر العين - في المعاني، يقال: في الدين عِوَج، وفي الأمر عِوَج، وفي التنْزيل: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١]؛ أي: لم يَجْعَل فيه، قال أبو زيد في الفَرْق:

---

(١) «صحيح مسلم» ٣/ ١٤٨٠.
(٢) «صحيح مسلم» ٣/ ١٤٧٦.

وكل ما رأيته بعينك فهو مفتوحٌ، وما لم تره فهو مكسور، قال: وبعض العرب تقول: في الطريق عِوَج ـ بالكسر ـ. انتهى[1].

قال محمد: هنا يَحْتَمِل الكسر والفتح، على التشبيه، والمعنى: دون مَيْلٍ وانحِرَاف عنهم.

(عَقْدُ الإِمَامَةِ تَزُولُ)؛ أي: تبطل (إِن يُجَنّ) بالبناء للمفعول؛ أي: إذا صار مجنوناً؛ لأن المجنون لا يصلح أن يقوم بأمر الخلافة، (أَوْ يَمُت)؛ أي: وكذلك تبطل الإمامة إن مات الإمام، (اوْ) بوصل الهمزة، (يَرْتَدَّ عن هَدْيِ السَّنَن)؛ أي: عن ملّة الإسلام؛ لأن الكافر لا يصلح أن يتولى أمور المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

(وَإِنْ خَلَا مَكَانٌ اوْ) بوصل الهمزة، (زَمَان عَنِ الإِمَامِ الْحَقِّ)؛ أي: العادل، (فَالأَعْيَانُ) بالفتح، جمع: عَيْن، وهو: خيار الناس، (وَهُمْ أُولُو الْحَلِّ وَعَقْدٍ)؛ أي: أصحاب رَبْط الأمور وفكِّها، (نَظَرُوا مَصْلَحَةَ الأُمَّةِ)؛ أي: عليهم أن ينظروا في مصالح الرعيّة، (ثُمَّ دَبَّرُوا) أمر الإمامة، حال كونهم (مُتَّبِعِينَ سُنَّةَ النَّبِيِّ) ﷺ (لَا يَتْرُكُونَ الأَمْرَ)؛ أي: أمر الإمامة، (لِلْغَوِيِّ)؛ أي: للشخص الضَّالِّ من العَلْمَانِيين، والدِّيمُقراطيين، ونحوهم من أهل الأهواء، فإنَّ تَرْكَ الأمر لهم يُفْسِد الدين والدنيا جميعاً.

(لَا تَسْقُطُ الْجُمْعَةُ وَالْجَمَاعَةُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ)؛ أي: فيما إذا خلا المكان أو الزمان عن إمام الجماعة، (وَالْعِنَايَةُ)؛ أي: وكذا

(١) «المصباح المنير» ٢/ ٤٣٥.

لا تسقط العناية (بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ) و(نَهْيِ الْمُنْكَر)، بل يجب على الأمة العناية بهذه الأشياء حتى يتولّى من يقوم بها.

(كَذَاكَ تَحْرُمُ) في تلك الحال (حُقُوقُ الْبَشَرِ). **وقوله:** (مُسْلِمٍ) بالجر على البدليّة، (اوْ) بوصل الهمزة، (ذِمِّيٍّ اوْ) بوصل الهمزة أيضاً، (مُسْتَأْمِنٍ)؛ أي: الذي دخل بلاد المسلمين بأمان، و(مُعَاهِدٍ) بفتح الهاء، وكسرها، والمراد به: الذميّ، (حُقُوقَ كُلٍّ) مفعول مقدّم **لقوله:** (أَمِّنِ) أمْر من التأمين. **وقوله:** (مِن نَفْسٍ) بيان لـ«حقوق»، (اوْ) بوصل الهمزة، (مَالٍ، وَعِرْضٍ مُطْلَقَا)؛ أي: قليلها، أو كثيرها، (إِلَّا بِحَقِّهَا)؛ أي: بحقّ الأنفس والأموال التي تَجِب (بِشَرْعٍ)؛ أي: بما شرعه الله تعالى في كتابه، من القصاص، ونحوه. **وقوله:** (يُنتَقَى) بالبناء للمفعول، صفة لـ«شرع»؛ أي: مختار. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الْخَامِسُ

فِي بَيَانِ مَوْقِفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْـجَمَاعَةِ مِنَ الابْتِدَاعِ وَأَهْلِهِ

٨٦٦ - وَكُلُّ مَا أُحْدِثَ فِي الدِّينِ بِلَا ... أَصْلٍ فَبِدْعَةٌ، وَبِئْسَ عَمَلَا

٨٦٧ - وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلّ ... ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ يَصْلَىٰ وَيَحُلّ

٨٦٨ - وَالْأَصْلُ فِي الْعِبَادَةِ التَّوْقِيفُ ... مَن يَبْتَدِعْ لَهَا فَقَدْ يَحِيفُ

٨٦٩ - كُلُّ ذَرِيعَةٍ إِلَى ابْتِدَاعِ ... يَجِبُ سَدُّهَا بِلَا نِزَاعِ

٨٧٠ - فَمَصْدَرُ الْمَشْرُوعِ مِنْ أَعْمَالِ ... هُوَ: الْكِتَابُ، وَالرَّسُولُ الْعَالِي

٨٧١ - وَهُوَ أُسْوَةٌ لِهَٰذِي الْأُمَّهْ ... بِهِ اهْتَدَتْ وَزَالَ عَنْهَا الْغُمَّهْ

٨٧٢ - إِذَا تَصِحُّ سُنَّةٌ لَهُ فَلَا ... رَدَّ وَلَا اعْتِرَاضَ بَل لَهَا اقْبَلَا

٨٧٣ - هَٰذِي عَقِيدَةٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ... أَمَّا أُولُو الْهَوَىٰ وَأَهْلُ الْبِدْعَةِ=

٨٧٤ - يُجَادِلُونَ الْحَقَّ قَد تَبَيَّنَا ... لِنَصْرِ رَأْيِهِمْ ضَلَالٌ عَلَنَا

٨٧٥ - وَهُم مُعَادُونَ لِمَنْهَجِ السَّلَفْ ... يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ بِبَغْيٍ وَجَنَفْ

٨٧٦ - مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، وَلَهُ ... مُخَالِفُونَ عَطَّلُوا حُلَلَهُ

٨٧٧ - وَيَزْعُمُونَ لَا تَفِي النُّصُوصُ ... مَسَائِلَ الْإِيمَانِ، هُمْ لُصُوصُ

٨٧٨ - وَمِن ذَوِي الْبِدَعِ مَن قَدْ يَعْمَلُ ... بِالْكَشْفِ، وَالْمَنَامِ، بِئْسَ الْعَمَلُ

٨٧٩ - يَعْتَمِدُونَ وَاهِيَاتِ الْأَثَرِ ... وَيُعْرِضُونَ عَن صِحَاحِ الْخَبَرِ

٨٨٠ - قَد تَرَكُوا الْعَمَلَ بِالْآحَادِ ... وَقَدَّمُوا الْعَقْلَ لِلِاعْتِمَادِ

٨٨١ - وَخَارِجٌ عَن سُنَّةٍ شَمِلَهُ ... حُكْمُ ذَوِي الْوَعِيدِ، إِن شَا نَالَهُ=

٨٨٢ ـ عَذَابُ رَبِّهِ، وَقُلْ قَدْ يَغْفِرُهْ ... لِبَعْضِهِمْ؛ لِلْجَهْلِ، أَوْ مَا يَصْدُرُهْ=

٨٨٣ ـ مِن صَالِحِ الْأَعْمَالِ، أَوْ بِتَوْبَتِهْ ... أَوْ بِـمَـصَـائِـبَ لَـهُ كَـفَّـرَتِهْ

٨٨٤ ـ أَوْ بِشَفَاعَةٍ، وَنَحْوِ ذَٰلِكَا ... مِمَّا بِهِ مَحْوُ ذُنُوبٍ أَدْرَكَا

٨٨٥ ـ وَالْفِرَقُ الَّتِي عَنِ الْإِسْلَامِ قَدْ ... تَخْرُجُ حُكْمُهَا عُمُوماً اتَّحَدْ=

٨٨٦ ـ مَعَ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَحُكْمُهُمْ ... حُكْمُ مَنِ ارْتَدَّ، فَمَا أَبْعَدَهُمْ

٨٨٧ ـ كَالْبَاطِنِيَّةِ، كَذَاكَ الرَّافِضَهْ ... وَالْقَادِيَانِيَّةِ، كُلٌّ دَاحِضَهْ

٨٨٨ ـ وَكَالْبَهَائِيَّةِ أَهْلِ الظُّلْمِ ... وَنَحْوِهِم مِنْ كُلِّ أَهْلِ الْجُرْمِ

***

(وَكُلُّ مَا أُحْدِثَ) بالبناء للمفعول، **(فِي الدِّينِ بِلَا أَصْلٍ)** من الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، **(فَبِدْعَةٌ)**؛ أي: فهي بِدْعَة **(وَبِئْسَ عَمَلَا)** هو؛ لأن الِابْتِدَاع في الدين افْتِيَاتٌ على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ، واجْتِرَاء، وجريمة عظيمة في الدين. **(وَكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ)** أخرج أحمد في «مسنده» عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، قال: صَلَّى لنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم أَقْبَل علينا، فوَعَظَنا مَوْعِظَة بَلِيغة، ذَرَفَت لها الأَعْيُن، ووَجِلَتْ منها القلوب، قلنا، أو قالوا: يا رسول الله؛ كأن هذه مَوْعِظَة مُوَدِّع، فَأَوْصِنَا. قال: «**أُوصِيكُم بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِن كَانَ عَبْداً حَبَشِيّاً، فَإِنَّهُ مَن يَعِشْ مِنكُمْ يَرَى بَعْدِي اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[1]، حديث صحيح.

---

(١) «مسند أحمد» ٢٨/ ٣٧٣ ط. الرسالة.

وأخرج النَّسَائِيّ في «سُنَنِه» عن جابر رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول في خُطْبَتِه يَحْمَد الله، ويُثْنِي عليه بما هو له أهل، ثم يقول: «**مَن يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**...» الحديثَ، حديث صحيح.

وقوله: (يَصْلَى) جملة حَالِيَّة من «النار»؛ أي: حال كونه يحترق بالنار، **(وَيَحلّ)** بضم الحاء، وكسرها؛ أي: يَنْزل فيها.

(وَالأَصْلُ فِي الْعِبَادَةِ: التَّوْقِيفُ)؛ يعني: أن الأصل في العبادة أن تكون مأخوذة من الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١]. **(مَن يَبْتَدِعْ لَهَا)** اللام زائدة؛ أي: من ابْتَدَع العبادة بهواه دون تشريع من الله ـ سبحانه ـ **(فَقَدْ يَحِيفُ)**؛ أي: يَظْلِم، مِنْ: حَافَ، من باب «باع»، بمعنى: جَارَ وظَلَم.

(كُلُّ ذَرِيعَةٍ) بالذال المعجمة؛ أي: وَسِيلة **(إِلَى ابْتِدَاعٍ يَجِبُ سَدُّهَا)**؛ أي: سَدّ طريقها **(بِلَا نِزَاعٍ)**؛ أي: بلا خلاف بين أهل العلم، فإن كل ما كان وسيلة إلى الضلالة فله حكمها، فكما يجب مَنْع الضلالة، فكذا ما هو طريق إليها.

(فَمَصْدَرُ الْمَشْرُوعِ مِنْ أَعْمَالٍ، هُوَ: الْكِتَابُ) القرآن الكريم، **(وَالرَّسُولُ)**؛ أي: سُنَّته ﷺ، **(الْعَالِي)**؛ أي: الرفيع الرتبة عند الله ﷻ، **(وَهُوَ)** ﷺ **(أُسْوَةٌ)** بضم الهمزة، وكسرها؛ أي: قُدْوة **(لِهَدْيِ الأُمَّه)** المحمديّة، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].
(بِهِ)؛ أي: بسببه ﷺ (اهْتَدَت) الأمة إلى الصِّرَاط الْمُستقيم، (وَزَالَ عَنْهَا الْغُمَّه)؛ أي: الكُرْبَة الدنيوية والأخروية، ففي الدنيا نَصْر من الله وفتح قريب، وفي الآخرة جنات النعيم.

(إِذَا تَصِحُّ سُنَّةٌ لَهُ) ﷺ (فَلَا رَدَّ)؛ أي: فلا يجوز لأحد رَدُّها، (وَلَا اعْتِرَاضَ) عليها (بَلْ لَهَا اقْبَلَا) بالألف المبدَلة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: اقْبَلَنَّ السُّنَّة الصحيحة اعتقاداً، وعِلْماً، وعَمَلاً، (هَذِي) التي ذكرنا من وجوب قبول السُّنَّة الصحيحة، (عَقِيدَةٌ لأَهْلِ السُّنَّةِ) والجماعة.

(أَمَّا أُولُو الْهَوَى) الذين يَتَّبِعُون أهواءهم بغير هُدًى من الله تعالى، (وَأَهْلُ الْبِدْعَةِ يُجَادِلُونَ الْحَقَّ)؛ أي: يَدْفَعُونه، والحال أنه (قَدْ تَبَيَّنَا) بألف الإطلاق؛ أي: اتّضح دون لَبْسٍ واشْتِبَاه، (لِنَصْرِ رَأْيِهِمْ) متعلّق بـ«يجادلون»، (وهذا ضَلَالٌ عَلَنَا)؛ أي: ظاهراً، (وَهُم مُعَادُونَ لِمَنْهَجِ السَّلَف، يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ بِبَغْيٍ)؛ أي: ظُلْم (وَجَنَف) بالجيم؛ أي: الميل عن الحقّ، يقال: جَنِف، من باب «تَعِب»؛ أي: ظلم. (مُخْتَلِفُونَ) فيما بينهم (فِي الْكِتَابِ)؛ أي: في تأويله على رأيهم الباطل، (وَلَهُ مُخَالِفُونَ) فلا يتّبعونه، (عَطَّلُوا حُلَلَهُ) بالضمّ، جمع: حلّة، كناية عن زينته التي حلّاه الله تعالى بها، وهي وجوب الإيمان به، والعمل بما فيه، (وَيَزْعُمُونَ) زعماً باطلاً، (لَا تَفِي النُّصُوصُ مَسَائِلَ الإِيمَانِ)؛ يعني: أنهم يقولون: إن نُصُوص الكتاب لا تفي بمسائل الإيمان؛ فلا بدّ من اللجوء إلى العقل، بل هو الحاكم عليها في هذا الباب، فأولئك (هُمْ لُصُوصُ)؛ أي: قطّاع الطريق، يصدّون الناس عن سبيل الله ﷻ.

(وَمِن ذَوِي الْبِدَعِ مَن قَدْ يَعْمَلُ بِالْكَشْفِ)؛ أي: بما يكشف الله له من بعض الْمُغَيّبات، (وَالْمَنَامِ)؛ أي: بما يراه في نومه من الحُلم، (بِئْسَ الْعَمَلُ) هذا؛ لأن مصدر الشريعة هو الكتاب والسُّنَّة، لا الكشف والمنام، وهم (يَعْتَمِدُونَ)؛ أي: أهل البدع والأهواء، (وَاهِيَاتِ الأَثَرِ)؛ أي: على الآثار الضعيفة، (وَيُعْرِضُونَ عَن صِحَاحِ الْخَبَرِ)؛ أي: عن الأخبار الصحيحة، ولو أخرجها الشيخان في «صَحِيحَيْهِما»، و(قَد تَرَكُوا الْعَمَلَ بِالآحَادِ)؛ أي: بأخبار الآحاد، (وَقَدَّمُوا الْعَقْلَ) على: أخبار الآحاد، (لِلاعْتِمَادِ) عليه.

(وَخَارِجٌ عَن سُنَّةٍ)؛ أي: عن سُنَّة النبيِّ ﷺ؛ كالخَوَارِج، والشِّيعَة، والْمُعْتَزِلة، والْمُرْجِئة، وغيرهم، (شَمِلَهُ) بفتح الميم، وكسرها، (حُكْمُ ذَوِي)؛ أي: أهل (الْوَعِيدِ إِن شَا) الله تعالى، (نَالَهُ عَذَابُ رَبِّهِ، وَقُلْ: قَدْ يَغْفِرُ) الله ـ تعالى ـ (لِبَعْضِهِمْ لِلْجَهْلِ)؛ أي: لأجل جهلهم بحكم الله تعالى، (أَوْ) بسبب (مَا يَصْدُرُ) عنهم (مِن صَالِحِ الأَعْمَالِ، أَوْ بِتَوْبَة) صادقة تمحو الخطايا، (أَوْ بِـ)سبب (مَصَائِبَ لَهُ)؛ أي: لذلك الخارج، (كَفَّرَت)؛ أي: سَتَرَتْ سيئاته، (أَوْ بِـ)سبب (شَفَاعَةٍ) من النبيِّ ﷺ، (وَنَحْوِ ذَلِكَا) بألف الإطلاق، (مِمَّا بِهِ مَحْوَ ذُنُوبٍ) مفعول مقدّم لـ(أَدْرَكَا) بألف الإطلاق، وهو صلة «ما»؛ أي: مما أدرك به محو ذنوبه.

(وَالْفِرَقُ الَّتِي عَنِ الإِسْلَامِ قَدْ تَخْرُجُ)؛ أي: والفرق الخارجة عن الإسلام؛ كالبَاطِنِيَّة، والرَّافِضَة، والقَاديَانِيَّة، والبَهَائِيَّة، فإنهم كفار في الجملة، (حُكْمُهَا عُموماً اتَّحد مَعْ) حكم (الَّذِينَ كَفَرُوا فَحُكْمُهُمْ حُكْمُ مَنِ ارْتَدَّ) عن الإسلام. وقوله: (فَمَا أَبْعَدَهُمْ) عن الهدى والرشاد، تعجُّب من بُعدهم عن الصراط المستقيم. (كَالْبَاطِنِيَّةِ)

هي فرقة مُتَسَتِّرَةٌ بالتَّشَيُّع، وحبّ آل البيت، مع إبطان الكفر المحض، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها ترى أن لكلّ ظاهر باطناً، والظاهر هو ما جاء به محمد ﷺ، والباطن هو علم التأويل الذي لا يعرفه إلا هم، وهو لبّ الدعوة عندهم، ويرون أن الفرائض والسنن هي عبارات عن رموز وإشارات لا حقيقة لها.

(كَذَاكَ الرَّافِضَهْ) هم الذين يَبْرَؤُون من أصحاب محمد ﷺ، ويسبُّونهم، ويَنتَقِصُون ويُكَفِّرون الأئمة إلا أربعة: عليّ، وعمارٌ، والمقداد، وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء[1].

(وَالْقَادِيَانِيَّةِ) هي فرقة ضالّة، ونِحْلَة كافرة، خرجت في بلاد الهند في أوائل القرن الرابع عشر الهجريّ على يد رجل يُدعَى: مِرْزا غُلام أحمد القَاديَانِيّ، وهذه الفرقة تتستّر بالإسلام، وتهدف إلى خدمة الأهداف الِاسْتِعْمَارِيّة، والقضاء على المسلمين، وتفريق كلمتهم[2].

وقوله: (كُلٌّ دَاحِضَه)؛ أي: كل هذه الفرق داحضة؛ أي: باطلة؛ يعني: أن اعتقادهم باطل، يقال: دَحَضَت الحُجَّةُ دَحْضاً، من باب «نَفَع»: بَطَلت، وأدحضها الله في التعدّي، ودحض الرجل: زَلَقَ. قاله في «المصباح»[3].

(وَكَالْبَهَائِيَّةِ) فرقة تنتسب إلى دين مُخْتَرَع، أنشأه وأظهره حسين بن علي، الملقب بـ«البهاء»، الذي ادّعى النبوّة، وزعم أن شريعة الإسلام قد نُسِخَت بمبعثه. (أَهْلِ الظُّلْمِ، وَنَحْوِهِم مِن كُلِّ أَهْلِ الْجُرْمِ) بضمّ الجيم وسكون الراء؛ أي: الإثم.

---

(١) «السُّنَّة» للإمام أحمد، ص٨٢.

(٢) «رسائل في الفرق» للحمد ١/ ٢٠١.

(٣) «المصباح المنير» ١/ ١٩٠.

الْفَصْلُ السَّادِسُ

فِي بَيَانِ مُعَامَلَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لِأَهْلِ الْبِدَعِ

٨٨٩ - فَأَهْلُ سُنَّةٍ تَفَاوَتُوا لَدَىٰ مُعَامَلَاتِهِمْ لِمَن قَدِ اعْتَدَىٰ=

٨٩٠ - بِبِدَعٍ، فَتَارَةً قَدْ بَيَّنُوا وَبَذَلُوا النُّصْحَ لَهُ، وَأَعْلَنُوا

٨٩١ - وَتَارَةً دَارَوْهُمُ بِالأُلْفَةِ وَاللُّطْفِ وَالرِّفْقِ طَرِيقِ الْحِكْمَةِ

٨٩٢ - وَتَارَةً بِالْهَجْرِ وَالْمُقَاطَعَهْ وَبِالْمُجَافَاةِ بِلَا مُصَانَعَهْ

٨٩٣ - وَكُلُّ ذَا يُبْنَىٰ عَلَىٰ تَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الْبِدَعِ فِي التَّهَافُتِ

٨٩٤ - وَبِاخْتِلَافِ حَالِ أَهْلِهَا كَذَا وَفْقَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ يُحْتَذَىٰ

٨٩٥ - وَفِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَخْتَلِفْ وَكُلُّهَا حَسْبَ السِّيَاسَةِ عُرِفْ

٨٩٦ - فَأَوَّلُ الأَمْرِ لِمَن قَدْ خَالَفَا يُدْعَىٰ بِحِكْمَةٍ وَلُطْفٍ لَا جَفَا

٨٩٧ - يُقْبَلُ حَقُّهُ يُرَدُّ الْبَاطِلُ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ هَٰذَا الْكَامِلُ

٨٩٨ - مِمَّن لَهُ فَهْمٌ وَذَوْقٌ فِي السُّنَنْ وَعِلْمُ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُؤْتَمَنْ

٨٩٩ - أَمَّا الْمُقَصِّرُ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُنَاظِرَ الضُّلَّالَ كَيْ لَا يُفْتَتَنْ

٩٠٠ - إِذْ شُبُهَاتُهُمْ قَوِيَّةٌ؛ فَلَا يُؤْمَنُ خَدْعُهُمْ لَهُ، فَيُخْذَلَا

٩٠١ - وَالأَوَّلُ الَّذِي لَهُ الْمُنَاظَرَهْ عَلَيْهِ أَن يَعْرِفَ مَن قَدْ نَاظَرَهْ=

٩٠٢ - مَذْهَبَهُ، وَقَوْلَهُ، أَدِلَّتَهْ وَكُتْبَهُ؛ حَتَّىٰ يُبِينَ ذِلَّتَهْ

٩٠٣ - يَحْذَرُ عَن نِقَاشِ أَهْلِ السَّفْسَطَهْ لِكَوْنِهِ يُوقِعُهُ فِي الْمَغْلَطَهْ

٩٠٤ - مُحَرِّراً مَوَاطِنَ الْخِلَافِ مُحِيطَ مَا رَدَّ أُولُو الْخِلَافِ=

٩٠٥ ـ بَعْضٌ عَلَى الآخَرِ، ثُمَّ أَوَّلَا تَعَارُضَ الْبَاطِلِ نَفْسِهِ جَلَا

٩٠٦ ـ كَذَا تَنَاقُضُهُ فِي أَدِلَّتِهْ فَسَادُ مَا يَلْزَمُهُ فِي عِلَّتِهْ

٩٠٧ ـ مُحَرِّراً أَلْفَاظَهُ مُرَاعِيَا سِيَاقَهُ سَبْقاً وَلَحْقاً وَاعِيَا

٩٠٨ ـ وَجَامِعاً بَيْنَ الَّذِي تَمَاثَلَا مُفَرِّقاً بَيْنَ الَّذِي تَنَاضَلَا

٩٠٩ ـ وَيَسْتَدِلُّ بِالْأَدِلَّةِ الَّتِي اتَّفَقُوا لَهَا بِدُونَ فُرْقَةِ

٩١٠ ـ وَاسْتَفْصِلَنْ إِنْ أَجْمَلُوا، تَوَقَّفَا إِنْ أَبْهَمُوا لَكَ لِئَلَّا تُجْرَفَا

٩١١ ـ وَلْتَعْلَمَنْ أَنَّ اصْطِلَاحاً حَادِثَا تَغْيِيرَ شَرْعِ اللَّهِ لَيْسَ مُحْدِثَا

٩١٢ ـ وَسَوَّغُوا لِحَاجَةٍ مُخَاطَبَهْ أَهْلِ اصْطِلَاحٍ بِاصْطِلَاحٍ غَلَبَهْ=

٩١٣ ـ إِقَامَةً لِحُجَّةٍ بِجِنْسِ مَا الْتَزَمُوا مِنْ حُجَجٍ لَهُم نَمَىٰ

٩١٤ ـ وَلْتُعْرِضَنْ عَنِ الَّذِي قَدْ سَكَتَا عَنْهُ النَّبِيْ فَحَقُّهُ أَن تَسْكُتَا

٩١٥ ـ وَعِنْدَمَا تَظُنُّ أَن لَا تَنْفَعُ مُنَاقَشَاتُهُمْ فَأَعْرِضْ تُرْفَعُ

٩١٦ ـ فَقَدْ نَهَى السَّلَفُ عَنْهُ، وَاهْجُرَا وَلَا تُجَالِسْهُم، بَلِ ابْعُدْ وَاحْذَرَا

٩١٧ ـ إِذْ لَمْ تَكُن تَحَقَّقَتْ مَصْلَحَةٌ أَوْ قَد تَرَتَّبَتْ بِهِ الْمَضَرَّةُ

٩١٨ ـ ذَا مَحْمِلٌ لِمَا أَتَىٰ عَنِ السَّلَفْ مِن نَهْيِهِمْ جِلَاسَ مَن قَدِ انْحَرَفْ

٩١٩ ـ مِنْ أَهْلِ الاهْوَاءِ وَمِنْ أَهْلِ الْبِدَعْ فَاخْشَ الدَّسَائِسَ فَهُمْ أَهْلُ خُدَعْ

٩٢٠ ـ عَلَىٰ وَلِيِّ الْأَمْرِ كَفُّ شَرِّهِمْ عَنْ أَهْلِ سُنَّةِ الْهُدَىٰ وَضَرِّهِمْ

٩٢١ ـ خُلَاصَةُ الْأَمْرِ: فَأَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ قِبْلَةِ الْهُدَى الْمُتَّبَعِ

٩٢٢ ـ هَـٰذَا إِذَا لَمْ يَخْرُجُوا بِالْبِدْعَةِ عَن دِينِنَا الْحَقِّ لِدِينِ الْفِرْيَةِ

٩٢٣ ـ بِحُجَّةٍ لَاحَتْ وَبُرْهَانٍ وَضَحْ إِذْ مِنْهُمْ مَن كُفْرُهُ قَدِ اتَّضَحْ

٩٢٤ ـ وَمِنْهُمُ الْفَاسِقُ؛ فَالْحُكْمُ اخْتَلَفْ بِحَسَبِ الْجُرْمِ وَنَوْعِ مَا اقْتَرَفْ

٩٢٥ ـ يُدْعَىٰ لِكُلِّهِم بِرُشْدٍ وَهُدَىٰ عَلَيْهِمُ، يُدْعَىٰ بِضِيقٍ وَرَدَىٰ

٩٢٦ ـ أَعْنِي: عَلَىٰ جُمْلَتِهِمْ، أَمَّا الَّذِي عُيِّنَ فِيهِ الْخُلْفُ تَفْصِيلاً خُذِهِ

٩٢٧ ـ مِنْ هَدْيِ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ صَلَاتُهُمْ وَرَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ

٩٢٨ ـ إن لَمْ يُجَاهِرُوا بِبِدْعَةٍ، وَلَا يَدْعُونَ غَيْرَهُمْ، وَإِلَّا حُظِلَا

٩٢٩ ـ كَذَا عَلَيْهِمُ يُصَلُّونَ، وَقَدْ يَتْرُكُ أَهْلُ الْفَضْلِ زَجْراً، فَلْتُفَدْ

٩٣٠ ـ وَمَن بِبِدْعَتِهِ كُفْرُهُ حَصَلْ لَا خَلْفَهُ، وَلَا عَلَيْهِ لَا تُصَلّ

٩٣١ ـ وَالْأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِ قُلْ سَلَامَهْ لَا يَنبَغِي الْبَحْثُ عَنِ الْمَلَامَهْ

٩٣٢ ـ لَا يَسْأَلُ الْمَأْمُومُ عَنْ إِمَامِهِ إن كَانَ مَسْتُوراً لَدَى ائْتِمَامِهِ

٩٣٣ ـ شَهَادَةُ الدَّاعِي إِلَى الْبِدَعِ لَا تُقْبَلُ إِنكَاراً وَرَدْعاً فَاحْظُلَا

٩٣٤ ـ وَبَعْضُهُمْ قَبِلَهَا، وَرَجَّحَا إن لَمْ يَكُن يَدْعُو ـ الْقَبُولَ، وَانصَحَا

٩٣٥ ـ أَمَّا تَلَقِّي الْعِلْمِ فَالْأَصْلُ مُنِعْ دَرْءاً، وَأَن يَكُونَ قَدْرُهُ وُضِعْ

٩٣٦ ـ إِنْ حَصَلَتْ ضَرُورَةٌ لَا تَندَفِعْ إِلَّا بِهِ، فَخُذْ بِحِذْرٍ وَانتَفِعْ

٩٣٧ ـ وَيُسْتَعَانُ بِهِمُ، فِي الْغَزْوِ إِنْ دَعَتْ ضَرُورَةٌ، وَذَا بِشَرْطِ أَنْ=

٩٣٨ ـ يُحَسِّنُوا الرَّأْيَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ مَعَ ائْتِمَانِهِمْ لِكُلِّ وِجْهَةِ

٩٣٩ ـ أَوْ لَا فَلَا، وَفِي التَّوَارِيخِ الَّتِي مَضَتْ شَوَاهِدُ لِذَا فَاسْتَثْبِتِ

***

(فَأَهْلُ سُنَّةٍ تَفَاوَتُوا لَدَى مُعَامَلَاتِهِمْ لِمَن قَدِ اعْتَدَى)؛ أي: تجاوز الحدّ **(بِبِدَعٍ)**؛ أي: بسبب إِحْدَاث بِدَع، **(فَتَارَةً قَدْ بَيَّنُوا)** للمبتدع الحقَّ، **(وَبَذَلُوا النُّصْحَ لَهُ، وَأَعْلَنُوا)** بذلك، **(وَتَارَةً دَارَوْهُمُ)**؛ أي: دَارَوْا أهل البدع **(بِالأُلْفَةِ)** بضم الهمزة وسكون اللام؛ أي: بِالْمُؤَانَسَة **(وَاللُّطْفِ وَالرِّفْقِ)** وهذه هي **(طَرِيق الْحِكْمَةِ)**

التي أمر الله تعالى الداعي أن يتحلى بها، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

(وَتَارَةً بِالْهَجْرِ)؛ أي: هَجْر المبتدعة (وَالْمُقَاطَعَه)؛ أي: ومقاطعتهم، (وَبِالْمُجَافَاةِ)؛ أي: البعد عنهم (بِلَا مُصَانَعَه)؛ أي: بدون مُجَاملة، وأصل المصانعة ـ كما في «المصباح» ـ: هي الرشوة. (وَكُلُّ ذَا)؛ أي: كل ما ذكرناه، (يُبْنَى) بالبناء للمفعول، (عَلَى تَفَاوُتِ مَرَاتِبِ الْبِدَعِ فِي التَّهَافُتِ)؛ أي: في الشدة والبعد عن الحقّ، وأصل التهافت: هو التساقط. (وَ)يكون أيضاً (بِاخْتِلَافِ حَالِ أَهْلِهَا) في قوتهم وضَعفهم في اتباع البدع. **وقوله:** (كَذَا وَفْقَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ) مؤكد لمعنى ما قبله. **وقوله:** (يُحْتَذَى) بالبناء للمفعول صفة لِمَا قبله، (وَفِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَخْتَلِف، وَكُلُّهَا حَسْبَ السِّيَاسَةِ)؛ أي: المصالح التي يراها الداعي، يقال: ساس الأمرَ يَسُوسُه سِيَاسَةً: إذا دَبَّره وقام بأمره، (عُرِف) بالبناء للمفعول.

(فَأَوَّلُ الأَمْرِ) في توجيه الدعوة (لِمَن قَدْ خَالَفَا) الحقّ، (يُدْعَى) بالبناء للمفعول، (بِحِكْمَةٍ، وَلُطْفٍ، لَا) بـ(جَفَا) وعُنفٍ، (يُقْبَلُ) بالبناء للمفعول، (حَقُّهُ) و(يُرَدُّ الْبَاطِلُ)؛ أي: باطله، (وَإِنَّمَا يَفْعَلُ هَذَا) الذي ذكرناه من الدعوة بالأسلوب المذكور. **وقوله:** (الْكَامِلُ) في العلم والعمل، وهو مرفوع على الفاعليّة، (مِمَّن لَهُ فَهْمٌ وَذَوْقٌ فِي السُّنَن) النبويّة، (وَعِلْمُ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُؤْتَمَن) على الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

(أَمَّا الْمُقَصِّرُ) في علم الكتاب والسُّنَّة (فَلَيسَ لَهُ أَن يُنَاظِرَ الضُّلَّالَ) جمع: ضَالٌّ، (كَيْ لَا يُفْتَتَن) بالبناء للمفعول؛ أي: لئلا تصيبه فِتَنُهم،

(إِذْ شُبُهَاتُهُمْ)؛ أي: لأن شُبُهَات هؤلاء الضُّلَّال (قَوِيَّةٌ) لا يستطيع الْمُقَصِّرُ دَفْعَها، (فَلَا يُؤْمَنُ خَدْعُهُمْ لَهُ) بإِدْخَال الشُّبْهَة عليه (فَيُخْذَلَا) بألف الإطلاق؛ أي: فيصير بلك مخذولاً؛ أي: غير منصور.

(وَالأَوَّلُ الَّذِي لَهُ الْمُنَاظَرَه) وهو الذي كَمُلَ في العلم والفهم، (عَلَيْهِ أَن يَعْرِفَ مَن قَدْ نَاظَرَه)؛ أي: أمور الشخص الذي وقع بينه وبينه مناظرة. **وقوله:** (مَذْهَبُهُ) بدل من «مَن» بدل اشتمال، (وَ)أن يعرف (قَوْلَهُ) و(أَدِلَّتَهْ، وَكُتْبَهُ) التي يعتمد عليها، (حَتَّى يُبِينَ) من الإبانة، (ذِلَّتَه)؛ أي: يُظْهِرَ للناس كونه ذليلاً لا يهتدي إلى الحقّ، (يَحْذَرُ عَن نِقَاشِ أَهْلِ السَّفْسَطَه) قال في «التعريفات»: السَّفْسَطَةُ: قِيَاسٌ مُرَكَّبٌ من الوَهْمِيَّاتِ، والغرض منه تَغْلِيطُ الخَصْم وإسكاته؛ كقولنا: الجَوْهَر موجود في الذِّهْن، وكل موجود في الذهن قائم بالذهن عرض؛ لينتج أن الجوهر عرض. انتهى[1].

(لِكَوْنِهِ)؛ أي: لكون مناقشتهم (يُوقِعُهُ فِي الْمَغْلَطَه)؛ أي: الغلط وخلاف الصواب، ثم مما يتعيّن عليه أن يكون (مُحَرِّراً مَوَاطِنَ الْخِلَافِ) بينه وبين أهل الأهواء، (مُحِيطَ مَا رَدَّ أُولُو الْخِلَافِ)[2]؛ أي: الاختلاف، (بَعْضٌ عَلَى الآخَرِ)؛ يعني: أنه ينبغي له أن يعلم ردود أهل البدع بعضهم على بعض، (ثُمَّ أَوَّلَا تَعَارُضَ الْبَاطِلِ) مفعول مقدّم لـ«جلا»، (نَفْسِهِ) بالجر، توكيد لـ«الباطل»، (جَلَا)؛ أي: كشف وأظهر، (كَذَا تَنَاقُضُهُ)؛ أي: تناقض الباطل (فِي أَدِلَّتِه)، وكذا (فَسَادُ مَا يَلْزَمُهُ فِي عِلَّتِه، مُحَرِّراً أَلْفَاظَهَا)؛ أي: ألفاظ تلك الأدلة، حال

(١) «التعريفات» للجرجاني، ص١١٨ ـ ١١٩.

(٢) الخلاف الأول هو الخلاف الذي بينه وبينهم، والثاني الاختلاف فيما بينهم، فتنبه.

كونه **(مُرَاعِيَا)**؛ أي: مُحَافِظاً، **(سِيَاقَهَا)**؛ أي: سِيَاق تلك الأدلة، ومُرَاعياً أيضاً **(سَبْقاً وَلَحْقاً)**؛ أي: سِبَاق الأدلة، ولِحَاقها، **(وَاعِيَا)**؛ أي: حافظاً جميع ذلك، **(وَجَامِعاً بَيْنَ الَّذِي تَمَاثَلَا)**؛ يعني: أنه ينبغي له أن يجمع المتماثلات، حال كونه **(مُفَرِّقاً بَيْنَ الَّذِي تَنَاضَلَا)**؛ أي: تخالَف. **(وَيَسْتَدِلُّ بِالأَدِلَّةِ الَّتِي اتَّفَقُوا لَهَا)**؛ أي: عليها؛ يعني: أن مما يتعيّن عليه أن يستدل بالأدلّة المتّفق على حُجِّيَّتِها بينه وبينهم، **(بِدُونَ فُرْقَةِ)**؛ أي: دون تفرّق، **(وَاسْتَفْصِلَن إِنْ أَجْمَلُوا)**؛ يعني: يتعيّن عليك أيضاً أن تَسْتَفْصِلَهم إذا أوردوا عليك كلاماً مجملاً، **(تَوَقَّفَا)** بالألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة، **(إِنْ أَبْهَمُوا لَكَ)**؛ يعني: أن عليك أن تتوقف إذا أوردوا عليك كلاماً مبهماً، **(لِئَلَّا تُجْرَفَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: لئلا تُسَاق فتقع في شَبَكَتِهم. **(وَلْتَعْلَمَنْ أَنَّ اصْطِلَاحاً حَادِثًا)** مما أَحْدَثَه المبتدعون، **(تَغْيِيرَ[1] شَرْعِ اللهِ)** بنصب «تغييرَ» مفعولاً مقدّما لـ«محدثا»، **(لَيْسَ مُحْدِثَا)**؛ يعني: أن الاصطلاحات الحادثة التي أحدثها المبتدعون لا تُغَيِّرُ من الحقائق الشرعيّة شيئاً. **(وَسَوَّغُوا)**؛ أي: أهل السُّنَّة، **(لِحَاجَةٍ مُخَاطَبَه أَهْلِ اصْطِلَاحٍ بِاصْطِلَاحٍ غَلَبَه)** صفة لـ«اصطلاح»، **(إِقَامَةً)**؛ أي: لأجل إقامة، **(لِحُجَّةٍ بِجِنسِ مَا الْتَزَمُوا مِنْ حُجَجٍ لَهُم نَمَى)**؛ أي: انتسب إليهم.

والمعنى: أن أهل السُّنَّة جوّزوا عند الحاجة مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم الخاصّ؛ إقامةً للحجة عليهم بجنس ما الْتَزَمُوه من الحُجَج.

---

(١) مفعول مقدّم لـ«محدثاً»، وهو جائز عند بعض النحاة، فقد أعربوا قوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨] بأن ﴿يَوْمَ﴾ مفعول مقدّم لـ ﴿مَصْرُوفًا﴾ فتنبّه.

(وَلْتُعْرِضَنْ عَن) بحث الأمر **(الَّذِي قَدْ سَكَتَا)** بألف الإطلاق، **(عَنْهُ النَّبِيْ)** ﷺ، **(فَحَقُّهُ أَن تَسْكُتَا)** بألف الإطلاق أيضاً، مبنيّاً للمفعول؛ يعني: أن ما سكت الله تعالى عنه ورسوله ﷺ فلم يتكلما فيه، فحقه السكوت عنه، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَن كَانَ قَبْلَكُم بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُم بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَن شَيْءٍ فَدَعُوهُ**»[1].

وأخرج الدَّارَقُطْنِيّ وغيره عن أبي ثعلبة الخشنيّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ ـ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ ـ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا**»[2]. حَسَّنَهُ النَّوَوِيُّ وغيره، وأَعَلَّهُ بعضهم بالانقطاع.

(وَعِنْدَمَا تَظُنُّ أَن) مخفّفة من الثقيلة؛ أي: أنه **(لَا تَنفَعُ مُنَاقَشَاتُهُمْ)** لِشِدَّةِ عنادهم، **(فَأَعْرِضْ)** عن مناقشتهم؛ إذ لا فائدة وراءه. **وقوله: (تُرْفَعُ)**؛ أي: يرتفع قَدْرُك بذلك، **(فَقَدْ نَهَى السَّلَفُ عَنْهُ، وَاهْجُرَا)** بالألف المبدلة من نون التوكيد؛ أي: اتْرُكَنَّ الْمُنَاقَشَةَ **(وَلَا تُجَالِسْهُمْ، بَلِ ابْعُدْ وَاحْذَرَا)** عن المجالسة، **(إِذْ لَمْ تَكُن تَحَقَّقَتْ مَصْلَحَةٌ)** في مجالستهم، بأن تدعوهم إلى الحقّ، **(أَوْ قَد تَرَتَّبَتْ بِهِ الْمَضَرَّةُ)** بأن كانوا ذوي سلطان يؤذونك في ترك مجالستهم وهجرهم، وهـ**(ذَا مَحْمِلٌ لِمَا أَتَى عَنِ السَّلَفِ، مِن نَهْيِهِمْ جِلَاسَ)**

---

(١) «صحيح مسلم» ٢/ ٩٧٥.
(٢) «سنن الدارقطنيّ» ٥/ ٣٢٦.

بكسر الجيم، مصدر: جَالَس، (مَن قَدِ انْحَرَف)؛ أي: مَالَ عن السُّنَّة (مِنْ أَهْلِ الاَهْوَاءِ) بنقل حركة الهمزة ودَرْجها، (وَمِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، فَاخْشَ الدَّسَائِسَ)؛ أي: الشُّرُور التي يُخْفُونها، (فَهُمْ أَهْلُ خُدَعْ) بضم ففتح، جمع: خُدْعة.

(عَلَى وَلِيِّ الأَمْرِ كَفُّ شَرِّهِمْ)؛ أي: شرّ البدع والأهواء، (عَنْ أَهْلِ سُنَّةِ الْهُدَى وَضُرِّهِمْ) بضمّ الضاد، وفتحها، عطف تفسير.

(خُلَاصَةُ الأَمْرِ: فَأَهْلُ الْبِدَعِ) أنهم (مِن) جملة (أَهْلِ قِبْلَةِ الْهُدَى الْمُتَّبَعِ، هَذَا إِذَا لَمْ يَخْرُجُوا بِالْبِدْعَةِ)؛ أي: بسبب بدعتهم، (عَن دِينِنَا الْحَقِّ)؛ أي: عن دين الإسلام، (لِدِينِ الْفِرْيَةِ) بالكسر؛ أي: إلى دين الكَذِب، (بِحُجَّةٍ) متعلّق بـ«يخرجوا»، (لَاحَتْ)؛ أي: ظَهَرَتْ تلك الحجة، (وَبُرْهَانٍ وَضَح)؛ أي: وبدليل واضح، (إِذْ مِنْهُمُ مَن كُفْرُهُ) بسبب بِدْعَتِه (قَدِ اتَّضَح)؛ أي: ظهر، (وَمِنْهُمُ الْفَاسِقُ) ببدعته، ولا يُكَفَّر بها، (فَالْحُكْمُ) على أهل البدع (اخْتَلَفْ بِحَسَبِ الْجُرْمِ)؛ أي: بحسب نوع البِدَع التي ارتكبوها، فإنها قد تكون بدعة مُكَفِّرة، وقد تكون مُفَسِّقة، فلِكُلٍّ أحكامه الخاصّة به.

وقوله: (وَنَوْعِ مَا اقْتَرَف) تأكيد لِمَا قبله؛ أي: اكتسبه من الإثم.

(يُدْعَى) بالبناء للمفعول، (لِكُلِّهِمْ)؛ أي: لجميع أهل البدع، (بِرُشْدٍ)؛ أي: صَلَاح (وَهُدَى)؛ أي: هداية إلى الحقّ؛ يعني: أنه يدعى لأهل البدع بالصلاح والهداية.

(عَلَيْهِمُ يُدْعَى بِضِيقٍ)؛ أي: ضيق معيشتهم، (وَرَدَى)؛ أي: بهلاك، (أَعْنِي عَلَى جُمْلَتِهِمْ)؛ يعني: أنه كما يُدعى لجملتهم بالهداية يُدعى على جملتهم بالهلاك.

(أَمَّا الَّذِي عُيِّنَ)؛ أي: أما الدعاء على شخص مُعَيَّن مِنْهُم فـ(فِيهِ الْخُلْفُ)؛ أي: اختلاف العلماء، (تَفْصِيلاً خُذِ)؛ أي: خذ تفصيلاً في ذلك.

(مِنْ هَدْيِ أَهْلِ السُّنَّةِ السَّنِيَّةِ صَلَاتُهُمْ وَرَاءَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ)؛ يعني: أن من هدي أهل السُّنَّة والجماعة أنهم يصلّون وراء أهل القبلة مطلقاً، سواء كانوا سُنِّيِّين أو مُبْتَدِعين، (إِن لَمْ يُجَاهِرُوا بِبِدْعَةٍ)؛ أي: لم يُظْهِرُوها بين الناس، (وَلَا يَدْعُونَ) إليها (غَيْرَهُمْ، وَإِلَّا)؛ أي: وإن لم يكونوا كذلك، بأن جاهروا، أو دَعَوْا إلى بدعتهم، (حُظِلَا) بألف الإطلاق؛ أي: مُنِعَ أن يُصَلَّى خلفهم. (كَذَا عَلَيْهِمْ يُصَلُّونَ) إذا ماتوا، (وَقَدْ يَتْرُكُ) الصلاة عليهم (أَهْلُ الْفَضْلِ) من العلماء والصالحين، (زَجْراً) لهم، وعِظَة لغيرهم، (فَلْتُفَدْ) بالبناء للمفعول؛ أي: فلتأخذ هذه الفائدة.

(وَمَن بِبِدْعَتِهِ كُفْرُهُ حَصَل لَا خَلْفَهُ) إماماً، (وَلَا عَلَيْهِ) إذا مات، (لَا تُصَلِّ)؛ يعني: أنه لا تصحّ الصلاة مقتدياً بهم، ولا تصحّ الصلاة عليهم إذا ماتوا؛ لكفرهم ببدعتهم.

(وَالأَصْلُ فِي الْمُسْلِمِ قُلْ: سَلَامَه) من الكفر فـ(لَا يَنبَغِي الْبَحْثُ عَنِ الْمَلَامَه)؛ أي: عن العيب، والمراد: الْمُكَفِّرَات أو الْمُفَسِّقَات، (لَا يَسْأَلُ الْمَأْمُومُ عَنْ إِمَامِهِ)؛ أي: لا ينبغي أن يبحث المأموم عن حال إمامه (إِن كَانَ مَسْتُوراً) لا يظهر عليه ما ينافي الإسلام (لَدَى ائْتِمَامِهِ)؛ أي: عند الاقتداء به.

(شَهَادَةُ الدَّاعِي إِلَى الْبِدَعِ لَا تُقْبَلُ) بالبناء للمفعول؛ أي: تُرَدّ شهادته (إِنكَاراً) عليه (وَرَدْعاً)؛ أي: زَجْراً له، (فَاحْظُلَا) بالألف

المبدلة من نون التوكيد؛ أي: امْنَعَنَّ قَبُول شهادته، (وَبَعْضُهُمْ قَبِلَهَا)؛ أي: شهادة الداعي إلى البدع، (وَرَجِّحَا) فعلُ أمْر من الترجيح، والألف مُبْدَلة من نون التوكيد، (إِن لَمْ يَكُنْ يَدْعُو) إلى بدعته. **وقوله:** (الْقَبُولَ) مفعول به لـ«رجحا»؛ أي: رجح قبول شهادته بشرط أن لا يدعو إلى بدعته، (وَانصَحَا) فإنَّ هذا من النصيحة، و«الدِّينُ النَّصِيحَةُ».

(أَمَّا تَلَقِّي الْعِلْمِ) من أهل البدع (فَالأَصْلُ مُنِع) منه (دَرْءاً)؛ أي: دَفْعاً لِشَرِّه، (وَ)لِـ(أَن يَكُونَ قَدْرُهُ)؛ أي: قَدْر ذلك المبتدع، (وُضِع)؛ أي: مَوْضُوعاً وذَلِيلاً بين الناس، لكن (إِنْ حَصَلَتْ ضَرُورَةٌ)؛ أي: اضْطِرَار إلى تلقي العلم عنه، (لَا تَندَفِع) تلك الضرورة (إِلَّا بِهِ)؛ أي: بذلك البِدْعِيِّ، (فَخُذْ) العلم منه (بِحِذْرٍ) بكسر الحاء الْمُهْمَلة وسكون الذال الْمُعْجَمة، لغة في الحَذَر ـ بفتحتين ـ؛ أي: مع حَذَرك من غَائِلَتِه، (وَانتَفِعْ) بما تَلَقَّيْتَهُ منه من العلوم.

(وَيُسْتَعَانُ بِهِمُ)؛ أي: بأهل البدع (فِي الْغَزْوِ)؛ أي: في الجهاد في سبيل الله تعالى، (إِن دَعَتْ ضَرُورَةٌ)؛ أي: إن اضْطُرَّ أهل السُّنَّة إلى الاستعانة بهم، (وَذَا)؛ أي: جَوِّز الاستعانة بهم (بِشَرْطِ أَن يُحَسِّنُوا) بتشديد السين، من: التحسين، (الرَّأْيَ بِأَهْلِ السُّنَّةِ)؛ أي: بأن يكونوا مصالحين لهم، (مَعَ ائْتِمَانِهِمْ)؛ أي: مع كونهم مُؤْتَمَنِين، (لِكُلِّ وِجْهَةِ)؛ أي: في كل وِجْهَةٍ توجّهوا إليه، (أَوْ لَا) يكونون محسنين الرأي فيهم، ومؤتمنين (فَلَا) تجوز الاستعانة بهم، (وَفِي التَّوَارِيخِ الَّتِي مَضَتْ شَوَاهِدُ لِذَا) من أنهم يَخُونُونَ أهلَ السُّنَّة، ويَمْكُرُون بهم، (فَاسْتَثْبِت) ذلك بقراءة كتب التواريخ. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ السَّابِعُ

فِي بَيَانِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللّهِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنكَرِ

٩٤٠ ـ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالْجِهَادِ ... مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ لِلْعِبَادِ

٩٤١ ـ مُهِمَّةُ الرُّسْلِ وَالَانبِيَاءِ ... وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لِلَاصْفِيَاءِ

٩٤٢ ـ قَدْ بَذَلُوا النَّفِيسَ وَالنَّفْسَ كَذَا ... بِالْغَالِ وَالرَّخِيصِ جَادُوا، حَبَّذَا

٩٤٣ ـ هَدَفُهُم بِذَا هِدَايَةُ الْوَرَىٰ ... لِطَاعَةِ الْمَوْلَىٰ، وَنِعْمَ مَتْجَرَا

٩٤٤ ـ تَخْلِيصُهُمْ أَن يَعْبُدُوا الْعِبَادَا ... عُتُوّاً، اوْ بِجَهْلٍ، أَوْ عِنَادَا

٩٤٥ ـ وَبَسْطُ سُلْطَانِ الْهُدَىٰ وَالْعَدْلِ ... عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْفُضْلِ

٩٤٦ ـ دَعْوَتُهُمْ قَامَتْ عَلَىٰ أَصْلٍ ثَبَتْ ... كِتَابِ رَبِّنَا، وَسُنَّةٍ مَضَتْ=

٩٤٧ ـ عَنِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَىٰ، وَأَثَرِ ... أَصْحَابِهِ الْغُرَرِ عَالِي السِّيَرِ

٩٤٨ ـ وَكُلُّ مَا أُنكِرَ شَرْعاً يَلْزَمُ ... إِنكَارُهُ، وَحَسْمُهُ مُحَتَّمُ

٩٤٩ ـ إِلَّا إِذَا تَرَتَّبَتْ مَفْسَدَةٌ ... أَكْبَرُ، أَوْ فَاتَتْ بِهِ مَصْلَحَةٌ

٩٥٠ ـ ثُمَّتَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ... هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِذِي الْمَفْسَدَةِ

٩٥١ ـ زَوَالُ مُنكَرٍ وَأَن يُخَفَّفَا ... فِي الشَّرْعِ مَطْلُوبٌ لَدَىٰ مَن سَلَفَا

٩٥٢ ـ إِن زَالَ مَعْ زَوَالِهِ مَا عُرِفَا ... أَوْ مَعْ حُصُولِ مِثْلِهِ فَلْتَقِفَا

٩٥٣ ـ إِذ ذَاكَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ وَنَظَرْ ... فَاسْأَلْ بِهِ الْخَبِيرَ مِنْ أُولِي الْفِكَرْ

٩٥٤ ـ وَإِن يَزُلْ مَعَ حُصُولِ الْأَكْبَرِ ... أَوْ فَوْتِ مَعْرُوفٍ أَشَدَّ فَاحْظُرِ

٩٥٥ ـ كَوْنُ الْجِهَادِ ذِرْوَةَ الإِسْلَامِ ... بَيَّنَهُ الرَّسُولُ بِالتَّمَامِ

٩٥٦ ـ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ يَكُونُ مَاضِيَا ... إِلَى الْقِيَامَةِ، فَكُن مُوالِيَا

٩٥٧ ـ إِنكَارُهُ يَكُونُ إِنكَاراً لِمَا ... ضَرُورَةً فِي الدِّينِ حَتْماً عُلِمَا

٩٥٨ ـ وَزَعْمُ نَسْخِهِ وَأَنْ يُخَصَّصَا ... بِالْقَوْلِ بِدْعَةٌ لِمَن تَخَرَّصَا

٩٥٩ ـ ثُمَّ الْجِهَادُ مِنْهُ: دَفْعٌ، وَطَلَبْ ... شُرِعَ: لِلرَّدِّ، وَرَدْعِ مَنْ غَلَبْ

٩٦٠ ـ وَمَحْوِ فِتْنَةٍ، وَإِرْهَابِ الْعِدَىٰ ... وَطَرْدِ مَن بَغَىٰ وَجَارَ وَاعْتَدَىٰ

٩٦١ ـ كَذَا إِقَامَةٌ لِدَوْلَةِ الْهُدَىٰ ... دَوْلَةِ الاسْلَامِ الْقَوِيِّ الْمُقْتَدَىٰ

٩٦٢ ـ قَالَ الْإِلَٰهُ وَاعِداً: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا﴾ ... فَالنَّصْرُ بِالنَّصْرِ جَزَاءٌ يُشْكَرُ

٩٦٣ ـ وَنَصْرُنَا لَهُ الْتِزَامُ الطَّاعَةِ ... بِالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ

٩٦٤ ـ فِي سِرِّنَا وَجَهْرِنَا، وَكُرْهِنَا ... وَمَنشَطٍ، وَيُسْرِنَا وَعُسْرِنَا

٩٦٥ ـ فَإِن يَكُن نَصْرُهُ قَد تَخَلَّفَا ... فَذَا لِعُدْمِ نَصْرِنَا، فَلْتَعْرِفَا

* * *

(الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَ)بـ(الْجِهَادِ مِنْ أَعْظَمِ الأَعْمَالِ لِلْعِبَادِ) فإنَّ الأمر بالمعروف من أعظم أركان الدين، وفيه الفلاح الدائم، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)﴾ [آل عمران: ١١٠].

والجهاد ذُرْوَة سَنَام الأمر، فقد أخرج الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبيّ ﷺ في سَفَر. . . الحديث،

وفيه: قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ...» الحديثَ. وقال: حديث حسن صحيح.

(مُهِمَّةُ الرُّسْلِ وَالَانبِيَاءِ) عليهم السلام؛ يعني: أن الأمر بالمعروف وبالجهاد مما اهتمّ به الرسل والأنبياء عليهم السلام، (وَمَنْهَجُ)؛ أي: طريق (الْحَقِّ لِلَاصْفِيَاءِ) بنقل حركة الهمزة، ودَرْجها، (قَدْ بَذَلُوا النَّفِيسَ)؛ أي: الشيء النَّفِيسَ من أموالهم، (وَالنَّفْسَ)؛ أي: أنفسهم، (كَذا بِالْغَالِ) أصله: الغالي، حُذفت ياؤه للضرورة، وهو مُتَعَلِّق بـ«جادوا»، (وَالرَّخِيصِ جَادُوا، حَبَّذَا)؛ أي: نِعْمَ هذا البذل والجود.

وحاصل المعنى: أنَّ من عَقَائِد أهل السُّنَّة أنهم يرون الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله من أعظم القُرُبَاتِ، ومن أَجَلِّ الْمُهِمَّات، وهي مهمة الأنبياء والرسل، وسبيل الأصفياء، ومن أجلها يبذلون النَّفْسَ والنَّفِيس، ويجودون بالغالي والرخيص.

(هَدَفُهُمْ)؛ أي: غَرَضُهم وقَصْدهم (بِـ)ـهـ(ـذَا) كله (هِدَايَةُ الْوَرَى)؛ أي: الخلق، (لِطَاعَةِ الْمَوْلَى) سبحانه، (وَنِعْمَ مَتْجَرَا)؛ أي: نعم تجارة رابحة هذا العمل، وهدفهم أيضاً (تَخْلِيصُهُمْ)؛ أي: تخليص الوَرَى من (أَن يَعْبُدُوا الْعِبَادَا) بألف الإطلاق، (عُتُوّاً)؛ أي: تَجَاوُزاً للحَدِّ، (اوْ) بوصل الهمزة، (بِجَهْلٍ)؛ أي: بسبب جهلهم، (اوْ) بوصل الهمزة، (عِنَادَا)؛ أي: جُوراً وظُلْماً. (وَ)هدفهم أيضاً (بَسْطُ سُلْطَانِ)؛ أي: قوة (الْهُدَى، وَالْعَدْلِ عَلَى الْبِلَادِ، وَ)على (الْعِبَادِ الْفُضْلِ) بضمّ فسكون، جمع: أفضل.

وحاصل المعنى: أن هدف هؤلاء الدعاة من الدعوة والأمر والنهي والجهاد هو هداية الناس للإيمان، وتَعْبِيدهم للوَاحِدِ الدَّيَّانِ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وإخلاء العالم من الفساد، وبَسْط سلطان الشريعة على البلاد والعباد.

(دَعْوَتُهُمْ قَامَتْ عَلَى أَصْلٍ ثَبَت)؛ أي: ثابت، وهو (كِتَاب رَبِّنَا) سبحانه، (وَسُنَّةٍ مَضَتْ)؛ أي: ثَبَتَتْ وصَحَّت (عَنِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى) ﷺ، (وَأَثَرِ أَصْحَابِهِ الْغُرَرِ عَالِي السِّيَرِ) ﷺ.

(وَكُلُّ مَا أُنكِرَ) بالبناء للمفعول، (شَرْعاً يَلْزَمُ) ويجب (إِنْكَارُهُ، وَحَسْمُهُ)؛ أي: قطعه، وإبطاله (مُحَتَّمُ)؛ أي: لازم، (إِلَّا إِذَا تَرَتَّبَتْ مَفْسَدَةٌ) هي (أَكْبَرُ) منه، (أَوْ فَاتَتْ بِهِ)؛ أي: بسبب إنكاره (مَصْلَحَة) هي أعظم.

وحاصل المعنى: كل منكر واجب إنكاره، وحسمه حَتْم، ما لم يُؤَدِّ إلى مفسدة أكبر، أو تَفْوِيت منفعة أعظم.

(ثُمَّتَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ هُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِذِي الْمَفْسَدَةِ)؛ يعني: أن تقدير المصالح والمفاسد في هذا الباب، والترجيح بينها عند التعارض موكول إلى أهل العلم والمعرفة الذين يُوثَقُ بهم، فقهاً، وفهماً، وديانةً، وورعاً.

(زَوَالُ مُنكَرٍ) من المنكرات، (وَأَن يُخَفَّفَا) بألف الإطلاق؛ أي: وتخفيفه (فِي الشَّرْعِ مَطْلُوبٌ لَدَى مَن سَلَفَا) بألف الإطلاق أيضاً، (إِن زَالَ مَعْ زَوَالِهِ)؛ أي: زوال ذلك المنكرِ، (مَا عُرِفَا) بألف الإطلاق؛ أي: المعروف، (أَوْ) زال (مَعْ حُصُولِ) منكر (مِثْلِهِ)؛ أي: مثل ذلك المنكر، (فَلْتَقِفَا) بالألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة،

(إِذْ) تعليليّة؛ أي: لأن (ذَاكَ مَوْضِعُ اجْتِهَادٍ وَنَظَر، فَاسْأَلْ بِهِ الْخَبِيرَ)؛ أي: العالم (مِنْ أُولِي الْفِكَر)؛ أي: من أصحاب النظر الثاقب، والفكر الصائب.

وحاصل المعنى: أن زوال المنكر أو تخفيفَه مطلوب شرعاً، فإن كان زواله مع زوال معروف، أو حصول منكر مثله، فهذا محلّ نظر واجتهاد.

(وَإِن يَزُل) المنكر (مَعَ حُصُولِ الأَكْبَر) منه من المنكرات، (أَوْ فَوْتِ مَعْرُوفٍ أَشَدَّ)؛ أي: أكبر، (فَاحْظُر)؛ أي: فامنع إزالة المنكر عند ذلك.

(كَوْنُ الْجِهَادِ ذُرْوَةَ الإِسْلَام بَيَّنَهُ الرَّسُولُ) ﷺ (بِالتَّمَام) كما سبق في حديث معاذ رضي الله عنه، (بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ يَكُونُ) الجهاد (مَاضِيَا)؛ أي: ثابتاً ومستمرّاً (إِلَى) يوم (الْقِيَامَةِ). أخرج أبو داود عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مِنْ أَصْلِ الإِسْلَامِ: الْكَفُّ عَن مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، لَا تُكَفِّرُهُ بِذَنب، وَلَا تُخْرِجُهُ مِنَ الإِسْلَام بِعَمَلٍ، وَالْجِهَادُ مَاضٍ مُذْ بَعَثَنِي اللهُ ﷻ إِلَى أَن يُقَاتِلَ آخِرُ أُمَّتِي الدَّجَّالَ، لَا يَصْرِفُهُ جُورُ جَائِرٍ، وَلَا عَدْلُ عَادِلٍ، وَالإِيمَانُ بِالأَقْدَارِ كُلِّهَا**»[1].

(فَكُن) أيها المسلم (مُوَالِيَا)؛ أي: مُناصراً له، ومُتَابعاً: (إِنكَارُهُ)؛ أي: إنكار وجوب الجهاد (يَكُونُ إِنكَاراً لِمَا ضَرُورَةً فِي الدِّينِ حَتْماً)؛ أي: لزوماً (عُلِمَا) بألف الإطلاق، والمعنى: أن إنكارَ

(١) إسناده ضعيف.

وجوب الجهاد إنكارٌ لِمَا هو معلوم من الدين بالضرورة، (وَزَعْمُ نَسْخِهِ)؛ أي: ادِّعَاء نسخ الجهاد، (وَأَن يُخَصَّصَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول؛ أي: وادِّعاء اختصاص الجهاد (بِالْقَوْلِ) دون الفعل، (بِدْعَةٌ) في الدين (لِمَن تَخَرَّصَا)؛ أي: ممن كَذَب وافْتَرَى.

(ثُمَّ الْجِهَادُ مِنْهُ)؛ أي: بعضه (دَفْعٌ) للعدوّ عن المسلمين وعن بلادهم، (وَ)منه (طَلَب)؛ أي: طلب من العدوّ ليدخلوا في الإسلام، أو يدفعوا الجزية.

(شُرِعَ) بالبناء للمفعول؛ يعني: أن أصل شَرْعِيَّة الجهاد (لِلرَّدِّ)؛ أي: لِرَدِّ شَرِّ الكفار عن المسلمين، (وَرَدْعِ مَنْ غَلَب)؛ أي: زَجْرِ من غلب على المسلمين، (وَمَحْوِ فِتْنَةٍ)؛ أي: إزالة الفتنة التي يأتي بها الكفار، (وَإِرْهَابِ)؛ أي: تخويف (الْعِدَى) بضم العين، وكسرها، جَمْع: عدوّ، (وَطَرْدِ)؛ أي: إبعاد (مَن بَغَى وَجَارَ)؛ أي: ظلم، فهو تفسير لِمَا قبله، (وَاعْتَدَى)؛ أي: تَجَاوَزَ الحدّ. (كَذَا) من حِكْمَة مَشْرُوعِيَّتِه: (إِقَامَةٌ لِدَوْلَةِ الْهُدَى)، **وقوله:** (دَوْلَةِ الإِسْلَام) بدل مما قبله. **وقوله:** (الْقَوِيِّ) صفة لـ«الإسلام»، وكذا **قوله:** (الْمُقْتَدَى)؛ أي: الواجب الاتِّباع.

(قَالَ الإِلَهُ) سبحانه، حال كونه (وَاعِداً) للمسلمين المجاهدين في سبيله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ (إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ) يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. (فَالنَّصْرُ)؛ أي: نَصْر الله تعالى لعباده، (بِالنَّصْرِ)؛ أي: بنصرهم له بالطاعة، (جَزَاءٌ يُشْكَرُ) بالبناء للمفعولُ، (وَنَصْرُنَا لَهُ)؛ أي: لله ـ سبحانه ـ، (الْتِزَامُ الطَّاعَةِ بِالصِّدْقِ، وَالإِخْلَاصِ، وَالْمَحَبَّةِ، فِي سِرِّنَا، وَجَهْرِنَا، وَكُرْهِنَا) بضم الكاف،

وفتحها، (وَمَنشَطٍ، وَيُسْرِنَا، وَعُسْرِنَا، فَإِنْ يَكُنْ نَصْرُهُ) تعالى (قَدْ تَخَلَّفَا) بألف الإطلاق، (فَذَا)؛ أي: تخلّف النصر (لَعُدْم) بضم فسكون، بمعنى: العَدَم - بفتحتين - (نَصْرِنَا) لله - سبحانه - (فَلْتَعْرِفَا) بالألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة. والله تعالى أعلم.





الْفَصْلُ الثَّامِنُ

فِي الْحِرْصِ عَلَى الْوِحْدَةِ وَالِائْتِلَافِ وَنَبْذِ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ

٩٦٦ ـ اعْلَم بِأَنَّ السُّنَّةَ السَّنِيَّهْ ... مَقْرُونَةٌ بِالْفِرْقَةِ الْمَرْضِيَّهْ

٩٦٧ ـ أَعْنِي: الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَأْتَلِفُ ... وَهَٰكَذَا الْبِدَعُ حَقًّا تُعْرَفُ=

٩٦٨ ـ مَقْرُونَةً بِالْفِرْقَةِ الْمُخْتَلِفَهْ ... فَاعْرِفْهُمَا بِذَا تَمَامَ الْمَعْرِفَهْ

٩٦٩ ـ ثُمَّتَ أَهْلُ السُّنَّةِ: الَّذِينَ قَدْ ... تَمَسَّكُوا بِالْوَحْيِ حَيْثُمَا وَرَدْ

٩٧٠ ـ فَجَمَعُوا كِلْمَتَهُمْ، وَحَقَّقُوا ... مَعْنَى الْأُخُوَّةِ، وَمَا تَفَرَّقُوا

٩٧١ ـ فَلَا لِقَوْمِيَّتِهِمْ تَعَصَّبُوا ... كَذَاكَ لِلْوَطَنِ مَا تَحَزَّبُوا

٩٧٢ ـ وَلَمْ يُقَدِّمُوا لِبَعْضٍ مَصْلَحَهْ ... عَلَىٰ مَصَالِحِ الْجَمِيعِ مُرْجَحَهْ

٩٧٣ ـ وَحَضُّ الْأُمَّةِ عَلَى الْوَحْدَةِ قَدْ ... يُرَىٰ مِنَ النُّصْحِ، فَكُن مِمَّن رَشَدْ

٩٧٤ ـ وُقُوعُ الِاخْتِلَافِ شَيْءٌ قُدِّرَا ... وَلَٰكِنِ التَّخْفِيفُ فِيهِ قَدْ يُرَىٰ

٩٧٥ ـ بَلِ الْخُرُوجُ مِنْهُ إِنْ أَمْكَنَ قَدْ ... يَكُونُ أَوْلَىٰ، فَاحْرِصَن وَلَا تَعَدّ

٩٧٦ ـ وَمَا عَلَيْهِ اتَّفَقُوا فَيُلْزَمُ ... وَعُذْرُ مَنْ خَالَفَ أَمْرٌ مُكْرَمُ

٩٧٧ ـ إِلَّا إِذَا أَدَّىٰ لِخَرْمِ الشِّرْعَةِ ... فَفِيهِ لَا عُذْرَ كَأَهْلِ الْبِدْعَةِ

٩٧٨ ـ وَمَن يَكُنْ عَنِ الْجَمَاعَةِ خَرَجْ ... يَجِبُ رَدُّهُ بِنُصْحٍ لَا حَرَجْ

٩٧٩ ـ وَذَا يَكُونُ بِالْجِدَالِ الْحَسَنِ ... وَأَزِلِ الشُّبَهَ إِن تُبَرْهِنِ

٩٨٠ ـ فَإِن يَتُبْ فَذَاكَ، أَوْ لَا عُومِلَا ... بِمَا اسْتَحَقَّهُ وَلَوْ أَن قُتِلَا

٩٨١ ـ وَيَنبَغِي الْجِدُّ بِعِلْمٍ وَعَمَلْ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ لِإِصْلَاحِ الْخَلَلْ
٩٨٢ ـ بِلَا مِرَاءٍ وَاخْتِصَامٍ حَيْثُ لَا يُوجَدُ بُرْهَانٌ يُزِيلُ الْعِلَلَا
٩٨٣ ـ وَالصِّدْقُ فِي الْأُخُوَّةِ الدِّينِيَّهْ وَعُدْمُ الِاسْتِقْصَاءِ فِي الْقَضِيَّهْ
٩٨٤ ـ وَالْحُبُّ، وَالنُّصْحُ، وَسَدُّ الْخَلَلِ وَالْعَوْنُ، وَالنَّصْرُ، وَغَفْرُ الزَّلَلِ

(اعْلَم بِأَنَّ السُّنَّةَ السَّنِيّه مَقْرُونَةٌ بِالْفِرْقَةِ) بالكسر؛ أي: الطائفة (الْمَرْضِيَّه، أَعْنِي: الْجَمَاعَةَ الَّتِي تَأْتَلِفُ)؛ أي: تَتَّفِق، (وَهَكَذَا الْبِدَعُ حَقّاً تُعْرَفُ) بالبناء للمفعول، حال كونها (مَقْرُونَةً بِالْفِرْقَةِ الْمُخْتَلِفَه، فَاعْرِفْهُمَا)؛ أي: مَيِّز بين السُّنَّة والبدعة، (بِذَا تَمَامَ الْمَعْرِفَه) فإن هذا هو المعيار الثابت.

(ثُمَّةَ أَهْلُ السُّنَّةِ) هم (الَّذِينَ قَد تَمَسَّكُوا بِالْوَحْيِ)؛ أي: بالكتاب والسُّنَّة، (حَيْثُمَا وَرَد)؛ أي: في أيّ أمر جاء، (فَجَمَعُوا كِلْمَتَهُمْ) بفتح الكاف، وكسرها، مخفّف: كَلِمة ـ بفتح فكسر ـ (وَحَقَّقُوا مَعْنَى الأُخُوَّةِ) الذي هو الإخاء، والمحبّة، والمناصرة فيما بينهم، (وَمَا تَفَرَّقُوا) كما فعل أهل الأهواء. (فَلَا لِقَوْمِيَّتِهِمْ تَعَصَّبُوا)؛ أي: فلا يَتَعَصَّبُون لراية قَوْمِيَّة، (كَذَاكَ لِلْوَطَنِ مَا تحَزَّبُوا)؛ أي: لم يجتمعوا لدعوة وَطَنِيَّة، (وَلَمْ يُقَدِّمُوا لِبَعْضٍ مَصْلَحَه عَلَى مَصَالِحِ الْجَمِيعِ)؛ يعني: أنهم لا يقدّمون مصلحة طائفة على المصلحة العامّة. **وقوله:** (مُرْجَحَه) صفة للمصالح؛ أي: راجحة تلك المصالح.

(وَحَضُّ الُامَّةِ) بنقل حركة الهمزة، ودَرْجها، (عَلَى الْوَحْدَةِ) توحيد كلمتهم وصفوفهم، (قَدْ يُرَى) بالبناء للمفعول، (مِنَ النُّصْحِ)

أنه مِن نُصح الأمة، (فَكُن مِمَّن رَشَد)؛ أي: ممن سَلَكَ سبيل الصلاح في نصح الأمة.

والمعنى: أن مِمَّا يَعْتَقِدُه أهل السُّنَّة والجماعة أن من أمانة النصح للأمة الحضّ على الوحدة، وطلب الاجتماع والائتلاف، والنهي عن التفرق والاختلاف.

(وُقُوعُ الِاخْتِلَافِ) بين الناس (شَيْءٌ قُدِّرَا) بألف الإطلاق مبنيّاً للمفعول؛ أي: حقيقة قَدَرِيَّة لا مَفَرَّ منها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]. (وَلَكِنِ التَّخْفِيفُ فِيهِ)؛ أي: ذلك الاختلاف (قَدْ يُرَى)؛ يعني: أن تخفيفه بتجنّب أسبابه هو الأصلح، (بَلِ الْخُرُوجُ مِنْهُ إِنْ أَمْكَنَ قَدْ يَكُونُ أَوْلَى) من تخفيفه، (فَاحْرِصَنْ) على ذلك (وَلَا تَعَدّ)؛ أي: لا تتجاوز المطلوب إلى غيره.

(وَمَا عَلَيْهِ اتَّفَقُوا)؛ أي: الأمر الذي اتّفق عليه أهل السُّنَّة والجماعة، (فَـ)إنه (يُلْزَمُ) بالبناء للمفعول؛ أي: يُلزَم الناسُ العملَ به، (وَعُذْرُ مَنْ خَالَفَ) الجماعة (أَمْرٌ مُكْرَمُ)؛ أي: محترم، (إِلَّا إِذَا أَدَّى) ذلك الخلاف (لِخَرْمِ الشِّرْعَةِ)؛ أي: إلى أن يخرج صاحبه عن الشريعة، (فَفِيهِ لَا عُذْرَ)، وذلك (كَـ)مخالفة (أَهْلِ الْبِدْعَةِ) لأهل السُّنَّة، فإنه لا يكون عذراً.

(وَمَن يَكُنْ عَنِ الْجَمَاعَةِ خَرَج) بمخالفته لهم، (يَجِبُ رَدُّهُ) إليهم (بِنُصْحٍ)؛ أي: بمناصحته (لَا حَرَج)؛ أي: لا بحرج وضيق، (وَذَا)؛ أي: النصح له (يَكُونُ بِالْجِدَالِ الْحَسَنِ) كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ

أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]. (وَأَزِلِ) أيها الناصح عن ذلك الشخص (الشُّبَهَ) بضم ففتح، جمع: شُبهة، قال في «المصباح»: الشُّبْهَة في العقيدة: المأخذ الْمُلَبَّس، سمِّيت شبهة لأنها تُشْبِه الحقّ، جَمْعها: شُبَهٌ، وشُبُهات، مثل: غُرفة وغُرَف وغُرُفات. انتهى[1].

(إِن تُبَرْهِن)؛ أي: أردت أن تقيم الحجة عليه، (فَإِن يَتُبْ فَذَاكَ)؛ أي: حسنٌ، (أَوْ لَا)؛ أي: أو لم يتب، (عُومِلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، (بِمَا اسْتَحَقَّهُ) من أنواع العقاب، (وَلَوْ) أدَّى ذلك إلى (أَن يُقْتَلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول.

(وَيَنبَغِي الْجِدُّ)؛ أي: الاجتهاد (بِـ)تعلّم (عِلْم، وَعَمَل) بذلك العلم، (وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ لِإِصْلَاحِ الْخَلَل) الذي يكون بينهم وبين خالقهم بطاعته، أو بين مجتمعهم، (بِلَا مِرَاءٍ)؛ أي: بلا جدال. **وقوله:** (وَاخْتِصَام) عطف تفسير، (حَيْثُ لَا يُوجَدُ بُرْهَانٌ)؛ أي: دليل (يُزِيلُ الْعِلَلَا) بألف الإطلاق؛ يعني: أنه لا ينبغي الجدال والخصام في حال الدعوة إلى الله تعالى بغير برهان مُبين.

(وَالصِّدْقُ) بالرفع عطفاً على «الجدُّ»، (فِي الْأُخُوَّةِ الدِّينِيَّه)؛ يعني: أن الصدق مطلوب شرعيّ في التآخي بين المسلمين، (وَعُدْمُ) بضمّ فسكون، لغة في العَدَم ـ بفتحين ـ، وهو مرفوع بالعطف أيضاً، (الاسْتِقْصَاءِ)؛ أي: المبالغة في التَّتَبع (فِي الْقَضِيَّه)؛ أي: الأمور الجارية بين الناس، (وَالْحُبُّ) بالرفع أيضاً على العطف، وكذا ما

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٣٠٤.

بعده (**وَالنُّصْحُ، وَسَدُّ الْخَلَلِ**)؛ أي: قطع ما يُؤَدِّي إلى الشَّحْنَاء وإزالتُه، (**وَالْعَوْنُ**)؛ أي: التعاون (**وَالنَّصْرُ**)؛ أي: التناصر (**وَغَفْرُ الزَّلَلِ**)؛ أي: سَتْر الْهَفَوَات التي تحدث أحياناً بين المسلمين. والله تعالى اعلم.







الْخَاتِمَةُ

٩٨٥ ـ وَفِي خِتَامِنَا فَنُوصِي الْـمُسْلِمَا بِالصِّدْقِ، وَالْإِخْلَاصِ، أَكْرِمْ بِهِمَا

٩٨٦ ـ مُصَحِّحاً عُقْدَتَهُ، وَمُحْسِنَا عِبَادَةَ اللَّهِ الْعَظِيمِ مُوقِنَا

٩٨٧ ـ مُجْتَنِياً ثِمَارَهَا الشَّهِيَّهْ تَقْوَى الْإِلَٰهِ، وَالرِّضَا الرَّضِيَّهْ

٩٨٨ ـ مُعْتَنِياً بِطُرْقِهَا السَّنِيَّهْ الْعِلْمِ، ثُمَّ الْعِصْمَةِ الْقَوِيَّهْ=

٩٨٩ ـ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ هَادِي الْأُمَّةِ وَمَجْمَعِ الْخَيْرِ، وَبَابِ الرَّحْمَةِ

٩٩٠ ـ مُبَيِّنَ الْحُجَجِ، وَلْيُحَارِبِ أَعْدَاءَ ذَا الدِّينِ بِكُلِّ جَانِبِ

٩٩١ ـ مُقَاطِعاً أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعْ مُوَالِياً أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالتَّبَعْ

٩٩٢ ـ وَهَا هُنَا انتَهَى الْمَرَامُ وَانقَضَىٰ وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْقَبُولَ وَالرِّضَا

٩٩٣ ـ أُرْجُوزَةٌ أَلْفِيَّةٌ أَنِيقَهْ بِحِفْظِهَا وَفَهْمِهَا خَلِيقَهْ

٩٩٤ ـ اقْتُطِفَتْ مِن «دُرَّةِ الْبَيَانِ» لِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ

٩٩٥ ـ أَجَادَ فِي الْجَمْعِ وَفِي النَّسْقِ، وقَدْ اِسْتَوْجَبَ الثَّنَا وَدَعْوَةً تُمَدّ

٩٩٦ ـ أَثَابَهُ إِلَٰهُهُ، وَقَبِلَا عَمَلَهُ، فَذَاكَ نِعْمَ مَوْئِلَا

٩٩٧ ـ يَا مَن يُرِيدُ أَن يَكُونَ بَارِعَا فِي الْفَنِّ ذَا عَلَيْكَ أَن تُطَالِعَا

٩٩٨ ـ هَٰذِي الْوُرَيقَاتِ بِجِدٍّ حَازِمِ وَاحْفَظْ، وَذَاكِرَن بِعَزْمٍ صَارِمِ

٩٩٩ ـ أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ أَن تَجْعَلَهَا لِوَجْهِكَ الْأَعْلَىٰ، وَأَن تَقْبَلَهَا

١٠٠٠ ـ وَتَنفَعَ الْمُنشِئَ، ثُمَّ الْمُنشِدَا وَكُلَّ رَاغِبٍ بِهَا قَدِ اهْتَدَىٰ

١٠٠١ ـ وَأَن تُنِيلَنَا الرِّضَا، وَالْمَغْفِرَهْ وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ دَارِ الْبَرَرَهْ

١٠٠٢ ـ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ يَسَّرَا لِي نَظْمَهَا مُحَرَّراً مُحَبَّرَا

١٠٠٣ ـ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكَا يَا رَبِّ فَاقْبَلْنِي، وَزِدْ، وَبَارِكَا

١٠٠٤ ـ ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدَّائِمُ عَلَى نَبِيٍّ دَأْبُهُ الْمَكَارِمُ

١٠٠٥ ـ مُحَمَّدٍ خَاتِمِ مَن قَدْ أُرْسِلَا قَدْ ظَهَرَ الدِّينُ بِهِ، وَاكْتَمَلَا

١٠٠٦ ـ وَآلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَن تَبِعْ هُدَاهُمُ، حَتَّى الزَّمَانُ يَنقَطِعْ

***

(وَفِي خِتَامِنَا فَنُوصِي الْمُسْلِمَا) بألف الإطلاق، (بِالصِّدْقِ، وَالإِخْلَاصِ) وقوله: (أَكْرِم بِهِمَا) تعجُّب ومَدْح لهما، حال كونه (مُصَحِّحاً عُقْدَتَهُ)؛ أي: عقيدته، (وَمُحْسِنَا عِبَادَةَ اللهِ الْعَظِيمِ مُوقِنَا) بربه، (مُجْتَنِياً)؛ أي: مُقْتَطِفاً، (ثِمَارَهَا الشَّهِيَّه)؛ أي: اللذيذة، ثم فسّر الثمار بأنها (تَقْوَى الْإِلهِ) سبحانه، (وَالرِّضَا)؛ أي: وحصول رضا الله تعالى. وقوله: (الرَّضِيَّه) صفة لـ«الرضا»، أَنَّثها بتأويل الرضا بالمحبّة، حال كونه (مُعْتَنِياً بِطُرْقِهَا) جمع: طريق، سكّنت راؤها تخفيفاً، (السَّنِيَّه)؛ أي: الرفيعة، أو المضيئة، ثم فسّر الطرق بأنها (الْعِلْمِ، ثُمَّ الْعِصْمَةِ)؛ أي: الاعتصام، (الْقَوِيَّه بِسُنَّةِ النَّبِيِّ) ﷺ (هَادِي الأُمَّةِ) إلى الصراط المستقيم، (وَمَجْمَعِ الْخَيْرِ، وَبَابِ الرَّحْمَةِ) وحال كونه (مُبَيِّنَ الْحُجَجِ) للناس، (وَلْيُحَارِبِ أَعْدَاءَ ذَا الدِّينِ) من الكفار وغيرهم، (بِكُلِّ جَانِبِ) من جوانب الدين (مُقَاطِعاً أَهْلَ الضَّلَالِ، وَالْبِدَعِ، مُوَالِياً أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالتَّبَعِ)؛ أي: أهل اتّباع سُنَّة النبيّ ﷺ.

(وَهَا هُنَا انتَهَى الْمَرَامُ)؛ أي: المقصود من نَظْم هذه العقيدة، (وَانقَضَى) عطف تفسير لـ«انتهى»، (وَأَسْأَلُ اللهَ) سبحانه (الْقَبُولَ وَالرِّضَا).

وقوله: (أُرْجُوزَةٌ) خبر لمحذوف؛ أي: هذه أرجوزة؛ أي: منظومة من بحر الرَّجَز الذي هو سابع البحور الستة عشر، وأجزاؤه: «مستفعلن» ستّ مرّات. **(أَلْفِيَّةٌ)**؛ أي: منسوبة إلى أَلْف، إن كانت من كامل الرَّجَز، أو إلى ألفين، إن كانت من مَشْطُورها، ولا يقال: حقها أن يقال: ألفينيّة بالتثنية؛ لأن القاعدة أنه إذا نُسب إلى المثنى أو الجمع يردّ إلى المفرد، كما قال في «الخلاصة»:

وَالْوَاحِدَ اذْكُرْ نَاسِباً لِلْجَمْعِ   إِن لَمْ يُشَابِهْ وَاحِداً بِالْوَضْعِ

(أَنِيقَه)؛ أي: عجيبة، قال في «المصباح»: أَنِقَ الشيءُ أَنَقاً، من باب «تَعِبَ»: راع حسنُهُ، وأعجب، وأَنِقت به: أُعْجبتُ، ويتعدى بالهمزة، فيقال: آنَقَني، وشيء أَنِيقٌ، مثل: عَجِيبٍ، وزناً ومعنًى، وتأنق في عَمَله: أحْكَمه. انتهى[1].

(بِحِفْظِهَا) متعلّق بـ«خليقة»، **(وَفَهْمِهَا خَلِيقَه)**؛ أي: جَدِيرَة، **(اقْتُطِفَتْ)** بالبناء للمفعول؛ أي: أُخِذَت **(مِن)** الرسالة المسمّاة بـ**(دُرَّةِ الْبَيَانِ)** وهي **(لِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ)** هو الدكتور أبو عبد الله محمد يسري المصريّ، **(أَجَادَ فِي الْجَمْعِ)**؛ أي: جَمْع المسائل، **(وَفِي النَّسْقِ)**؛ أي: ترتيبها، **(وقَد اسْتَوجَبَ الثَّنَا)** على تأليفها، **(وَدَعْوَةً تُمَدّ)** بالبناء للمفعول؛ أي: تُبْسَط اليدان بها، **(أَثَابَهُ إِلٰهُهُ)** سبحانه **(وَقَبِلَا)** بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، **(عَمَلَهُ، فَذَاكَ)**؛ أي: قبول العمل، **(نِعْمَ مَوْئِلَا)**؛ أي: ملجأ.

(يَا مَن يُرِيدُ أَن يَكُونَ بَارِعَا)؛ أي: فائقاً **(فِي الفَنِّ ذَا)**؛ أي:

---

(١) «المصباح المنير» ١/ ٢٦.

فنّ العقيدة، (عَلَيْكَ أَن تُطَالِعَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للفاعل، (هَذِي الْوُرَيقَاتِ) تصغير ورقة، صَغَّرَها تَرْغيباً في حفظها؛ لكونها قليلة، (بِجِدٍّ حَازِمِ)؛ أي: قويّ، (وَاحْفَظْ) متونها، (وَذَاكِرَنْ) أهل العلم بها (بِعَزْمٍ صَارِمِ)؛ أي: قويّ قاطع.

(أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ أَن تَجْعَلَهَا) خالصة (لِوَجْهِكَ الأَعْلَى، وَأَن تَقْبَلَهَا، وَتَنفَعَ الْمُنشِئَ)؛ أي: ناظمَها، (ثُمَّ الْمُنشِدَا)؛ أي: قارئها، يقال: أنشد الشعر إنشاداً: إذا قرأه. (وَكُلَّ رَاغِبٍ بِهَا قَدِ اهْتَدَى، وَأَن تُنِيلَنَا الرِّضَا، وَالْمِغْفِرَه، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ دَارِ الْبَرَرَه)؛ أي: المطيعين.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدْ يَسَّرَا لِي نَظْمَهَا) حال كوني (مُحَرِّراً) من التحرير، وهو: التقويم، يقال: حرّر الكتاب: إذا قوّمه، كما في «القاموس»، (مُحَبِّرَا) من التحبير، وهو: التزيين؛ أي: مُزَيِّناً له، (حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبارَكَا، يَا رَبِّ فَاقْبَلْنِي) فيما عملته، (وَزِدْ) لي الخير (وَبَارِكَا) بالألف المبدلة من نون التوكيد الخفيفة؛ أي: باركن لي فيما أعطيتني.

(ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الدَّائِمُ عَلَى نَبِيٍّ دَأْبُهُ) بسكون الهمزة، وتفتح: الشأن والعادة؛ أي: خُلُقه وشأنه ﷺ، (الْمَكَارِمُ) جَمْع: مكرُمة ـ بضمّ الراء ـ، وهي فعل الخير؛ أي: شأنه فعل الخير وملازمته، وهو معنى قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. (مُحَمَّدٍ خَاتِمِ مَن قَدْ أُرْسِلَا) بألف الإطلاق، مبنيّاً للمفعول، (قَدْ ظَهَرَ الدِّينُ بِهِ، وَاكْتَمَلَا، وَآلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَن تَبِع هُدَاهُمُ)؛ أي: طريقتهم، (حَتَّى الزَّمَانُ يَنقَطِع)؛ أي: إلى أن ينتهي الزمان، وتقوم الساعة.

وفي **قوله:** «واكتَمَلا»، و«ينقطع» براعة الاختتام، ويسمى: براعة المقطع، وهو أن يأتي الشاعر أو المتكلّم في آخر كلامه بما يدلّ على انتهاء مقصوده، كما أن ما يقع في أول الكلام يُسمّى براعة الاستهلال، أو براعة المطلع، وهو أن يأتي في أول كلامه بما يدلّ على مقصوده.

قال العبد الفقير إلى مولاه الغنيّ القدير، خويدم العلم بالحرم المكيّ الشريف محمد ابن العلامة عليّ بن آدم بن موسى ـ عفا الله عنه وعن والديه، آمين ـ:

انتهيت من شرح ألفية التوحيد المسمى بـ«الْمِنَّةِ الرَّضِيَّةِ فِي شَرْحِ الدُّرَّةِ الْمُضِيَّةِ» وقت الضحوة الكبرى يوم الأربعاء المبارك ٧/ ٦/ ١٤٣٤هـ.

وقد كنت انتهيت من النظم قبل ذلك يوم الخميس بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٤٣٣هـ.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢].

اللَّهُمَّ صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللَّهُمَّ بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

السلام على النبيّ ورحمة الله بركاته.

سبحانك الله وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الباب الثاني

في بيان حقيقة الإيمان وأركانه

الباب الثالث

في بيان نواقض الإيمان، ونواقصه

الموضوع | الصفحة